

هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ

يا محب

أبو بكر الجزائري

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الجزائري .،أبو بكر.

هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم يا محب / أبو بكر الجزائري . ـ ط٢ . ـ المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٤٤٨ ص ، ١٧x٢٤سم

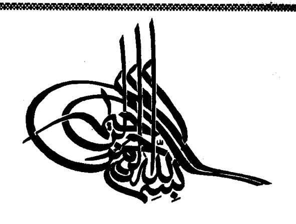
تدمك 7 ـ 337 ـ 290 ـ977

١ـ السيرة النبوية .

أ ـ العنوان .

٢٣٩

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٦/١٠٧٦٢



المقدمــــة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . وصلاة الله وسلامه ورحماته وبركاته على صفوة عباده وخيرته من خلقه محمد عبده ورسوله ، وعلى أهل بيته الطاهرين ، وصحابته أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه رسالة فى سيرة الحبيب محمد ﷺ رغب فى جمعها وتأليفها بعضُ إخوة الإسلام لتكون تكملة "منهاج المسلم" الذى اشتمل على أصول الدين وفروعه إلا ما كان من السيرة العطرة للحبيب محمد ﷺ ، وتحقيقاً لرغبتهم ، وضعت هذا الكتاب معنوناً بهذا العنوان:

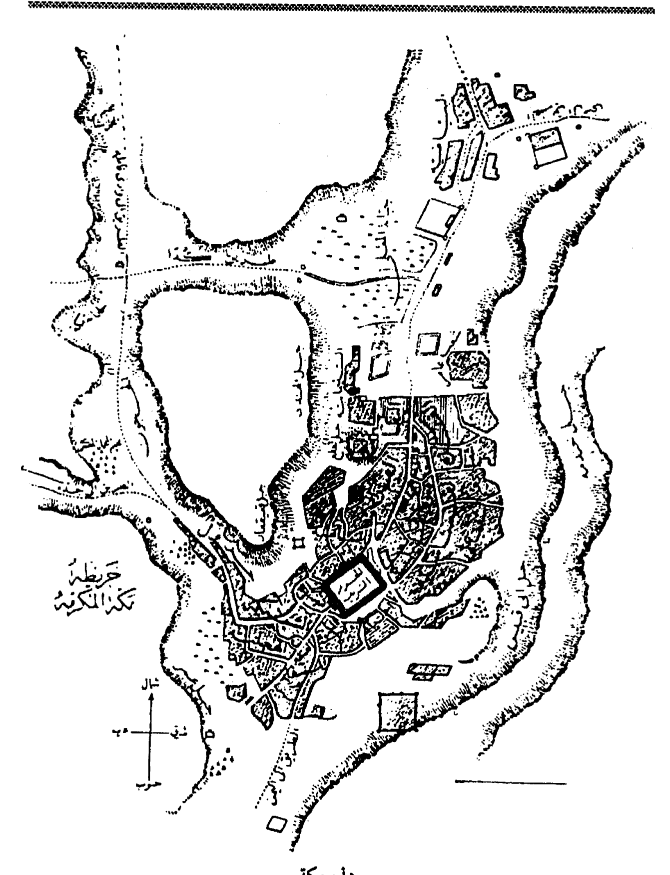
هذا الحبيــــبُ
محمـــــد ﷺ يا محبُّ

فكان حقاً – الكتاب – رسالة العلم والإيمان والحب الصادق للحبيب محمد ﷺ .

ونظراً لكثرة ما جُمع وأُلف فى هذا الفن – السيرة – فإنى تجنباً للتكرار والإطالة ، والاختصار سلكت بتوفيق الله مسلكاً فى جمعه وتأليفه ما جعله بفضل الله تعالى أمثل ما كُتب فى هذا الفن سهولة ووضوحاً وشمولاً ، مع حسن التبويب وجمال التفصيل وزانه ما امتاز به من ترصيع كل مقطوعة منه بذكر نتائجها ، وعبر قد لا تخلو منها فى غالبها ، فكان بحمد الله تعالى كتاب البيت المسلم الذى يُشيع بين أفراده حُبَّ الحبيب المصطفى ، ويُنير ببيان حُسن الأسوة معالم الهدى ، فى دروب الحياة كلها الدينية منها والاجتماعية والسياسية ، ولهذا فإنى أدعو أهل كل بيت مسلم أن يجتمعوا على قراءته ، فيقتطعوا نصف ساعة من يومهم أو ليلتهم يقرأون فيها صفحة أو صفحتين حسب طول المقطوعة من الكتاب ، وقصرها ، ويقفون على ما فيها من النتائج والعبر ، يقوون بذلك إيمانهم ، وينمون معارفهم ، ويهذبون أخلاقهم ، وأعظم من ذلك اكتسابهم حب نبيهم ، وحب أهل بيته الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين .

وأخيراً فاللهم اجعل عملى فى هذا الكتاب صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، وارزقنى به ومن يقرؤه مؤمناً محتسباً حب نبيك وشفاعته فى النجاة من النار ، واللحاق بمنازل الأبرار بالرفيق الأعلى يا ذا الجلال والإكرام ، سُبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* * * * * * * * * * *



هذه مكة

هذا البلد الأمين

هذا الوداى الذى قال إبراهيم فيه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

أرض النبوة

بجبال فاران ، بالوادى الأمين ، بالأرض المباركة حيث بُنى فيها أول بيت للناس ، كل الناس بمكة المكرمة دائرة المجد ، ومهبط الوحى .

بالبلد الأمين حيث كان مولد سيد جميع العالمين .

بديار الحجاز ، معقل الإيمان فى آخر الزمان .

بها مكة طابت مغانيها ، وجلَّت عن الحصرِ معانيها ؛ بُعِثَ نبى آخر الزمان الذى سنحدِّثُ عنه إن شاء الله ، الأحباء ببيانٍ أيَّمَا بيان .

ولنحبس الآن القلمَ ساعة ، لنعود إلى الحديث عن أرض النبوة بعد ساعةٍ .

* * * * * * * * * * *

الدّوحَةُ الكريمةُ

من ديار الكفر والطغيان ، من أرض الشرك والظلم للإنسان ، خرج مهاجراً إبراهيم مع ابن أخيه هاران لوط عليه وعلى إبراهيم وآله السلام .

واتخذ إبراهيم الأرض المباركة مهاجراً أرض الشام التى باركها الله للأنام ، وحلَّ إبراهيم يوماً بديار مصر وهو يحمل رسالة التوحيد فكان أن أكرمَ اللهُ سارةَ زوج إبراهيم بعطية هى نعم الهدية ، إنها هاجر المصرية أم إسماعيل وجدة العدنانيين أجمعين .

ووهبت سارةُ الكريمةُ جاريتها إبراهيمَ فتسرَّاها فأنجبت إسماعيل ويسوق الله أقداراً إلى أقدار . فتضيق بسارة الدار حيث آلمها أن تلد جاريتها غُلامًا زَكيّاً وتحرمه هى !!

وبإذن من الله يخرج إبراهيم بجاريته أم ولده مستخفياً ، مستحيياً ، فتُعفِّى هاجرُ آثارَ أقدامها فى إخفاء أمرها .

ولنُخرج القلم الآن من الحبس: لنتابع الحديث عن أرض الأنس والقدس إنه بالوادى الأمين ، المحاط بجبال فاران من أرض طيبة مباركة ، وتحت دوحة عظيمة ، وضع إبراهيم هاجر وطفلها تاركاً لهما جراباً فيه طعام ، وسقاءً فيه ماءٌ ، وقفل راجعاً . ونظرت إليه هاجرُ ، والدهشة تأخذها ، والحيرة تنتابها ، ثم تقول: "إلى من تكلنا يا إبراهيم ؟ وأردفت تساؤلها قائلة: آلله أمرك بهذا يا إبراهيم ؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً: "نعم" . فردت عليه وهى قريرة العين ،

إذاً فاذهب فإن الله لا يضيعنا ، وذهب إبراهيم عائداً إلى أرض الشام .

ولما بعد حيث لا تراه هاجرُ استقبل مكان البيت قبل بنائه وقال: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [هود: ٣٧] .

وقفة قصيرة :

فهيّا بنا معشر الأحباء نجلس مع هاجر نؤانسها في وحشتها ، ونستجلي العبرة من موقفها .

هاجر امرأةٌ مؤمنةٌ كسائر المؤمنات تهاجر من بلدها ، وتخرج من دارها حتى لا تؤذي ولية نعمتها، تلك المؤمنة الأولى سارة بنت هاران عم إبراهيم الزوج الكريم . علمت هاجر ما أصاب سارة من الغيرة فآثرت غربتها عن أذية سيدتها . فياله من موقف تقفه هذه المصرية الزكية فهلاّ تأسى بها الضرات !!

وهَلاّ عرف هذا أحباؤنا أحبهم الله – فيؤثر أحدهم بالنفع أخاه ويتحمل الأذى في سبيل رضاه!

هذه عبرة ، وأخرى: تُترك هاجر بواد قفر موحش لا أنيس به من قريب ولا من بعيد ، وتظهر مخاوفها ، ولا تكتم ما انتابها من غم وهم . فتقول لإبراهيم: إلى من تكلنا ؟ وما إن تسمع جواب إبراهيم: نعم الله أمرني بهذا حتى تتجلى حقيقة إيمانها في مستوى لن يرقى إليه غيرها من نساء العالمين ، إذ تقول: اذهب فإنه لا يضيعنا .

هذا هو الإيمان الذي نطلبه أيها الأحباء . وهذا هو التوكل ، الثمرة الشهيّة لعقيدة الإيمان الحية .

إن إيماناً لا يثمر توكلا كهذا إيمان ناقص قصير ، وقليل يسير .

فلننشد – أيها الأحبّة – إيماناً كاملاً يثمر لنا الخشية والمحبّة معاً ، وتوكلاً كهذا !!!

ولنترك هاجر تبيت ليلتها بالوادي الأمين لنعود إليها بعد حين نستقصي أخبارها ونتعرف على أحوالها ؛ لأنها رحم لنا ، ومنبت عزّ ومَجد كانا لنا ، إنها أُم إسماعيل أحد آباء سيد المرسلين محمد الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

تقول الأخبار الصادقة: إن هاجر قد نَفد ماءُ سقايَتها وعطشت وعطش إسماعيل طفلها ، فدارت تطلب الماء وحارت ، وكبدها تكاد ترفضُّ[1] وهي ترى طفلها يتلوى من شدة العطش .

---

(١) ترفض الكبد: اقترب تفتتها من العطش والحزن .

ونظرت فإذا أقرب مكان عالٍ إليها هو جبل الصفا ، فأتته ورقيته ونظرت يميناً وشمالاً فلم تر ماء ولا أحداً ، ونظرت أمامها فإذا أقرب مكان عالٍ إليها جبل المروة فهبطت ذاهبة إليه .

فانتهت إلى بطن الوادى فأسرعت وخبّت[1] فيه حتى اجتازته ، وواصلت سعيها حتى انتهت إلى جبل المروة فرقيته ، ونظرت يميناً وشمالاً ، فلم تر شيئاً فهبطت عائدة إلى الصفا حتى اكتمل سعيها بين الصفا والمروة – وهى تطلب الماء لولدها ولها – سبع مرات .

وعندها وهى على أحد الجبلين تسمع صوتاً غريباً فتقول فى لهفة: أسمعت أسمعت فهل من غياث ! ؟

وترمى ببصرها نحو ولدها ، فإذا برجل قائم على رأس الطفل تحت الدوحة[2] وما إن دنت منه حتى قال بعقبه هكذا – يرفس الأرض – وإذا بعين ماء تفور ، وكم كانت فرحة هاجر بسقيا إسماعيل ! ؟ وأخذت تزمُّها بالتراب والحجارة تمنع سيلانها على وجه الأرض ، خشية أن تنضب ، ولو تركتها فلم تحطها بما أحاطتها به من تراب وحجارة ، لكانت عيناً معيناً ، كما أخبر بذلك حفيدها السيد الجليل – محمد إمام المرسلين وسيد جميع العالمين – عليه أفضل الصلاة وأزكى وأبرك التحية والتسليم .

ثمرة القصة :

إن لهذه القصة – التى قصصناها – ثمرة من أغلى الثمار وأشهاها إلى النفوس المؤمنة الطاهرة الزكية ، إنها ثمرة التوكل على الله بتفويض الأمر إليه ، والاعتماد عليه . أتذكر أيها المحب لما قالت هاجر لإبراهيم: إلى من تتركنا آلله أمرك بهذا ؟ فقال لها: نعم . فقالت: إذاً فاذهب فإنه لا يضيعنا ! إنها توكلت على الله ربنا وربها ، وأحسنت الظن به تعالى . فهذه العين الثّرة (زمزم) كانت ثمرة توكلها على ربها وحسن ظنها به عز وجل .

بداية أمر مكة :

لما أكرم الله تعالى هاجرَ أم إسماعيل بماء زمزم مرت رفقة من قبيلة جرهم قريباً من وادى مكة ، فبعثوا من يرتاد لهم ماء ينـــزلون عليه فرأى رائدهم طائراً يحوم ، فعلم أن هناك ماء ، فأتى المكان وإذا فيه هاجر وولدها إسماعيل وهما إلى جنب ماء زمزم ، فعاد الرائد فأخبر رفقته ،

---

(١) خبَّت: أسرعت .
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة كثيفة الظلّ .

فأتوا الماء واستأذنوا هاجر فى النــزول معها فأذنت لهم ، واشترطت أن لا يكون لهم حق فى الماء ، فقبلوا الشرط ونزلوا ، فكانت هذه بداية عمارة مكة فى العهد الإبراهيمى السعيد .

عبرة :

أين الذين يتشدقون بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية؟ أين هم؟ إنهم فى الحضيض الأسفل إزاء هذه الواقعة التاريخية الثابتة بالوحى الإلهى: امرأة غريبة الدار تملك بئر ماء فى صحراء تستأذنها فى النــزول إليها رفقة كاملة برجالها ، ونسائها ، تستأذنها فى النــزول إلى جوراها فتشترط عليهم فى النــزول بجوراها وهى تحب الأنس: أن لا يكون لهم حق فى الماء ، فيقبلون الشرط ، ويرضونه وينــزلون !!

هذه خلة فاضلة كريمة من خلال العرب فى الجاهلية ، فكيف بهم فى الإسلام؟ لولا الصرفة التى صُرفوها بمَكْر الثالوث الأسود: المجوس ، واليهود ، والنصارى .

* * * * * * * * * * *

عمارة مكة

عمرت مكة بهاجر أم إسماعيل أولاً ، ثم بنــزول الرفقة الجرهمية[1] ثانياً .

وكبر إسماعيل ، وأصبح أهلاً لأن يسعى ويعمل ولو برَعْى الماشية وصيد الظباء والطيور ، وجاء إبراهيم يتعهد تركته إسماعيل ابنه وهاجر أم ولده ، عليهم جميعاً السلام ، وأوحى إليه الرب تعالى مناماً – ورؤيا الأنبياء وحى – أن اذبح إسماعيل قرباناً لنا . واستشار إسماعيل فى ذلك قائلاً: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات: ١٠٢] ، فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

وأراد إبراهيم تنفيذ أمر ربه فخرج بإسماعيل ولده إلى منى ليذبحه قرباناً لربه حيث أمره ، ولما تله للجبين والمدية[2] بيده وقبل الإجهاز عليه ناداه ربه: ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٤ ، ١٠٥] ، وفداه بذبح عظيم ، أى بكبش أملح كبير ، فترك الولدَ وذبح الكبش ، وفاز بالرضا الولد والوالد .

---

(١) جرهم: قبيلة يمنية قحطانية من ذرية سام بن نوح عليه السلام .
(٢) تله: أضجعه للذبح . المدية: السكين .

عبرة :

إن فى صبر هاجر على ذبح ولدها ، وصبر إسماعيل على ذبح نفسه لآية دالة على طيب الأم وولدها ، فلذا اختيرا لأن يكونا جدين لسيد المرسلين الحبيب محمد ﷺ . إن طيبوبة الأصول تنتقل إلى الفروع ، وقد تزهو الفروع على أصولها .

وجاء الخليل مرة أخرى يتعهد تركته ، وكان إسماعيل – عليه السلام – قد كبر وبلغ وتزوج امرأة جرهمية من الرفقة التى جاورتهم بمكة ، ومن لحق بهم من قومهم . فدخل إبراهيم وسلم على امرأة ابنه ، وكانت هاجر قد توفيت ، فقال: أين إسماعيل ؟ قالت: ذهب يصيد ، وسألها عن حالها مع زوجها ، فلم تذكر خيراً ، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: يُغيرُ عتبة[1] بابه . وجاء إسماعيل من الصيد وأخبرته بالخبر ، فقال: ذاك أبى وقد أمرنى بطلاقك ، فالتحقى بأهلك .

ومضى زمن – يطول أو يقصر – وَبَدَا لإبراهيم أن يتعهد تركته فجاء مكة ودخل حجر إسماعيل فسلم ، وقال: أين إسماعيل؟ وسألها عن حالهم فذكرت خيراً ، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: ثبت عَتَبَة بابك .

وعاد إبراهيم إلى الشام ، ومضت الأيام – وقد تطول أو تقصر – وبدا لإبراهيم أن يطلع على تركته ، فجاء مكة فوافق إسماعيل من وراء زمزم ، يُصلح نبلاً له تحت دوحة عظيمة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر ، قال إسماعيل: فاصنع ما أمرك ربك ، قال إبراهيم: وتُعيننى ؟ قال: وأعينك ، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة[2] مرتفعةٍ على ما حولها .

نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة وعبرها ما يلى :

١- تعهد الوالد أهل ولده بزيارتهم والتعرف على أحوالهم من الوقت إلى الوقت .

٢- قوة الفراسة والعمل بها ، فإن إبرهيم – عليه السلام – تفرس فى امرأة ابنه أنها غيرُ صالحةٍ له ، لما سمعه منها من شكاة ، وإن إسماعيل عمل برأى والده وطلق امرأته .

---

(١) كناية عن الزوجة .

(٢) أكمة : التل .أو الموضع الذى يكون أكثر ارتفاعاً مما حوله .

٣- مشروعية استعمال الكنايات فى المخاطبات ، فقد كنّى إبراهيم عن المرأة بعتبة الدار .

٤- مشروعية معانقة الولد للوالد وعكسها ، ويقاس عليهما غيرها .

٥- مشروعية استشارة الوالد ولدهُ وطلب العون منه على أمره .

٦- قدم البيت العتيق ، وإنه أول بيت وضع للناس ، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

* * * * * * * * * * *

بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق

ولما وافق إسماعيل على إعانة والده على بناء البيت شرع إبراهيم فى البناء ، وقد هداه ربه تعالى إلى مكانه الذى كان به قبل رفعه عام الطوفان ، أو هدمه بفعل السيول الجارفة ، وعدم وجود من يقوم ببنائه ، فأخذ إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان ما أخبر تعالى به عنهما فى قوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ ، ١٢٨] .

ولما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر كبير مرتفع ، فصار إبراهيم يعلو فوقه ويواصل رفع البناء حتى فرغ ، وبقى الحجر تحت جدار البيت ، وقد ارتسمت عليه قدماً إبراهيم وهو صلب ليس برطب لتكون آية للعاملين .

ولما جاء الإسلام – ومرحبا به – شرع الله تعالى الصلاة خلفه ؛ إذ قال تعالى من سورة البقرة: ﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله تبارك وتعالى أن يُؤذن فى الناس بالحج . كما قال: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧] .

فطلع إبراهيم – عليه السلام – على جبل أبى قُبيس وهو أقرب الجبال إليه ، ونادى باسم الله تعالى قائلاً: أيها الناس إن ربكم بنى لكم بيتاً فحجوه ، والتفت بندائه يميناً وشمالاً كما

يلتفت المؤذن اليوم فى أذانه للصلاة ، فأسمعَ الله تعالى نداءه كل نسمة خلقها الله تعالى ، فمن لبت حجت ، ومن لم تُلب لم تحج أبداً . ومعنى لبت: قالت: لبيك اللهم لبيك أى أجبت طلبك مرة بعد مرة .

نتائج هذه المقطوعة من الحديث :

لهذه المقطوعة من سيرة الحبيب العطرة نتائج نجملها فيما يلى :

١- تقرير بناء إبراهيم للبيت العتيق شرفه الله وكرمه .

٢- بيان تعاون إبراهيم مع ولده إسماعيل على بناء البيت .

٣- بناء البيت كان على أسس وقواعد قديمة كان عليها قبل حادثة الطوفان ، وفى هذا ترجيح للقول بأن البيت كان من عهد آدم - عليه السلام - .

٤- ارتسام قدَمَىْ إبراهيم على صخرة المقام آية خالدة من آيات الله تعالى التى كان يعطيها الأنبياء - عليهم السلام - .

٥- تقريرُ القول بأن الأرواح مخلوقة قبل خلق أجسامها ، وأن الملك الموكل بالأرحام ينفخها فى المضغة بإذن الله تعالى فتسرى فيها فتحيا .

* * * * * * * * * * *

بداية أمر الحبيب محمد ﷺ

إنه أثناء قيام إبراهيم وولده إسماعيل بيناء البيت العتيق كانا - عليهما السلام - يتقاولان ما أخبر به تعالى عنهما فى قوله: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، إذ الضمير فى قوله: ﴿ فِيهِمْ﴾ عائد على ذرية إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام - فكان هذا مبدأ أمر الحبيب محمد ﷺ.

وقد قرر هذه الحقيقة بنفسه ﷺ، إذ سئل عن مبدأ أمره فقال: «أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة أخى عيسى - عليهما السلام -» .

* * * * * * * * * * *

إسماعيل وذريته

لقد عاش إسماعيل بجوار البيت العتيق وفى مكة أصهاره من قبيلة جرهم اليمانية

القحطانية ، وقد نبئ فيهم ، وأرسل إليهم وإلى كافة من بالحجاز من العماليق . وأنجب إسماعيل أولاداً بلغوا اثنى عشر ولداً منهم نابت – وهو أكبرهم ، وهو حلقة السلسلة الذهبية المحمدية – فنابت من أولاد إسماعيل الاثنى عشر هو الذى اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] . واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة . وكان عدد الآباء – ما بين نابت ابن إسماعيل وعدنان – يقدر بستة آباء ، والجميع عاشوا بالحرم المكى ولم يخرجوا منه . ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة ، وصاحب النسب الزكى الشريف حبيب الأحباء وسيد الأنبياء محمد ﷺ انتهى بذكر نَسَبه جازماً بما ذكر إلى عدنان ، ثم سكت وقال: «كذب النسَّابون» . قال تعالى: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ . [الفرقان: ٣٨] ، فلهذا كان الانتهاء إلى حيث انتهى النبى ﷺ بنسبه أولى .

نتائج هذه المقطوعة :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج هى كالآتى :

١- النسب الشريف بين إسماعيل وعدنان مجهول ، ولا يصح الجزم بما ذكر النسَّابون حيث بلغوا بالنسب الشريف إلى آدم – عليه السلام – .

٢- صحة النسب الزكى من عدنان إلى عبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ بالصحة لا يُخالطها شك أبداً .

٣- توهين أقوال النسابين وعدم الجزم بما يقولون .

****

سلسلة الطهر
النسب الشريف

بين يدى الحديث عن سلسلة الطهر الذهبية أقدم كلمة عن العرب موجزة لما لهم من شرف الأصل ، وطيب المحتد فأقول: إن العرب بأقسامهم الثلاثة: العرب البائدة ، والعاربة ، والمستعربة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح – عليه السلام – . أما الذى ينسب إليه العرب ويعرفون به فهو يعرب بن يشجب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الرسول – عليه السلام – .

العرب البائدة :

إن العرب الذين بادوا – أى هلكوا – هم طَسْم وجديس ، وعاد وثمود هكذا يقول النسَّابون والمؤرخون . فأما طسم وجديس فقد اقتتلوا أى قاتل بعضهم بعضا حتى هلكوا جميعاً ، وأما عاد وثمود فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسوليهم هود وصالح – عليهما السلام – حتى أهلكهم الله تعالى ، وقد جاءت أخبارهم فى القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ١ – ٦] .

العرب العاربة :

إن العرب العاربة هم الأصلاء فى نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان ، ولذا يقال لهم: القحطانيُّون وبنو عمهم العمالقة[1] ، الذين يسكنون الحجاز والشام ودخلوا مصر وتفرقوا فى البلاد المجاورة للجزيرة العربية ، وبنو أميم أيضاً وقد لازموا الجزيرة ولم يخرجوا منها . أما القحطانيون – وهم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان – فقد لازموا الديار اليمانية زمناً ، ثم تفرقت قبائلهم فى الجزيرة والشام ، ومن قبائلهم – الذين سكنوا الحجاز – قبيلة جرهم التى سكنت مكة بإذن هاجر أم إسماعيل – عليه السلام – .

العرب المستعربة :

إن العرب المستعربة هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل – عليهما السلام – وقيل لهم: العرب المستعربة ، لأن إبراهيم – عليه السلام – لم يكن من أولاد يعرب ، وإنما كان من أولاد عابربن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح ، ولذا كانت لغته غير العربية ، وهى السريانية لغة الكَلْدَانيين من سكان بابل العراق ، كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضاً عند هجرته إلى الشام ، ولم يتكلم بالعربية .

وأما إسماعيل – عليه السلام – فإنه بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمانية القحطانية التى سكنت مكة بإذن والدته هاجر ، كما تقدم تعلم العربية ونفس أهلها فيها ، أى تفوق عليهم فيها بياناً وأدباً وبلاغة ، كما تعلمها أولاده منه ومن أمهم السيدة بنت مضاض الجرهمية ، ومن أخوالهم المجاورين لهم بمكة أيضاً ؛ فلهذا قيل لهم: العرب المستعربة ، نظراً إلى أن جدهم غير عربى وهو إبراهيم ، وإن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه حيث تعلموا لغة العرب ،

---

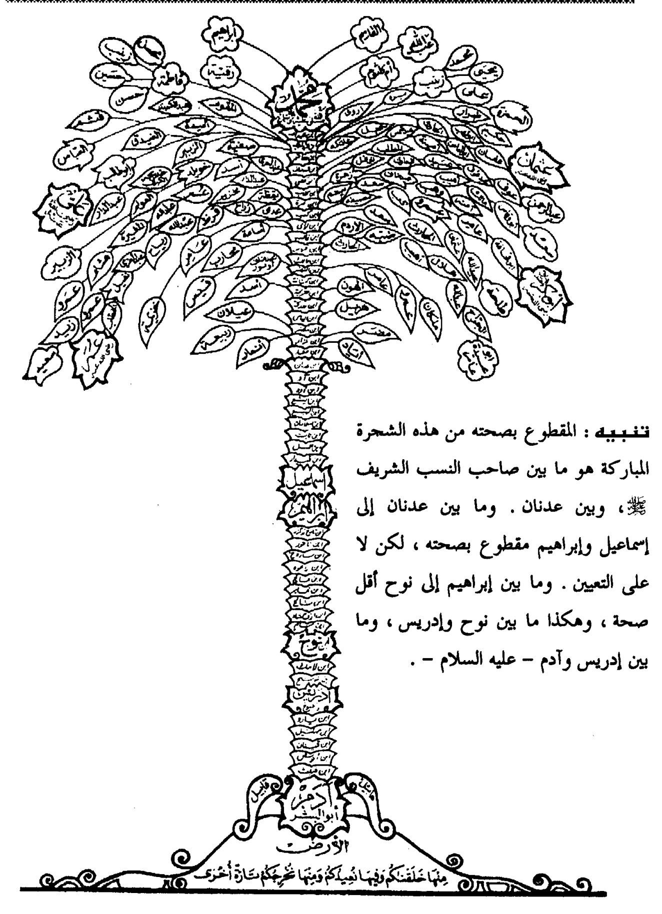
(١) العمالقة: أولاد عملاق من نسل سام بن نوح .

وتكلموا بها وفازوا فيها ، ومن هنا قيل فى القبائل العدنانية عامة: العرب المستعربة .

* * * * * * * * * * *

عودة سريعة
إلى النسب الشريف

سبق أن ذكرنا أن النسب الشريف ما بين إسماعيل وعدنان فيه غموض وخفاء ، حتى إن صاحب النسب ﷺ قال: «**لا ترفعونى فوق عدنان**» . ولذا فكل ما يحسن أن يقال: هو أن أولاد إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – وهم اثنا عشر ولدا عاشوا مع أخوالهم من جرهم ، ونبيهم ورسول الله إليهم أجمعين هو إسماعيل – عليه السلام – . وكان من بين أولئك الإخوة نابت وقيذار ، والإجماع على أن عدنان هو ابن أحدهما لا محالة ، ثم إن عدنان أنجب من البنين عَكًّا وَمَعَدًّا ، أم عكٌ – فقد نزح إلى اليمن وعاش بها مع أصهاره الأشعريين . وأما معدٌ فقد بقى بمكة وأنجب من البنين نزارا ، وقضاعة ، وقُنصا ، وإيادا ، أمّا قُنص فقد هلك بنوه إلا قليلا منهم ، وكان منهم النعمان بن المنذر ، وأما إياد فقد أنجب قبيلة – والنسبة إليها إيادى – ومنهم قس بن سعادة الإيادى وأما قضاعة فقد نزحت إلى حمير باليمن وأقامت بها . وأما نزار فقد عاش بالحرم كأخيه إياد وأنجب مضرا وربيعة وأنماراً . وأنجب مضر إلياس وعيلان ، وأنجب إلياس مدركة وطابخة وقمعة ، وأنجب مدركة خزيمة ، وهذيلا ، وأنجب خزيمة كنانة وأسدا ، وأسَدَة والهون . وأنجب كنانة ملكان والنضر ومالكاً وعبد مناة . وأنجب النضْر – وهو أبو قيس حيث كافة قبائلها تعود إليه – أنجب مالكاً ومخلداً وأنجب مالك بن النضير فهْراً . وأنجب فهر غالبا ، ومحارباً والحارس وأسدا . وأنجب غالب بن فهر لؤياً وتيماً وقيساً ، وأنجب لوى بن غالب كعبا وعامراً وسامة وعوفاً . وأنجب كعب بن لوى مُرة وعديا وهصيصا . وأنجب مرةُ بن كعب كلاباً وتيما ويقظة . وأنجب كلاب بن مرة قَصيّاً وزُهرة ، وأنجب قصىّ بن كلاب عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزى وعبد قصى . وأنجب عبد مناف بن قصى هاشما وعبد شمس والمطلب ونوْفل . وأنجب هاشم بن عبد مناف عبد المطلب ، وأسدا وأبا صيفى ونَضلة . وأنجب عبد المطلب العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبا طالب ، والزبير ، والحارث ، وحَجْلا والمقوم وضراراً ، وأبا لهب .



تنبيه : المقطوع بصحته من هذه الشجرة المباركة هو ما بين صاحب النسب الشريف ﷺ، وبين عدنان . وما بين عدنان إلى إسماعيل وإبراهيم مقطوع بصحته ، لكن لا على التعين . وما بين إبراهيم إلى نوح أقل صحة ، وهكذا ما بين نوح وإدريس ، وما بين إدريس وآدم – عليه السلام – .

شجرة النسب الشريف

قبل الفجر المحمدي
حالة العرب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية

لقد اجتمعت كلمة المؤرخين عامة على أن العالم الإنسانى قاطبة ، والعالم العربى بصورة خاصة ، كان يعيش فى دياجير ظلام الظلم والجهل ، وظلمات الطغيان والاستبداد ، تتنازعه الإمبراطوريتان الفارسية شرقاً ، والرومانية غرباً . ويؤكد هذه الحقيقة قول الحبيب محمد ﷺ : «**إن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم**[1] **عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب**[2]» . فالأحوال متردية ساقطة هابطة فى العالم الإنسانى بأسره ، لاسيما فى العالم العربى ، حيث الفساد فى كل جوانب الحياة السياسية منها كالاقتصادية ، والاجتماعية كالدينية الكل سواء .

وهذه نظرة خاطفة نلقيها على ديار العرب ، وكلمة عابرة نقولها على تلك الأوضاع المتدهورة المتهالكة ، ليُعرف مدى الحاجة إلى فجر النبوة المحمدية لتبديد تلك الظلم المتراكمة ، وإبعاد تلك الويلات الملازمة للحياة الخاصة والعامة فى ربوع ديار العروبة قاطبة ؛ إذ لا فرق بين يمنها وشامها ، ولا بين حجازها ونجدها . ولِتعْظُمَ عند ذى الوعْى العاقل مِنَّة أنوار الفجر المحمدى التى ستغمر الجزيرة - والكون من ورائها - هداية ونوراً .

ولنبدأ بالحالة السياسية فى بلاد العرب .

* * * * * * * * * * *

الحالة السياسية فى بلاد العرب

إن مُجمل القول فى الحالة السياسية فى بلاد العرب: هو أن بلاد العرب - وهى شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر ؛ الأحمر غرباً ، والهندى جنوباً ، والخليج شرقاً - من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية . ففى اليمن حيث ملوك حمير من التبابعة وغيرهم . والحيرة شرقاً إلى العراق ، حيث المناذرة ، والشمال حيث الغساسنة . أما الوسط: وهو نجد والحجاز وتهامة فإنه دائرة المجد ، وموضع طلوع الفجر ، فأرض حماها مولاها من سطوة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعى . المقت: شدة البغض .
(٢) اليهود والنصارى .

الجبابرة ، وسياسة المتاجرة ، فلم تصل إليها يدُ الأحباش الأوباش ، ولا يد الفوارس الأنجاس ، ولا يد الروم ولا الرومان الأنكاس ، لأنها مشرق الأنوار ، ومكمن الأسرار ، وعما قريب يطلع نجمُها ويعلو كعبها ، وتسود الدنيا وما فيها .

فالبلاد اليمانية: تداولتها ملوك حمير من التابعية وغيرهم ، كما حكمها فى فترات ملوك الأحباش مباشرة أحياناً ، وبواسطة أبنائها أحياناً أخرى ، وقد عظم ملك اليمانيين أحياناً حتى غزوا الشرق ، ووصلت جنودهم إلى بلاد فارس متجاوزة أرض العراق إلى أعماق الشرق . وآخر ملوكهم ذو نواس – وهو صاحب الأخدود ، وكان يهودى العقيدة – فكان آخر ملوك حمير ببلاد اليمن .

كما أن آخر ملوك التبابعة باليمن كان أبا كرب تبّان بن أسعد الذى غزا المدينة ودخل مكة ، وكسا الكعبة المشرفة وعاد إلى اليمن ، وهلك بها .

وأما المناذرة بالحيرة: فإن ملوكهم – وآخرهم النعمان بن المنذر – كانوا تابعين فى الغالب لملوك إيران . وكذلك الحال بالنسبة إلى الغساسنة بأرض الشام ، فإنهم تابعون فى الغالب لملوك الروم . مع العلم بأن ملوك الحيرة كملوك الشام أصلهم يمنيون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب ، بواسطة سيل العرم ، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية وطيئ بجبل طيئ شمالا الكل من مهاجرى اليمن بعد خراب سدهم الذى كان مصدر غناهم وثروتهم ، إذ أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم عقوبة لهم بعد ما ظلموا . قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [سبأ: ١٥] ، إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ ، أى: عن طاعة الله وطاعة رسوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ [سبأ: ١٦] .

وأما العدنانيون: وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز ، فمجمل القول فى الحالة السياسية عندهم: أن قبيلة جرهم التى استوطنت مكة مع هاجر أم إسماعيل وعاشت زمناً فى ظل حكم إسماعيل وأحفاده ، إلى أن استولت على الحكم بمكة وانتزعته من يد أبناء إسماعيل – عليه السلام – وبقى الحكم فى جرهم إلى أن جارت وظلمت واستحلت محارم الحرم فى مكة ، فسلط الله تعالى عليها – كما هى سنته تعالى فى الظالمين المعرضين عن طاعة الله وطاعة رسوله – بنى بكر من كنانة ، وغبشان خزاعة ، فأجلوهم عن مكة وهم يبكون فالتحقوا باليمن – ديارهم الأولى – والأبيات التالية ترسم صورة صادقة لجرهم بمكة وحزنها عند جلائها عنها:

وقائلـــة والدمـــعُ سَـــكْبٌ مـــبادرٌ ::: وقـــد شرقتْ بالدمع منها المحاجـــرُ
كـــأنْ لم يكنْ بينَ الحجون إلى الصفا ::: أنـــيسٌ ولم يَسْـــمُرْ بمكـــةَ ســـامرُ
فقلـــتُ لهـــا والقلـــبُ مَـــنّى كأنما ::: يُلجلـــجُه بـــين الجـــناحين طائـــرُ
بـــلى نحـــنُ كُـــنَّا أهلَهـــا فأزالـــنا ::: صـــروفُ الليالى والجدودُ العواثـــرُ
وكـــنَّا ولاة البيـــت مـــن بعد نابت ::: نطـــوفُ بهـــذا البيـــت والخيرُ ظاهرُ
ونحـــنُ وُلِّيـــنا البيـــتَ من بعد نابتً ::: بعـــزٍّ فمـــا يحظـــى لديـــنا المكاثـــرُ
ملكنـــا فعززنـــا فأعظـــمْ بملكنـــا ::: فليـــس لحَـــيٍّ غيرنـــا ثَمَّ فاخـــرُ

إلى أن قال:

وصـــرْنا أحاديـــثَ وكـــنا بغـــبطة ::: بذلـــك عضَّتْـــنا الســـنونُ الغوابـــرُ
فَسَـــحَّت دمـــوعُ العين تَبْكى لبلدةً ::: بهـــا حـــرم أمـــنٌ وفـــيها المشاعرُ
وتـــبكى لبيـــت لـــيس يُؤْذَى حمامُهُ ::: يظـــلُ بـــه أَمْـــنا وفـــيه العصـــافرُ
وفيـــه وحـــــوشٌ لا تُرامُ أنيســـــةٌ ::: إذا خَرَجَـــتْ منـــه فليســـتْ تُغـــادرُ

ولاية قصى بن كلاب :

وبعد مرور زمن طويل ومكة يحكمها بنو بكر وغُبشان خزاعة أى من يوم انتزعوا الحكم من يد جرهم تغلبت غبشان خزاعة على بنى بكر واستقلوا بالولاية وتداولوها زمناً ، وكان آخر من وليها منهم حُليل بن حُبشية بن سلول الخزاعى ، فخطب ابنته حُبَّى قصىُّ بنُ كلاب فزوجه إياها فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبداً . وكبروا وكثر مالهم وعم شرفهم ، ومات حُليل فرأى قصى أنه وبنيه أولى بولاية الكعبة ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة طالباً نصرتهم فأعانوه على إخراج خزاعة وبنى بكر فأخرجوهم واستتب الأمر لقصى وبنيه بعد قتال شديد بينهم وبين خزاعة ، وبنى بكر ، انتهى بصلح وتحكيم عمرو بن عوف الكنانى ، وكانت نهايته ولاية قصى على مكة والكعبة ، فجمع قصىّ قومه من قريش من منازلهم إلى مكة وملكوه فكان أول أمير من قريش فى مكة المكرمة ، وكانت له الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة واللواء وبهذا حاز شرف مكة كله .

وَجَمَعَ قصى قبائل قريش فى مكة والحرم ، وبذلك سُمى مُجمعا ، وفيه يقول الشاعر:

قُصَىً – لعمرى – كان يدعى مُجَمِّعًا ::: به جَمَـــعَ الله القبائـــلَ مـــن فهـــرِ

حقائق وعبر :

من استعراضنا للحالة السياسية فى بلاد العرب نستخلص الحقائق التالية:

١- إن البلاد اليمانية اعتورتها حكومات متعددة أعظمها حكومات التبابعة من قبيلة حمير .

٢- إن كلا من الأحباش والفوارس قد استعمروا اليمن بواسطة اليمنيين الذين يستنجدونهم فى ظروف معينة .

٣- شرق الجزيرة من الحيرة إلى العراق لم يكن فى الحقيقة إلا ولايات تابعة للحكم الفارسى طيلة الدهر حتى جاء الإسلام ، وأن ملوك المناذرة لم يكونوا مستقلين فى الغالب ، وإنما هم تابعون سياسياً للحكم الفارسى المجوسى .

٤- شمال الجزيرة كشرقها لم يكن فيه فى الغالب حكم عربى خالص ، وإنما كان تابعاً لحكم الروم والغساسنة فيه كالمناذرة فى الشرق سواء بسواء .

٥- وسط الجزيرة – حيث الحرم وما جاوره من ديار العرب العدنانيين – كان مستقلاً لم يحكمه الروم ولا فارس ولا الأحباش كرامة الله تعالى لحرمه وسكانه وجيرانه ، وهى عبرة لمن اعتبر . وحتى عهد الاستعمار الغربى الذى حكم العالم الإسلامى فإنه لم يحكم هذه الديار الطاهرة كرامة الله لحرمه وحرم حبيبه محمد ﷺ وسكانهما وجيرانهما .

وفى هذه المقطوعة من العبر ما يلى :

١- إن الظلم لا يدوم[1] وإن طال زمانه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٢- حماية الله لبلده وحرمه بإهلاك وإبعاد كل من يظلم فيهما ويستبيح المحرم فيهما .

٣- من فضائل قريش الرفادة والسقاية ؛ إذ الرفادة هى جمع المال من أفراد القبائل القرشية سنوياً وإنفاقه فى إطعام الحجاج كل عام . والسقاية كذلك وهى إحضار الماء محلّى أحياناً بالزبيب وسقى الحجاج أيام حجّهم من كل عام .

* * * * * * * * * *

---

(١) ظلمت جرهم فأجليت . وظلمت خزاعة وبنو بكر فأجليتا .

الحالة الاقتصادية في بلاد العرب

إن بلاد العرب بأقسامها الآنفة الذكر لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذكر بوادٍ صحراوية ، إلا ما كان من بلاد اليمن فقد كانت بلاداً خصبة فى الجملة ولا سيما أيام سد مأرب حيث ازدهرت الزراعة والفلاحة عامة بصورة تدعو إلى العجب ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥] ، فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ، فسلبهم الله تعالى ما أعطاهم فخرب سدهم ، وأجدبت أرضهم ، ورحل عنها أكثرهم ، فالتحق بعضهم بالعراق ، وبعضهم بيثرب - ومنهم الأوس والخزرج - وآخرون بالشمال والشام . ومع هذا فقد وجدت فى اليمن صناعات فاخرة فى وقتها ، كصناعة الكتان ، والسلاح من سيوف وحراب ودروع وغيرها .

هذا بالنسبة إلى أهل اليمن ، أما القبائل العدنانية ، فكان جلها يعيش فى الصحراء ينتجع الكلأ والعشب لماشيته ، ويعيش على ألبانها ولحومها ، إلا ما كان من قبائل قريش القاطنين بالحرم ، فإنهم يعيشون على رحلتى الشتاء إلى اليمن ، والصيف إلى الشام ، وقد امتن الله ذلك عليهم فى قوله: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤] ، فكانوا فى رغد من العيش ، على خلاف غيرهم ، فإنهم كانوا يعيشون على شظف العيش وضيقه ، وما كان لقريش من سعة الرزق ، إنما كان لها من أجل حماها للحرم ، وتقديسها له ، كما هو كرامة الله لأرحام وأصلاب ينتقل فيها رسول الله ﷺ.

نتائج هذه المقطوعة :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلى :

١- بيان أن الاقتصاد فى بلاد العرب بصورة عامة لا يعتبر شيئاً يذكر إلى جانب غيره فى البلاد الأخرى .

٢- بيان أن شمال بلاد اليمن كان ذا اقتصاد لا بأس به لوجود خصب وصناعة .

٣- خراب سد مأرب وهجرة أهله من بلادهم كان نقمة إلهية سببها الكفر والإعراض عن طاعة الله ورسوله .

٤- بيان إكرام الله تعالى لقريش بتحقيق أهم هدف للإنسان فى هذه الحياة ، وهو الأمن من الخوف ، والإطعام من الجوع .

٥- وجوب شكر الله تعالى على نعمه ، إذ طلب ذلك من قريش بقوله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٣ - ٤] .

والعبادة هى الشكر وأعظمها إقامة الصلاة فمن لم يصل ما شكر .

* * * * * * * * * * *

الحالة الاجتماعية فى بلاد العرب

إن الفترة التى عاشتها الأمة العربية بدون وحى إلهى - ولا من يحمل هدايته - كانت طويلة جداً ، وهى تلك التى كانت بين إسماعيل والنبى الخاتم محمد ﷺ . فلذا نشأت فى المجتمع العربى عادات سيئة للغاية ، وأخرى حسنة للغاية أيضاً إلا أنها قد أخفتها العادات السيئة . وإنى ذاكر من كل منهما طرفاً ، وبذلك تعرف بوضوح الحالة الاجتماعية للأمة العربية فى الجاهلية قبل الإسلام ، والقصد من ذكر ذلك أن تعرف السيئة لتجتنب ، والحسنة لتُرتكب ، ويحمد الله ويشكر على ما منّ به على أمة العرب من نعمة الإسلام . وبهذا نكون قد توخينا ما يتوخاه العلماء من كتابة التاريخ وقراءته .

العادات السيئة :

من جملة العادات السيئة التى هبطت بالمجتمع العربى قبل الإسلام هى :

١- القمار والمعروف بالميسر ، وهذه عادة سكان المدن فى الجزيرة ، كمكة ، والطائف ، وصنعاء ، وهجر ، ويثرب ، ودومة الجندل وغيرها ، وقد حرمه الإسلام بآية سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠] .

٢- شرب الخمر والاجتماع عليها ، والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها ، وكان هذا عادة أهل المدن من أغنياء ، وكبراء وأدباء وشعراء ، ولما كانت هذه العادة متأصلة فيهم متمكنة من نفوسهم حرمها الله تعالى عليهم بالتدريج شيئاً فشيئاً ، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده فله الحمد وله المنة .

٣- نكاح الاستبضاع ، وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم فتطهر فيطلب لها أشراف الرجال وخيارهم نسباً وأدباً ليطؤوها من أجل أن تنجب ولداً يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها .

٤- وأْدُ البنات ، وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية في التراب خوف العار . وجاء في القرآن الكريم التنديد بهذا العمل وتقبيحه ، وذلك بذكر توبيخ فاعله يوم القيامة . قال تعالى من سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨ ، ٩] .

٥- قتل الأولاد مطلقاً ذكوراً كانوا أو إناثاً ، وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة ، أو لمجرد توقع فقر شديد عند ما تلوح في الأفق آثاره لوجود مَحْل وقحط بانقطاع المطر أو قلته . فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١] . والإملاق شدة الفقر وعظمه .

٦- تبرج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها مارة بالرجال الأجانب متغنجة[1] في مشيتها ، متكسرة كأنها تعرض نفسها ، وتُغرى بها غيرها .

٧- اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال ، وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم في السر ، وهم أجانب عنهن ، فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء: ٢٥] ، وحرم على الرجال ذلك بقوله من سورة المائدة: ﴿ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥] .

٨- إعلان الإماء عن البغى بهن ، وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بَغى ويغشاها الرجال ، وتأخذ على ذلك أجراً ، أى مالاً مقابل الاستبضاع .

٩- العصبية القبلية ، وهى مبدأ: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" ، فجاء الإسلام فأمر بنصرة الأخ المسلم قريباً كان أو بعيداً ، إذ الأخوة المعتبرة هنا هى أخوة الإسلام . ونصرته إذا كان مظلوماً بدفع الظلم عنه ، ونصرته إذا كان ظالماً بمنعه من الظلم

(١) التغنج: التكسر والتدلل بعبارات وحركات في مشيتها تزيدها ملاحة .

وحجزه عنه ، قال رسول الله ﷺ فى رواية البخارى: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» ، فقيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال: «**تحجزه عن الظلم**» .

١٠- شن الغارات والحروب على بعضهم بعضاً للسلب والنهب ، فالقبيلة القوية تغير على الضعيفة لتسلُبها مالها ؛ إذ لم يكن لهم حكم ولا شرع يرجعون إليه فى أغلب الأوقات ، وفى أكثر البلاد .

ومن أشهر حروبهم حربُ داحس والغبراء التى وقعت بين عبس من جهة ، وذبيان وفزارة من جهة أخرى . وحرب البسوس ، حتى قيل: أشام من حرب البسوس التى دامت كذا سنة ، وكانت بين بكر وتغلب . وحرب بُعاث التى وقعت بين الأوس والخزرج بالمدينة النبوية قبيل الإسلام . وحرب الفجار التى دارت بين قيس عيلان من جهة ، وبين كنانة وقريش من جهة مقابلة ، وسميت حرب الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم .

١١- عدم الامتهان تكبراً وأنفة ؛ إذ كانوا لا يمتهنون: الحدادة ، والحياكة ، والحجامة ، ولا الفلاحة ، وإنما يسندون هذه المهن لإمائهم وعبيدهم . أما الأحرار فحسبهم التجارة ، وركوب الخيل ، وشن الغارات ، وإنشاد الشعر ، والمفاخرات بالأحساب والأنساب .

هذه معظم العادات السيئة التى كانت فى المجتمع العربى قبل الإسلام ، وهى كما مرّت تحيل المجتمع إلى مجتمع ساقط هابط لا سعادة فيه ولا هناء إلا أنه – إزاء ذلك – كانت فيه كمالات نوردها تحت عنوان:

العادات الحسنة هى :

١- الصدق والمراد به صدق الحديث ، وهو خلق كريم عرف به العرب فى الجاهلية قبل الإسلام ، فزاده الإسلام تقريراً وتمتيناً .

٢- قِرى الضيف وهو إطعامه ، وهو من الكرم الذى يحمد صاحبه عليه ، ويُحمد له ويثنى به عليه ، فجاء الإسلام بتقريره وتأكيده ، إذ قال رسول الله ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» ، فى رواية البخارى .

٣- الوفاء بالعهود وعدم نكثها ، ومهما كلفت من ثمن وهو خلق سام شريف ، وجاء

الإسلام بتقريره وتأكيده ، قال تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، في بيان صفات المؤمنين .

٤- احترام الجوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها ، وعدم خفره مهما كانت الأحوال ، وفي الحديث: «أجرنا من أجرت يا أم هانئ» ، وأجار المسلمون أبا العاص بن الربيع وهو مشرك حتى دخل المدينة واسترد ودائعه وأمواله ، وعاد إلى مكة ثم أسلم بعد .

٥- الصبر والتحمل . حتى قالوا: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» ، وجاء الإسلام فزاد هذا الخلق قوة ومتانة ، وفي القرآن: ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، وفي الحديث: «من صبر ظفر» .

٦- الشجاعة والنجدة والأنفة ، وعدم قبول الذل والمهانة ، وهي خصال امتاز بها العرب نساءً ورجالاً ، وفي أشعارهم وأقاصيصهم شواهد ذلك .

٧- احترام الحرم والأشهر الحرم ، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة ، وتأمين الوافدين إلى الحرم ، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر .

٨- تحريمهم نكاح الأمهات والبنات .

٩- اغتسالهم من الجنابة .

١٠- المداومة على المضمضة والاستنشاق .

١١- السواك والاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط .

١٢- الختان للأطفال . والخفاض للبنات .

١٣- قطعهم يد السارق اليمنى .

١٤- الحج والعمرة .

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التي عُرف بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام . وإنها إن لم تكن عامة في كل فرد فإنها الطابع العام على غالبيتهم ، ولولا إرادة الاختصار ، وثقة القارئ فيما أقدمه له لذكرت شواهد ذلك من كلامهم ووقائعهم نظماً ونثراً ، وحسبنا من ذلك أن أبا سفيان بن حرب لما حضر عند هرقل ملك الروم بالشام ، وسأل عن النبي ﷺ لم

يكتمه شيئاً مما سأله عنه ، مع العلم بأنه ما زال مشركاً وفي حرب مع الإسلام والمسلمين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً لنا نبرزها للقارئ إزاء الأرقام الآتية:

١- إن الصفات الذميمة كالحميدة لا تخلص كاملة لأية أمة من الأمم مهما كان رُقيها أو انحطاطها ، وإنما العبرة بالحال الغالبة فقط . فمتى غلبت الصفات الحميدة كان المجتمع راقياً صالحاً ، ومتى غلبت الصفات الذميمة كان المجتمع هابطاً فاسداً .

٢- لما جاء دين الإسلام - وهو دين الله عز وجل ، الذى لا يقبل ديناً سواه - أقر العادات الحسنة ورغب فيها ، وواعد عليها بحسن المثوبة حتى أصبحت ديناً يتقرب بها إلى الله عز وجل .

وأبطل العادات السيئة الذميمة ، ونفر منها ، وتوعد عليها بالعذاب ، ووضع لبعضها حدوداً رادعة ، فاقتلع جذورها ، وطهر المجتمع العربي منها ؛ إذ لا مقام لها بين أمة الإجابة والقيادة .

٣- الخلال الحميدة كالذميمة ، صفات يُساعد عليها على تأصل الأولى فى الإنسان ، وتثبيتها فيه الإيمان والعلم ، ومجاهدة النفس ، ومقاومة الشيطان والهوى ، ويساعد على تأصل الثانية وبقائها فى الإنسان الكفر والجهل واتباع الشيطان والشهوات والهوى .

٤- ضعف الإيمان وقلة العلم فى الأمة الإسلامية اليوم - وقبل اليوم - أصل فيها كثيراً من عادات الجاهلية الأولى ، وذلك كالتبرج ، وارتكاب الفواحش ، وعدم احترام الحرم ، وشرب المسكرات ، ولعب الميسر ، وإجهاض الحبالى ، واستعمال الحبوب لمنع النسل خشية الفقر ، وما إلى ذلك من الأفعال القبيحة التى كانت فى الجاهلية وحرمها الإسلام ، وسبب عودها ضعف الإيمان والجهل واتباع الأهواء والجرى وراء الشهوات والعياذ بالله تعالى .

* * * * * * * * * * *

الحالة الدينية في بلاد العرب

إن مما لا شك فيه أن هاجر أم إسماعيل كانت مسلمة ، وأن ولدها إسماعيل كان مسلماً كأبيه إبراهيم وأمه هاجر ، وأن الله تعالى نبأه وأرسله رسولاً إلى أهل بيته من زوجة وولد ، وإلى أخواله وجيرانه من قبيلة جرهم اليمانية ، وأن دين الله – وهو الإسلام – قد عمهم وانتظم حياتهم زمناً طويلاً لا يُعرف منتهاه .

وكما هي سنة الله في الناس إذا انقطع الوحي عليهم جهلوا وظلوا كالأرض إذا انقطع عنها الغيث – المطر – أمحلت وأجدبت ، وتحولت حضرتها ونضارتها إلى قترة وظلام يجهل فيه الإنسان ذاته ويتنكر فيه لعقله .

وأول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة من ولد إسماعيل أنهم كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق أخذوا معهم حجارة من الحرم ، فإذا نزلوا منـــزلاً وضعوها عندهم وطافوا بالبيت ودعوا الله عندها ، وإذا رحلوا أخذوها معهم ، وهكذا . وبموت من أحدث لهم هذا الحدث وبمرور الزمان نشأ جيلٌ جاهل ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة وأنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى ربّ البيت والحرم .

فكان هذا مبدأ الوثنية في أولاد إسماعيل من العدنانيين .

أما الأصنام والتماثيل: فإن أول من أتى بها من الشام إلى الديار الحجازية عمرو بن لُحَيّ الخزاعيّ ، إذ سافر مرة من مكة إلى الشام فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام ، فسألهم قائلاً: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا: نعبدها ونستمطرها[1] فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له: هُبَل وهو الذي نصبوه حول الكعبة ، وبقي حولها إلى يوم الفتح الإسلاميّ حيث حطم مع ثلثمائة وستين صنماً ، وأُبعدت ، فطهر البيت الحرام ، وطهرت مكة والحرم منها ، والحمد لله رب العالمين .

وكان عمرو بن لُحَيّ محترماً في مكة مقدساً عند أهلها ، يشرع لهم فيقبلون شرعه ، ويبتدع لهم فيحسنون بدعته ، فكان أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز ، ويشهد

---

(١) نستمطرها: نطلب منها إنزال المطر .

هذا قول النبى ﷺ فى حديثه الصحيح: «رأيت عمرو بن لحىّ يجر قصبه[١] فى النار . . إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى . .» .

وبمقتضى بدعة عمرو بن لحى فى جلب الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام فى بلاد العرب ، وهذا بيان أسمائها ومواقعها ، والقبائل التى كانت تعبدها ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره من المؤرخين:

١- سواع: برُهَاط بساحل ينبع تعبده قبيلة هذيل المضرية .

٢- وَدّ: بدومة الجندل شمال المدينة ، قريباً من الشام ، تعبده كلب القضاعية .

٣- يغوث: بجُرش يعبده أهل جرش ، وهم بمخاليف اليمن جنوب مكة المكرمة .

٤- يعوق: بأرض همدان من أرض اليمن تعبده قبيلة خَيْوَان وهم بطن من همدان .

وفيه يقول قائلهم:

يريشُ الله فى الدنيا ويَبْرِى ::: ولا يَبْرِى يَعُوقُ ولا يَريشُ[٢]

٥- نَسْر: بأرض حمير من اليمن وتعبده قبيلة ذو الكلاع من حمير .

٦- عميانس: بأرض خولان ، تعبده قبيلة خولان اليمانية ، وهم الذين قسموا له أنعامهم ، وحروثهم ، ونزل فيهم قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الآية: ١٣٦] .

٧- سعد: بأرض ملكان بن كنانة المصرية ، وتعبده قبيلة ملكان ، وفيه يقول شاعرهم:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ::: فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة[٣] ::: من الأرض لا تدعو لِغَىٍّ ولا رُشد

وذلك أن هذا الشاعر أقبل بإبلٍ مُؤَبَّلَة ليقفها على سعد "الصنم" رجاء بركته ، فلما رأته

---

(١) قصبة: المعى المصير واحد المصران جمع أمعاء .

(٢) راش السهم براه . والمعنى: أن الله ينفع ويضر وأن يعوق – الصنم – لا ينفع ولا يضر .

(٣) التنوفة: القفر – الصحراء – التى لا عشب ولا كلأ بها .

الإبل وكان ملطخاً بدم القربان نفرت[١] الإبل وشردت[٢] ، فذهبت كل مذهب ، فأخذ صاحبها حجراً وهو غضبان وضرب سعداً الصنم ، وقال له: لا بارك الله فيك نفّرت إبلى ، ثم طلب إبله وجمعها بعد تفرقها ، ثم أنشد يقول: أتينا إلى سعد ليجمع شملنا . . . إلخ

٨- ذو الخلصة: بتبالة جنوب مكة ببلاد اليمن ، وكانت تعبده دوس وخثعم وَبجيلة . وهذا الصنم بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى فهدمه عندما نصر الله دينه ورسوله والمؤمنين فلله الحمد والمنة .

٩- إساف ونائلة: وهما صنمان كانا بالكعبة ثم وضعا على الصفا والمروة كانت تعبدهما قريش من جملة أصنامها . ويُروى أن أصلهما: كان رجلاً وامرأة من جرهم فجرا فى داخل الكعبة ، فمسخهما الله تعالى ، فالرجل يدعى: إسافاً ، والمرأة تدعى: نائلة . ولما جاء الإسلام تحرج أناس فى السعى بين الصفا والمروة لمكان إساف ونائلة منهما ، فرفع الله تعالى الحرج بقوله عز وجل من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨] ، أى لا حرج عليه فى السعى بينهما .

١٠- العزى: وكانت بنخلة عن يمين الصاعد إلى العراق من مكة ، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من سُليم حلفاء بنى هاشم ، وكانت تعبد وتقدس تقديس البيت الحرام .

١١- اللات: وكانت بالطائف ، وكانت ثقيف تعبدها ، ومنهم سدنتها وحجابها .

١٢- مناة: وكانت على ساحل البحر من ناحية المشللّ قرب قديد وتعبدها قبيلتا الأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب "المدينة" ، ولما جاء الإسلام وانتصر التوحيد على الشرك بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فَهدمها .

١٣- فِلس: بجبلى طيئ سلمى وأجا من أرض طيئ شمال الحجاز قريباً من حائل - المدينة المعروفة اليوم - كانت تعبده طيئ بأنواع من العبادات كالهدى إليه . والاستسقاء به ، والائتمان بساحته ، وبعث إليه النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب فهدمه ، وكان شبه إنسان لاصق بجبل أجا .

---

(١) نفرت: جزعت وتباعدت .
(٢) شردت: تفرق جمعها .

١٤- رئام: وهو بيت لحمير بصنعاء من اليمن يعظمونه وينحرون عنده ، وتكلمهم الشياطين عنده لفتنتهم .

١٥- رُضاء: وهو بيت أيضاً لبنى ربيعة بن كعب بن يزيد مناة بن تميم .

ولما جاء الإسلام هدمها المستوغر بن ربيعة وهو يقول:

ولقـــد شَـــدَدْتُ على رضاءَ شَدَّةً ::: فتركتُهـــا قفـــراً بقَـــاعٍ أَسْحَمَـــا

١٦- ذو الكعبات: وهو بيت لِبَكر وتغلب ابنى وائل وإياد ، وكان بسنداد ، وهى منازل لإياد أسفل سوار الكوفة وفيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:

بيـــن الخورنـــقِ والسَّديـــرِ وبـــارقٍ ::: والبيـــتِ ذى الكعباتِ مـــن سَنْـــدَادِ

عمل العرب مع أصنامهم :

أكثر ما يعمله العرب مع أصنامهم أن أحدهم إذا أراد السفر توجه إلى صنمه فتمسح به ثم سافر ، وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسح بصنمه ثم يدخل على أهله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- بيان منشأ الشرك فى العرب المستعربة وهو نقلهم الحجارة من الحرم للتبرك بها والطواف ، ولذا وجب سَدُّ هذه الذريعة فلا ينتقل شيء للتبرك به ، حتى إن عمر – رضى الله عنه – قطع شجرة بيعة الرضوان مخافة أن تُعبد بمرور الزمان ، اللهم إلا ما كان من آثار النبى ﷺ كشعره ، أو ثوبه ، أو سلاحه ، ولم يبق من ذلك شيء لمرور الزمان الطويل .

٢- طاعة عمرو بن لحىّ وتعظيمه والغلوّ فيه هو الذى جرأه على نقل الأصنام لهم وأمرهم بعبادتها ، ولذا وجب التحذير من الغلوّ فى المشائخ ، وعدم قبول قولهم ، وطاعة أمرهم إلا ببرهان من كتاب أو سنة يدل على ذلك ويأمر به .

٣- عبادة العرب لآلهة قوم نوح بعد مرور القرون الطويلة أمر عجب ، إلا أنه لا عجب من خبث الشياطين ومكرهم ببنى آدم لإغوائهم وإهلاكهم . إنهم كما زينوا لقوم نوح عبادتهم فعبدوهم ، زينوا كذلك للعرب عبادتهم فعبدوهم . ولا عجب فإننا فى

ديار القرآن والإسلام وزين الشيطان لإخوان لنا عبادة يعوق ونسرا إذ كان لأهل قرية صغيرة تلان . أحدهما يسمونه: يعوق ، والثاني: نسرا ، وكانوا إذا انقطع المطر عنهم وقحطوا خرجوا إليهما وقدموا لهما شيئاً قرباناً واستغاثوا بهما ، فإذا أمطروا – بقدر الله – قالوا: مطرنا باستغاثتنا بيعوق ونسر .

٤– بناء الأضرحة والقباب على قبور الأولياء والصالحين تركة موروثة عن الجاهلية قبل الإسلام ، زينتها الشياطين وحملت الجهال على بنائها ، ثم عبادتها بأنواع العبادات ، كالنذر لها والاستغاثة بها ، وتقديم الشاة والبقرة لها ، وإيقاد الشموع عليها ، وتجميرها إلى غير ذلك من الحلف بها وتعظيمها وشد الرحال إليها ؛ إذ تقدم أن العزى ورئام ورضاء وذا الكعبات كانت بيوتاً تعبد ولها سدنة وحجاب كما هي الحال للأضرحة في أكثر بلاد المسلمين .

****

البدع الدينية في عهد الجاهلية

إنه وإن كان كل ما عليه عرب الجاهلية من دين هو بدع ابتدعوها بعد غياب العلم والعلماء إلا أن هناك أموراً ظاهرة في الابتداع زائدة على أصل الدين الوثني الذي هم عليه ومن ذلك ما يلي:

١– البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، فالبحيرة: الناقة تشقّ أذنها وتترك فلا تركب ، ولا يُشرب لبنها إلا أن يسقوه ضيفاً من ضيوفهم ، ولا شك أن لهذه البدعة سبباً ولا يبعد أن يكونوا فعلوه تقرباً لآلهتم . كما أن السائبة: الناقة تسيب أي تترك للآلهة في نذر أو غيره كمجرد التقرب فلا يركب ظهرها ولا يشرب لبنها ولا يؤكل لحمُها .

وأما الوصيلة: فالابتداع فيها ظاهر ، إذ هي الشاة تتم بأن تلد عشر إناث في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر ، فيطلقون عليها اسم الوصيلة ، بمعنى الواصلة ؛ إذ وصلت بين إناثها العشرة . ثم هي بعد ذلك إذا ولدت ، فما تلده لذكورهم دون إناثهم إلا أن يولد ميتاً ، فإنهم يشركون فيه إناثهم ، فيأكلونه جميعاً . وهذا ما ذكره تعالى في قوله في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ

شُرَكَاء ﴾ [الأنعام: ١٣٩] ، هذه الوصيلة ، وأما الحامى : فهو الجمل إذا بلغ حداً معيناً من النتاج يحمون ظهره فلا يركب ولا يُحمل عليه ، ويتركونه للضراب[١] فقط ، ولا شك أن هذا يفعلونه تعبداً وتقرباً للآلهة .

٢- بدعة الوقوف فى الحج بمزدلفة دون عرفة ، وهذه البدعة ابتدعها أشراف مكة ، وهم الذين يعرفون بالحمس[٢] أما سائر العرب فإنهم يقفون بعرفات ولا يسمح لهم أن يقفوا بمزدلفة .

٣- بدعة عدم الطواف فى ثياب عُصى فيها الله عز وجل ، فلا يُحلون لأحد من غير الحمس أن يطوف فى ثوب قديم ، فإن لم يجد من الحمس ثوباً يطوف فيه طاف عرياناً ، حتى إن المرأة تطوف عارية وتضع شيئاً تستر به فرجها ، ويؤكد هذا قول إحداهن:

اليـــــومَ يَبْـــــدُوَ بَعْضُـــه أو كُلُّـــه ::: ومـــــا بـــدا منـــــه فـــلا أُحلُّـــه

وفى إبطال هاتين البدعتين أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩] ، وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] .

٤- بدعة الاستقسام بالأزلام ، وهى عبارة عن ثلاثة قداح كتب على أحدها: أمرنى ربى ، والثانى: نهانى ، والثالث: يُترك غفلا لا يكتب عليه شىء ، فإذا أراد أحدهم أن يتزوج ، أو يطلق ، أو يسافر ، أو يتاجر ، يذهب إلى صاحب الأزلام "القداح" فيقدم له شيئاً من المال ، ويجيل القداح فى خريطة[٣] ، فإذا خرج: أمرنى أمضى ما عزم عليه ، وإذا خرج: نهانى ربى توقف ، وترك العمل الذى استقسم من أجله ، وإن خرج القدح الغفل أعاد العملية بإجالة القداح مرة أخرى ، وقد حرم الله تعالى هذه البدعة ، بقوله من سورة المائدة: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ﴾ [المائدة: ٣] ، وسمى هذا العمل استقساماً لأنهم يطلبون به معرفة ما قسم لهم .

٥- بدعة النسىء وهى تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر من أجل استحلال القتال فى

---

(١) الضراب: مخصص لتلقيح الأنثى .
(٢) الحمس: جمع الأحمس: المشتد الصلب فى الدين من قريش .
(٣) الخريطة: وعاء من جلد أو نحوه يشد على ما فيه .

الشهر الحرام ، وأصحاب هذه البدعة يقال لهم: النسأة ويفاخرون بهذه البدعة ، حتى قال قائلهم:

ألسنا الناسئين على معد ::: شهور الحلّ نجعلها حراما

ولما جاء الإسلام حرم هذه البدعة فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٣٧] .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة فى السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى ما يأتى:

١- إذا غاب نور العلم بموت العلماء نجمت البدع ، واستبدل الناس الهدى بالضلال .

٢- ضعف الإنسان الفطرى هو الذى يحمله على طلب ما يجلب له النفع ويدفع عنه الضرّ ، فإن اهتدى إلى الطريق الصحيح الذى يحصل به على ما يرغب وينحو به مما يرهب فذاك ، وإلا سلك مسالك الغواية والضلال من الظلم والشرك والابتداع .

٣- مع طول العهد من فقد العدنانيين للعلم الصحيح بالله ودينه فقد بقيت لهم بقايا صالحة كالحج والعمرة ، وتعظيم البيت واحترام الحرم والأشهر الحرم ، والتقرب إلى الله تعالى بالهدى وإطعام الحاج وسقايته ودفع الظلم عنه .

كانت هذه نتائج .

وأما العبر فهى:

١- إن المسلمين الذين فقدوا العلم الصحيح فى ديارهم ابتدعوا بدعاً شبيهة ببدع أهل الجاهلية ، فقد نذروا لأصحاب الأضرحة والقباب وساقوا لهم الشاة والعجل ، وحلفوا بأسمائهم وكسوا توابيتهم بأفخر أنواع الكسوة .

٢- بدعة خط الرمل للتعرف على المغيّبات عند جهال المسلمين كبدعة الاستقسام بالأزلام عند أهل الجاهلية المشركين .

٣- احتيال بعض المشائخ على تحليل بعض المحرمات لمنافع خاصة لهم أو لغيرهم: هو مسلك النسأة فى تأخير الشهر الحرام لاستحلاله ، وهكذا فكل فتيا يراد بها

استحلال ما حرم الله بالتأويلات البعيدة فهى اتباع لأهل الجاهلية ، واستنان بسنتهم الجاهلية والعياذ بالله تعالى .

****

وأخيراً :

النصرانية واليهودية فى بلاد العرب

بمناسبة ذكر الدين الذى كان عليه العرب العدنانيون قبل الإسلام وهو الوثنية ، يحسن ذكر نبذة عن الديانتين النصرانية واليهودية فى بلاد العرب جنوباً وشمالاً ، ليعلم القارئ بكامل الحال التى كان عليها الناس فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وليعلم أن الإسلام كان حاجة الناس فى تلك البلاد كما هو حاجة كل الناس وفى كل ديارهم أمْسِ واليومَ وغداً ، إذ لا كمال لإنسان ولا سعادة إلا به وعليه .

يروى ابن إسحق حديث وهب بن منبه فى دخول النصرانية إلى نجران جنوب مكة من بلاد اليمن ، فيقول: إن رجلاً يُقال له: فيميون من أهل الشام كان على دين المسيح – عليه السلام – وكان صالحاً ورزقه الله كرامات فأحبه رجل من أهل البلاد يقال له: صالح ولازمه .

ولما عرف فيميون بالصلاح وظهور الكرامات ، خرج مع ذلك الرجل الذى أحبه ، فدخلا بلاد العرب فعدوا عليهما وباعوهما عبدين فى مدينة نجران . وأهل نجران يومئذ على دين العرب وهو الوثنية ، وكانت لهم نخلة يعبدونها فجعلوا لها عيداً سنوياً يأتونها فيه ، فيعلقون عليها أجمل الثياب ، وأحسن حلىّ النساء .

واشترى فيميون أحد أشراف نجران ، وكان فيميون إذا قام من الليل يتهجد أشرق له البيت نوراً . فعجب سيده من هذه الكرامة ، فسأله عن دينه ؟ فأخبره بأنه على دين المسيح ، وأعلمه أن ما عليه أهل نجران هو الباطل ، كما أعلمه أن الله تعالى هو الإله الحق ، وأن هذه النخلة لا تنفع ولا تضرّ ، وأنه لو دعا الله تعالى لأسقطها ، وفعلاً دعا الله تعالى ، فعصفت بها عاصفة فاقتلعتها من جذورها .

ولذلك آمن الرجل الشريف بدين المسيح ، وتبعه آخرون ، فكان هذا مبدأ دخول دين المسيح فى نجران ، ثم بمرور الزمان طرأ عليهم ما طرأ من البدع والتحريف لدين المسيح ، حتى أصبحت نصرانية ضالة كما هى فى سائر البلاد .

ومما يذكر هنا أن عبد الله بن الثامر – وكان على دين المسيح – كان له أثر كبير فى نشر المسيحية فى نجران بعد العبد الصالح فيميون .

وكان من أمر ابن الثامر أنه لما انتشرت المسيحية بين الناس دعاه ملك البلاد ، وقاله له: أفسدت علىّ أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأمثلنّ بك ، وجعل يعرضه لكل ألوان التعذيب ، والقتل ولم يقدر على قتله ، فقال له ابن الثامر: إنك لا تقدر على قتلى حتى توحد الله تعالى ، ففعل الملك ، وضرب ابن الثامر فقتله ، ثم مات الملك على الفور إلى جنبه ، وبذلك استجمع أهل نجران على الدين المسيحى ، ثم أصابهم ما أصاب غيرهم من البدع والفساد ، فكان هذا أصل النصرانية فى نجران .

ولما ملك ذو نواس الحميرى ، وكان قد دان باليهودية ، ووجد أهل نجران على المسيحية فدعاهم إلى دينه ، فأبوا عليه فحفر لهم الأخاديد وأحرق عدداً كبيراً منهم بالنار ليرجعوا عن دينهم ، فلم يرجعوا ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة البروج ، وحدث عنهم رسول الله ﷺ ، ثم إن رجلاً يقال له: دَوس قد نجا من الحريق ، وذهب إلى ملك الروم فاستدعاه على ذى نواس الذى قتل النصارى من أهل دينه ، فكتب له كتاباً إلى ملك الحبشة ، حيث هو على دين النصارى فأعطاه جيشاً قوامه سبعون ألفاً غزا به ذا نواس فهزموه ودخلوا البلاد وحكموها بعد موت ذى نواس ، وكان على رأس الجيش الحبشى أرياط وأبرهة ، فتنازعا الملك ، وغلب أبرهة أرياط وقتله ، وأصبح أبرهة الحاكم العام فى البلاد ، وملك الحبشة يدعمه ويشد من أزره . هذه قصة النصرانية فى نجران من بلاد اليمن .

أما اليهودية : فإنها لم تدم طويلاً فى بلاد اليمن ، وسبب ذلك أن تُبعاً ذا نواس لما دخل المدينة ، خرج معه حبران من أحبار اليهود وهما اللذان دعواه إلى اليهودية فقبلها ودان بها ، وعذب نصارى نجران كما تقدم ، وانتهى ملكه بموته على يد أرياط وأبرهة الحبشيين ، كما سبق ذكره . إلا أن اليهودية كانت بشمال الجزيرة بفدك وتيماء وخيبر والمدينة – التى كانت تسمى: يثرب – وسبب دخول اليهود إلى الحجاز من أرض الجزيرة هو الضغط الذى أصابهم من ملوك الروم بعد بختنصر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تطلعهم إلى النبى المُبشر به فى التوراة والإنجيل ، وأنه يخرج من جبال فاران ، وأن مُهاجره يثرب ذات النخيل والأرض السبخة ، فنـــزلوا ديار الحجاز الشمالية رجاء أن يبعث نبىّ آخر الزمان فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه ويستردوا مُلكهم المسلوب منهم من عدة قرون .

مع العلم أن اليهود كالنصارى قد فسد معتقدهم ، وضاعت شريعتهم تحت تأثير التأويل للنصوص وتحريفها ، وتغييرها وتبديلها لتوافق الأهواء والأطماع الخاصة والشهوات العارمة ، فما أصبحت اليهودية ولا النصرانية تزكى النفوس ، ولا تصلح القلوب ، ولا تهذب الأخلاق بعد فسادها ، فحاجة أهل الملتين إلى الإسلام ، كحاجة غيرهم من المجوس والوثنيين . وقد كان اليهود يستفتحون على مشركى العرب ، يقولون لهم: إن نبياً قد أظل زمانه ، ويوم يظهر نؤمن به ونُقاتلكم معه . نزل بقولهم هذا القرآن العظيم فى سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلى:

١- لم تكن النصرانية ولا اليهودية فى بلاد العرب ذات شأن يذكر ؛ إذ الوثنية هى الغالبة .

٢- الفترة التى كانت النصرانية فى نجران سليمة فى معتقداتها وشرائعها كانت قصيرة جداً ، ولذا لم يقدر لها أن تنتشر فى بلاد العرب .

ثم ما لبث أن دخلها الفساد فلم تكن صالحة للهداية والإصلاح .

٣- اليهودية ما دخلت بلاد العرب إلا بعد فسادها فلذا لم ينتفع بها أهلها فى دار هجرتهم فضلاً عن العرب الذين نزحوا إليهم وسكنوا ديارهم .

٤- نظراً لفساد الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية ، وفساد المجوسية والوثنية بالأصالة ، فإن حال الناس تتطلب ديناً سماوياً جديداً تكمل عليه الأرواح ، وتزكو وتهذب به الأخلاق ، وتتحقق به للناس السعادة والكمال فى الدنيا والآخرة ، وهو ما ستكشف عنه الأيام عما قريب إن شاء الله تعالى .

* * * * * * * * * * *

هل من حنفاء فى بلاد العرب ؟

إن الجواب عن هذا السؤال الملح هو – مع الأسف – أنه لم يكن فى بلاد العرب فى هذه

الظروف ، حنفاء يؤمنون بالله وحده ويعبدونه بما شرع مخلصين له فى ذلك . اللهم إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نُفيل الذى قال فيه رسول الله ﷺ : «**إنه يُبعث يوم القيامة أمة وحده**» ، فقد كان ينكر أعمال أهل الجاهلية ، ويصرح ببطلان دين قريش ويقول لهم: والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم من أحد على دين إبراهيم غيرى . وقال محمد بن إسحق: لقد حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو بن نفيل ؟ قال: «**نعم فإنه يبعث أمة وحده**» .

وقد مات زيد قبل بعثة الرسول ﷺ ، ومصداق هذا فى حديث مسلم إذ قال ﷺ : «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**» ، فهذا الحديث دليل واضح أنه ما بعث النبى الحبيب محمد ﷺ وفى العرب رجل واحد على دين صحيح يعبد به الله تعالى .

أما اليهود ، والنصارى: ففيهم بقايا يعبدون الله تعالى بدين صحيح من دين موسى وعيسى – عليهما السلام – لكنهم قليل جداً لا يتم على أيديهم هداية الناس ولا إصلاحهم .

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل المصرح بإيمانه وتوحيده قوله:

أَرَبًّا واحداً أم ألف رب ::: أدين إذا تقسَّمت الأمورُ؟
عَزلتُ اللاتَ والعزَّى جَميعًا ::: كذلك يفعلُ الجلدُ الصبورُ
فلا العُزى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ::: ولا صَنَمَىْ بنى عمرو أزورُ
ولا هُبلاً أدينُ وكان ربًّا ::: لنا فى الدهر إذ حِلْمى يسيرُ

وأما ورقة بن نوفل فقد دان بالنصرانية ، ومات قبل بدء الدعوة الإسلامية ، كما أن عبيد الله بن جحش بن رئاب – وإن أسلم فى أول الأمر لأنه حضر البعثة المحمدية – إلا أنه ترك الإسلام وتنصر فى الحبشة ، كما هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين ، وخلف زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فتزوجها رسول الله ﷺ رحمة بها وأناب عنه فى عقد نكاحها أصحم النجاشى ملك الحبشة – رحمه الله تعالى – .

وأما عثمان بن الحويرث فقد قدم الشام وتنصر ، وكانت له منزلة عند قيصر ملك الروم النصرانى . فهؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا قد أنكروا على قريش عبادة الأوثان ، وكانوا يصرحون بأنهم على دين إبراهيم – عليه السلام – إلا أنهم فى آخر الأمر ماتوا على غير

الحنيفية ، إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نفيل ، فإنه مات حنيفاً مسلماً على ملة التوحيد ، ويؤكد ذلك إذن النبى ﷺ لولده سعيد ، وعمر بن الخطاب بالاستغفار له ، وأخبر أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- بيان أن الناس عَرباً وعجماً قد ضلوا سواء السبيل واستوجبوا مقت الله تعالى لهم . اللهم إلا أفراداً قلائل من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فإنهم بقوا يعبدون الله تعالى بما شرع على ألسنة رسله حتى بُعث النبى الخاتم الحبيب محمد ﷺ وهم قليل .

٢- بيان أن العرب لم يبق منهم رجل واحد على دين الله الذى أرسل الله به إبراهيم وإسماعيل - والأنبياء من قبل ومن بعد - يعبد الله تعالى بما شرع ويوحده فى عبادته ، لأن زيد بن عمرو بن نفيل وإن كان موحداً إلا أنه لم يكن له شرع يعبد الله تعالى به ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه قد مات قبل البعثة المحمدية .

٣- حال الناس هذه - فى ضلالهم وعدم هدايتهم - كانت مستوجبة للبعثة المحمدية متطلبة لها بل كانت حاجتها الملحة التى لابد منها .



هذه البلاد العربية ، وقبائل العرب مفرقة فيها : خولان جنوباً ، وعذرة شمالاً ، والأزد شرقاً ، وبنو المصطلق من خزاعة غرباً .

* * * * * * * * * * *

تباشير الصباح

إن من سنن الله تعالى فى الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة ، والضياء يكون بعد الظلام ، واليسر بعد العسر .

إنه بعد ذلك الظلام الحالك الشديد الذى غطى سماء الحياة البشرية حيث عتم ظلام الشرك والكفر ، والظلم والشر والفساد ؛ إذ نظر الله تعالى إلى الناس فمقتهم عربهم وعجمهم لما هم عليه من الكفر والشر والفساد ، إلا بقايا من أهل الكتاب - فى هذا الظرف بالذات - أخذت تباشير الصباح تلوح بقرب انبثاق النور المحمدى ، تلوح هنا وهناك فى الآفاق المظلمة المدلهمة .

وها هى ذى بين يديك أيها القارئ الكريم كواكب زهر تلوح فى الأفق كوكباً بعد كوكب مؤذنة بقرب انبلاج الفجر المحمدى .

فأولاً : دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - :

فقد أخبر تعالى عنهما أنهما سألاه أن يبعث فى ذريتهما رسولاً منهم ، جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨ ، ١٢٩] .

كما أخبر هو بنفسه ﷺ مقرراً هذه الحقيقة مؤكداً لها ، قال: «أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى» .

ثانياً : أخذ الميثاق له ﷺ :

لقد أخذ الله الميثاق على كل نبى نبأه ، ورسول أرسله: أن يؤمن بمحمد ﷺ وينصره متى بُعث ، ولازم هذا أنه عرفه باسمه وصفاته . جاء هذا فى قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] .

ثالثاً : بشارات الكتب الإلهية له :

ففى التوراة يروى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنه – قوله قال: وجدت فى التوراة فى صفة النبى ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى: "يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح عيوناً عمياً وآذاناً صُماً وقلوباً غلفا بأن يقولوا: لا إله إلا الله .

وفيها أى فى التوراة أيضاً: تجلى الله من طور سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبال فاران . فتجليه سبحانه وتعالى من طور سيناء؛ المراد به إنزاله التوراة على موسى ، وإشراقه من ساعير: المراد به إنزاله الإنجيل على عيسى ، واستعلاؤه من جبال فاران: إنزاله القرآن الكريم على المبشر به محمد ﷺ إذ جبال فاران هى جبال مكة المكرمة .

وجاء فى التوراة أيضاً :

أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . فالذى يجعل الله تعالى كلامه فى فمه لن يكون إلا محمداً ﷺ إذ هو الذى يقرأ القرآن على ظهر قلب ، ولا ينطق إلا بما جاء فيه ، ودعا إليه من الحق والهدى والخير .

وجاء فى الإنجيل :

"فى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات" . فقوله: لا قد اقترب ملكوت السماوات: إشارة إلى النبى محمد ﷺ ، وبشارة به وبقرب بعثته ، إذ هو الذى ملك وحكم بقانون السماء الذى هو شرع الله تعالى .

وجاء فيه أيضاً :

قدم لهم مثلاً آخر قائلاً: "يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول" ، فهذه البشارة هى عينها التى فى القرآن ، إذ قال تعالى فى سورة الفتح: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وجاء فيه أيضاً :

"أنطلق لأنى – إن لم أنطلق – لم يأتكم "البار قليط" فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ، ذاك الذى يوبخ العالم على خطيئته" . فهذه بشارة كاملة بالنبى الذى يوبخ العالم على خطيئته ؛ إذ بعث ﷺ والعالم كله فى ظلمات الشرك والكفر ، وقد مقت الربّ تبارك وتعالى الناس عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقد تقدم بيان ذلك .

وجاء فى الزبور :

"ومن أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد أيها الجبار بالسيف لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك ، اركب كلمة الحق ، وسمة التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، وسهامك مَسنونة ، والأمم يَخرون تحتك" .

رابعاً : قال أشعيا النبى – عليه السلام – :

وُلد لنا غلام يكون عجباً وبشراً ، والشامة[١] على كتفيه ، أركون[٢] السلام إله جبار وسلطانه سلطان السلم يجلس على كرسيّ داود .

وقال أيضاً :

قيل لى: قم ناظراً ، فانظر ماذا ترى ؟ قلت: أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل ، ويقول أحدهما لصاحبه: سقطت أصنام بابل للبحر . إن الراكبين هما عيسى ومحمد – صلى الله عليهما وسلم – وسقوط أصنام بابل كان على يد أمة محمد ﷺ .

وقال حزقيل – عليه السلام – :

قال حزقيل – عليه السلام – وهو يصف للناس أمة محمد ﷺ : إن الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبياً ، ومنـــزل عليهم كتاباً ، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحقّ ، ويخرج رجال من بنى قيذار[٣] فى جماعات الشعوب ومعهم ملائكة على خيل بيض متسلحين فيحيطون ، وتكون عاقبتكم إلى النار .

---

(١) الشامة: خاتم النبوة بين كتفيه عليه السلام .
(٢) الأركون: العظيم .
(٣) قبائل من ولد عدنان بن إسماعيل .

وقال دانيال – عليه السلام – :

فظهر لى الملك فى صورة شاب حَسَنِ الوجه ، فقال: السلام عليكم يا دانيال إن الله يقول: إن بنى إسرائيل أغضبونى ، وتمردوا على وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فسلطت عليهم بختنصر ، فقتل رجالهم وسبى ذرياتهم ، وهدم بيت مقدسهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم . وأنا غير راض عنهم ، ولا مُقيلهم عثراتهم ، فلا يزالون مغلوبين عليهم الذلة والمسكنة ، حتى أبعث فيهم نبياً من بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر وأرسلت إليها ملاكى فبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوى ، وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلىّ من سماء إلى سماء حتى يعلق فأدنيه ، وأسلم عليه ، وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادى بالسرور والغبطة ، حافظاً لما استودع ، صادعاً بما أمر ، يدعو إلى توحيدى باللين من القول ، والموعظة الحسنة ، لا فظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، رءوف بمن والاه ، رحيم بمن آمن به ، خَشِن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى فيكذبونه ويؤذونه .

شهادات أهل الكتاب :

قال بعض أهل المدينة ممن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام فأسلموا لله ظاهراً وباطناً: إن مما دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله وهداه لنا – أن كنا نسمع من رجال يهود ، إذ كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا: إنه قد تقارب لنا زمان نبى يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعّدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا به وكذبوه ، وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] .

وقال ابن الهيتان اليهودى: – عند موته بالمدينة وقد جاء من الشام–: يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخبز إلى أرض البؤس والجوع ؟ فقالوا له: أنت أعلم .

فقال: إنى قدمت هذه البلدة أتوقع خروج نبى قد أظل زمانه ، هذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه إنه قد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود !!

وقال صاحب عمورية : - وكان على دين المسيح -: قال لسلمان الفارسى ، وقد تنقل إليه من رجل دين إلى آخر حتى انتهى إليه بوصية وُصى بها ، وقد حضره الموت: قال له: "والله ما أعلم أنه أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما كان عليه هؤلاء - الرهبان الذين تنقل بينهم سلمان - آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم - عليه السلام - يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين ، بينها نخل - إنها المدينة ورب الكعبة - به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل" .

هُتاف الجن بالبشرى :

إن من جملة تباشير الصباح - التى سبق طلوع الفجر المحمدى - أن كثرت الشهب فى السماء ورجمت الشياطين الأمر الذى اندهش له الناس ، وفزعت له الكهان من نساء ورجال ، وهذا سواد بن قارب - رضى الله عنه - يَمر بين يدى عمر بن الخطاب ، فيقول له رجل: يا أمير المؤمنين هل تعرف من المار ؟ فيقول عمر: لا ، ومن هو ؟ فيقول له: هذا سواد بن قارب الذى أتاه رئيه بظهور النبى ﷺ وعندها أرسل إليه عمر ، فجاءه فقال له: أنت سواد بن قارب ؟ قال: نعم ، قال: أأنت الذى أتاك رئيك من الجن بظهور النبى ﷺ ؟ قال: نعم ، قال: أفأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ فغضب سواد وقال: ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر: سبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك . فأخبرنى بإتيانك رئيك بظهور النبى ﷺ . قال: نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذ أتانى رئى فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل: إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتطلابها ::: وشدِّها العيس[1] بأقتابها
تهوى إلى مكةَ تبغى الهُدى ::: ما صادقُ الجن ككذابها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ::: ليس المقاديمُ[2] كأذنابها

---

(١) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف .
(٢) المقادم: الأوائل والأذناب: الأواخر .

ثم ذكر أنه أتاه ليلتين بعد الأولى وهو فيها كلها بين النائم واليقظان ، وقال له: قم يا سواد بن قارب ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، وأنشده فى كل ليلة أبياتاً منها قوله:

أتـــانى نجـــىٌّ بعـــد هـــدء ورقـــدة ::: ولم يـــكُ فـــيما قـــد تلوتُ بكاذب
ثلاثَ ليـــال قولُـــه كُـــلَّ ليلـــةٍ ::: أتاك رسولُ من لؤى بـــن غالــــب

ولما بعث النبى ﷺ أسلم سواد وأتى النبى ﷺ وقصّ عليه قصة رئيه ، وأنشد الأبيات التالية:

فأشـــــهدُ أنّ الله لا ربّ غــــيره ::: وأنّـــك مـــأمونٌ عـــلى كل غائب
وأنـــك أدنى المرســـلين وســـيلة ::: إلى الله يـــا ابـــن الأكرمين الأطايب
فَمُـــرْنا بمـــا يأتـــيك من وَحْيِ ربنا ::: وإن كـــان فيما قلتَ شيبُ الذوائب
وكـــن لى شفيعاً يـــوم لا ذو شفاعة ::: بمغن فتيلاً عن ســـواد بـــن قـــارب

أما كثرة الشهب ورمى الشياطين بها ، ومنعهم من استراق السمع فقد جاء ذكره فى القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى: من سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ٨ - ١٠] .

حادثة أصحاب الفيل :

إن المراد من حادثة أصحاب الفيل هو غزو أبرهة الأشرم عامل ملك الحبشة على اليمن ، وكان سبب غزوه مكة - حماها الله من كل جبار ظالم - أنه أراد التقرب إلى ملك الحبشة لأمر حدث بينهما ، فبنى بصنعاء بيتاً لم يُرَ مثله ، وسماه "القُلَّيس" وقال: إنه يدعو الناس لحجه بدل الكعبة فى مكة المكرمة لتتحول تجارة العرب إلى اليمن ، فسمع بذلك رجل كنانى فأتى القليس وأحدث[1] فيه وذهب ، فبلغ ذلك أبرهة ، فحلف أن يغزو مكة ويهدم الكعبة . وجهز جيشاً قوياً ، وأخرج معه الفيل المسمى محموداً ، وسار فى طريقه ، وكلما اعترضته قبيلة من القبائل العربية لتصده ، قاتلها وهزمها ، حتى انتهى إلى مشارف الحرم ، فبعث رجاله فساقوا ماشية أهل مكة ومن بينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم شيخ مكة ورئيس قريش بها ، ثم جرت سفارة

---

(١) أحدث: تغوط - ووضع البراز على الجدران ومسحها به - بالعذرة - .

انتهت بمفاوضات طالب فيها عبد المطلب بإبله ، وأما البيت فقد قال قولاً سار مثلاً: "إن للبيت رباً يَحميه" ، ولما علم عبد المطلب عجز قومه على مقاومة هذا العدو الظالم ذى الجيش العارم الجرار أمر أهل مكة أن يلتحقوا بشعاف الجبال وقممها حتى لا تلحقهم معرة الجيش الغازى ، ففعل ذلك أهل مكة ، ووقف عبد المطلب بباب الكعبة آخذاً بحلقته وهو يقول:

لاهُمَّ إن العبد يَمنعُ ::: رحلَه فامنعْ حَلالَك
لا يغلبنَّ صليبُهم ::: وَمحالُهم غدوا محالك
إن كنتَ تاركَهم وملتنا ::: فأمرٌ ما بدا لك
وانصرْ على آلِ الصليب ::: وعابديه اليومَ آلك

فلما أصبح أبرهة ، وتهيأ لدخول مكة ، ووجه الفيل إلى مكة أبى الفيل أن يمشى ، فإذا وجهه إلى غيرها مشى ، وما زال يُحاوله حتى أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل من البحر يحمل كل طير ثلاثة أحجار ، واحدة بمنقاره ، واثنتين برجليه ، فما أصابت رجلاً إلا أخذ لحمه يتساقط ، وطلبوا من يدلهم على الطريق ليعودوا هاربين إلى اليمن . فقال دليلهم:

أَينَ المفرُّ والإلهُ الطالبُ ::: والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبَ

وانتهت الحال بهزيمة أبرهة وهلاكه ، وأما أبرهة فقد نُقل مثخناً بجراحاته إلى صنعاء فمات بها ، وقد أنزل الله تعالى سورة الفيل متضمنة هذه الحادثة إجمالاً ، وهى آية صدق النبوة المحمدية .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتى:

١- بيان بداية أمر النبى ﷺ ، وأنها كانت من عهد إبراهيم – عليه السلام – .

٢- بيان استجابة الله تعالى دعوة خليله إبراهيم – عليه السلام – .

٣- بيان علو شأن الحبيب محمد ﷺ وكمال شرفه الذى لا يُدانى فيه ؛ وذلك بأخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء وأممهم بأنه متى بعث النبى محمد ﷺ آمنوا ونصروه وعزروه .

٤- بيان كمال خلق الحبيب محمد ﷺ الذى تجلى فيما وصفه به ربه تعالى فى التوراة ،

وعلى لسان الملك الذى نزل على النبى دانيال – عليه السلام – .

٥- بيان شرف العرب ، وما حباهم ربهم تعالى به من بعثة أفضل أنبيائه ، وجعله حرزاً لهم فكملوا وسعدوا به بعد أن آمنوا به وبما جاء به واتبعوا النور الذى أنزل عليه وهو القرآن الكريم .

٦- إثبات نبوة الحبيب محمد ﷺ ، وتقريرها بشهادات التوراة والزبور والإنجيل ، وأنبياء بنى إسرائيل ، ومؤمنى الجن ، وصالحى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الأمر الذى يصبح معه إنكار رسالته ﷺ ضرباً من السفه والحمق والضلال العقلى ، والحكم بالخسران الأبدى لصاحبه .

٧- فى هزيمة أبرهة وجيشه بخارقة لم يُعرف مثلها: أكبر آية على قرب طلوع الفجر المحمدى .

٨- إن العبرة من هذا الذى تقدم فى هذه المقطوعة من السيرة ، هو وجوب الإيمان اليقينى بنبوة محمد ﷺ ، ووجوب اتباعه وتعظيمه ، ومحبته فوق محبة النفس والمال والأهل والولد .

* * * * * * * * * * *

طلوع الفجر المحمدى أو الميلاد السعيد

من عام الفيل وفى شهر ربيع الأول الذى أصبح يعرف بربيع الأنور ، ومن ليلة الثانى عشر منه طلع فجر النبوة المحمدية .

هذا الذى عليه أكثر المؤرخين للميلاد النبوى السعيد .

الحمــــــلْ قـــــبلَ المـــــيلاد
والمصاهـــــرةُ قبـــــلَ الحمـــــلِ

والوالـــــدُ قـــــبلَ الولـــــد
ولكـــــلٍّ زمـــــانٌ ومكـــــانُ

فى بطحاء مكة ، وفى بيت عريق فى الشرف – بيت شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قُصى – زوّج عبد المطلب ولده عبد الله الذبيح ، سليلة الشرف أشرف فتاة

وأعفها وأكملها خَلقاً وخُلقاً آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب الزهيرة القرشية .

أما عبد الله الولد فللقبه بالذبيح قصة من أظرف القصص وأطرفها تتشنف الآذان بسماعها ، وتهفو القلوب لذكرها ، وهذا عرضها باختصار حتى لا نبعد من ساحة الأنوار .

كانت زمزم قد طمرتها جرهم عند مغادرتها مكة لظلمها ، فانهزامها ، وكان ذلك منها نقمة على أهلها الذين حاربوها وطردوها . وظلت زمزم مطمورة إلى عهد شيبة الحمد عبد المطلب ، فأرى فى المنام مكانها وحاول إعادة حفرها ، ومنعته قريش ، ولم يكن له يومئذ من ولد يعينه على تحقيق مراد إلا الحارث ، فنذر لله تعالى إن رزقه عشرة من الولد – يحمونه ويعينونه – ذبح أحدهم ، ولما رزقه الله عشرة من الولد وأراد أن يفى بنذره لربه فاقترع على أيهم يكون الذبيح ، فكانت القرعة على عبد الله ، وهَم أن يذبحه عند الكعبة ، فمنعته قريش ، وطلبوا إليه أن يرجع فى أمره إلى عرافة بالمدينة تفتيه فى أمر ذبح ولده . فأرشدته إلى أن يضع عشراً من الإبل – وهى دية الفرد عندهم – وأن يضرب بالقداح على عبد الله وعلى الأبل ، فإن خرجت على عبد الله الذبيح زاد عشراً من الإبل وإن خرجت على الإبل فانحرها عنه ، فقد رضيها ربكم ، ونجا صاحبكم !! فوصلوا إلى مكة وجيء بالإبل وصاحب القداح ، وقام عبد المطلب عند هُبل داخل الكعبة يدعو الله عز وجل ، وأخذ صاحب القداح يضربها ، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرة من الإبل حتى بلغت مائة ، كل ذلك وعبد المطلب قائم يدعو الله عز وجل عند هبل ، فقال رجال قريش: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات ففعل فكانت فى كل مرة تخرج على الإبل ، وعندها رضى عبد المطلب ونحر الإبل وتركها لا يصد عنها إنسان ولا حيوان ، ونجى الله تعالى – والحمد لله لا لسواه – عبد الله والد رسول الله . فهذا سبب لقب عبد الله بالذبيح ، وهو أحب أولاد عبد المطلب العشرة إليه ، وزاده حباً فيه هذه الحادثة العجيبة .

وأكرم الله تعالى عبد المطلب بإعادة حفر زمزم إذ وافقته قريش على حفرها ، وكانت موافقتها لآية شاهدتها لعبد المطلب ، وهى أنهم لما منعوه من حفرها وأبى عليهم ذلك ، قالوا نختصم إلى الكاهنة ، وهى كاهنة بنى سعد ، وكانت بأعالى الشام ، فذهبوا إليها وأثناء سيرهم فى طريقهم إليها عطشوا لنفاد مائهم ، فلما ظنوا الهلاك ، وإذا بعين تنفجر تحت خف ناقة عبد المطلب ، فقاموا فشربوا وسقوا ، وعندها أذعنوا لأمر عبد المطلب ورضوا له بحفر بئر زمزم

خالصة له دون غيره من أهل مكة .

نتائج وعبر :

إن من نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

١- فزع عبد المطلب إلى الله تعالى يدعوه وفي كل النوائب دليل على أن مشركي العرب ما كانوا ملاحدة ، بل كانوا يؤمنون بالله رباً خالقاً رازقاً مدبراً ، والقرآن شاهد بهذا .

٢- دعاء عبد المطلب الله تعالى عند هبل استشفاعاً به وتوسلاً ورثه الشيطان جهال المسلمين ، فإن أحدهم يأتي قبر الولي ويدعو الله تعالى عنده استشفاعاً بالولي ، وتوسلاً به على سنة عبد المطلب الجاهلي والعياذ بالله تعالى .

٣- كرامات عبد المطلب التي أكرمه الله بها كرؤيا بئر زمزم وحفرها ، والماء الذي نبع من تحت خف ناقته ، وخروج القداح على الإبل لا على ولده هي في الظاهر كرامات لعبد المطلب ، إلا أنها في الحقيقة هي آيات النبوة المحمدية وتباشيرها .

٤- مواصلة ضرب القداح حتى بلغت مائة كانت مبدأ تقرير دية الرجل ، وهي مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام فكانت دية الرجل المؤمن والمرأة على النصف منها .

* * * * * * * * * * *

الحمل والميلاد

لقد تزوج عبد الله آمنة زوجه بها والده عبد المطلب على إثر نجاته من الذبح ، وفاء بالنذر ، وبنى بها على عبد الله وحملت منه بالحبيب محمد ﷺ وواكبت حمله ووضعه آيات نبوته التالية:

١- إنه ولد ﷺ من نكاح شرعي لا من سفاح جاهلي ، وهي عصمة إلهية لا يقدر عليها إلا الله .

٢- إن آمنة لم تجد أثناء حملها به ﷺ ما تجده الحوامل عادة من الوهن والضعف ، فكان هذا آية .

٣- إن آمنة لما حملت به ﷺ ولما وضعته رأت نوراً خرج منها فأضاء لها قصور الشام ،

فقد سئل ﷺ عن نفسه فقال: «**أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام**» .

٤- إن آمنة لما حملت به ﷺ أتاها آت: إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وضع فى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصرى من أرض الشام ، فإذا فسميه محمداً ، فإن اسمه فى التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض .

٥- إنه ولد ﷺ مسروراً أى مقطوع السرة على خلاف المواليد فى قطع القوابل سرارهم المتصلة بأمهاتهم .

٦- إنه ولد ﷺ مختوناً أى مقطوع غلفة الذكر ، فلم يختتن كما يختتن المواليد ، ولهذا أعجب به جده عبد المطلب ، وقال: سيكون لابنى هذا شأن عظيم وحظى عنده بأكرم منـــزلة .

٧- انكسار البرمة التى وضعت عليه بعد ولادته على عادة النساء من قريش ؛ إذ وجدت منكسرة على شقين ولم يمت تحتها ﷺ فكانت آية نبوته ﷺ .

٨- ارتجاج إيوان كسرى بفارس وسقوط أربع عشرة شُرفة من شرفاته .

٩- خمود نار فارس التى لم تخمد منذ ألف سنة .

١٠- امتلاء البيت الذى ولد به نوراً ، ورؤية النجوم وهى تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه ﷺ ، رأت هذا أمه والقابلة التى كانت معها وحدثتا به ، وهو حق لا باطل وصدق لا كذب .

فهذه عشر آيات واكبت ميلاده ﷺ إعلاناً عن نبوته ، وإعلاماً بعلوّ شأنه ، وإخبارًا بما سيئول إليه أمره ، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

ولد ﷺ بدار المولد المعروفة بدار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ، وهى الآن مكتبة عامة ، وكان ذلك عام الفيل كما تقدم ، أى بعد غزو أبرهة الأشرم وهزيمته بقرابة خمسين يوماً ، فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد ﷺ دالة على صدق نوبته وصحة رسالته وعظم شأنه فى العالمين .

ولد بعد وفاة والده عبد الله بكذا شهر ، إذ تركه حملاً فى بطن أمه وسافر للتجارة فى أرض غزة من فلسطين ، حيث توفى جده هاشم إلا أن عبد الله عاد منها فمرض فى طريق عودته ، فنـــزل عند أخواله من بنى عدى بن النجار ، فمات عندهم بالمدينة النبوية ، وقبره معروف المكان إلى عهد قريب ، حيث أخفى لزيارة الجهال له ، والاستشفاع به ، وحق دعائه- والعياذ بالله – وهذا لغلبة الجهل على المسلمين لقلة العلماء ، وقلة الرغبة فى طلب العلم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الأرقام التالية:

١- بيان شرف أبوى الرسول ﷺ وطهارتهما ، وفى هذا ما يوجب إكباره ﷺ ومحبته وتقديره .

٢- الآيات العشر التى واكبت حمله وولادته تقرر نبوته ، وسيادته على الناس أجمعين .

٣- فى الآية الثالثة إشارة واضحة إلى عموم رسالته وانتشار دينه فى الشرق والغرب .

٤- فى الآية الثامنة – وهى سقوط أربع عشرة شرفة من شرفات القصر – آية نبوته ﷺ إذ تداول ملك الفرس فى خلال أربع سنوات عشرة ملوك وملكات ، وتمّ الأربعة الباقون فى عهد الخلفاء الراشدين – رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين – .

* * * * * * * * * * *

رضاع الحبيب ومراضعه ﷺ

إن أول مرضع تشرفت برضاعه ﷺ والدته الشريفة العفيفة الطيبة الأردان آمنة بنت وهب الزهرية التى رأت من آيات النبوة ما رأت ، ثم ثويبة مولاة أبى لهب التى أرضعت عمه حمزة ، كذلك فكان أخا للنبى من الرضاعة ، وهو عمه صنوُ أبيه . ثم أرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية من بنى سعد بن بكر رضع مع ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى . وقد رأت فى إرضاعه ﷺ آيات فلنتركها – رضى الله عنها – تحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوته ﷺ .

إنها قالت: خرجت من بلدى مع زوجى وابن صغير لنا نرضعه فى نسوة من بنى سعد

نلتمس الرضعاء ، وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً خرجنا على أتان[١] لنا قمراء ، ومعنا شارف[٢] لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبينا الذى معنا من الجوع ؛ إذ ما في ثديّ ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج ، خرجنا نلتمس الرضعاء في مكة فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبيّ فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما أجمعنا العودة إلى بلدنا قلت لزوجى: والله إنى لأكره أن أرجع و لم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فآخذه ، فقال لى: لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على ذلك إلا أننى لم أجد غيره ، فلما رجعت به إلى رحلى ووضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى رُوى وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم نام ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا هى حافل[٣] ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ، فلما أصبحنا قال لى زوجى: تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قلت: والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمرهم حتى إن صواحبى قلن لى: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربعى[٤] علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فقلت لهن: بلى والله إنها لهى هى ، فقلت: والله إن لها لشأناً . ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذُؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لُبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه (أى سنتا رضاعه) وفصلته[٥] ، وكان يَشبُّ شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفرا "غليظاً" فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ؛ لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بنى عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به ، وبعد مقدمنا بأشهر وإنه لفى بهم[٦] لنا مع

---

(١) حمارة .
(٢) شارف: الناقة المسنة الهرمة .
(٣) حافل: امتلأت باللبن .
(٤) أربعى: توقف وانتظر .
(٥) فصلته: فطمته عن الرضاع .
(٦) البهم: أولاد البقر والمعز والضأن .

أخيه خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً "متغيراً" وَجهه فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له: مالك يا بنى ؟ قال: جاء لى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ما هو؟ فرجعنا به إلى خبائنا ، وقال لى أبوه: يا حليمة لقد خيشت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت: ما أقدمك به ياظئر[1] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها قد: بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين ، قالت: ما هذا شأنك ؟ فأصدقينى خبرك ، فلم تدعنى حتى أخبرتها . قالت: أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت: نعم ، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا ، أفلا أخبرك به ؟ قلت: بلى ، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بُصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علىّ ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقى راشدة .

هكذا كان استرضاعه ﷺ فى بادية بنى سعد شأنه شأن أبناء سادات قريش يرضعون لأولادهم فى البوادى ليصحوا أجساماً ، ويفصحوا لساناً ، ويقووا جناناً ، ولقد قال مرة ﷺ مُعتزاً بشرف أصله واسترضاعه فى البادية: «أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر» .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نوجزها فيما يأتى:

١- بيان عدد مرضعاته وأنهن ثلاث الأم السرية آمنة ، وثويبة مولاة عمه أبى لهب ، وحليمة السعدية رضى الله عنها .

٢- بيان مدة رضاعه وأنها كانت حولين كاملين ، وهى المدة التى قررها الإسلام .

٣- بيان ما نال حليمة السعدية وأسرتها من خير وبركة ، وما فازت من شرف لا يقادر قدره بإرضاعها رسول الله ﷺ وحبها له .

---

(١) الظئر: المرضعة لولد غيرها .

٤- حبّ النبى ﷺ موجب للخير دافع للشر فإن حب أبى لهب له لما بشر بولادته نفعه فرؤى فى المنام وإنه يعذب لموته على الشرك والكفر ، إلا أنه يمتص من أنملته ماء كل يوم اثنين وهو يوم ولادته ﷺ وتبشيره به .

٥- تقرير الإسلام لمشروعية الإرضاع حولين كاملين لمن أراد ذلك .

٦- بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ لتلقى الوحى عنه بشق صدره ونزع مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل ينـــزل به ليوسوس .

٧- بيان آيات نبوته التى رأتها آمنة والدته يوم حملها ويوم وضعها .

٨- جواز الاعتزاز بالخير الذى يعطيه الرب تبارك وتعالى عبده ، ويكرمه به ، لكن مع شكر المنعم سبحانه وتعالى على ما أولى العبد من خير وفضل .

* * * * * * * * * * *

كُفلاء الحبيب محمد ﷺ وحاضنته

لقد عادت بالحبيب ﷺ مرضعته حليمة السعدية لتكفله أمه آمنة ، ويرعاه جده عبد المطلب ، والله تعالى كالئ الكل وحافظهم ، وبهذا كانت آمنة الوالدة أول كافل للنبى ﷺ فى صباه ، وشاء الله تعالى أن تخرج آمنة بغلامها الزكىّ النقىّ الطاهر إلى يثرب "المدينة المنورة" لتزيره أخواله من بنى عدى بن النجار ، إذ هم أخوال أبيه ، وخال الأب خال الابن ، لأن أم عبد المطلب والد عبد الله هى سلمى بنت عمرو النجارية . ولما وصلت آمنة الأبواء - عائدة من المدينة إلى مكة - أدركتها المنية فماتت بها ، وحضنت الحبيب محمداً الغلام اليافع مولاة أبيه أم أيمن بركة - باركها الله ورضى عنها - إنها أم أسامة حِب رسول الله ﷺ وابن حبه زيد بن حارثة مولاه - رضى الله عنه وأرضاه - فوصلت به حاضنته أم أيمن مكة المكرمة ، فسلمته إلى جده عبد المطلب فكفله ، فكان ثانى الكفلاء لرسول الله ﷺ ، ولقد لقى محمد الغلام الطاهر من الحفاوة والتكريم والإجلال والتقدير من جده الكفيل ما لا يقادر قدره ، ولا يعرف مداه .

ومات الجد الرحيم والكافل الكريم ، وسن النبىّ ﷺ ثمان سنوات ليكفله بوصية خصوصية من عبد المطلب عنه أبو طالب وهو شقيق أبيه . فكان أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ فى صباه ، وما زال فى كفالته حتى بلغ سن الرشد ، ثم لازمه أبو طالب العم الكفيل فلم يتركه ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد حتى قبضه الله فى السنة الحادية عشرة من البعثة

النبوية العظيمة . ومات أبو طالب – مع الأسف – على غير ملة الإسلام لما سبق فى قضاء الله تعالى أنه يموت غير مسلم ، ولا راد لما قضى الله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هى كالتالى:

١- بيان يُتم النبى ﷺ ؛ إذ مات والده وهو حمل لم يولد بعد ، وماتت والدته وهو فى السادسة من عمره ، وفى القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: ٦] .

٢- بيان من شرفه الله تعالى بكفالة نبيه أيام طفولته ﷺ .

٣- بيان شرف بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ ، إذ أكرمها الله بحضانته بعد وفاة أمه ﷺ .

٤- تقرير عقيدة القضاء والقدر ، وأن السعيد من سعد فى بطن أمه ، والشقى من شقى فى بطن أمه كذلك ، إذ رفعت الأقلام وجفت الصحف بما هو كائن .

٥- بيان أن فعل الخير لا يعدم فاعله جوازيه ، فإن أبا طالب أخبر النبى ﷺ عنه أنه فى النار لموته على غير الإسلام ، وأخبر أنه يخفف عنه العذاب لما قدم لرسول الله ﷺ من عون وحماية طيلة حياته معه فى مكة .

* * * * * * * * * * *

مظاهر الكمال المحمدى قبل النبوة

إن الفترة التى قضاها الحبيب ﷺ من أيام طفولته إلى يوم مبعثه ، كانت حقاً زاخرة بمظاهر الكمالات المحمدية ، وكلها دلائل لنبوته ، وآيات كمالاته وها نحن نستعرض مع القارئ الكريم طرفاً منها طلباً لكمال محبته واليقين فى الإيمان به ﷺ .

وإن أول تلك المظاهر الكمالية الاستسقاء به ﷺ وهو طفل لم يبلغ بعد . فقد ذكر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد عبد الوهاب – رحمه الله – فى مختصره ، أن ابن عساكر روى عن جُلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام ، وما فى

السماء قُزعة(١) ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق(٢) ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى . وفى هذا قال أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمـــامُ بوجـــهِهِ ::: ثمـــالُ اليتامـــى عصمـــةٌ للأرامل(٣)

فهذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب ﷺ ، وهو مظهر من مظاهر الكمال ، إذ ألهم الله تعالى أبا طالب أن يستسقى به ﷺ وهو طفل فيأخذه ويأتى به الكعبة ، ويلصق ظهره بها ، ويرفع الغلام بين يديه ، ولسان حاله يقول: اسقنا ربَّنا فقد توسلنا إليك بهذا الغلام المبارك فيسقيهم الله تعالى حتى يجرى واديهم وتخصب أراضيهم . فكانت هذه من طلائع النبوة وتباشيرها .

نتيجة هذا المظهر :

إن نتيجة هذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى: هى تقرير النبوة المحمدية وتأكيدها ؛ لتثمر بعد ذلك حب النبى ﷺ وتعلق القلب به حتى يكون أحب إلى المرئ من نفسه التى بين جنبيه ، ويصبح المحب مستعداً – نفساً – لترك ما يحب لمحبوبه ﷺ ، وبذلك تتم الطاعة لرسول الله ﷺ ومتابعته فيما جاء عقيدة وعبادة وخُلقاً وأدباً ، وهذه سبيل النجاة من المرهوب ، والظفر بالمحبوب فى الدارين ، وتلك غاية الطالبين الصالحين .

وثانى تلك المظاهر للكمال المحمدى:

أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط بعد أن حدث له مرة وهو ينقل الحجارة مع رجالات قريش لبناء الكعبة المشرفة ، وكانوا يرفعون أزرهم على عواتقهم يتقون بها ضرر الحجارة ، وكان هو ﷺ يضع الحجارة على عاتقه وليس عليه شيء ، فرآه عمه العباس – رضى الله عنه – فقال له: لو رفعت من إزارك على عاتقك حتى لا تضرك الحجارة . ففعل ﷺ فبدت عورته ، فوقع على وجهه فوق الأرض ، ونودى: "استر عورتك" ، أى ناداه ملك ، فما رؤيت له بعد ذلك عورة أبداً .

---

(١) قزعة: صغار قطع السحاب .
(٢) الغدق: المطر غزر وكثر قطره .
(٣) ثمال اليتامى: غياثهم الذى يقوم بأمرهم .

نتيجة هذا المظهر :

إن لهذا المظهر نتائج هي كالتالي:

١- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ ، وحفظه له من كل ما يسيء إلى مقامه الرفيع ، ومكانته السامية .

٢- كشف العورات مما جاء الإسلام بتحريمه ومنعه إلا من ضرورة تطبيب ونحوه .

٣- بيان مشاركة النبي ﷺ قومه فيما هو خير ومعروف ، وهو مظهر من مظاهر كماله ﷺ ذاتاً وروحاً وخلقاً .

وثالث مظاهر الكمال: أنه ﷺ قد بغض الله تعالى إليه الأوثان وكل أنواع الباطل التي كان يأتيها فتيان قريش ورجالاتها من الغناء وشرب الخمر والقمار ، وسائر الملاهي ، وقد أخبر ﷺ عن ذلك عن نفسه فقال: «**لما نشأت بُغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس كان لبعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مثل ذلك مرة أخرى**»[1] .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل مبعثه ﷺ نتائج هي كما يلي:

١- حماية الله لرسوله ﷺ من كل ما يسيء إلى سامي مقامه وعظيم منـــزلته - فداه أبي وأمي - .

٢- بيان رعيه ﷺ الغنم في البادية وهي سنة الأنبياء من قبله ، فقد قال ﷺ : «**ما من نبي إلا وقد رعى الغنم**» ، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال: «**ولا أنا فقد كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**» .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه .

٣- إن الحكمة من رعى الأنبياء للغنم هى الإعداد لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين ؛ لأن الغنم وهو الضأن والمعز أضعف من الإبل والبقر ، وأحوج إلى الرفق ، والإنسان أضعف منها ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين ، وعدم الشدة والعنف .

ورابع المظاهر للكمال: هو تحكيم قريش له فى أعظم خلاف لها كاد يفضى بها إلى الحرب والقتال ، وذلك أن السيل كان قد طغى على الكعبة فغمرها بالمياه وزلزل بناءها ، وكاد يهد أركانها ، وتشاورت قريش طويلاً فى إعادة بناء الكعبة بعد الذى أصابها ، وكانت تتهيب أن تمس الكعبة بشىء ، لا سيما هدمها وتجديد بنائها مخافة أن تنالها عقوبة من الله رب الكعبة وحاميها من كل كيد يُراد لها ، وبعد أخذ ورد أقدمت على هدمها وتجديد بنائها بعدما أعدت لذلك عدته ، ومنه المال الحلال ، وفعلاً وزعت أركانها على قبائلها ، وشرعت فى الهد والبناء ، ولما ارتفع جدار الكعبة وبلغ موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يتشرف بوضع الحجر مكانه من الركن اليمانى الشرقى ، وتنافسوا فى ذلك وشحوا به على بعضهم حتى كادوا يقتتلون . وأخيراً ألهمهم الله تعالى إلى تحكيم أول من يقبل من باب الصفا ، وما زالوا كذلك حتى أقبل محمد ﷺ ، فما إن رأوه مقبلاً حتى قالوا: هذا محمد الأمين رضينا به حكماً . وفعلاً رضى ﷺ بتحكيمهم له ، فأمرهم أن يبسطوا ثوباً فوضعه فيه ثم أمر ممثلى قبائل قريش أن يأخذ ممثل كل قبيلة بطرف ورفعوه ، ولما حاذوا به مكانه من الجدار رفعه بيديه الكريمتين فوضعه مكانه ، وبذلك حقنت دماء قريش ، وعادت الألفة والمودة بين رجالات قريش . فكان هذا الحكم والتحكيم أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدى قبل إنبائه وإرساله نبياً ورسولاً .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى نتائج هى فيما يلى:

١- تقرير الكمال المحمدى الذى دل عليه وصف قريش له بأنه الأمين إذ لم يعرف بخيانة فى عرض ولا مال ولا قول ولا عمل قط .

٢- حسن السياسة التى بها حقنت دماء قريش التى كادت تسيل من شدة الخلاف واحتدامه .

٣- إظهار شرف محمد ﷺ على كافة رجالات قريش بتحكيمهم إياه ورضاهم

بحكمه ، وبهذا وغيره قامت الحجة على أكثرهم فى إنكارهم نبوته ، واعتراضهم على رسالته ، واتهامهم إياه بالنقائص ، وهو أكملهم على الإطلاق .

وخامس المظاهر للكمال المحمدى: اعتراف بحيرا الراهب بكماله وبنبوته ووصيته عمه أبا طالب به ، وذلك أنه لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره أو ما يقاربها وأراد أبو طالب – وهو عمه وكافله – السفر إلى الشام صحبة قافلة تجارية عز على أبى طالب أن يخلف محمداً وقد امتلأ قلبه بحبه ﷺ .

وعز على محمد ﷺ أن يفارقه عمه كذلك ، فتعينت الصحبة فصحبه أبو طالب معه إلى الشام مجتازين ديار ثمود وبلاد مدين إلى الشام ، وانتهوا إلى بُصرى من ديار الشام فنــزلوا منــزلاً قريباً من صومعة راهب هو بحيرا ، وكان بحيرا ذا علم بالمسيحية والكتب الأولى ، وكان رأساً فى المنطقة لعلمه وفضله .

وشاء الله تعالى أن يُطل من أعلى صومعته فيرى قافلة قريش وهى مقدمة نحوه ، وأن بينها غلاماً تظلله غمامة من الشمس ، ولما وقفت القافلة للنــزول ، ونزلت رأى الغمامة تقف فوق الغلام لا تتعداه تحفظه من حرّ الشمس ، فعلم أن لهذا الغلام شأناً . وكيف يصل إليه ويجرى الحديث معه ليعرف شأنه ؟ فما كان من الراهب إلا أن دعا القافلة إلى طعام عشاء عنده بعنوان ضيافة ، وقبلت ذلك بعد تردد واستفسار عن مثل هذه الضيافة التى لم تحصل لقوافلهم المتعددة قط ، وطمأنهم بحيرا بأنه لا غرض له إلا إكرامهم ، والتعرف على أحوالهم .

ولما حضر الطعام وتقدم الأكلة لم ير بحيرا الغلام الذى رأى الغمامة تظله ، فتعجب وقال للقوم: هل تخلف من قافلتكم أحد ؟ فقالوا: لا ، فقال: بلى ، أين الغلام الذى كان معكم؟ فجاءوا به ، وقد تخلف لصغره وحيائه أن يطعم مع رجالات قريش فبقى فى رحل عمه . فلما جاء وجلس أخذ بحيرا يلحظه ويتأمله ، ولما انصرف القوم قام بحيرا إلى محمد ﷺ ، وقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى – جريا على حلف العرب بهما – إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : «**لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغض شيئاً قط بغضهما**» . فقال له: أسألك بالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : «**سل عما بدا لك**» ، فجعل بحيرا يسأله عن أشياء عن حاله فى نومه ، وهيئته وأموره ، فجعل النبى ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من نعوت الرسول وصفاته التى عرفها من الكتب السابقة ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه – وكان مثل أثر المحجم – ثم التفت

الراهب بحيرا إلى أبي طالب ، فسأله عن الغلام ، فأخبره فعلم أنه النبى المنتظر ، وأمره أن يعود به إلى دياره مخافة أن يغتاله يهود إذا رأوه وعلموا به ، فقضى أبو طالب حاجته من تجارته بسرعة ، وعاد بابن أخيه مسرعاً إلى مكة .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدى نتائج نجملها فيما يلى:

١- بيان مدى حب أبي طالب للنبى ﷺ .

٢- آية تظليل الغمامة للنبى ﷺ .

٣- عصمة النبى ﷺ قبل بعثته من الشرك لبغضه الحلف باللات والعزى أشد بغض .

٤- حرمة الحلف بغير الله تعالى ، وأن الحلف بغير الله شرك .

وسادس المظاهر للكمال المحمدى: حضوره ﷺ حلف الفضول: إن حلف الفضول كان بعد حرب الفجار التى كانت حرباً فجر فيها أهلها بانتهاكهم حرمة الشهر الحرام ، وقد دارت تلك الحرب بين كنانة وقريش من جهة ، وقيس من جهة أخرى ، وكان سببها تافهاً لم يعدُ قتل رجل من قيس تداعى بعده الأحلاف للقتال ، ولما انتهت تلك الحرب الفاجرة الخاسرة ؛ إذ هى من عمل الجاهلية دعت قريش إلى حلف الفضول ، وسببه أن رجلاً من زبيد جاء مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل – وكان ذا قدر وشرف فى مكة – فمنعه حقه ، فاستدعى الزبيدى الأحلاف على العاص ، وهم عبد الدار ، ومخزوم ، وجُمَح ، وسهم ، وعدىّ ؛ فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، فما كان منه إلا أن علا جبل أبى قبيس ، وصاح بشعر يصف فيه ظلامته . وعندها مشى الزبير بن عبد المطلب ، وقال: ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ومعهم النبى ﷺ ، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة ، فصنع لهم عبد الله طعاماً وتحالفوا وهم فى شهر ذى القعدة – أى حلف بعضهم لبعض – متعاهدين متعاقدين بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة ، فسمت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" وقالوا فقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، وانتزعوا منه حق الزبيدى . وفى هذا قال الزبير بن عبد المطلب وهو عم النبى ﷺ :

إن الفضولَ تحالفوا وتعاقدوا ::: ألا يُقيمَ ببطنِ مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه توافقوا وتعاقدوا ::: فالجارُ والْمُعْتَرُّ فيهم سالمُ

وفى هذا الحلف يقول الرسول ﷺ فى الإسلام: «**لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت**» .

وعبد الله بن جدعان هذا هو الذى كان يكسو ألف حلة وينحر ألف بعير فى كل موسم ، وقالت فيه أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها –: إن عبد الله بن جدعان يا رسول الله كان يطعم الطعام ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم الدين ؟ فقال: «**لا ؛ لأنه لم يقل يوماً من الدهر: ربّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين**» .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدى نتائج وعبراً نلخصها فيما يلى:

١- شعور أهل الجاهلية بالخطيئة وكراهيتهم لها ، ولذا سموا الحرب التى انتهكوا فيها حرمة الحرب بحرب الفجار ، وهو فِعال من الفجور ؛ إذ تبادلوا فيه الفجور فصار فعالاً من باب فاعل كقاتل قتالاً .

٢- بيان ظلم وطغيان العاص بن وائل ، وهو الذى وقف فى وجه الدعوة الإسلامية يحاربها حتى مات إلى جهنم .

٣- بيان مروءة الزبير بن عبد المطلب ، إذ هو الذى كان السبب فى تكوين حلف الفضول ، وإعادة حق الزبيدى إليه بعد انتزاعه من العاص بن وائل .

٤- بيان فضل بنى هاشم على غيرهم ، وحسبهم شرفاً مفاخرهم الجمة ، وكون النبى ﷺ منهم .

٥- تقرير الكمال المحمدى وتأكيده بحضوره ﷺ هذا الحلف ، ومفاخرته به فى قوله الثابت الصحيح: «**لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت**» .

٦- عدم انتفاع العبد بما يعمله من الخيرات والصالحات إذا مات مشركاً لقول رسول الله ﷺ لعائشة وقد سألته عن عبد الله بن جدعان: «**إنه لم يقل يوماً من الدهر ربّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين**» . أى لا ينفع عمله الصالح لموته على الشرك والكفر .؟

وسابع الكمالات المحمدية: هو رغبة خديجة فيه، وزواجها به ﷺ، إنه ﷺ لما تجاوز العشرين من عمره، وحضر حلف الفضول، وقبله تحكيم قريش له فى وضع الحجر الأسود، واشتهاره بالصدق والوفاء والأمانة والعفة والنـزاهة زيادة على شرف الأصل، وطيب المحتد، وكـان بمكة امـرأة ثرية وذات كمالات نفيسة مـن خلق فاضل، وأدب رفيع تلك هى خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية - رضى الله عنها - وقد بلغها من مظاهر الكمال المحمدى ما جعلها تعرض عليه الاتجار بمالها، ليوفر له دخلاً مالياً يستغنى به عن كفالة عمه أبى طالب ورفادته، ورضى الحبيب محمد ﷺ بالعرض، وقبل الطلب وخرج فى قافلة تجارية إلى الشام، ويصحبه لخدمته غلام خديجة المسمى بميسرة، وهذه هى المرة الثانية التى يسافر فيها ﷺ إلى الشام؛ إذ الأولى كانت مع عمه وفى صباه، وقد تقدم الحديث عنها فى رابع الكمالات المحمدية.

ومن الآيات التى شهدها ميسرة فى سفره مع الحبيب ﷺ أنه رأى ملكين يظللانه من حر الشمس إذا اشتدت الهاجرة، كما أنه ﷺ نزل يوماً تحت ظل شجرة قريبة من صومعة راهب، فرآه الراهب، فسأل ميسرة عنه، فقاله له: هو رجل من أهل الحرم، قرشى، فقال له الراهب: إنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى، وذلك لما شاهد من آيات النبوة التى تلوح لكل ذى بصيرة وتأمل.

كما قال الأعرابى الذى نظر لأول مرة إلى الحبيب ﷺ فقال: والله ما هو بوجه كذاب !!

وعاد الحبيب ﷺ بتجارة رابحة وسرت بها خديجة، وزادها سروراً ما أنبأها به غلامُها ميسرة من خبر الراهب، وأمر الملكين اللذين يظللانه من حر الشمس. فرغبت لذلك ولغيره فى الزواج به ﷺ وعمره يومئذ خمسة وعشرون عاماً، وعمرها ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين من السنين. وقد تزوجت قبله ﷺ أبا هالة زرارة التميمى، وتزوجت قبل هذا بعتيق ابن عائذ المخزومى، وولدت له بنتاً تُدعى هنداً، ولهذا كان كل من هند وهالة ربيباً للنبى ﷺ.

خطبة الزواج الميمون:

وكانت الخطبة كالتالى: بعثت خديجة إليه ﷺ تقول: يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك وَسِطَتِك فى قومك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها ليتزوجها، وكانت - رضى الله عنها - يومئذ من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، وكل واحد من قومها كان حريصاً على الزواج بها لو يقدر على ذلك.

فذكر ﷺ لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو طالب ، حتى دخلا على والدها خويلد بن أسد ، فخطباها إليه فزوجها ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج غيرها حتى توفاها الله ، وانتقلت إلى جواره ، وكل أولاده ﷺ منها إلا ما كان من إبراهيم فإنه من مارية القبطية المصرية .

نتائج وعبر لهذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى نتائج وعبراً نجملها إزاء النقاط التالية:

تقرير النبوة المحمدية برؤية الملكين يظللانه من حر الشمس .

شهادة الراهب له بالنبوة ، وهى شهادة عالم وكفى بها شهادة .

بيان ما حبا الله تعالى به بنبيه من الكمالات النفسية التى رغبت خديجة فى الزواج به .

مشروعية إبداء المرأة رغبتها فى الرجل تريد الزواج به .

مشروعية الخطبة للزواج وتولى ذلك قريب الزوج كما تولى حمزة وأبو طالب خطبة خديجة من والدها خويلد بن أسد .

بيان شرف خديجة أم المؤمنين وهى حقاً سيدة نساء قريش ، وقد جاء جبريل – عليه السلام – ببشارة لها من أعظم البشريات ، جاء بها من الله عز وجل وهى: «**إن الله يقول لك – يريد رسول الله –: أقرئ خديجة منى السلام وبشرها بقصر فى الجنة من قصب**» .

* * * * * * * * * * *

دنو ساعة طلوع الشمس المحمدية

لقد بلغ الحبيب الآن الأربعين من عمره ﷺ ، وأخذت ساعة طلوع الشمس المحمدية تقترب ، وها هو ذا ﷺ – إن غدا لحاجة أوراح – لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت حوله يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً سوى الشجر والحجر يسلم عليه .

فكانت هذه مقدمة الإنباء العظيم .

* * * * * * * * * * *

طلوع الشمس المحمدية

وفى ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول طلعت الشمس المحمدية حيث صار لا يرى رؤيا فى ليله ولا نهاره إلا جاءت كفلق الصبح . وهذا الزهرى – يروى عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها – قولها: إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة – حين أراد الله كرامته ، ورحمة العباد به – الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت: وحبب إليه الخلوة: فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده . واختار ﷺ لخلوته المحببة إليه جبل حراء – وهو أحد جبال مكة المطلة عليها – فكان يخلو به مجاوراً فيه يتحنث – أى يزيل الحنث عنه – وهو ما يراه ويسمعه من الشرك والباطل بين أفراد قومه من قريش ، وفى ليلة من ليالى رمضان المبارك – ولعلها السابعة عشرة منه – نزل عليه جبريل – عليه السلام – يحمل بشرى النبوة ممهداً لحمل الرسالة إلى الناس كافة .

وها هو ذا إمام المحدثين البخارى – رحمه الله تعالى ورضى الله عنه – يروى لنا عن أمنا عائشة – رضى الله عنها – قصة بدء الوحى ، إذ تقول: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينـــزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

فجاءه الملك فقال: اقرأ ، قال: «**ما أنا بقارئ**» ، قال: «**فأخذنى فغطنى**[1] **حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى**» ، فقال: اقرأ ، فقلت: «**ما أنا بقارئ**» ، فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال: اقرأ ، فقلت: «**ما أنا بقارئ**» ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: «**زملونى ، زملونى**» ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[2] ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسى**» ، فقالت: "كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

---

(١) غطنى: كبسه وعصره شديداً .
(٢) الزمل: اللف فى الثوب . الروع: الخوف والفزع .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتى:

١- تقرير سنة غالبة وهى أن الأنبياء يرسلون على رأس الأربعين من أعمارهم .

٢- بيان آية من آيات النبوة المحمدية وهى سلام الأشجار والأحجار عليه ﷺ .

٣- تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، إذ فترة الوحى كانت ثلاثاً وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت مناماً .

٤- مشروعية العزلة إذا فسد الناس وأصبح المؤمن لا يسلم من شرهم .

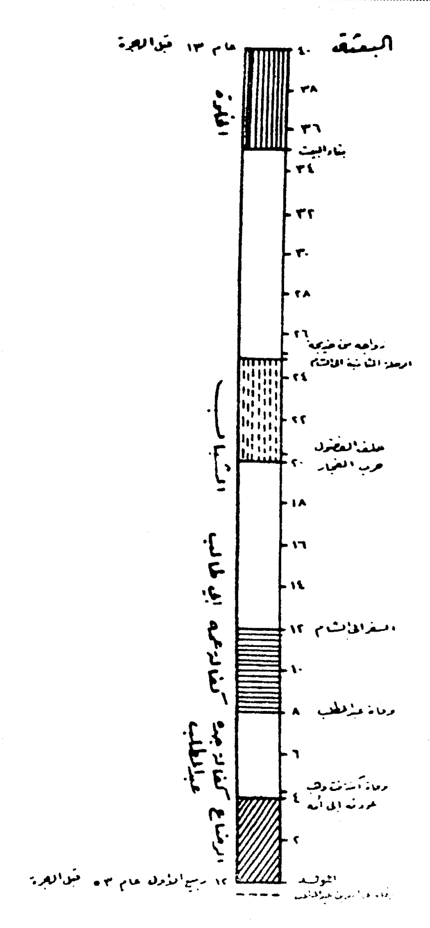
٥- بيان أن أول ما نبئ به النبى ﷺ هو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] ، وأن النبوة كانت قبل الرسالة ؛ إذ نبئ ﷺ باقرأ ، وأرسل بالمدثر ، وبينهما فترة من الزمن .

٦- تعين القراءة على المسلم وطلب العلم والتعلم ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

* * * * * * * * * * *

أشعة الشمس المحمدية تضىء دار خديجة وتطلع على ورقة بن نوفل

ما إن جاء ﷺ خديجة وقص عليها حتى قالت له: أبشر يا ابن عم فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم جمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ورقة بن نوفل ابن عمها ، وكان قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وقالت: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره الحبيب ﷺ خَبَرَ ما رأى ، فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذى أنزل على موسى ، ياليتنى فيها جذع ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : «أو مُخرجى هم ؟» ، قال ورقة: نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .



بيان مراحل الظهور المحمدى من الولادة المباركة إلى البعثة الصادقة

وكان الحبيب ﷺ لم يقض المدة التى يقضيها فى غار حراء متحنثاً فعاد إلى حراء لإتمامها ، فلما قضاها وعاد من جواره ، بدأ بالبيت كعادته فطاف سبعاً ، فلقيه ورقة وهو يطوف ، فقال: يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال ورقة: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منـــزله .

وحمل خديجة حرصها على تجلى الحقيقة ومعرفة الأمر على حقيقته ليكون إيمانها بعلم ويقين ، فأجرت الاختبار التالى:

فقالت لرسول الله ﷺ : يا ابن عم هل تستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذ جاءك؟ قال: «نعم» ، قالت: فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل – عليه السلام – كما كان يجيئه ، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: «يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى» ، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى ، فقام رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليسرى ، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم» ، قالت: فتحول فاجلس على فخذى اليمنى ، فتحول وجلس ، وقالت: هل تراه ؟ ، قال: «نعم» ، قالت: فتحول فاجلس فى حجرى ، فتحول فجلس فى حجرها ، قالت: هل تراه ؟ قال: «نعم» ، فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ، ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا» ، قالت: يا ابن عم: اثبت وأبشر فوالله إنه ملك ، وما هذا بشيطان .

ولهذا كانت خديجة أول من استضاء بنور النبوة المحمدية ، وأول من آمن برسول الله ﷺ والوحى الذى جاءه ، كما أن ورقة كان من الفائزين بالأسبقية لولا أن المنية اخترمته فلم يشهد ضحى الشمس المحمدية .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نلخصها كالآتى:

١- بيان كمال عقل خديجة ، وصحة علم ورقة ، وفضل كل منهما وكماله الروحى .

٢- بيان ذكاء خديجة وسلامة فطرتها ، بإجرائها ذلك الاختبار العجب ، الذى كانت نتيجته تقرير النبوة المحمدية ، فآمنت على علم ويقين ، فرضى الله عنها وأرضاها .

٣- الملائكة تكون مع الحياء والستر ، والشياطين تكون مع التفحش ، والوقاحة والعرى .

٤- استحباب ستر المرأة رأسها ولو فى خلوتها ، حتى لا تقربها الشياطين .

* * * * * * * * * * *

فتور الوحى وعودته

إنه بعد تلك المفاجأة السارة له ﷺ ولخديجة - رضى الله عنها - وورقة بن نوفل - غفر الله له - فتر الوحى وانقطع قرابة الأربعين يوماً ، ومات ورقة ، واشتد الألم النفسى بالحبيب ﷺ حتى صرح لخديجة بأنه خائف على نفسه ، بل كان كالهائم على وجهه فى جبال مكة وشعابها ، وكان كلما اشتد به الحزن تبدى له جبريل يقول له: "يا محمد إنك رسول الله حقاً" ، فيخف عنه حزنه ، ويقل ألمه . وتمضى الأيام وفجأة - وهو يمشى - يسمع صوتاً من السماء فيرفع بصره ، فإذا الملك الذى جاءه بغار حراء قاعد على رفرف[1] بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب ورجع إلى أهله يقول: «زملونى ، زملونى» ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١- ٦] .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نلخصها فيما يلى:

١- تشويق الرسول ﷺ إلى الوحى بانقطاعه عنه مدة من الزمن ، الأمر الذى تألم له رسول الله أشد الألم .

٢- لطف الله تعالى ورحمته بنبيه ﷺ إذ كان يرسل إليه جبريل يناديه ويطمئنه ويبشره بأنه رسول الله حقاً .

٣- بيان أول ما أرسل به ﷺ وهو النذارة ، والبشارة لازمة لمن قبل النذارة فآمن ووحد الله فى عبادته ، وتابع الرسول فيما جاء به .

* * * * * * * * * * *

---

(١) رفرف: فرش مرتفعة .

صور الوحي المحمدي

إن الوحي: هو الإعلام السريع الخفيّ ، وله مع رسول الله ﷺ صور جاء ذكر بعضها في قول الله تعالى من سورة الشورى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشور: ٥١] .

وبيان تلك الصور كالتالي :

١- الرؤيا الصالحة الصادقة في النوم ، وقد بدئ بها الوحي إلى رسول الله ﷺ واستمرت لمدة ستة أشهر ؛ إذ قالت عائشة – رضي الله عنها –: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢- الإلقاء في الروع والنفس فيه ، لقوله ﷺ : «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**» .

٣- أن يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده على رسول الله ﷺ ، كما أخبر بذلك عن نفسه في حديث البخاري ، إذ قال ﷺ وقد سأله الحارث بن هشام عن كيفية إتيان الوحي له ، فقال: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فينفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله**» .

٤- أن يأتيه الملك في صورة رجل ، فيوحي إليه ما شاء الله وهو أهون عليه لوجود التجانس المطلوب عادة للتفاهم بين المتخاطبين ، وقد جاء هذا أيضاً في حديث البخاري ، إذ جاء فيه قوله: «**وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**» . وكثيراً ما كان يأتيه ﷺ جبريل – عليه السلام – في صورة دحية بن خليفة الكلبي الأنصاري .

٥- أن يخاطبه الربّ عز وجل كفاحاً من وراء حجاب ، كما تم ذلك له ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، حيث فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، وتردد عليه في ذلك عدة مرات يسأله التخفيف ، وكان ذلك بإرشاد موسى – عليه السلام – وكما تم لموسى– عليه السلام – بجبل الطور عدة مرات فكان يسمع كلامه ولا يرى وجهه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١- تقرير الوحى المحمدى وإتيانه .

٢- بيان صور الوحى التى كان ينــزل عليها .

٣- تقرير أن الرؤيا الصالحة من الوحى .

٤- ذم الحرص من عبد يؤمن بالقضاء والقدر .

٥- بيان حقيقة وهى أن ما عند الله ينبغى أن يطلب بطاعته تعالى لا بمعصيته .

٦- تقرير سنة وهى أن التجانس ضرورى لحصول التفاهم بين المتخاطبين .

٧- بيان شرف دحية بن خليفة الأنصارى ، إذ كان جبريل يأتيه فى صورته .

٨- أكمل صور الوحى ما كان كفاحاً[1] مع الله عز وجل بلا واسطة .

* * * * * * * * * * *

بدء الحبيب ﷺ دعوته وأول من أسلم

إن عودة الوحى كانت حامية حارة ، إذ أُمر فيها الرسول ﷺ بإنذار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك ، وما هم عليه من الكفر والفساد والشر ، كما أمر هو ﷺ بتعظيم الله عز وجل وتوحيده ، ثم بتطهير ثيابه من النجاسات ، لأنه أصبح يتلقى الوحى فى كل حين ، فتعين أن يكون ﷺ على أتم الأحوال وأحسنها ، كما أُمر بالاستمرار على هجر الأوثان ، والبعد عنها ، وعدم الالتفات إليها بحال من الأحوال ، كل هذا تضمنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١- ٧] .

ومن هنا بدأ ﷺ دعوته بعرضها على من يرى فيه الاستعداد لقبولها ، فكان أول من أسلم من النساء خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين – رضى الله عنها وأرضاها – وأول من أسلم من الصبيان على بن أبى طالب – رضى الله عنه – إذ أسلم وعمره عشر سنين ، وصلى مع رسول الله ﷺ مختفيين بصلاتهما عن أعين قريش .

(١) كفاحاً: مواجهة .

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – واسم أبى بكر قبل الإسلام عتيق ، واسم أبيه عثمان بن عمرو التيمى القرشى ، وكنية عثمان أبو قحافة .

وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وكان عبداً لحكيم بن حزام ، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد وهى زوجة لرسول الله ﷺ يومئذ فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته إياه ، فعتقه ﷺ وتبناه ، وذلك قبل البعثة النبوية ، وكان زيد قد خرجت به أمه وهو ابن ثمانية أعوام لتزيره بعض أقربائه ، فأصابته خيل من بنى القين ، فباعوه فى سوق حباشة من أسواق العرب ، فاشتراه حكيم بن حزام فى جملة أعبد ووهبه خديجة ، كما تقدم ، وقد حزن لفراقه والده ، وقال فيه قصيدة منها الأبيات التالية:

بكيتُ على زيد ولم أدرِ ما فعلَ ::: أحيٌّ فُيرجى أم أتى دونه الأجلُ
فوالله ما أدرى وإنى لسائلُ ::: أغالك بعدى السهلُ أم غالك الجبلُ
ويا ليت شعْرى هل لك الدهرَ أوبةٌ ::: فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بجلْ
تذكرنيه الشمسُ عند طلوعها ::: وتعرضُ ذكراه إذا غربها أفلْ
وإن هَبّت الأرياحُ هَيَّجنَ ذكره ::: فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
سأعملُ نصَّ العيس[1] فى الأرض جاهداً ::: ولا أسأمُ التطوافَ أو تسأمُ الإبل
حياتى أو تأتى عَلَىَّ منيتى ::: فكلُّ امرئ فان وإن غرَّه الأمل

وبعد زمن قدم والده مكة وعرف ولده زيداً ، وخيره الرسول ﷺ بين الذهاب مع والده ، وبين البقاء معه ، فاختار رسول الله ﷺ ، ولذا أعتقه وتبناه ، وكان يعرف بزيد بن محمد حتى جاء الإسلام وحرم التبنى ، فأصبح يعرف بزيد بن حارثة بدل محمد ﷺ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها تحت الأرقام الآتية:

١- بيان ما أمر به رسول الله ﷺ بعد فترة الوحى من النذارة والتوحيد ، والطهارة ، والاستمرار على هجرة الأوثان .

٢- بيان أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الرجال أبو بكر ، ومن الموالى زيد بن حارثة – رضى الله عنهم أجمعين – .

---

(١) نصُّ العيس: الحث الشديد لسير الإبل .

٣- بيان سبب عتق زيد وتبنى الرسول ﷺ له ، وهو اختياره للرسول ﷺ دون والده وعمه .

****

إسلام الصديق وأثره في الدعوة

لقد أسلم الصديق مبكراً ، إذ هو أول من أسلم من الرجال الأحرار ، كما تقدم ، وقد توجه الرسول ﷺ بكلمة لم يظفر بها أحد غير أبى بكر الصديق ، وهى قوله ﷺ : «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ، ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم**[1] **عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه**» .

وكان الصديق – رضى الله عنه – فى سن قريبة من سن الرسول ﷺ ، وكان ذا حسب ونسب فى ديار مكة وبين سكانها ، وهو إن لم يكن هاشمياً فهو تيمى قُرشى عظيم ، يمتاز بحسن الخلق ، وكرم النفس ، والمعرفة بأنساب العرب ، حتى إنه لَيُضرب به المثل فى ذلك .

وما إن أسلم – رضى الله عنه – عن قناعة وعلم بما دخل فيه من دين الله تعالى حتى أخذ يتصل بخيار رجالات قريش فى مكة يعرض عليهم الإسلام سراً ، فأجابه وأسلم على يديه نخبة ممتازة كان لها الأثر الكبير فى نشر الدعوة داخل مكة وخارجها ، وأفراد هذه الطليعة هم:

عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الخليفة الراشد – رضى الله عنه وأرضاه – يكنى بأبى عبد الله ، وبأبى عمرو ، ويلقب بذى النورين لتزوجه بابنتى رسول الله ﷺ رقية ، ثم أم كلثوم – رضى الله عنهما – .

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشى ، يكنى بأبى عبد الله ، وهو حوارى رسول الله ﷺ ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب .

عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة القرشى ، ذو الهجرتين – رضى الله عنه وأرضاه – .

سعد بن أبى وقاص واسم أبى وقاص – وهو والد سعد – مالك بن أُهَيْب بن عبد مناف القرشى ، خال الحبيب ﷺ إذ جد سعد أُهَيْب عم آمنة بنت وهب

(١) كبوة: نظر وتفكر وتأخر فى الاستجابة . ماعكم: ما انتظر ، وما تردد إنما بادر وسارع .

أم النبى ﷺ ، وكان – رضى الله عنه – مجاب الدعوة حتى قيل فيه: "احذروا دعوة سعد" ، فرضى الله عن سعد وأرضاه .

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب القرشى ، يكنى بأبى محمد الفياض ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، قتل فى وقعة الجمل – رضى الله عنه وأرضاه – .

فهؤلاء النفر الذين أسلموا على يد أبى بكر الصديق – رضى الله عنهم – يضاف إليهم علىّ ، وزيد ، وأبو بكر الصديق ، فيصبحون ثمانية أنفار هم أهل السبق فى الإسلام إذ آمنوا وصلوا مع رسول الله ﷺ قبل كل أحد من الناس باستثناء السيدة خديجة – رضى الله عنها – إذ كانت أول المؤمنين .

نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلى:

١- بيان فضل أبى بكر الصديق .

٢- بيان فضل الدعوة إلى الله ، وفضل من يهدى الله على يديه فرداً أو أفراداً .

٣- بيان شرف هؤلاء الأنفار الثمانية لسبقهم فى الإسلام إذ أثنى تعالى عليهم فى قوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

* * * * * * * * * * *

أفواجُ السابقين بعد الأولين

وما إن أسلم أولئك النفر الكرام حتى تتابع أشراف قريش يدخلون فى الإسلام فيؤمنون بالله رباً وإلهاً لا إله غيره ولا رب سواه وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن هدى ونوراً ، فأسلم:

أبو عبيدة عامر بن الجراح القرشى الملقب بأمين هذه الأمة ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو الذى انتزع من رسول الله ﷺ حلقتى الدرع يوم أحد ، فسقطت بذلك ثناياه – رضى الله عنه وأرضاه – .

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشى ، وأمه برّة بنت عبد المطلب فهو ابن عمة رسول الله ﷺ هاجر الهجرتين وشهد بدراً وتوفى سنة ثلاث من الهجرة ، وتزوج رسول

الله ﷺ امرأته إكراماً له ، واعترافاً بفضله فى إسلامه أم سلمة فأصبحت أم المؤمنين ، وهذا من إكرام الله تعالى لها ولأبى سلمة - رضى الله عنهما وأرضاهما - .

والأرقم بن أبى الأرقم وهو عبد مناف بن أسد القرشى ، أسلم عاشر عشرة ، وكان النبى ﷺ قد استخفى فى داره بالصفا يدعو الناس إلى الإسلام سراً ، حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم - ويومئذ خرجوا من الدار وصلوا جهرة حول الكعبة .

وعثمان بن مظعون القرشى ، ويكنى بأبى السائب وهو أخ للنبى ﷺ من الرضاع ، وهو أول مهاجر توفى بالمدينة النبوية ، ومن فضائله وكمالاته الروحية أنه امتنع من شرب الخمر فى الجاهلية قبل الإسلام ، وقال: لا أشرب شراباً يُذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منّى ، ويحملنى على أنكح كريمتى .

وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى القرشى ، وكان أسن من النبى ﷺ بعشر سنين هاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل وحصين أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم ، وكانت له منـــزلة عند رسول الله ﷺ، وقدراً يكنى بأبى الحارث - رضى الله عنه وأرضاه - .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى القرشى ابن عم عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - وصهره إذ كانت تحته فاطمة بنت الخطاب - رضى الله عنها - التى كانت سبب إسلام أخيها عمر - رضى الله عنهما - .

وأسماء وعائشة بنتا الصديق أسلمت عائشة وهى طفلة صغيرة ، وأما أسماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام حين أسلمت - فرضى الله عنهما وأرضاهما - .

وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة التيمى .

وعبد الله بن مسعود بن أم عبد الهذلى .

وعمير بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص .

ومسعود بن القارئ بن ربيعة من القارة ، وهم قوم رماة لقبوا بالقارة .

وهكذا توالى إسلام من أكرمهم الله بالإسلام فأسلم جعفر بن أبى طالب وامرأته[1] ، وأسلم عياش وامرأته ، وخُنيس ، وعامر بن ربيعة بن عنـــز بن وائل ، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد ، وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المُجَلل ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، وخالد بن سعد بن العاص ، وعمار بن ياسر العنسى المذحجى ، حليف بنى يقظة ، وصهيب بن سنان الرومى نسبة إلى الروم ، إذ كان قد أسر فى أرض الروم وهى الشام ، فاشترى منهم ، وورد فيه قول النبى ﷺ : «صهيب سابق الروم» - فرضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأوانا ومأواه - آمين .

لقد بلغ المسلمون هذا العدد الكبير وما زالت الدعوة سراً لم يجهر بها بين صفوف قريش ، لأن هذا العدد غير كاف فى دفع ما يتوقع من أذى تصيب به قريش المسلمين ، وقبل كل شيء أن الله تعالى لم يأذن بعد لرسوله والمؤمنين بالجهر بالدعوة ، ولو أذن لهم لجهروا بها وكلفهم ذلك ما كلفهم ، وسيأتى اليوم الذى يؤذن لهم وسوف يتعرضون لألوان من التعذيب والاضطهاد ، ويتلقون ذلك بطيب نفس ورحابة صدر ؛ لأنه فى ذات الله ، وما كان فى ذات الله فهو محبوب للحبيب الصادق .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يلى:

١- بيان فضل السبق فى الخير وأهله .

٢- تقرير مبدأ وضعه رسول الله ﷺ وهو قوله: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا» .

٣- بيان فوز الأرقم بن أبى الأرقم بمنقبة عظيمة ، وهى اتخاذ داره مركزاً للدعوة أيام ضعفها واستخفائها وهى أحرج أوقات مرت بها الدعوة .

٤- بيان فضيلة فاطمة بنت الخطاب بسبقها للإسلام وهداية أخيها عمر بسببها .

٥- إن من النساء من فزن بالسبق فى الإسلام وهن عائشة: وأسماء بنتا الصديق ، وفاطمة بنت الخطاب ، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر ، وأم سلمة ، امرأة أبى سلمة أم المؤمنين وغيرهن - رضى الله عنهن وأرضاهن - .

* * * * * * * * * * *

---

(١) أسماء بنت عميس .

الجهر بالدعوة بعد الإسرار بها

إنه بعد أن اكتمل عدد المسلمين نيفاً وأربعين رجلاً وكذا امرأة . . وأسلم حمزة عم النبي ﷺ ، وعمر بن الخطاب استجابة الله لدعوة رسوله ﷺ حيث قال: «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين» ، يعني عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام "أبو جهل" .

وبإسلام حمزة وعمر – رضى الله عنهما – قويت شوكة المسلمين ، وأنزل قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] ، وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله لرسوله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ، فصعد ﷺ على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته قائلاً: واصباحاه !! واصباحاه !! فهز صوته حثيات وادى مكة وأقبل الناس نحو النداء ، زرافات ووحدانا حتى امتلأت ساحة الصفا فأقبل عليهم رسول الله ﷺ كالبدر ليلة هالته فقال: «يا معشر قريش: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟» قالوا: نعم ، فقال: «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، أنقذوا أنفسكم من النار» ، فقام أبو لهب فقال: تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا . فأنزل الله تعالى سورة المسد: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ١ – ٥] .

وكانت المدة التي دعا فيها رسول الله ﷺ وأصحابه سراً ثلاث سنوات لا غير ، ثم أمر بالجهر ، فجهر امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلى:

١– بيان المدة التى كانت فيها الدعوة سراً وهى ثلاث سنوات .

٢– بيان مقتضى سرية الدعوة ، وهو قلة المؤمنين وكثرة المشركين .

٣– الجهر بالدعوة كان بأمر الله تعالى لآية الحجر .

٤– بيان سبب نزول سورة المسد ، وهو قول أبى لهب لرسول الله ﷺ : تباً لك سائر اليوم .

٥- بيان أنه لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم في سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات ؛ لأن الرسول وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا أن يؤذنوا أو يصلوا ، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة ، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين .

٦- ذكر إسلام حمزة ولم تذكر قصة إسلامه فلنذكرها لما فيها من العبرة ، وكذا الحال بالنسبة لإسلام عمر ، فإنا لم نذكر قصته في سبب إسلامه رضي الله عنه ، وسنذكرها إن شاء الله إزاء رقم سبعة بعد قصة إسلام حمزة – رضي الله عنه – .

قصة إسلام حمزة – رضي الله عنه – :

لقد مر يوما أبو جهل – عليه لعائن الله – برسول الله ﷺ وهو عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له متوشحاً قوسه ، فقالت له المرأة: يا أبا عمار لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم عمرو بن هشام وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف ولم يكلمه محمد ﷺ ، فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل وهو جالس في نادي القوم حول المسجد ، فضربه بالقوس فشج رأسه شجة منكرة ، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فَرُدَّ على ذلك إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، وثبت حمزة من ساعتئذ على ما قاله ، فأسلم وحسن إسلامه ، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعز فتى قريش .

٧- قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – :

وأما قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – فهي كالتالي :

مر عمر برجل مخزومي قد أسلم فعابه عمر فرد عليه الرجل ، بأنه إن أسلم فقد أسلم من هو أحق باللوم والعتاب مني يا عمر . فقال عمر: من هو ؟ قال الرجل: أختك وختنك – أي صهرك – فذهب عمر إلى دار أخته فاطمة وهي تحت سعد بن زيد ، وسأل ما هذا الذي بلغني

عنكما ؟ فردا عليه ، وما كان منه إلا أن ضرب رأس أخته فأدماه ، فقامت إليه وقالت: وقد كان ذلك على رغم أنفك ، فاستحيا عمر حين رأى الدم يسيل من رأس أخته ، وجلس ، وقد رأى بينهما كتاباً ، فقال: أرونى هذا الكتاب ، فقالت له فاطمة: إنه لا يمسه إلا المطهرون ، فقام عمر واغتسل ، فأخرجا له صحيفة فيه: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فقال: أسماء طيبة طاهرة: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه: ١ ، ٢] ، إلى قوله تعالى: ﴿ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [طه: ٨] ، فتعظم ذلك فى صدر عمر وأسلم ، وقال لهما: أين رسول الله ﷺ ؟ فقالت له: فى دار الأرقم . فذهب إلى دار الأرقم ، فقرع الباب ، ففزع من فى الدار ، فقال لهم حمزة: ما لكم ؟ قالوا: عمر . قال: افتحوا له الباب ، فإنه إن أقبل قبلناه ، وإن أدبر قتلناه . وكان رسول الله ﷺ فى حجرة من الدار ، فلما سمع الحديث خرج فتشهد عمر ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من فى المسجد ، وقال عمر: ألسنا على الحق يا رسول الله ؟ قال: «بلى» ، قال: ففيم الاختفاء ؟ فخرجوا صفين ، عمر فى أحدهما وحمزة فى الآخر ، وقد كان أسلم قبل عمر بثلاثة أيام ، ولما دخلوا المسجد ورأتهم قريش وبينهما حمزة وعمر أصابتها كآبة وحزن شديد ، وسمى النبى ﷺ ساعتها عمر الفاروق .

* * * * * * * * * * *

ارتفاع ضوء الشمس المحمدية وعشا أبصار المشركين

إنه بعد أن أعلن النبى ﷺ دعوته وجهر بها فى أوساط المشركين وهى دعوة واضحة سليمة لا عيب فيها ، واضحة لا غموض ولا لبس فيها عَشَتْ عنها أبصار المشركين ، فلم يروا ما تحمله من الخير والهدى فناصبوها العداء ، وأصبحوا لها خصوماً ألداء ، يحاربونها بكل ما لديهم من قوة وشدة ، وفى العرض التالى تتجلى هذه الحقيقة .

لقد مر بنا فى قصة إسلام حمزة قبل قليل أن أبا جهل وجد النبى ﷺ جالساً عند الصفا فنال منه سباً وشتماً ، وعيباً لأمره ، ولم يرد عليه النبى ﷺ إلا أن الله تعالى قيض له أسداً من آساده ؛ حمزة بن عبد المطلب عم الحبيب ﷺ ، فضربه على رأسه فشجه شجة منكرة ، وأغاظه بأتم غيظ إذ أسلم أمامه وحسن إسلامه ، وبإسلام حمزة وعمر - رضى الله عنهما - دخلت الدعوة فى طور جديد ، فهاجر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه ، فأقض هذا الموقف الجديد مضاجع المشركين ، وأفزعهم ، وزادهم هولاً وفزعاً تزايد عدد المسلمين وإعلانهم عن

إسلامهم ، وعدم مبالاتهم بعداء المشركين لهم ، الأمر الذى جعل رجالات قريش يساومون رسول الله ﷺ، وها هو ذا أبو الوليد عتبة بن ربيعة يُبعث من قبل المشركين ليعرض على رسول الله ﷺ ما رأوه حلاً للمشكلة فى نظرهم ، فيقول: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة ، فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له الرسول ﷺ : «**قل يا أبا الوليد أسمع**» . قال: يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه .

وفرغ عُتبة من كلامه ورسول الله ﷺ يستمع منه فقال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**» ، قال: نعم ، قال: «**فاسمع منى**» ، قال: أفعل ، فقال الحبيب ﷺ : «**بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[فصلت: ١ ، ٢]» ، ومضى رسول الله ﷺ يقرأ وقد ألقى عُتبة يديه وراء ظهره معتمداً عليهما وهو يسمع مُنصتاً ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك!!**» .

وعاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، أطيعونى واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموهُ بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . فما كان جوابهم إلا أن قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، فقال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم !! كان هذا عرضاً .

وعَرض ثانٍ :

إن ما عرضه أبو الوليد على النبى ﷺ كان عرضاً معقولاً ، لولا أنه أراد به الصد عن

سبيل الله ، بصرف الرسول ﷺ عن دعوته ، ولذا نزل القرآن الكريم بأمر رسول الله ﷺ برفضه وعدم قبوله بالجملة ، فقال تعالى من سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٣ ، ٢٤] ، كما أن رد عتبة على المشركين لما اتهموه بأنه سحر كان رداً معقولاً ومقبولاً لولا العَمَهُ والحيرة اللتان أصيب بهما المشركون ، يدل على ذلك أن قولة عتبة أبي الوليد لم تزن الذهب لو كان لهم عقل ، أو كانوا يبصرون ، أو كانت لهم حنكة سياسية ، ويدل على عَمَهِهم وحيرتهم أيضاً أنهم بعد ما سمعوا الذى سمعوه من أبي الوليد كونوا وفداً من أعظم رجالاتهم ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليساومه بنفس المساومة ، ويقول له نفس الكلام الذى قال له أبو الوليد ، وفعلاً أتى الوفد الجديد وكرر قولة أبي الوليد ، فرد الرسول ﷺ قائلاً: «**إنه ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىَّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فأبلغكم رسالات ربى ، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم**» ، ولما سمعوا هذا الرد الكريم الحكيم من سيد المرسلين محمد ﷺ فقدوا صوابهم ، وجُن جنونهم وأخذوا يهذرون ويهرفون بما لا يعرفون ، ومن جملة ما قالوه: أنهم طلبوا النبى ﷺ أن يدعو ربه ليحيى لهم من مات من آبائهم ، وأن يزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة ، وأن يفجر خلالها الأنهار ، لتصبح حدائق من نخيل وأعناب ، وذكروا كلاماً وطالبوا بأمور ذكرها الله تعالى فى سورة الإسراء فى قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] وهنا أمره ربه أن يقول لهم: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٣] .

ولما فرغوا من عروضهم وردهم السخيف ، وقام رسول الله ﷺ ، تبعه عبد الله بن أبي أمية المخزومى وهو ابن عمة رسول الله ﷺ ، لأن أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له: عرضت عليك قريش كذا وكذا ، ورفضت كل ذلك ، فوالله لا أومن بك أبداً ، وعاد رسول الله ﷺ حزيناً آسفاً لما فاته مما كان أمله من استجابة قومه لما دعوه ليكلموه فى أمر دعوته . كان هذا عرضاً .

وعرض ثالث :

إنه لما فشل رحالات قريش فى المساومات التى تقدموا بها إلى رسول الله ﷺ وسمعوا ما أيأسهم به رسول الله ﷺ من عدم التنازل عن شيء من دعوته وإن قل ، وعن عدم التزحزح عما يدعو إليه قيد شعرة ، قام أبو جهل ليشفى صدره الذى احتدم غيظاً ، فأخذ حجراً كبيراً وقال: لأفلقن به رأس محمد ﷺ وهو يصلى ، وتحين عدو الله الفرصة ، فلما قام رسول الله ﷺ يصلى حول الكعبة بين الركنين مستقبل البيت ، جاء أبو جهل لعنه الله وتقدم نحو رسول الله ﷺ ليضربه بالحجر ، ورحالات قريش فى أنديتهم ينتظرون ما يفعله طاغيتهم – عليه لعائن الله– فلما دنا من رسول الله ﷺ ولى هارباً منتقع اللون مرعوباً قد يبست يداه على الحجر ، وقام إليه رحالات قريش يقولون: مالك يا أبا الحكم ؟ ما أصابك ؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصره ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى ليأكلنى . وفى هذه الحادثة نزل قول الله تعالى: ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق: ١٥ – ١٩] آخر سورة العلق .

ولما سمع وشاهد هذه الحادثة النضر بن الحارث ، قام فى قريش وقال: يا معشر قريش إنه– والله – قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، فقد كان فيكم محمد غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم: كاهن ، لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم: شاعر ، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم: مجنون لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم ، لقد كاد النضر هذا يُسلم لما تبين له من الحق ولكن منعه الحسد ؛ إذ هو الذى قال: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، ونزل فيه قوله تعالى أيضاً: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١– ٣] .

إذ كان النضر بن الحارث هذا شيطان قريش ، كان أخبثهم نفسا وأشدهم عداوة

لرسول الله ﷺ والمؤمنين ؛ إذ هو القائل أنا أحسن حديثاً من محمد ﷺ وكان يقص أخبار ملوك فارس ويقول: سأنزل مثل ما أنزل الله ، لما أصابه من الحسد والغرور ، وعمى البصر والبصيرة ، كان هذا عرضاً .

وعرض رابع :

إنه لما أعيت الحيل قريشاً ، ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق التى عشت أبصارها عن أنوارها الساطعة بعثت وفداً إلى يثرب "المدينة" يُجلى لها حقيقة الموقف بواسطة أحبار اليهود لأنهم أهل كتاب ، وذوو علم بالأديان .

ويتكون الوفد من النضر بن الحارث شيطان قريش أميراً ، وعقبة بن أبى معيط مساعداً له ، وقالوا لهما: اسألا أحبار اليهود عن محمد ﷺ وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله الذى يقول ، ودعوته التى يدعو إليها فإنهم أهل كتاب ، وعندهم علم بالأنبياء ليس عندنا ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ . وسلوه عن الروح ما هى ؟ . فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

وعاد الوفد إلى قريش ، وقال لهم: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها فإن أخبركم بها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا رأيكم فيه .

وسألت قريش النبى ﷺ وقال: «غداً أخبركم» ، ولم يستثن وانصرفوا عنه ، وحبس الله الوحى عنه لعدم استثنائه قرابة نصف الشهر ، حتى حزن ﷺ وفرحت قريش . وقالوا الكثير من القول ، حتى قالوا: قلاه شيطانه الذى كان يأتيه ، ثم أنزل الله تعالى سورة "والضحى" ينفى فيها ما قالته قريش وادعاه بعضهم من غلاة المبغضين له ﷺ من أن الله تعالى قد قلاه ، أى تركه وأضاعه مبغضاً له ، وأنزل سورة "الكهف" وفيها بيان حديث أصحاب الكهف تفصيلاً ، وفيها

عبر الرحل الطوافة وهو الإسكندر ذو القرنين ، ونزل فى شأن الروح قوله تعالى: فى السورة التى قبل سورة الكهف "الإسراء" : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] رداً على اليهود ، كان هذا عرضاً .

وعرض خامس :

ولما فشلت قريش فى محاولتها الأخيرة بإرسالها وفداً إلى أحبار اليهود لجت فى الخصومة وأعلنت حرباً كلامية على رسول الله ﷺ محاولة بذلك إطفاء نور الله بأفواهها وها هو ذا أبو جهل يقول هازئاً ساخراً برسول الله ﷺ وبما جاء به من الهدى ودين الحقك: يا معشر قريش يزعم محمد ﷺ أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة ، أيعجز كل مائة رجل منكم على رجل منهم ؟ وفى هذا نزل قول الله تعالى من سورة المدثر: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر: ٣١] الآيات .

ويكشف أبو جهل عن وجه حسده وكبريائه فيأتيه الأخنس بن شريق فيقول له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ – يريد من قراءته القرآن – فقال: ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

ويحملهم البغض والخوف على أن يمنعوا سماع القرآن فيتخذوا فى ناديهم قراراً بمنع سماع القرآن ، وأنزل الله تعالى فى ذلك قرآناً ؛ وهو قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

وعز عليهم أن لا يسمعوه وقد أصدروا قرارٌ بمنع سماعه ، فخرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق خرجوا ثلاثتهم ليلاً ليستمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهو يقرأ فى صلاته فى بيته ، واتخذوا مجالس لهم يستمعون فيها فى الظلام ، ولا يدرى أحدهم عن الآخر ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا وتعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ولكنهم لم يصبروا فخرجوا فى ليلة أخرى ، ولا يدرى أحدهم عن الآخر ، واستمعوا إلى قراءة النبى ﷺ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فتلاوموا ، وتكرر هذا منهم ثلاث مرات ، وفى الرابعة

تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها أبدا .

وهكذا تجلت الحقيقة واضحة لا غموض فيها ولا لبس ولا خفاء ، وهى أن المشركين عشت أبصارهم عن النور المحمدى فلم يروا فيما جاء به هدى ولا خيراً فناصبوه العداء وأصبحوا خصوماً ألداء يحاربونه ﷺ ويحاربون دعوته وأتباعه بكل ما لديهم من قوة ، كما هى حال الكافرين إلى اليوم ، فهم حرب على الإسلام والمسلمين ، ولم يبق إسلام ولا مسلمون .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم .

٢- بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها .

٣- ثبات النبى ﷺ ووقوفه كأنه جبل أشم أمام المساومات والتحديات .

٤- شهادة عتبة بن ربيعة بصحة الدعوة المحمدية وسلامتها وأحقيتها - وهو من خصومها - لها قيمتها المعنوية ، كما قيل: «**والحق ما شهدت به الأعداء**» .

٥- بيان تعنت المشركين وصلفهم وكبريائهم برفضهم دعوة الحق بعد ثبوتها ، ومطالبتهم بأمور ليس تحقيقها من لازم النبوة ولا شرطاً فى قبول دعوة الحق .

٦- بيان خبث أبى جهل وشدة عدائه للنبى ﷺ ، ومحاربته لدعوته .

٧- استحباب قول العبد إن شاء الله فيما يستقبل من قول أو عمل .

٨- بيان تأثير القرآن فى نفس من يسمعه متدبراً له متفكراً فيه .

* * * * * * * * * * *

خيبة المشركين تتحول إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين

إنه بعد أن بذلت قريش كل ما فى وسعها من قوة وحيلة فى إطفاء أنوار الدعوة المحمدية ، وباءت بخيبة مريرة حولت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال ، وعمار ، ووالده ياسر وأمه سميّة ، وصهيب الرومى ، وخباب بن الأرت ، وأبى فهيرة ، وأبى

فكيهة ، ومن النساء زِنّيرة ، والنهدية ، وأم عُبيس .

أما بلال: فكان مملوكاً لأمية بن خلف الجُمَحي ، وكان يعذبه بإلقائه فى الرمضاء على وجهه وظهره ، ويضع الصخرة العظيمة على صدره ، وذلك إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، وبلال صابر يردد كلمة: أحد أحد ، وأخيراً استبدله أبو بكر الصديق بعبد مشرك عنده وأعتقه – رضى الله عنهما – .

وأما عمار وأمه ووالده ياسر ، فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحَرِّ الرمضاء ، فمر النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**» ، فمات ياسر تحت العذاب – رحمه الله رحمة واسعة – .

وأما سمية: فقد أغلظت القول لأبى جهل – عليه لعائن الله – فطعنها بحربة فى قبلها فماتت شهيدة ، وكانت أول شهيد فى الإسلام .

وشدد أعداء الله العذاب على عمار ونوعوا العذاب عليه ، فمرة بالحرّ ، ومرة بوضع الصخرة على صدره ، وأخرى بالغمس فى الماء إلى حد الاختناق ، ويقولون له: لا نتركك حتى تسب محمداً ، وتقول فى اللات والعزى خيراً ، وفعل ما طلبوا منه فتركوه ، فأتى النبى ﷺ يبكى فقال: «**ما وراءك ؟**» ، فقال: شرٌّ يا رسول الله كان الأمر كذا وكذا ، فقال: «**كيف تجد قلبك ؟**» قال: أجده مطمئناً بالإيمان . فقال: «**إن عادوا يا عمار فعد**» ، وأنزل الله تعالى قوله من سورة النحل: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل: ١٠٦] .

وأما خباب: فقد أسلم سادس ستة فقد عذبه المشركون عذاباً شديداً إذ كانوا يلصقون ظهره بالرمضاء ثم الحجارة المحماة بالنار ويلوون رأسه .

وأما عامر بن فهيرة: فقد أسلم قديماً قبل دخول الرسول ﷺ إلى دار الأرقم ، وكان من المستضعفين فعذب عذاباً شديداً ، ولم يرده ذلك عن دينه ، وكان يرعى غنماً لأبى بكر ، وكان يروح بها على النبى ﷺ وأبى بكر وهما فى الغار طوال المدة التى كانا فيها فى الغار – وأما أبو فكيهة – واسمه أفلح أو يسار ، فقد كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف الجمحى أسلم مع بلال ، فأخذه أمية بن خلف – عليه لعائن الله – وربط فى رجليه حبلاً وأمر به فجر ثم ألقاه فى الرمضاء ، ومر به جُعَلٌ "حشرة معروفة" فقال له أمية: أليس هذا ربك ؟ فقال: الله ربى

وربك ورب هذا ، فخنقه خنقاً شديداً ، وكان معه أخوه أبي بن خلف فيقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ، ولم يزالوا يعذبونه كذلك حتى أُغمي عليه فظنوه مات ، ثم أفاق فاشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه .

وأما النساء: زِنّيرة ، وأم عُبيس ، ولبيبة ، والنهدية - فقد عذبن كذلك أشد العذاب من قبل مواليهن ، ولم يرجعن عن دينهن - فرضى الله عنهن وأرضاهن - .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام التالية:

١- تقرير وتأكيد معنى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] .

٢- بيان ما لاقاه المستضعفون المؤمنون من ألوان العذاب ، ولم يردهم ذلك عن دينهم .

٣- بيان أول شهيد في الإسلام كان سميّة أم عمار - رضى الله عنهما - .

٤- بيان ما كان عليه طغاة المشركين من شدة وغلظة وحنق على المسلمين ، وما أنزلوه من عذاب بالمستضعفين من الموالى والعبيد نساءً ورجالاً .

* * * * * * * * * * *

المستهزئون بالحبيب ﷺ وما أنزل الله تعالى بهم من أليم العذاب

إن تلك النقمة التي أنزلها المشركون بالمستضعفين من المؤمنين لم تكن في الحقيقة خاصة بالمستضعفين بل هي عامة في كل المؤمنين ، وعلى رأسهم سيد العالمين الحبيب محمد ﷺ ، إلا أن الأحرار من المؤمنين كان لهم من المنعة ما جعل المشركين لا يقدرون على أن يعذبوهم مثل تعذيب المستضعفين من العبيد والإماء والموالى الأغراب ، وإلا فإنه لم يسلم مؤمن واحد من التعذيب والاضطهاد والاستهزاء به والسخرية منه ، وهذا رسول الله ﷺ قد سخر منه واستهزئ به ، وسب وشتم ، ونال منه المشركون ما لم ينالوه من كثير من المؤمنين ، وكان من شر من استهزأ برسول الله ﷺ من عناهم الله تعالى بقوله: من سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ *

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥ - ٩٦] .

وها هي ذي أسماؤهم عليهم لعائن الله ، مع بيان حالهم ونهاية حياتهم:

١- **أبو لهب** : وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو عم النبي ﷺ، وكان من أشد الناس تكذيباً لرسول الله ﷺ وأكثرهم أذى له حتى إنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ إذ كان مجاوراً له ، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك يقول: «**أي جوار هذا يا بني عبد المطلب ؟**» ، ومر حمزة مرة بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب .

وكانت امرأته - أم جميل العوراء - مثله في عداوة الرسول ﷺ وشدة بغضه ، وقد لقبها الرحمن في كتابه: "بحمالة الحطب" وهي القائلة:

مُذمّما عصينا وأمره أبينا ودينه قَلَيْنا

قالت هذا لما نزلت سورة المسد تحمل البشرى لها ولزوجها بالهلاك في الدنيا والخلود في النار في الآخرة ، فقد أتت تطلب الرسول ﷺ وفي يدها فهر - أي: حجر كبير على قدر الكف - وتقف عليه ولم تره حيث ذهب الله ببصرها ، ورأت أبا بكر ، فقالت له: أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ووالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت:

مُذمّما عصينا وأمره أبينا ودينه قَلَيْنا

وأخذ الله جل جلاله أبا لهب بمكة ، إذ أصابه بمرض خبيث يقال له: مرض العدسة ، وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر ، فما إن بلغه خبر هزيمة قومه حتى أصيب بمرض العدسة ، فمات شر ميتة ، حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله ، فصبوا عليه الماء من بعيد من شدة الرائحة الكريهة التي تفوح من جسمه الذي نضج وهَرِى[1] بصورة لم يُعرف لها نظير .

٢- **الوليد بن المغيرة المخزومي**: وهو القائل لقريش إن الناس يأتونكم في الحج فيسألونكم عن محمد فلا تختلف أقوالكم فيه بأن يقول بعض: هو شاعر ، وآخر يقول: هو كاهن و . . . . و . . . . .ولكن قولوا كلمة واحدة: هو ساحر ؛ لأنه يفرق بين المرئ وأخيه وزوجته ، وكان سبب هلاكه: أنه وطئ سهما فخدشته

(١) هرى: تقطع وبَلِيَ .

فتورمت رجله ، ومات بذلك شر ميتة ، وكفى الله ورسوله شره وشر كل مستهزئ بحبيبه ﷺ .

٣- **أبو جهل عمرو بن هشام:** المخزومي وكان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم ، وكناه المسلمون بأبي جهل لخبثه وسوء أفعاله وقبيح صنائعه ، هلك ببدر قتله ابنا عفراء ، واحتز رأسه عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – إذ كان يعيره بابن راعية الغنم ، وهو القائل: لئن سب محمداً آلهتنا سببنا إلهه ، فأنزل الله تعالى من سورة الأنعام قوله: ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

٤- **النضر بن الحارث:** وكان من أشد الناس تكذيباً للنبي ﷺ وأذى له ولأصحابه ، وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، ولما سمع ذكر النبي المنتظر وقرب مبعثه قال: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، مصداق قوله هذا في قوله تعالى من سورة فاطر إذ قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٢ ، ٤٣] .

وهو القائل: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١- ٣] ، وهو المعنى بقول الله تعالى من سورة لقمان: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان: ٦] الآية .

هلك هذا الطاغية ببدر إذ أسره المقداد بن الأسود ، وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه لكثرة شره ، فقتله علّي – رضي الله عنه – .

٥- **عقبة بن أبي معيط:** الأموي وكان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين ، وهو الذي وضع سلى الجزور بين كتفي رسول الله ﷺ وهو يصلي عند البيت ورجالات قريش يضحكون ، حتى جاءت فاطمة وكانت

جويرية صغيرة فنحته عن رسول الله ﷺ ونالت منه سباً وانصرفت – رضى الله عنها وأرضاها – .

هلك هذا الطاغية الخبيث ببدر حيث أسر بها وصلب وهو أول مصلوب فى الإسلام ، وكان أحيمرا أزرق العينين ، شبهه رسول الله ﷺ بعاقر ناقة صالح ، قُدار بن سالف – عليهما معاً لعائن الله – .

٦- **الأسود بن عبد يغوث:** الزهرى كان من المستهزئين وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى ، وكان يقول للنبى ﷺ مستهزئاً به: أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد ؟ !

خرج عدو الله من أهله يوماً فأصابه السموم[1] فاسود وجهه ، وأصابته الأكلة "مرض" فامتلأ جسمه قيحاً فمات شر ميتة ، فلا رحمه الله ، ولا خفف عنه يوما عذابه .

٧- **الحارث بن قيس السهمى:** وكان أحد المستهزئين بالنبى ﷺ الذين لا يبرحون يؤذونه طوال حياتهم ، وكان لجهله وشدة شغفه بالأوثان يأخذ الحجر يعبده ، فإذا رأى غيره أحسن منه تركه وعبد غيره مما رآه أحسن فى نظره ، وكان يقول: قد غرّ محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر . وفيه نزل قوله تعالى من سورة الجاثية: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣ ، ٢٤] .

وهلك هذا الطاغية الملحد الدهرى ، بالذبحة ، إذ أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب حتى مات ، وقد امتلأ رأسه قيحاً فكانت موتته شر ميتة وأنكرها ،

٨- ٩- **أُبىٌّ وأُمّية ابنا خلف:** وكانا من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ وعداوة له ولأصحابه ، واستهزاء بدين الله ؛ إذ جاء أبى – عليه لعائن الله – إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم ففتته بيده ، وقال: زعمت أن ربك يحيى هذا العظم ! وفيه نزلت آية يس: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) السموم: الريح الحارة .

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ ، ٧٩] الآية .

وضع عقبة بن أبى مُعيط طعاماً ودعا إليه رسول الله ﷺ فقال: «لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله» ، ففعل فأتاه رسول الله ﷺ فقال أمية بن خلف لعقبة: أقلت كذا وكذا . فقال: إنما قلت ذلك لطعامنا فنـزلت آية الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي ﴾ [الفرقان: ٢٧ ، ٢٩] .

وهلك أمية يوم بدر مرذولا مخزيا شر ميتة ، وهلك أخوه أُبَيّ بطريق مكة إذ ضربه الرسول ﷺ بحربة فى ترقوته فى أحد فهلك بها فى طريقه إلى جهنم وبئس المصير .

١٠- **أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة:** وكان ممن يؤذى النبى ﷺ ، ويعين أبا جهل على ذلك هلك ببدر على يد حمزة عم الحبيب ﷺ ، ورضى الله عن حمزة ومن ترضى عن حمزة موقناً موحداً لا يشرك بالله شيئا .

١١- **العاص بن وائل السهمى:** والد عمرو بن العاص – رضى الله عنه – وكان من المستهزئين وهو القائل لما مات القاسم بن النبى ﷺ : إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر ، فأنزل الله تعالى فى سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١ – ٣] ، هلك العاص اسما ومسمى ، هلك بمكة بسبب لدغة فى رجله انتفخت لها رجله حتى صارت كعنق البعير فمات بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يوما . . هلك إلى جهنم وبئس المصير .

١٢- ١٣- **نبيه ومُنبه ابنا الحجاج السهميان:** وكانا من المستهزئين المؤذين لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، وكانا إذ لقيا رسول الله ﷺ يقولان له: أما وَجَد من يبعثه غيرك ؟ إن ها هنا من هو أسن منك وأيسر ، هلك كل منهما ببدر فقتل على – رضى الله عنه – منبها ، والآخر لا يُدرى من قتله فإلى سخط الله وعذابه دائماً وأبداً . وذلك جزاء المستهزئين .

١٤- **الأسود بن المطلب بن أسد:** ويكنى أبا زمعة كان من المستهزئين ، إذ كان مع أصحابه يتغامزون بالنبى ﷺ وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض ، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ، ويصفرون به ويصفقون لهواً وضحكاً

وسخرية ، دعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى ويثكل ولده . فعمى وثكل ولده ومات بمكة والناس يتجهزون لأحد وهو يحرض الكفار على الخروج مع ما هو عليه من المرض من شدة بغضه لرسول الله وأصحابه ودين الله ، فهلك أعمى أثكل إلى جهنم وبئس المصير .

١٥- **طعيمة بن عدى بن نوفل:** كان ممن يؤذون رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه أسر ببدر وقتل صبراً بها فإلى جهنم وبئس المصير .

١٦- **مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان:** كان من المستهزئين وكان سفيهاً فدعا عليه النبى ﷺ فمات بمكة بعدما امتلأ رأسه قيحاً فإلى جهنم وبئس المصير .

١٧- **ركانة بن عبد يزيد:** وكان شديد العداوة للنبى ﷺ والاستهزاء به فقال يوماً لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى بلغنى عنك أمر ولست بكذاب ، فإن صرعتنى علمت أنك صادق - ولم يكن يقدر على صرعه أحد - فصارعه النبى ﷺ وصرعه ثلاث مرات ، ودعاه إلى الإسلام ، فأبى أن يُسلم وقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة ، فقال لها رسول الله ﷺ : «أقبلى» فأقبلت تخد[1] الأرض ، فقال ركانة: ما رأيت سحراً أعظم من هذا ، مرها فلترجع ، فأمرها ﷺ فعادت إلى مكانها ، فقال رُكانة: هذا سحر عظيم .

قال ابن الأثير هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء ، كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وغيرهما .

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم ، كأبى سفيان ابن حرب ، والحكم بن أبى العاص ، وعبد الله بن أبى أمية المخزومى أخى أم سلمة لأبيها - رضى الله عنهما - .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة من النتائج والعبر ما نوجزه فيما يلى:

١- تقرير أن الاستهزاء بالله وآياته أو رسوله كفر موجب للخلود فى العذاب كما أن الاستهزاء بالمؤمنين موجب لغضب الله وسخطه على فاعله .

(١) تخدُّ: تشقُّ

٢- بيان ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين ، وكيف قابله رسول الله ﷺ بالصبر حتى نصره الله فأعزه وأعز دينه وأذل المشركين وأبطل دينهم .

٣- تقرير سنة الله فى أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

٤- بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله فى قوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم ، وفى فترة وجيزة وزمن قليل .

٥- إن الآيات والمعجزات لا تستلزم الإيمان فقد رأى ركانة أعظم آية وما آمن .

* * * * * * * * * * *

أول هجرة فى الإسلام

إنه بعد أن جهر رسول الله ﷺ بدعوته وكثر عدد المسلمين ازداد حَنَقُ المشركين على المسلمين ، وبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، ورأى النبى ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم فأذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة ، فقال لهم – فداه أبى وأمى –: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه**» ، وقبل المسلمون العرض الكريم ، فخرجوا من مكة فراراً بدينهم يريدون بلاد النجاشى ، وذلك فى شهر رجب سنة خمس من البعثة ، وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة والجهر بها ، فوصلوها وكانوا قرابة عشرة رجال ، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، فأقاموا بالحبشة شهرين: شعبان ورمضان من سنة خمس من البعثة ، وعادوا إلى مكة فى شوال ، وسبب عودتهم ما بلغهم من أن النبى ﷺ قد اصطلح مع قريش ، وأنه لم يبق اضطهاد للمسلمين من قبل المشركين لما تم من الصلح بينهم وبين الرسول ﷺ .

وسبب هذه الشائعة الكاذبة أن النبى ﷺ كان يقرأ حول الكعبة سورة والنجم ، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ [النجم:١٩ – ٢٠] ، ألقى الشيطان فى مسامع المشركين قوله: "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى" ، فخيل للمشركين أن النبى ﷺ هو الذى قالها ، وأنه بذلك قد امتدحها ، فلما سجد ﷺ فى آخر السورة وهى سجدة من عزائم السجدات ، سجد المشركون معه حتى إن الوليد بن المغيرة وكان كبير

السن أخذ كفا من البطحاء وسجد عليه ، ثم تفرق الناس ، وبلغ الرسول ﷺ أن سجود المشركين كان من أجل ما ألقى الشيطان فى مسامعهم من مدح للاَّت والعزى ، موهماً إياهم أن النبى ﷺ هو الذى امتدحها ، فحزن لذلك رسول الله ﷺ وآلمه الخبر ، فأنزل الله تعالى تسلية له وتخفيفاً عنه قوله من سورة الحج: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢] .

فسر بذلك رسول الله ﷺ وذهب عنه ما وجد فى نفسه من الخوف والحزن بما أعلمه به ربه من أن هذا الأمر جرى على سنة من سننه تعالى فى أنبيائه ورسله لحكم عالية يعلمها تعالى .

ولما قارب المهاجرون دخول مكة تبين لهم أن إسلام أهل مكة باطل ، وأن المشركين ما زالوا على الشرك والكفر ، وأنهم قد ازدادوا قسوة وشدة على المسلمين ، فلم يدخلوا إلا بجوار ، أو فى استخفاء ، وأقاموا بمكة بعد عودتهم إليها يتلقون الأذى ويعذبون ويضطهدون كما كانوا قبل هجرتهم وعودتهم ، فرأوا لذلك أن يعودوا إلى الحبشة مرة ثانية ، فعادوا وهاجر معهم خلق كثير بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وهى الهجرة الثانية .

وبقى الحبيب ﷺ فى مكة يدعو إلى ربه سراً وجهراً صابراً موقناً بنصر الله له ولدعوته وهو يتعرض لأذى قريش كل يوم ، ومن أبرز ما سُجل فى هذه الفترة من أذى نال رسول الله ﷺ ما حدث به عمرو بن العاص – رضى الله عنه – ورواه عنه ابن الأثير وغيره من أصحاب السير ، وهو قوله: حضرت قريش يوماً بالحجر فذكروا النبى ﷺ وما نال منهم وصبرهم عليه ، فبينما هم كذلك إذ طلع النبى ﷺ ومشى حتى استلم الركن ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه مثلها ، ثم الثالثة فقال لهم: «**أتسمعون يا معشر قريش؟ والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح**» ، فلم يتكلموا حتى لكأن على رءوسهم الطير ، وإن أشدهم وصاة فيه ليرفؤه ، بأحسن ما يجد . وانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم ، حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه !! .

فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا . . فيقول: «**أنا الذى أقول كذلك**» فأخذ عقبة بن أبى معيط بردائه ، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله – كالتى قالها مؤمن آل فرعون – ثم انصرفوا بعد ما نالوا من الصديق رفساً بأرجلهم وضرباً بأيديهم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١- مشروعية الهجرة وهى الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب .

٢- بيان أول هجرة وقعت فى الإسلام وهى الهجرة الأولى إلى الحبشة .

٣- بيان فضل أصحاب الهجرة إلى الحبشة ومن بينهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ .

٤- بيان خطر الشائعات إذ بها رجع المهاجرون ولاقُوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية .

٥- تقرير قصة الغرانيق ، وأن من العجب أن يكذب بها أناس لمجرد الخوف من أن يقال: إذا صحت الغرانيق فمن الجائز أن يكون الشيطان قد أدخل فى القرآن ما ليس منه ، وهو وهم بحت شبيه بوهم الروافض القائلين بأن: جبريل بَدّلَ أن يأتى علياً بالوحى والرسالة أتى بها محمداً ﷺ ، إذ لازم هذا أن الله تعالى عاجز ونسبة العجز إلى الله كفر وكذب وباطل ؛ إذ لا يُمكن أن يقع فى الكون غير ما يريد الله سبحانه وتعالى .

٦- ولو فرضنا أن الشيطان ألقى بكلمة أو كلمات فى قراءة الرسول ﷺ أليس الله قادراً على تبيينها وإبطالها ؟ بلى ، وكيف وقد قال: ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤] ، وكيف وقال فى سياق الآية: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾؟ [الحج: ٥٢] .

والذى ينبغى أن يعلم هنا هو أن الرسول ﷺ لم ينطق بكلمة تلك الغرانيق وما بعدها ، وإنما الذى نطق بها الشيطان ، فأسمع صوته أولياءه من المشركين ليبقوا على اعتقادهم الفاسد فى آلهتهم من اللات والعزى .

ولذا لما سجد النبى ﷺ سجدوا معه كما هو فى صحيح البخارى - رحمه الله تعالى -

وأحسن ما قيل فى قصة الغرانيق هو قول الحافظ ابن حجر فى الفتح ، وما ذكرناه هنا لا يختلف معه ، والله أعلم ، وأعز وأحكم ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم .

* * * * * * * * * * *

إرسال قريش وفدها إلى النجاشى

لما علمت قريش باستقرار المهاجرين بالحبشة ، وإيواء ملكها لهم ، وإكرامه لهم خافت عواقب ذلك ، فكونت وفداً من عمرو بن العاص – السياسى المشهور – وعبد الله بن أبى أمية ، وحملتهما هدية فاخرة إلى الملك النجاشى ، وإلى أعيان رجاله لتستميلهم نفسياً فيردوا المهاجرين قسراً إلى مكة لتعذيبهم وتعويقهم عن أية حركة إيجابية تنتصر لها دعوة الإسلام .

ووصل الوفد يحمل الهدايا وقدمها فعلاً إلى النجاشى وأعيان رجال الحكم ، إلا ان الوفد بدأ فى تقديم الهدايا بأعيان رجال النجاشى وأخره هو ، سياسة منه ليحصل على دعم الأعيان عند مطالبة الملك برد المهاجرين إلى مكة .

ولما فرغ الوفد من تقديم الهدايا تكلم عمرو وقال للملك ورجاله: إن ناساً من سفهائنا فارقوا دينهم وجاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وما إن فرغ عمرو من كلامه حتى أشار أصحاب النجاشى بتسليم المهاجرين إلى وفد قريش متأثرين بالهدايا ، وما واعدوا به الوفد من المساعدة .

وهنا قال النجاشى: لا ، والله لا أسلم قوماً جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان ، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما ، وإن كانوا على غير ما ذكر هذان منعتهم وأحسنت جوارهم .

ثم أرسل النجاشى إلى المهاجرين أصحاب النبىﷺ فحضروا وهم مجمعون على أن يقولوا الحق سواء سره أو أساءه ، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبى طالب – رضى الله عنه – فقال لهم النجاشى: ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد الملل ؟ فقال جعفر: أيها الملك ، كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته ، فدعانا لتوحيد الله ، وأن لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن

المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام ، وعدد عليه أمور الإسلام ، فآمنا به وصدقناه ، وحرمنا ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلا بلادك واخترناك عن سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . وهنا نطق الملك وقال: هل معكم مما جاء به عن الله شيء ؟ قال: نعم فقرأ عليه قرآناً ، فبكى النجاشي وبكى أساقفته ، وقال النجاشي: إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، وقال لرجلى الوفد: انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبداً .

فلما خرجا قال عمرو: والله لآتينه غداً بما يُبيد خضراءهم ، فقال له عبد الله: لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وكان عبد الله أتقى من عمرو .

فلما كان الغد أتيا النجاشي ، وقال له عمرو: إن هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل النجاشي إليهم فجاءوا فسألهم عن قولهم فى المسيح ، فقال جعفر: نقول الذى جاءنا به نبينا ، هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود ، فنخرت بطارقته ، فقال لهم: وإن نخرتم ، وقال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لى جبلاً من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم !!

ورد هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة منّى حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس فى حتى أطيعهم فيه ، وأقام المسلمون بخير دار ، وأحسن جوار .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- بيان أن ظلم قريش للمسلمين بلغ حداً لم يتجاوزه ظلم عرفه العرب فى بلادهم .

٢- بيان خيبة وفد قريش وفشله فى مهمته ؛ لأنه يحارب الله فى أوليائه ومن يحارب الله يهزم ، ويخسر فى الدنيا والآخرة .

٣- بيان كمال جعفر بن أبى طالب العلمى والدينى - فرضى الله عنه وأرضاه - .

٤- بيان كمال أصحم النجاشى إيماناً وعلماً وكرماً وحسن جوار ، فرحمه الله رحمة واسعة .

٥- حرمة الرشوة وسوء أحوال أهلها معطين وآخذين .

* * * * * * * * * * *

هجرة أبي بكر الصديق الأولى

إن أبا بكر لما هاجر ذلك العدد الكبير من المسلمين إلى بلاد الحبشة ، ورأى اشتداد ضغط المشركين على المسلمين مع قلة الناصر ، وإنه لم يقدر على أن يدفع عن أحد من المسلمين قرر الهجرة إلى الحبشة ، وفعلاً استأذن الرسول ﷺ فأذن له ، فخرج حتى إذا سار مسافة قرابة اليومين من مكة لقيه ابن الدُّغُنَة وهو يومها سيد الأحابيش ، فقال له: إلى أين يا أبا بكر ؟ قال: أخرجني قومي ، وآذوني وضيقوا عليّ . فقال ابن الدُّغُنَة: و لم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع فأنت في جواري ، فرجع معه حتى إذا دخل مكة . قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير ، وحينئذ كفوا فلم يعرضوا له بسوء .

وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فيبكي فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته وبكائه وقراءته ، وبلغ قريشاً ذلك ، فأتوا إلى ابن الدُّغُنَة ، وقالوا له: إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ؛ إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي ، وكانت له هيئة ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال له: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك ؛ إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت ، فقال أبو بكر: أو أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ؟ قال: فاردد عليّ جواري ، قال: فرددته ، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد ردّ عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم . فمر أبي بكر وهو عامد إلى الكعبة سفيه من سفاء قريش ، فحثى على رأس أبي بكر تراباً ، ومر بأبي بكر رجل من قريش ولعله الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك ، ومضى أبو بكر ، وهو يقول: أي ربّ ما أحلمك ، أي ربّ ما أحلمك ، أي ربّ ما أحلمك !! .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتى:

١- هجرة أبى بكر مثل حى لكل مؤمن يضطهد فى بلده ، فيخرج منه طالباً لعزة نفسه وحرية عمله الإسلامى .

٢- بيان فضل أبى بكر ، وما كان عليه من الإيمان والتقوى .

٣- فى ردّ أبى بكر جوار ابن الدغنة ورضاه بجوار ربه مثل عال فى التوكل على الله تعالى .

٤- وقول أبى بكر ربّ ما أحلمك ثلاثاً بعد ما وضع السفيه على رأسه التراب ، وشكاته إلى الرجل القرشى ورده عليه بقوله: أنت فعلت ذلك بنفسك ، عبرة لكل مؤمن يضطهد فى ذات الله ، فيصبر على أذى قومه ، ينتظر عقوبة الله تحل بالظالمين .

* * * * * * * * * * *

فى شعب أبى طالب

إنه لما رأت قريش انتشار الإسلام وكثرة من يدخل فيه ، وبلغها ما لقى المهاجرون فى بلاد الحبشة من إكرام وتأمين مع عودة وفدها خائباً لم يحصل على طائل ، اشتد حنقها على الإسلام والمسلمين ، فقامت باتخاذ إجراء انتقام ظالم جائر ، ما كان لها أن تتخذه لولا مما أصابها من خيبة أمل جعلها تفكر هذا التفكير وتعمل هذا العمل الشرير .

اجتمع رجالها واتخذوا قراراً بكتابة كتاب يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وفعلاً كتبوا صحيفة بذلك ، وتعاهدوا عليها وتواثقوا ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة تأكيداً لأمرهم بذلك ، وكتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده .

ولما فعلت قريش هذا الفعل القبيح الجائر ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبى طالب ، ودخلوا فيه برجالهم ونسائهم وأطفالهم ، إلا ما كان من الطاغية أبى لهب ، فإنه لم يدخل معهم ؛ لأنه ظاهر قريش على عملها الإجرامى هذا ، وكانت سنة سبع من البعثة ، واستمر

الحصار فى الشعب لبنى هاشم وبنى المطلب ثلاث سنوات ، عانوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال ، إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر ، وكان يسمع من بعيد بكاء أطفالهم من الجوع .

ولما أراد الله تعالى تفريج كربهم بعد أن ضربوا الرقم القياسى فى الصبر والاحتساب ، قيض الله جل جلاله رجالاً من ذوى المروءة والحسب ، وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، إذ هو الذى مشى إلى رجال من قريش عرف فيهم عدم رضاهم على قرار قريش الجائر ، فاستثار شعورهم ، وحملهم على أن يتعاونوا على نقض الصحيفة ، وكانوا خمسة رجال ، ولما اجتمعت قريش فى أنديتها قام أحدهم وهو زهير بن أمية ، وأقبل على الناس ، وقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعدن حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة ، وقام أحد الرجال الخمسة قال مثل ما قال الأول ، وقام ثالث مؤيداً ، وقام رابع بنفس الروح ، وتقدم المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة "باسمك اللهم" وكان أبو جهل يسمع ويرى ما يجرى فى القضية فلم يتمالك اللعين حتى قال: هذا أمر دبر بليل . . ومزقت الصحيفة وبطل مفعولها ويومئذ خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب .

ومن آيات النبوة أن النبىﷺ أخبر عمه أبا طالب بأن الأرضة قد أكلت كلمات الباطل والجور فيها ، وأبقت كلمة الحق فيها وهى "باسمك اللهم" وكان الأمر كذلك ، فإنهم لم انتزعوا الصحيفة من جدار الكعبة لم يجدوا فيها إلا جملة "باسمك اللهم" وبذلك وبخهم أبو طالب على صنيعهم ، فطأطأوا رءوسهم ولم يجيبوا بشىء ، وقال فى هذا أبو طالب شعراً وهو قوله:

وقـــد كـــان فى أمــــر الصحيفة عبرةٌ ::: مــــتى مـــا يُخــــبر غائبُ القوم يُعجبُ
محـــا الله مــــنها كفــــرَهم وعقوقَهــــم ::: ومـــا نقمـــوا مـــن ناطق الحق مُعربُ
فأصبح مـــا قالوا مـــن الأمــــر باطلاً ::: ومَنْ يختلق ما ليـــس بالحـــق يكــــذبُ

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هى كالتالى:

١- بيان ما وصلت إليه قريش فى الظلم والتعسف والجور ، وذلك باتخاذها قرار المقاطعة الجائر الهادم لكل خلق وقيمة إنسانية .

٢- بيان ما لقى رسول الله ﷺ والمؤمنون من أذى واضطهاد من كفار قريش .

٣- بيان صبر المؤمنين وجلدهم وذلك فى ذات الله عز وجل .

٤- بيان أهل المروءة والكرم لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، والحمد لله .

٥- تجلى آية النبوة المحمدية فى أكل الأرضة الصحيفة الجائرة إلا اسم الله تعالى ، وإخبار الرسول ﷺ بذلك ، فكان الأمر كما أخبر إذ نزعت الصحيفة فلم يجدوا فيها إلا جملة "باسم اللهم" وما عدا ذلك أكلته الأرضة .

* * * * * * * * * * *

اشتداد حلوكة الليالى والأيام على الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

إنه ما إن انفرجت تلك الأزمة الخانقة بالحصار فى شعب أبى طالب التى دامت ثلاث سنوات تقريباً حتى رزئ ﷺ بأعظم رزء ، إنه وفاة أبى طالب العم الكافل والطود الأشم المانع ، والأسد الحامى ، والحصن الواقى . ووفاة خديجة ؛ ومن هى خديجة ؟ إنها الملاذ بعد الله ، والأنيس بعد ذكره ، إنها كانت تؤمنه إذا خاف وتؤنسه إذا استوحش ، تريحه بعذوبة حديثها إذا تعب ، وتسدده بصائب رأيها إذ قلق أو اضطرب .

مرض أبو طالب مرضه الذى توفى فيه ، وعلم به كفار قريش فجاءوا يطلبون منه أن يفاوض لهم ابن أخيه علهم يظفرون بصلح معه قبل وفاة عمه ، فبعث أبو طالب إلى النبى ﷺ فحضر ، فقال له: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله ﷺ : «**نعم كلمة واحدة تُعطونيها تملكون العرب ، وتدين لكم بها العجم**» ، فقال أبو جهل: وأبيك وعشر كلمات . قال ﷺ : «**تقولون: لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه**» ، فصفقوا بأيديهم ، وقال: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل الذى يعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا وفيهم نزلت الآيات الأولى من سورة ص: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١ ، ٢] ، إلى قوله: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ [ص: ٧] .

واشتد المرض بأبى طالب فعاده الرسول ﷺ فوجد عنده بعض المشركين ، فعرض عليه

الشهادة فقال: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة**» ، فنظر أبو طالب إلى أشياخ الشرك حوله ، فقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال: هو على ملة عبد المطلب ، ومات ، فحزن الرسول ﷺ فقال: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك**» ، فأنزل الله تعالى من سورة التوبة: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣] .

وأخبر هو ﷺ بعد: أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار يصل إلى كعبيه يغلي منه دماغه .

وبعد خمسين يوماً من موت أبي طالب تقريباً ماتت أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها وأرضاها – وتتابعت المصائب على رسول الله ﷺ واشتد الكرب وعظم الحزن . مات العم الذي كان عضداً قوياً لرسول الله ﷺ ، وكان حرزاً منيعاً ، وماتت بعده خديجة المؤنسة ساعة الوحشة ، والمؤمنة المطمئنة ساعة القلق والخوف ، وخلت الساحة للمشركين فأخذوا ينالون من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا ينالونه من قبل ، فقد رموا بالأقذار عليه ، وعلى باب داره بل وداخل الدار حتى رموا بالقذر الذي يطبخ فيه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في التالي:

١- بيان سنة وفاة كل من أبي طالب وخديجة – رضي الله عنها – وهي سنة عشر من البعثة .

٢- ذكر آخر عرض عرضه المشركون على رسول الله ﷺ للصلح ؛ ولم يفلحوا لأنهم مصرون على الشرك .

٣- بيان سبب نزول آيات: ص ، والتوبة ، والقصص ، فالأولى في المصالحة الفاشلة والثانية والثالثة في أبي طالب ، الثانية في عدم الاستغفار له ، والثالثة في تسلية الرسول ﷺ وحزنه على موته على الشرك .

٤- تتابع المصائب على الحبيب ﷺ كان مؤذناً بالفرج القريب .

٥- فيما أصاب رسول الله ﷺ من مصائب عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة

من بلاء ومصائب مهما عظمت إذ رسول الله ﷺ أسوة المؤمنين والمؤمنات .

* * * * * * * * * * *

خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف بطلب النصرة لدينه

وبعد أن فقد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب الذى كان عضده القوى ، وحماه المنيع خرج إلى الطائف يطلب ناصراً من ثقيف ينصره على قومه ، ويعينه على إبلاغ دعوته ، خرج وهو راج أن يقبل أهل الطائف منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، ولما وصل الطائف قصد ثلاثة أنفار من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافها ، وهم الإخوة الثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود ، وحبيب ، وكان عند أحدهم امرأة من قريش ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم: هو يمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك !! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك !!

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبداً ، لئن كنت رسول الله ﷺ كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف ، وقد طلب إلى الإخوة الثلاثة أن لا يذكروا ما دار بينه وبينهم إلى قريش فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه ، وألجأوه إلى حائط "بستان" لابنى ربيعة عتبة ، وشيبة ، وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب فجلس تحتها مستظلاً بها ، فلما اطمأن وسكنت نفسه قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحيمن أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**» .

---

(١) يمرط: ينزع ويلقى ستر الكعبة بعيداً عنها .

ولما فرغ ﷺ من مناجاته ربه عز وجل ورآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة دَعَوا غلاماً لهما يقال له: عداس ، وأمراه أن يأخذ قطفاً من عنب فيضعه فى طبق ثم يذهب به إلى رسول الله ﷺ ، فيضعه بين يديه ، ويقول له: كل من هذا ، ففعل عداس فلما وضع الرسول ﷺ فيه يده قال: «باسم الله» ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال رسول الله ﷺ : «ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟» ، قال: نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى» ، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى» ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ، ويديه وقدميه .

وهنا نظر ابنا ربيعة أحدهما للآخر وقال له: أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له: ويحك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال: يا سيدى ما فى الأرض شىء خيراً من هذا ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى ، فقال له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

وانصرف رسول الله ﷺ عائداً من الطائف بعد أن أيس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة الأحقاف فى قوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيات . . وهم من جن نصيبين ، وكانوا سبعة نفر ، وحملوا رسالة الله تعالى إلى قومهم منذرين ، كما نزلت سورة الجن فى شأنهم أيضاً وفيها من أخبارهم الكثير .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام التالية:

١- بيان ثبات الرسول ﷺ وعدم يأسه مهما عظم البلاء ، يدل على ذلك خروجه إلى الطائف يطلب النصرة .

٢- بيان أن النبى ﷺ كان حكيماً بل أستاذاً فى الحكمة ، فانظر كيف اختار النفر الثلاثة إذ كانوا سادة ثقيف ، فلو أجابوا دعوته لأجابت كل أهل الطائف ، فلما رفضوها علم أن غيرهم سيرفضها ، فلذا لم يتصل بأحد غير النفر الثلاثة .

٣- بيان سوء معاملة أهل الطائف ، ومع هذا لم يدع عليهم ﷺ بل دعا لهم ، فقال:

«**اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم**» ، واستجاب الله تعالى فيهم فأتوا بعد حصارهم وآمنوا وأسلموا .

٤- بيان فضل عداس ، وشهادته بنبوة رسول الله ﷺ .

٥- بيان مكان لقاء الجن النبي ﷺ ، وحملهم رسالة الإسلام إلى أقوامهم .

* * * * * * * * * * *

الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى الملكوت الأعلى

نبدأ الحديث باسم الله ثم بالسؤال التالي:

متى كان الإسراء والمعراج ؟

إنه في السنة العاشرة من سني البعثة النّبويّة ، إنه - الإسراء والمعراج - كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان ؛ إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان ، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم ، وفقد خديجة أم المؤمنين ، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف ، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها .

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه فرفعه إليه وقربه وأدناه ، وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه ، من حزن وألم ونصب وتعب ، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته ، فصلى الله عليه وآله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون ، وما غفل عن ذكره الغافلون .

وكيف كان الإسراء ؟

لقد كان الإسراء من بيت أم هانئ ، حيث أخرج الحبيب منه إلى المسجد الحرام إلى ما بين الحجر والحطيم ، حيث أجريت له عمليه شق الصدر ، فأخرج القلب وغُسل بماء زمزم المبارك ، ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة ، فَحُشي القلب بذلك الإيمان ، وتلك الحكمة ، ثم أعيد القلب كما كان ، ثم أتى بدابة وهي البراق ، فركبه إلى بيت المقدس ، فربطه في حلقة باب المسجد ، ودخل المسجد فصلى فيه ، ثم وُضع له معراج ممتد ما بين السماء

والأرض ، فعرج بصحبة أخيه في الرسالة جبريل – عليه السلام – فانتهيا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، فسئل عمن معه ؟ فأخبر أنه محمد ﷺ وقد أذن له ، فَفُتِح لهما .

وهكذا سماء بعد سماء ، حتى انتهيا إلى السماء السابعة ، وقد لاقاهما فى كل سماء مُقربوها من الملائكة والأنبياء ، فلقيا فى الأولى آدم – عليه السلام – وفى الثانية يحيى وعيسى – عليهما السلام – وهما ابنا الخالة ، وفى الثالثة يوسف – عليه السلام – وفى الرابعة إدريس – عليه السلام – وفى الخامسة هاورن – عليه السلام – وفى السادسة موسى – عليه السلام – وفى السابعة إبراهيم – عليه السلام – .

وكان ﷺ يلقى فى كل سماء من الترحيب ما تقره عينه وينشرح له صدره ، وتطيب به نفسه ، وهو لذلك أهل ، ثم رفعت له سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها كقلال هجر ، وغشيها عند ذلك أمور عظيمة ، وألوان متعددة باهرة ، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجرة كثرة ، وفراش من ذهب ، وغشيها من نور الرب جل جلاله ما غشيها ، ورأى ﷺ فى هذا المكان جبريل – عليه السلام – وله ستمائة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض . وهذا ما دل عليه قوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٣ – ١٧] إذ ثبت ينظر إلى المكان الذى حدد له النظر إليه فلم يتجاوزه ، وهذا غاية الأدب منه ﷺ كما رفع له البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أوتى بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذ اللبن ، فقيل له: هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك . . ثم رفع وأدنى حتى انتهى إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام ، وهنا قربه ربه وناجاه ، وإن لم يره ، لأنه نور كيف يراه .

وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، ولما رجع عائداً مر بموسى – عليه السلام – فسأله فأخبره ، فطلب إليه أن يعود إلى ربه يسأله التخفيف ؛ لأن موسى جرب بنى إسرائل و لم يجد لهم عزماً ، فخشى أن يحصل لأمة محمد ما حصل لأمته ، فعاد الحبيب ﷺ إلى حبيبه جل جلاله ، وعظم سلطانه ، يسأله التخفيف ؛ إذ فرضها أولاً خمسين صلاة ، فما زال يراجعه سائلاً التخفيف حتى كانت خمساً بدل الخمسين .

ونزل الحبيب ﷺ صحبة جبريل – عليه السلام – إلى بيت المقدس ، فنـــزلت الأنبياء يشيعون الحبيب ﷺ فصلى بهم صلاة الصبح بالمسجد الأقصى . وركب البراق حيث تركه

مربوطاً بحلقة الباب ، وعاد إلى مكة فى صبيحة تلك الليلة ، وقد ذهب عنه ﷺ كل كرب وغم وحزن وهم ، وعاد أوفر ما يكون ثقة وطمأنينة ، وتلك ثمرة هذه الرحلة المباركة إلى الملكوت الأعلى ، إذ رأى فيها بأم عينيه ما كان أخبر وتلقاه وحيًا من ربه ، فصَدّق الخبرُ الخبر ، وما راء كمن سمع ، والحمد لله ذى الإنعام والجلال والإكرام وكيف قابلت قريش هذا النبأ العظيم ؟

إنه ﷺ قد عاد إلى المسجد الحرام وجلس فيه وهو لا يدرى بم تقابل قريش هذا النبأ العظيم ، والحدث الجلل ، فما زال جالساً حتى مّر به أبو جهل - عليه لعائن الله - فسأله مستهزئاً: هل استفدت الليلة شيئاً ؟ فأجاب المصطفى: «**نعم أُسرى بى الليلة إلى بيت المقدس**» ، قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال النبى ﷺ : «نعم» ، فقال أبو جهل: يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا ، فأقبلوا فحدثهم النبى ﷺ فمن مصدق ، ومن مكذب مصفق واضع يده على رأسه استعظاماً للخبر ، وإنكاراً له ، وتعجباً منه .

ولشدة ما أثار الخبر من سخرية وتعجب ارتد بعض من آمن ولم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ، ولم تخالط بشاشته قلوبهم .

ومشى رجال من المشركين المستهزئين إلى أبى بكر الصديق ، وقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، فقال الصديق: إن كان قال هذا فقد صدق إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة أو روحة ، فلقب أبو بكر بالصديق من يومئذ .

واجتمع رجال من قريش وأرادوا امتحان النبى ﷺ فقالوا له: انعت لنا المسجد الأقصى فأخذ ينعته[1] لهم ، فالتبس عليه ، فجىء له بالمسجد ينظر إليه وينعته لهم ، وعندئذ قالوا له: أخبرنا عن عيرنا القادمة من الشام ، فقال: قد مَرَرْتُ على عير بنى فلان بالروحاء ، وقد أضلوا بعيراً لهم ، وهم فى طلبه فسلوهم عن ذلك ، ومررت بعير فلان وفلان وفلان ، ورأيت راكباً قعوداً بذى مرّ فنفر بَكره منه فسقط فلان فانكسرت يدهُ فسلوه . ومررت بعيركم بالتنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان تطلع عليكم طلوع الشمس ، فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ، ليكذبوه ، وفجأة قال قائل: هذه الشمس قد طلعت ، فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أرق كما قال ، ومع هذا فلم يومنوا وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين ، وأنزل الله تعالى مصداق ذلك فاتحة سورة الإسراء .

---

(١) ينعته: يصفه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١- المعجزات ليست ضرورية لحصول الإيمان ، فقد رأى كفار قريش آيات عظاماً و لم يؤمنوا .

٢- تقرير حادثة الإسراء والمعراج وثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع ، وأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً .

٣- سبق أبي بكر وفضله وسبب تلقيبه بالصديق – فرضي الله عنه وأرضاه – .

* * * * * * * * * * *

ثلاث آيات من آيات النبوة المحمدية

إن آيات النبوة المحمدية أكثر من أن تعد أو تحصى ، وقد تقدم العديد منها في مطلع هذا الكتاب ، وسيأتي في آخره ذكر عشرات المعجزات . وإنما أردنا ذكر ثلاث آيات هنا حيث أفردها المؤرخون بالذكر لعظم دلالتها وقوة برهانها على صدق الحبيب ﷺ فيما جاء به من الهدى ودين الحق ، كما أن الناحية التاريخية تقتضي ذكرها هنا بعد حادثة الإسراء والمعراج .

وأولى هذه الآيات: آية انشقاق القمر ، فقد روى أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية ، فانشق القمر فرقتين ، وروى البخاري عن قتادة عن أنس ، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراَء بينهما ، ومصداق هذا في كتاب الله تعالى ، إذ قال عز من قائل في فاتحة سورة القمر: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ [القمر: ١ – ٣] .

وخطب حذيفة بن اليمان بالمدائن يوماً ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق . وروى أحمد عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قوله: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ : «اشهدوا» ، وقال المشركون: هذا سحر ابن أبي كبشة . وقالوا: نسأل السّفار

خارج مكة ، فسألوا السّفار فأخبروا أنهم رأوا ليلة كذا قد انشق القمر فرقتين .

وثانى الآيات: هى دعاء النبى ﷺ على أهل مكة بالقحط لما استعصوا وأبوا قبول دعوة الحق ، ولجوا فى الخصومة والعناد والمكابرة ، فقد قال ﷺ : «**اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف**» ، فأصابتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام ، فجاء أبو سفيان ومعه رجال من مكة ، وقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا ﷺ فسقوا الغيث ، وقد كان بلغ بهم الجوع حتى إن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع .

وفى هذا نزل قرآن وهو قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠ ، ١١] الآيتان .

إلا أنهم لما دعا لهم الرسول ﷺ وسقوا الغيث عادوا إلى الإصرار والعناد ، فعلم تعالى ذلك منهم وقال: ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان: ١٥] ، وقد انتقم الله منهم يوم بدر إذ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦] ، وفعلاً قد أخذ الله رؤساءهم يوم بدر فأهلكهم ولم ينج إلا القليل منهم ، كتب الله لهم النجاة ليؤمنوا وينجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة كأبى سفيان وغيره .

وثالث الآيات: هى أنه يوم اشتداد الصراع بين المشركين من جهة وبين المؤمنين من جهة أخرى ، وذلك بمكة كانت قد دارت حرب ضروس بين فارس والروم الدولتين العظميين المتحاروتين ، ونظراً إلى أن دولة الروم مسيحية من أهل الكتاب ، ودولة فارس مجوسية وثنية ، كان أهل مكة يتلقون الأخبار ويتتبعونها ويسرهم أن تنتصر فارس على الروم ، وكان المسلمون على العكس يودون أن تنتصر دولة الروم على دولة الفرس الوثنية ، ونزل قرآن كريم فى هذا الشأن ، وهو قوله تعالى فى سورة الروم: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ١- ٥] ، فأخبر تعالى بأن فارساً قد غلبت الروم ، وأن الروم ستغلب فارساً فى خلال بضع سنين ، والبضع من الثلاث إلى التسع ، فقال المشركون لأبى بكر الصديق: اجعل بيننا وبينك أجلاً ، إن ظهر الروم على فارس كان لك كذا وكذا ، وإن ظهرت فارس على الروم كان لنا كذا وكذا ، والذى قال هذا وراهن أبا بكر الصديق أُبى بن خلف ، وإن الرهن كان على خمس قلائص من الإبل ، ولم يمض البضع من

السنين حتى غلبت الروم فارساً ، وكان ذلك يوم بدر حيث فرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين ، ونصر الروم على فارس الوثنية ، فكان هذا آية من أظهر الآيات دلالة على صدق ما جاء به الرسول محمد ﷺ من الهدى والدين الحق ، فهذه ثلاث آيات ناطقة بالنبوة المحمدية شاهدة بصدق ما جاء به الحبيب ﷺ من الهدى والدين الحق .

نتائج وعبر :

لقد اشتملت هذه القطعة من السيرة العطرة على نتائج وعبر هي كالتالي:

١- آية انشقاق القمر من أكبر الآيات ، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وبالأخبار المستفيضة المتواترة ، وهي تقرر النبوة المحمدية وتؤكدها .

٢- بيان أن دعوة النبي ﷺ لا ترد ، وأن استجابة الله تعالى له آية نبوته وتقرير رسالته وصحة دعوته .

٣- بيان أن هذه الآيات لا تستلزم الإيمان ممن رآها إذ رآها المشركون وما آمنوا ولا أسلموا إلا من شاء الله تعالى منهم ذلك .

٤- تقرير صحة الدين الإسلامي ، وأنه الدين الحق لصدق ما يخبر به كتابه من الغيوب المتعددة ، وتقع كما أخبر ولا تتخلف أبداً .

٥- بيان أن أهل الكتب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة الشيوعيين .

* * * * * * * * * * *

الخروج بالدعوة خارج مكة

إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يعرض دعوته على رجال ثقيف وعاد آيساً من خيرهم: دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ، إذ طلب إليه ذلك فوافق عليه ، فرآه أبو جهل فقال مستهزئاً: هذا نبيكم يا بني عبد مناف !! فرد عليه عتبة بن ربيعة قائلاً: وما ينكر أن يكون منا نبي وملك ؟ وسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال لعتبة: «**أما أنت فما حميت لله ، وإنما حميت لنفسك ، وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً ، وتبكي كثيراً ، وأما أنتم يا - معشر قريش - فوالله لا يأتي عليكم غير**

كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون» .

وبقى ﷺ بمكة وقد قل ناصره واشتدت عداوة القوم له ولم يكن بمكة من المؤمنين غير المستضعفين ، ففكر ﷺ فى الخروج بدعوته خارج مكة فأخذ يعرض نفسه طالباً نصرته حتى يبلغ دعوة ربه ، وذلك فى المواسم والأسواق والمناسبات السنوية وغيرها ، فأتى قبيلة كندة فدعاهم وطلب نصرتهم فأبوا عليه ، وأتى بطناً من كلب يُقال لهم: بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نصرته ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ، ثم أتى بنى حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب ، فلم يكن أحد أسوأ منهم رداً وأقبحه ، وأتى بنى عامر ، فعرض عليهم نصرته والإيمان بدعوته فرفضوا ، وقال له أحدهم: أرأيت إن نحن تابعناك فأظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فرد عليه الرسول ﷺ بقوله: «الأمر لله يضعه حيث شاء» ، فقال العامرى: أفنهدف نُحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ؟! لا حاجة لنا بأمرك .

ولما رجع بنو عامر إلى ديارهم أخبروا شيخاً كبيراً من رجالاتهم بالخبر ، فوضع يده على رأسه وقال: يا بنى عامر هل من تلاف ؟ والذى نفسى بيده ما تقوّلها إسماعيلى قط ، وإنها لحق وأين كان رأيكم عنه ؟

ولم يزل النبى ﷺ يعرض نفسه ودعوته على كل قادم له اسم وشرف عله يجد من ينصره على دعوته ، وكان كلما أتى بقبيلة يدعوها تبعه أبو لهب فإذا فرغ من كلامه يقول لهم: يا بنى فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- ما كان العرب يلتزمونه من الجوار سنة حسنة وهى تعرف اليوم باللجوء السياسى .

٢- آية صدق النبوة المحمدية تتجلى فى صدق ما أخبر به الرسول ﷺ أبا جهل وقريشاً إذ كان ما أخبر كلا منهما كما أخبر .

٣- قوة فراسة العامرى إذ عرف صدق النبى ﷺ وصحة دعوته وأنها الحق .

٤- بيان ما كان عليه أبو لهب من الصد عن الدعوة ومحاربتها حتى خارج مكة .

٥- استعمال أبي لهب لفظ البدعة والضلالة فيما هو شرع وهدى ، كاستعمال أصحاب الأهواء اليوم لفظ البدعة والضلالة على هدى الكتاب والسنة تنفيراً للناس عنهما .

* * * * * * * * * * *

تدابير إلهية لظهور الإسلام

ما زال الحبيب ﷺ يعرض دعوته ونصرته على كل ذى اسم وشرف وقدم مكة سويد ابن الصامت الملقب بالكامل لقوته وجلده وهو أوسى من أهل المدينة قدم حاجاً ومعتمراً ، فتصدى له الرسول ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال: إن هذا لحسن ، ثم انصرف وقدم المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج فى حرب بُعاث الدائرة بين قبيلتى الأوس والخزرج ، فكان قومه يقولون: قُتل الكامل وهو مسلم . . هذا تدبير .

وآخر: هو قدوم أبي الحيسر أنس بن رافع مكة مع فتية من بنى عبد الأشهل من بينهم إياس بن معاذ ، قدموا يلتمسون حلفاً من قريش على قومهم من الخزرج ، فأتاهم النبى ﷺ وقال لهم: «**هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له ؟**» ، ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن ، فقال إياس وكان غلاماً حدثاً: هذا والله خير مما جئنا له ، فضرب وجهه أبو الحيسر بحفنة من البطحاء ، وقال: دعنا منك ، فلقد جئنا لغير هذا ، وقام رسول الله ﷺ ولم يلبث أن هلك إياس فسمعه قومه يهلل ويكبر حتى مات ، فما يشكون أنه مات مسلماً . . هذا تدبير .

وثالث: بينما رسول الله ﷺ يعرض نفسه طالباً النصرة على القبائل الوافدة إلى الحج والعمرة وإذا برهط من الخزرج عند العقبة فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام ، وذكرهم هذا بما تقوله اليهود لهم بالمدينة ، من أن نبياً يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود . فقال بعضهم لبعض: هذا والله النبى الذى توعدكم به اليهود ، فأجابوا دعوة النبى ﷺ وصدقوا به ، وقالوا له: إن بين قومنا شراً وعسى الله أن يجمعهم بك ، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعزّ منك ، ثم انصرفوا عنه ، وكانوا سبعة نفر .

فلما قدموا المدينة ذكروا لأهلها النبى ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم وانتشر خبره ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوا النبى ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء .

وكانت هذه بيعة العقبة الأولى ، وكان أهل هذه البيعة أسعد بن زرارة ، وعوف ، ومعاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفراء ، ورافع بن مالك بن عجلان ، وعبادة بن الصامت وغيرهم من الخزرج ، ومن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة ، فانصرفوا بعد البيعة ، وبعث معهم النبى ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، فنـــزل مصعب بالمدينة على أسعد بن زرارة ، وأنزله أسعد فى دار بنى ظفر ، واجتمع عليه رجال ممن أسلموا فسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بنى الأشهل ، وكانا مشركين ، فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فإلهما ، يعنى بالرجلين مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة – فإنه لولا أسعد بن زرارة وهو ابن خالتى لكفيتك ذلك ، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما فقال: ما جاء بكما تسفّهان ضعافنا اعتزلا عنا ، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت . ثم جلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام ، فقال: ما أحسن هذا وأجله ؟ كيف تصنعون إذا دخلتم هذا الدين ؟ قالا: تغتسل وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق – لا إله إلا الله ، محمد رسول الله – ثم تصلى ركعتين ، ففعل ذلك وأسلم ، ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحدٌ من قومه ، وسأرسله إليكم وهو سعد بن معاذ .

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه . فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، ثم قال لأسيد: ما فعلت ؟ قال: كلمت الرجلين ، ووالله ما رأيت بهما بأساً ، وذهب سعد بن معاذ إلى أسعد ومصعب ، فدعاه مصعب إلى الإسلام فأسلم على نحو ما أسلم أسيد ، ثم ذهب إلى دار بنى عبد الأشهل فسألهم قائلاً: كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا ، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

ورجع مصعب إلى منـــزل أسعد بن زرارة ، وما زال يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من بنى أمية بن زيد ووائل وواقف فإنهم أطاعوا أبا قيس بن الأسلت ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ونزل بالمدينة ، وحتى مضت بدر وأحد والخندق ، ثم دخلوا فى الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم .

ورابع هو: أنه لما فشا الإسلام فى المدينة بين الأنصار ، اجتمع جماعة من أهل المدينة وقرروا أن يأتوا النبى ﷺ فى الحج ويجتمعوا معه سراً ، ويدرسوا معه على كثب موضوع هجرته

إليهم ، وانتهوا إلى مكة واتصلوا بالحبيب ﷺ سراً ، وواعدوه وسط ليالى التشريق فوافوه بالعقبة ليلاً ، وكانوا سبعين رجلاً ومعهم امرأتان هما نُسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء أم عمرو بن عدى من بنى سلمة ، وكان مع الرسول ﷺ عمه العباس – رضى الله عنه – وهو يومئذ كافر لم يؤمن ، وإنما حضر ليستوثق لابن أخيه من كل ما يعده به الأنصار ويعطونه له من أنفسهم ، فكان أول من تكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث علمتم فى عز ومنعة ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم وذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة .

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب فى الإسلام ، ثم قال: «**تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**» ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم ، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحدقة ، ورثناها كابراً عن كابر ، وهنا اعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان ، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منّى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**» ، وهنا التفت إليهم العباس بن عبادة الأنصارى وقال: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فأجابوه قائلين: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، والتفتوا إلى الحبيب ﷺ وقالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله ؟ فقال – فداه أبى وأمى والناس أجمعون: «**الجنة**» !! فقالوا: ابسُط يدك نبايعك ، فبسط يده فبايعوه على خلاف بيعة النساء الأولى ، إذ بايعوه على حرب الأحمر والأسود ، وعين منهم ﷺ اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . فالخزرجيون هم: أسعد بن زرارة – وسعد بن الربيع – وعبد الله بن رواحة – ورافع بن مالك – والبراء بن معرور – وعبد الله بن عمرو بن حرام – وعبادة بن الصامت – وسعد بن عبادة – والمنذر بن عمرو بن خُنيس .

والأوسيون هم: أُسيد بن حُضير – وسعد بن خيثمة – ورفاعة بن عبد المنذر .

وبهذا كانت بيعة العقبة الثانية ، وصرخ الشيطان من أعلى العقبة قائلاً: يا أهل الجباجب[1] هل لكم فى مُذمم والصباة[2] معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ : «هذا أزب العقبة ، أتسمع أى عدو الله؟ أما والله لأتفرغن لك» ، ثم قال ﷺ : «ارجعوا إلى رحالكم» ، فقال العباس بن عبادة: والذى بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ، فقال ﷺ : «لم نؤمر بذلك» .

وسمعت قريش بهذه البيعة المباركة ، فلاحقت أهلها فلم تظفر إلا بسعد بن عبادة فعذبته ، ثم نجاه الله تعالى فلحق بالمدينة ، واشتد لذلك غضب قريش ، وعظم أذاها للمؤمنين ، فأمر النبى ﷺ المؤمنين بالهجرة إلى المدينة .

فكان أول من قدم المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم هاجر عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى ، ثم عبد الله بن جحش ، وتتابع الأصحاب فهاجر عمر بن الخطاب وعياش بن ربيعة ، وغيرهم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يلى:

١- بيان شرف سويد بن الصامت الملقب بالكامل ، إذ كان أول من لقيه رسول الله ﷺ وعرض عليه الإسلام فاستحسنه ونقل خبره إلى المدينة .

٢- بيان شرف إياس الشاب الذى ما إن سمع قول الرسول ﷺ حتى قال: هذا والله خير مما جئتم له .

٣- بيان فضل الرهط الذين لقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة وعرض عليهم الإسلام فأجابوه وآمنوا وعادوا إلى المدينة فنشروا الإسلام .

٤- بيان شرف أهل بيعة العقبة الأولى وعلى رأسهم أسعد بن زرارة .

٥- بيان فضل مصعب بن عمير شهيد أحد - رضى الله عنه - إذ ضرب المثل فى حسن الدعوة والصبر على البلاء فرضى الله عمن ترضى عن مصعب من كل مؤمن موحّد .

٦- شرف أهل بيعة العقبة الثانية ، وفضل النقباء منهم وهم اثنا عشر رجلاً .

---

(١) الجباجب: منازل بـ"منى" .
(٢) الصباة: الميل .

٧- بيان عداوة الشيطان إذ صرخ متألماً لما شاهد من نصرة الإسلام وأغرى المشركين بالمؤمنين وأذاع خبر بيعة العقبة ، فلعنة الله عليه .

* * * * * * * * * * *

لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ

أول هذه الأمور: نصُّ حديث البيعة إذ جاء فيه ما يلى: قال - عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء -: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

وثانى هذه الأمور: أن العباس بن عبادة العوفى هو الوحيد الذى ظفر بلقب مهاجر أنصارى ، فالأصحاب كلهم إما مهاجر أو أنصارى إلا العباس بن عبادة العوفى ، فإنه خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وأقام معه بها ، فكان يقال له: مهاجرى أنصارى استشهد بأحد - رضى الله عنه وأرضاه - وجعل الجنة مأواه .

وثالث هذه الأمور: لما تمت بيعة العقبة الثانية وقد تضمنت نُصرة رسول الله ﷺ ، وقال لهم: «**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**» ، فخرجوا أرسالاً أى جماعة إثر جماعة ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر إذن ربه تعالى له فى الهجرة إلى المدينة .

ورابع هذه الأمور: أن أول مهاجر من قريش من بنى مخزوم إلى المدينة كان أبو سلمة ابن عبد الأسد بن هلال ، واسمه عبد الله - رضى الله عنه وأرضاه - .

وحديث هجرة أبى سلمة اللطيف الشريف كان كالتالى ، فلنستمع إليه: لما عاد أبو سلمة من الحبشة إذ هاجر إليها أولاً ، ولما وصل مكة آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فقرر الهجرة إلى المدينة ، فحمل زوجته أم سلمة وطفله وقاد بهما راحلته ، وخرج فلحقه رجال من بنى مخزوم ، فقالوا له: هذه نفسك قد غلبتنا عليها ، أرأيتك صاحبتك هذه عَلاَمَ نتركك تسير بها فى البلاد؟ ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوا الراحلة وعليها امرأته وولده ، وغضب عند ذلك رجال من رهط أبى سلمة ، فقالوا: والله لا نترك ولدها عندنا ؛ إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا الطفل حتى خُلعت يدُه وانطلق بنو عبد الأسد ، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم .

ولنستمع إليها وهى تحدث عن قصة هجرتها ، قالت - رضى الله عنها -: ففرقوا بينى وبين زوجى ، فكنت إذ واصل هو سيره إلى المدينة ، وبينى وبين ولدى ، إذ أخذه رهط زوجى ، فكنت أخرج كل غداة إلى الأبطح ، فأجلس فأبكى فلا أزال أبكى حتى أمسى ، وذلك سنة أو قريباً منها ، حتى مّر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها ، وبينها ، وبين ولدها ، قالت: فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت ، قالت: وردّ بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ، فقلت: أتبلّغُ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال لى: إلى أين يابنت أبى أمية ؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة . قال: أو ما معك أحد ؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنى هذا ، قال: والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنــزل أناخ بى ثم استأخر عنّى ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط ، ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى عنى إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر عنى ، وقال: اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى وأخذ بخطامه ، فقاده حتى ينــزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى إلى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء ، قال: زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلاً بها - فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة وهو يومئذ على الشرك ، وما أسلم إلا فى هدنة الحديبية .

والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة .

مراجعة :

هيا بنا يا إخوة الإسلام نراجع قصة أم سلمة هذه لعلنا نبكى فنمسح بدموعنا بعض آثامنا ، ولُنذهب بها بعض قساوة قلوبنا .

هذه أم سلمة وذاك زوجها قبل رسول الله ﷺ أبو سلمة ذو الهجرتين ، يخرج بها من مكة مهاجراً بها إلى دار الهجرة ، فتفتك منه زوجته وولده ، ويفتك الولد من أمه ، ويترك أبو سلمة زوجته وولده ويهاجر إلى ربه ، تاركاً نصفه وراءه ، وتنظر أم سلمة فلم تجد مواسياً ولا

مؤنساً ، فتخرج كل يوم إلى الأبطح تبكى طول يومها ، وتعود إلى كسر بيتها إلى انسلاخ سنة بأشهرها الاثنى عشر ، ثم يؤذن لها بالهجرة فتهاجر وحدها على بعير وما معها سوى طفلها تسافر مسافة عشرة أيام .

حقاً ما قالته: ما أعلم بيت أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . هذه وأخرى فى كمال عثمان بن طلحة ، الذى يضرب الرقم القياسى فى الكرم النفسى ، إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام فى صحراء لا خضراء بها ولا ماء ، فيقول وقد سألها حالها: والله مالك من مُتْرَك ، ويقود بعيرها ، ويحسن إليها فى ركوبها ونزولها ، ويريها من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط .

آه أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة ؟! لقد أقفرت منهم الحياة ، وأجدبت منهم ساحة الوجود ، ولا خير فى دنيا يُفقد فيها أمثال هؤلاء .

وخامس هذه الأمور: أن المهاجرين جميعهم ما منهم أحد إلا نزل بيت أحد الأنصار ، فأىّ كرم أعظم من هذا ؟ وأى إخاء أصدق من هذا الإخاء ؟ ، وأى إسلام أحسن من هذا ؟ وأى صبر أقوى من هذا ؟ وأى إيمان أثمر من هذا ؟ وأين نحن اليوم من ذا وذاك يا عباد الله ؟

وسادس هذه الأمور: هو هجرة صهيب أنه حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا: نعم . قال: فإنى جعلت لكم مالى ؛ ودلهم على مكانه وهاجر ، فلما رآه رسول الله ﷺ بادره قائلاً: «ربح البيع صهيب . . ربح البيع صهيب» ، ونزل فيه قرآن يُتلى إلى اليوم ، وهو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] .

وسابع هذه الأمور: هو أن النبى ﷺ كان قد أرسل مع أهل بيعة العقبة الأولى مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويُفقههم فى الدين ، فكان أول من لقب بالمقرئ ، واستشهد بأحد فهو ضجيع سيد الشهداء حمزة فى ساحة أحد يزاران مع بعضهما بعضاً - فرضى الله عنهما وأرضاهما وجعل الجنة مأواهما - .

وثامن هذه الأمور: هو أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبى لما ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان صلى على أبى أمامة أسعد بن

زرارة ، فسألته عن ذلك قائلاً: يا أبت . . . مالك إذا سمعت الأذان للجمعة ، صليت على أبى أمامة؟ قال: يا بنى إنه كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم[1] ، النبيت من حرة بنى بياضة يقال له: نقيع الخضمات[2] ، قلت له: وكم كنتم يومئذ ؟ قال: أربعون رجلاً .

وتاسع هذه الأمور: هو أنه لما عاد أهل بيعة العقبة إلى المدينة وأظهروا الإسلام فيها كان من بينهم معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل ، وكان لعمرو بن الجموح والد معاذ صنم قد اتخذه فى داره ، شأنه شأن سادات وأشراف المدينة ، وكان الصنم من خشب ، فكان يعبده بدعائه وتعظيمه فيجىء معاذ ولده مع معاذ بن جبل فى فتيان ممن أسلموا بالليل المظلم فيأخذون الصنم ويلقونه فى حفرة لبنى سلمة ، يلقون فيها العذرة ، والأوساخ منكساً رأسه ، فيصبح عمرو فيطلبه فلا يجده ، فيبحث عنه فيجده فى تلك الحفرة منكساً ملطخاً ، فيأخذه فيطهره ويطيبه وينصبه فى داره ، فيأتى الفتيان المسلمون ليلاً فيأخذونه ويفعلون به ما فعلوا به الليلة البارحة ، وهكذا فيأتى به عمرو ، ويقول: لو أعلم من فعل هذا بك لأضربنه . ولما أكثروا به ذلك جاء به يوماً فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال: إنى والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى ؟ فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك ! فلما أمسى عمرو جاء الفتيان فعدوا عليه ، وأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به فى حبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر[3] ، من عذر الناس ، ثم غدا عمرو يطلبه فلم يجده فى مكانه الذى تركه فيه فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه ، تبين له عدم صلاحيته للألوهية ، وكلمه بعض رجال قومه فى الإسلام فأسلم ، وقال فى صنمه شعراً هذا نصه:

والله لــو كنــتَ إلهاً لـــم تكــنْ ::: أنــتَ وكلــبٌ وسْطَ بئرٍ فى قَــرَنْ

إلى أن قال:

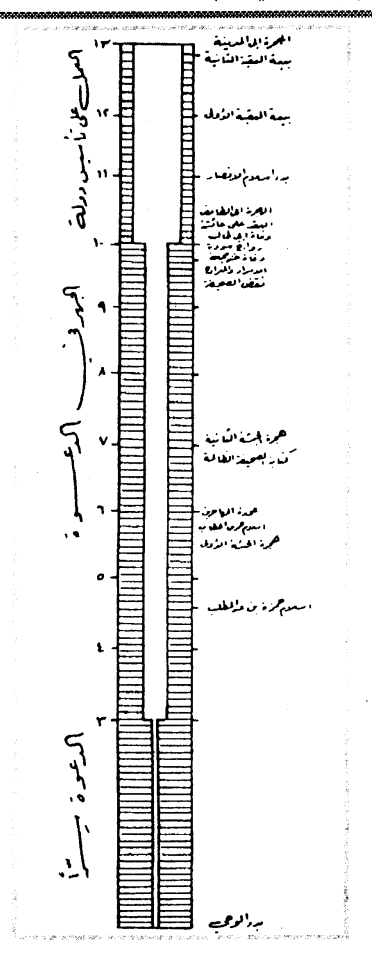
الحمـــدُ لله العـــلى ذى المـــنن ::: الواهـــبُ الـــرزاق ديّـــان الديـــنْ

هو الذى أنقذَنـــى مـــن قبـــلِ أنَ ::: أكـــونَ فى ظلمـــة قبـــرِ مرتَهَـــنْ

(١) هزم النبيت: اسم جبل قرب المدينة .

(٢) الخضمات: من الخضم الأكل بالفم كله .

(٣) عُذر: جمع العذرة: الغائط ، الخراء .



بيان مراحل هامة مرت بها الدعوة من البعثة الصادقة إلى الهجرة المباركة إلى طيبة الطيبة الطاهرة

هجرة الحبيب الطيب محمد ﷺ إلى طيبة الطيبة

إنه بعد أن خرج المؤمنون من مكة أرسالاً إلى المدينة مهاجرين و لم يبق منهم إلى محبوس ، أو مفتون كان الحبيب ﷺ فى انتظار الإذن له من ربه عز وجل بالهجرة ، وأبقى معه علياً لحاجته إليه ، وأما أبو بكر الصديق ، فإنه كثيراً ما كان يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فيقول: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله ﷺ هو الصاحب . وفى هذه الأيام بالذات كان رجال قريش يتخوفون منه ﷺ أن يلتحق بدور الأنصار وهم ذوو شوكة ومنعة وقد لحق بهم المؤمنون فقرروا عقد اجتماع لهم بدار الندوة يحضره أولو الرأى والمشورة منهم للتفكير فى أمر محمد ﷺ ، وجاءوا دار الندوة وإذا بشيخ جليل عند بابها فسألوه من أنت ؟ قال: شيخ من نجد سمعت بما اتعدتم عليه ، فحضرت لأسمع ما تقولون وعسى أن لا تعدموا منى رأياً ونُصحاً ، فدخل معهم وقد ضم الاجتماع أبا سفيان ، وأبا جهل ، والنضر بن الحارث ، وكبار رجال قريش ، ودارت المناقشة للبحث عن المخرج ، فقال بعضهم: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم – يعنون النبى ﷺ – فإنا والله ما نأمنه من الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً .

فقال بعضهم: احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله – يريدون حتى يموت فى الحبس – وفى هذا يقول تعالى عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] ، أى الموت وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] أى فى الحديد محبوساً فى دار حتى الموت .

وهنا قال الشيخ النجدى: وهو إبليس – عليه لعنة الله – أتاهم فى صورة شيخ جليل ليثقوا فيما يقترحه عليهم ، وهو الذى صرخ بأعلى العقبة منذ أشهر قائلاً: يا أهل الجباجب ، هل لكم فى مذمم والصباة ؟ ورد عليه الرسول ﷺ قائلاً: «**هذا أزب العقبة ، والله لأفرغن لك أى عدو الله**» ، جاء اليوم لينتقم فقال: لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء هذا الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينـــزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأى فانظروا غيره ، فتشاوروا ، ثم قال بعضهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا

أخرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب . قال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم بالرأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على عقول الرجال بما يأتى به ؟ دبروا فيه أمراً غير هذا . فقال أبو جهل: والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه أبداً . قالوا: وما هو يا أبا الحكم ؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً ، وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، ويتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضون منا بالعقل[1] فنعقله لهم ، أى ندفع ديته لهم ، وهنا قال: الشيخ النجدى: "إبليس" هذا الرأى الذى لا أرى غيره ، فأجمعوا عليه ونفذوا خطتهم ، وقد أوحى الله تعالى بذلك إلى رسوله محمد ﷺ ، فأمر ﷺ ابن عمه علياً بأن ينام على فراشه ويتغطى ببرده ﷺ ، وأعلمه أنه لا يناله ما يكره إن شاء الله تعالى ، ثم أخذ ﷺ حفنة من تراب ، وخرج وهو يقرأ: ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس: ١ ، ٢] ، إلى قوله: ﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] ، فأعمى الله أبصارهم ، فخرج من بين أيديهم ووضع التراب على رءوسهم وهم لا يشعرون ، وانصرف ﷺ حيث أراد ، وبعد ساعة أتاهم آت فقال لهم: ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا: محمداً ، فقال: خيبكم الله قد والله خرج عليكم ، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع التراب على رأسه ، وانطلق لحاجته ، فوضع كل واحد منهم يده على رأسه فإذا التراب عليه ، فجعلوا يتطلعون من خلال شقوق الباب فيرون علياً على الفراش متغطياً ببرد النبى ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىّ – رضى الله عنه – عن الفراش ، فلما رأوه قالوا: والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا وانصرفوا .

أما الحبيب ﷺ فلنترك لعائشة أم المؤمنين تقص علينا تحركه نحو هجرته ، فقد قالت: كان النبى ﷺ لا يخطئ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة ، وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة ، فإنه أتانا بالهاجرة ، وساعة كان لا يأتينا فيها .

فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء برسول الله ﷺ فى هذا الوقت إلا أمر حدث ، فلما دخل رسول الله ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس عليه ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء ، فقال رسول الله ﷺ : «أخرج من عندك» ، فقال: يا رسول الله إنما هما بنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟ فقال: «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة» ، فقال أبو بكر:

---

(١) العقل: الدية .

الصحبة يا رسول الله ، قال: «**الصحبة**» . قالت عائشة: والله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ ، ثم قال أبو بكر: يا نبي الله إن هاتين راحلتان ، قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أريقط من بني الديل ، وكان مشركاً ليدلهما على الطريق ، فدفعا إليه الراحلتين يرعاهما لميعاد خروجهما من مكة إلى المدينة ، ولما أجمع رسول الله ﷺ على الخروج عهد إلى علي بن أبي طالب أن يتخلف بعده بمكة ليؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، إذ كان الناس يضعون عنده ودائعهم مما يخافون عليه ، وذلك لما رأوا من أمانته وصدقه . وأتى أبا بكر فخرج معه من خوخة له في ظهر بيته ، فعمدا إلى غار ثور ، وأمر أبي بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما مساءً بما كان في ذلك اليوم من الخبر ، كما أمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ثم يُريحها عليهما مساءً ، ليسقيهما من لبنها ، وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام اتبع عامر أثرهما بالغنم فعفى أثرهما .

وأقام رسول الله ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام . وطلبهما المشركون طيلة الثلاثة أيام ، ومن آيات النبوة أن العنكبوت نسجت على الغار ، والحمامة عشّشت وباضت تعمية على الطالبين من المشركين .

ولما مضت ثلاثة أيام ، وسكن الناس عنهما ، وأيسوا من العثور عليهما أتاهما من استأجراه بالراحلتين ، وكانت أسماء قد جاءت بطعام في سفرة ، ونسيت أن تجعل له عصاماً ، وأرادت أن تعلق السفرة بالبعير فلم تستطع ذلك ، فشقت نطاقها نصفين ، فعلقت السفرة بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر ، فمن ثم لقبت بذات النطاقين .

ولما كان المشركون يطلبون رسول الله وأبا بكر وهما في الغار سمع أبو بكر نعال الطالبين ، فخاف حزناً ، وقال: يا رسول الله لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا ، فقال له الرسول ﷺ : «**ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» ، وفي هذا نزلت آية سورة التوبة: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نلخصها فيما يلي:

١- بيان مدى حب الصديق للرسول ﷺ ، إذ كان يرغب فى صحبته حتى إنه لما أذن للرسول ﷺ بالهجرة ، وقبل صحبته بكى من شدة الفرح - رضى الله عنه - وهذا شأن المحب الصادق .

٢- بيان قرار قريش الجائر الذى شارك فيه أبو مرة إبليس - عليه لعائن الله - ورضيه لما فيه من الإجماع على قتل النبى ﷺ وتوزيع دمه على القبائل حتى لا يُطالب بدمه ، ويُرضى بالدية .

٣- آية خروج الرسول ﷺ ومروره بين أيدى المشركين ووضع التراب على رءوسهم وهم لا يشعرون .

٤- بيان أن أول فداء كان فى الإسلام فداء علىّ النبى ﷺ إذ تركه نائماً على فراشه وخرج ، والمشركون يظنون أنه النبى ﷺ وهو علىّ - رضى الله عنه - .

٥- بيان أن النبى ﷺ كان يأخذ بالأسباب وبالحزم فيها إذ أوهم المشركين بترك علىّ نائماً على فراشه هذا أولاً ، وثانياً: أعدّ الراحلة للسفر ، والخرّيت العالم بالطرق ومسالكها ، وثالثاً: دخوله غار ثور مع صاحبه استخفاء عن أعين المشركين الطالبين له .

٦- آية نسج العنكبوت ، وتعشيش الحمامة ، وتبييضها ستراً على رسول الله ﷺ ، وتعمية على المشركين ، ولا عجب فى هذا فإن الوزغة[1] لما ألقى إبراهيم فى النار كانت تنفخ فيها لتشتعل على إبراهيم ، فكانت الوزغة أخبث حيوان ، وكان فى قتلها أجر إلى اليوم لورود السنة بذلك .

٧- بيان طيبوبة أسرة الصديق نساءً ورجالاً ، وبيان سبب لقب أسماء بذات النطاقين .

* * * * * * * * * * *

الطريق إلى المدينة

وخرج الحبيب ﷺ وصاحبه بعد هدوء الأحوال ، وتلقاهما من استأجراه بالراحلتين ، فقدم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضلهما ، وقال: اركب فداك أبى وأمى ، فقال الحبيب: «لا إلا بالثمن الذى ابتعتها به» ، فقال أبو بكر: هو كذا وكذا ، فقال النبى ﷺ : «قد أخذتها

(١) نوع من الزحافات سامٌّ أبرص شبيه بالسحلية .

به» ، وركبا وانطلقا وقد أردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى رحلتهما إلى طيبة الطيبة ، وساروا على بركة الله ، وعين الله ترعاهم . هذا ونعود إلى مكة لتسجيل حادثين أو ثلاثة من مهمات الأحداث .

الأول: أن قريشاً لما كانوا يبحثون عن النبى ﷺ وصاحبه أتوا دار أبى بكر فخرجت لهما أسماء فسألوها: أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت: لا أدرى والله أين أبى ؟ فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خد أسماء لطمة أسقط قرطها من أذنها .

والثانى: أن قريشاً ما إن فقدت النبى ﷺ وطلبته ولم تجده حتى أعلنت عن جائزة مقدارها مائة بعير لمن يأتيها برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً .

والثالث: أنه لما غادر رسول الله ﷺ مكة مع صاحبه ، قالت أسماء: مكثنا ثلاثاً لا ندرى أين اتجه رسول الله ﷺ ؟ وإذا برجل من الجنّ يقبل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته ولا يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة ، وبهذا عرفنا وجه رسول الله ﷺ وصحابه وأنهما اتجها إلى المدينة النبوية .

وها هى ذى تلك الأبيات التى كان يتغنّى بها رجل الجن:

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائه ::: رفيقين حلاَّ خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ::: فأفلحَ مَنْ أمسى رفيقَ محمد
ليَهْنَ بنى كعب مكان فتاتهم ::: ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ

والرابع: أسماء قالت: لما خرج أبو بكر مهاجراً أخذ كل ماله معه ، وكان ستة آلاف درهم ، قال: فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وكان قد ذهب بصره ، فقال: إنى أراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت: قلت له: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، وأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى قحافة يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فوضعتها عليها ، وقلت: يا أبت هذا المال الذى ترك لنا أبو بكر ، فقال: إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ، قالت أسماء بعد ذلك: والله ما ترك لنا شيئاً ، وإنما أردت أن أسكن الشيخ بذلك لا غير .

عودة إلى مسايرة الركب الميمون :

وفى طريق الركب الميمون مروا بخيمة أم معبد ، فسألوها طعاماً أو شراباً ، فلم يصيبوا

عندها شيئاً ، وكانت بكسر خيمتها شاة هزيلة خلفتها الغنم لهزالها ، فقال الحبيب الطيب: «هل بها من لبن ؟» ، فقالت: هى أجهد من ذلك ، فقال: «هل تأذنين لى أن أحلبها ؟» فقالت: بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا بها رسول الله ﷺ فجاءت فمسح بيده ضرعها ، وسمَّى الله تعالى ودعا لها فى شأنها فتفاجت[1] ، ودرت واجترت ، ودعا بإناء يروى الرهط[2] فحلب فيه ثجاً حتى علاه لبنها ، ثم سقاها "أم معبد" حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، وكيف لا ، وهو القائل: «ساقى القوم آخرهم شرباً» ، ثم بايع أم معبد على الإسلام وارتحل ، وارتحل معه رفقته .

وها هو ذا أبو بكر الصديق يروى الحادثة وهى آية النبوة كآية در الشاة ، وهى أعظم . قال – رضى الله عنه –: قال سراقة بن مالك بن جعشم: لما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ، وبينما أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا ، فقال والله لقد رأيت ركباً ثلاثة مروا علىّ آنفاً إنى لأراهم محمداً وأصحابه ، فأومأت إليه أن اسكت ، ثم أمرت بفرسى وسلاحى فأحضرا لى وركبت وأنا أرجو أن أرده على قريش وآخذ المائة ناقة ، وركبت سائراً فى أثره حتى بدا لى القوم ورأيتهم . عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كأنه إعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر فناديت القوم قائلاً: أنا سراقة بن جعشم أنظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «قل له وما تبغى منا ؟» ، قال: خذ يا رسول الله سهماً من كنانتى وإن إبلى بمكان كذا فخذ منها ما أحببت ، فقال له ﷺ : «لا حاجة لى بإبلك» ، فلما أراد سراقة أن يرجع ، قال له الحبيب ﷺ : «كيف بك يا سراقة إذا سوِّرت بسوارى كسرى ؟» ، قال سراقة: كسرى بن هرمز ؟ قال: «نعم» . وعاد سراقة إلى مكة لا يلقى أحداً يريد رسول الله ﷺ إلا رده بقوله: كفيتم ما هاهنا .

وواصل الركب الميمون سيره يتقدمه الخريت بن الدليل حتى وصلوا إلى قباء ديار بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، فنـــزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم أخى بنى عمرو بن عوف ، وكان عزباً فينـــزل عليه الأعراب من أصحاب

---

(١) تفاجت: وسعت ما بين رجليها .
(٢) الرهط: عدد ما بين الثلاثة إلى العشرة .

رسول الله ﷺ المهاجرين ، حتى قيل لبيته: بيت العزاب ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف بالسنح ، ولحق على الركب بعد أن أدى ودائع الناس ، ووصل قباء بعد ثلاثة أيام من وصول الحبيب ﷺ إليها ، وقد تفطرت قدماه حتى إنه لما دعا به رسول الله ﷺ قيل: إنه لا يقدر على المشى فأتاه رسول الله ﷺ واعتنقه وبكى رحمة به ، وتفل فى كفيه الطاهرتين ومسح بهما رجلى علىّ فشفى فى الحال ، و لم يشك قدميه حتى قتل - رضى الله عنه - وقد نزل علىّ على امرأة لا زوج لها فرأى رجلاً يأتيها بالليل ، فارتاب فى أمرها فسألها ، فقالت: الذى يأتينى هو سهل بن حنيف ، إنه رآنى امرأة لا زوج لى فهو يكسر أصنام قومه ، ويحملها إلىّ ويقول: احتطبى بها ، فكان علىّ يذكر هذا لسهل بن حنيف بعد موته - رضى الله عنهم أجمعين - .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يلى:

١- بيان خبث أبى جهل وشدته على المؤمنين فلعنه الله حياً وميتاً .

٢- بيان مدى ما بذلت قريش فى سبيل قتل النبى ﷺ ، والقضاء على الإسلام .

٣- من الجن مؤمنون ، وإن كلامهم ليسمع ، وإن لم تر ذواتهم .

٤- فضل أم معبد وهى عاتكة بنت خالد .

٥- تجلى آية النبوة المحمدية فى دَرِّ الشاة ، وسقى الرسول ﷺ أهل بيت أم معبد وسائر أفراد رفقته .

٦- تجلى آية النبوة فى سقوط فرس سراقة ، وعجزه عن الوصول إلى النبىّ ﷺ ، وفى إخبار الرسول ﷺ له بأنه سيسور سوارى كسرى ، وكان الأمر كما أخبر ﷺ .

٧- تجلى آية النبوة فى شفاء علىّ حين مسح الرسول ﷺ رجليه .

* * * * * * * * * * *

فى طيبة دار الحبيب ﷺ

إن الثلاث عشرة سنة التى قضاها رسول الله ﷺ بمكة من مبعثه إلى يوم هجرته كانت كلها آلاماً ودموعاً وأحزاناً ، لم ينعم فيها رسول الله ﷺ بساعة سرور ، أو يوم راحة قط إلا أن العشر سنين التى قضاها بالمدينة كانت كلها جهاداً متواصلاً لم يفتر شهراً واحداً ، ولم ينعم فيها

رسول الله ﷺ بالراحة يوماً واحداً ، وكان شظف العيش فيها بالغاً أشده ، فلم يشبع فيها رسول الله ﷺ من خبز شعير مرتين فى يوم واحد قط .

نعم . . . لقد كان للحبيب بدار الهجرة أيام مشرقة ، إلا أن أكثر أيامها كانت محرقة ، وهلم إخوة الإيمان نعيش بأرواحنا مع رسولنا وحبيبنا تلك السنين العشرة التى عاشها ﷺ بالمدينة دار هجرته وحاضرة دولته دولة الإسلام الخالدة . وسوف نشعر بأن السنين العشرة ما كانت السنة الواحدة منها إلا عشر سنوات ، فالعشر سنين كانت وكأنها مائة سنة أو تزيد ، وذلك لما تم فيها من جلائل الأعمال ، وما تخللها من عظائم الأمور ، والله نسأل أن يرزقنا البكاء عند ذكر ما يبكى منها ، وأن يرزقنا الفرح عند ذكر ما يُفرح ، فيكون ذلك شاهد حبّنا للحبيب ﷺ وآية إيماننا به وعنوان إسلامنا وإحساننا فى ديننا .

فهيا بنا نُعايش الحبيب وصحبه بأرواحنا وإن لم نعايشهم بأبداننا ، لطول العهد ، وفضل ما بيننا وبينهم ، إذ هم كواكب مشرقة فى السماء ، تنير الأرض لأهلها ، وأما نحن فإنا ضعيفو الصلة بالسماء . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

* * * * * * * * * * *

الحبيب ﷺ بقباء

إنه قبل وصوله ﷺ إلى قباء وهى ضاحية من ضواحى المدينة على ثلاثة أميال منها ، كان رجال من الأنصار لما بلغهم خروج النبى ﷺ من مكة إذا صلوا الصبح خرجوا إلى ظاهر المدينة إلى الحرة الجنوبية ينتظرون طلوع رسول الله ﷺ عليهم فلا يبرحون ينتظرون حتى لم يبق ظل يستظلون به من حر الشمس ، ثم يعودون إلى بيوتهم . ولما كان اليوم الذى وصل فيه رسول الله كانوا قد خرجوا كعادتهم ، وما إن عادوا إلى بيوتهم لارتفاع النهار وانعدام الظلال إلا وصاح صائح يصيح بأعلى صوته: يا بنى قيلة نسبة إلى جدة لهم تسمى قيلة . وما إن سمعوا الصراخ حتى خرجوا كلهم ، وإذا برسول الله ﷺ مع صاحبه مستظل بظلة نخلة ، وأكثرهم لم يكن قد رأى النبى ﷺ ، وكان أبو بكر فى سن رسول الله ﷺ ، وركبهما الناس يُسلمون عليهما ، وما يعرفون رسول الله ﷺ من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو كبر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك . ونزل الحبيب على كلثوم بن الهدم ، ونزل الصديق على خبيب بن إساف كان تقدم .

* * * * * * * * * * *

أول عمل بقباء لرسول الله ﷺ

إن أول عمل إصلاحى خيرىّ بناء قام به النبى ﷺ بقباء هو بناؤه مسجد قباء فى الفترة التى أقامها بين سكانها وهم بنو عمرو بن عوف بن مالك ، والتى لم تتجاوز أسبوعاً واحداً .

وكان مسجد قباء أول مسجد بنى فى الإسلام ، وقد ذكره تعالى فى كتابه وأثنى على أهله خيراً فقال تعالى من سورة التوبة: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨] . .

وهنا بقباء أتى سلمان الفارسى الذى طالما انتظر مجيئه . جاءه من المدينة بكيس من التمر ، وقال: هذا صدقة تصدقت بها عليكم – وهو يريد بذلك اختباره – فقال الحبيب ﷺ : «إنا لا نأكل الصدقة» ، وأمره أن يتصدق بها على غيره ، وانصرف سلمان وعاد فى اليوم الثانى ومعه تمر آخر وقدمه للرسول ﷺ ، وقال: هذه هدية قدمتها لك ، فقبلها ﷺ ودعا له بخير .

وهنا أعلن سلمان إسلامه ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وسبب عمل سلمان هذا أنه علم من الكتب السابقة أن النبى محمداً ﷺ من نعوته وصفاته أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .

ولما قضى رسول الله ﷺ ما كتب الله له من أيام فى قباء بديار بنى عمرو بن عوف سار إلى المدينة وفى طريقه أدركته صلاة الظهر بديار بنى سالم بن عوف ، وكان اليوم يوم جمعة ، فصلى بهم الجمعة وخطبهم فى مسجدهم ببطن الوادى "رانونا" فكانت أول جمعة صليت فى الإسلام .

وركب الحبيب ﷺ راحلته فأتاه عُتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة فى رجال من بنى سالم وقالوا له: يا رسول الله أقم عندنا حيث العدد والعدة والمنعة ، وهم ممسكون بخطام ناقته ليُنيخُوها ، فقال لهم: «دعوها فإنها مأمورة» ، وواصل سيره إلى طيبة طابت مغانيها ، وسلام على ساكنيها .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فى الآتى:

١- بيان أن مسجد قباء كان أول مسجد بُنى فى الإسلام .

٢- بيان كيفية معرفة سلمان للنبى ﷺ وذلك بما أجرى من اختبار عليه بالصدقة والهدية لعلمه السابق أن من صفات نبى آخر الزمان أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .

٣- بيان أن أول جمعة صليت فى الإسلام هى تلك التى صلاها رسول الله ﷺ فى مسجد بنى سالم بن عوف ببطن وادى "دانونا" .

٤- عرض بنى سالم على النبى ﷺ الإقامة بينهم وترغيبه فى ذلك وذكرهم لكثرة رجالهم وسلاحهم ومنعتهم الحربية يُعتبر موقفاً مشرفاً خالداً لهم - رضى الله عنهم وأرضاهم - .

* * * * * * * * * * *

استقبال الأنصار للحبيب ﷺ وعظيم فرحهم وحفاوتهم به

إنه ما إن ركب ﷺ راحلته ، وسارت به من ديار بنى سالم متجهة نحو المدينة ، وأهل كل دار من دور الأنصار يمر بها إلا ويستقبله رجالها قائلين هلُمَّ إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة ، وهم ممسكون بخطام ناقته ، وهو يقول: «**دعوها فإنها مأمورة**» .

وخرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب ﷺ على بكرة أبيهم ، فامتلأت بهم الطرق ، وظهروا على سطوح المنازل نساء وأطفالاً ورجالاً ، وهم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون:

طلـــع البـــدرُ علينـــا ::: مـــن ثنيَّـــات الـــوداع
وجـــب الشـــكرُ علينـــا ::: مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعوثُ فينـــا ::: جئـــتَ بالأمـــر المطـــاع
جئـــتَ شرَّفـــتَ المدينـــةَ ::: مرحبـــاً يـــا خيـــرَ داع

وواصل الحبيب سيره فى تلك الحشود الحاشدة ، والجموع المتجمعة فى هذا اليوم التاريخى العظيم ، الذى قال فيه أنس بن مالك: لقد رأيت اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ علينا ،

واليوم الذى قبض فيه فلم أر يومين مثلهما قط . حتى انتهى إلى قرب دار أبى أيوب الأنصارى ، فبركت والرسول ﷺ مُرْخٍ الزمام لها ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ، ثم بركت وتلحلحت وضربت بجرانها فى الأرض فنـــزل عنها الحبيب ﷺ فاحتمل أبو أيوب الرحل فوضعه فى بيته ، ونزل النبى ﷺ بداره لأنه أحد أخوال أبيه من بنى النجار .

ونزل رسول الله ﷺ بالسفل من الدار ، وأبو أيوب وأم أيوب بالعلوى ، فتألم ذلك أبا أيوب ، فقال: يا رسول الله إنى أكره أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلوى وننـــزل نحن فنكون فى السفلى ، فقال رسول الله ﷺ : «**يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون فى أسفل البيت**» ، وبذلك طابت نفس أبى أيوب – رضى الله عنه – .

وكان أبو أيوب يصنع للرسول الطعام ، فإذا أكل منه ﷺ وتركه ، أخذه وقُدم لأبى أيوب ليأكل منه ، فكان – رضى الله عنه – يسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ ليتتبع موضع أصابعه فيأكل منه برجاء البركة ، فصنع له يوماً طعاماً فيه ثوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل ففزع ، وأتى رسول الله ﷺ فقال: أحرام ؟ فقال: «**لا ولكنى أكره ذلك**» .

وهذا لأنه ﷺ يناجى الملك ، وغيره لا يناجى .

ومبرك الناقة كان مربداً ليتيمين ، وكان فيه نخل وبعض قبور ، فسأل عنه ، فقال له معاذ ابن عفراء: يا رسول الله هو ليتيمين لى وسأرضيهما منه ، فاتخذه رسول الله ﷺ مسجداً .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- بيان عظم فرحة الأنصار بمقدم الرسول ﷺ ، وما أبدوه من حفاوة وترحيب لم يسبق لهما نظير فى التاريخ البشرى قط .

٢- بيان أن آية الناقة فى سيرها وبروكها لقوله ﷺ : «**دعوها فإنها مأمورة**» .

٣- بيان فوز أبى أيوب خالد بن زيد بنـــزول الرسول ﷺ بداره ، وإقامته بها حتى بنى مسجده وحجرات نسائه بإزائه .

٤- بيان أدب أبى أيوب ، وكمال حبه لرسول الله ﷺ إذ لم تطب نفسه أن يسكن فى

أعلى المنـــزل والرسول ﷺ فى أسفله .

٥- مشروعية التماس البركة من آثار النبى ﷺ - إن وجدت - كسوره وشعره وريقه وثيابه ، وما إلى ذلك .

* * * * * * * * * * *

بناء المسجد النبوى وفضله وشرف المدينة وأهلها

إنه ما إن بركت الناقة وضربت بجرالها من مساء يوم الجمعة من شهر ربيع الأول ، حتى سأل رسول الله ﷺ عن المربد الذى بركت فيه الناقة لمن هو ؟ وقال: «**يا معشر الأنصار ثامنونى بحائطكم هذا لأتخذه مسجداً**» . وقال معاذ بن عفراء: هو ليتيمين لى هما سهل وسهيل ابنى عمرو وسأرضيهما ، وأمر ﷺ أصحابه بالشروع فى العمل وتقدمهم لذلك تشجيعاً لهم ، واندفعوا مهاجرين وأنصاراً يعملون حتى قال قائلهم:

لَئِـــــنْ قعدنـــا والنبىُّ يعمـــلُ ::: لـــذاك منـا العمــلُ المضلّـــلُ

وكان بالمربد قبور مشركين ، ونخل وخرب ، فأمر بالنخل فقطع ، وبالخرب فسوّيت وبالقبور فنبشت ، وأخذوا ينقلون الحجارة وهم يرتجزون:

اللهم لا خيــرَ إلا خيــرُ الآخـــرة ::: فانصــــر الأنصـــارَ والمهاجـــرةَ

والرسول ﷺ ينقل الحجارة ويقول: «**لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار**» .

وارتجز على قائلاً:

لا يستـــوى مَـــنْ يعمــرُ المساجــدَ ::: يـــدأبُ فيـــه قائمــاً وقـــاعداً

ومَـــنْ يُرى عـــن الغبـــار حائـــدا

فأخذ عمار بن ياسر يرتجزها ، فظن أحد الأصحاب أنه يعنيه بها تعريضاً به ، فقال لعمار: يا ابن سمية والله إنى لأرانى سأعرض هذه العصا لأنفك ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فغضب ، وقال: «**ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» ، وتم بناء المسجد بالحجارة ، وكان هذا المسجد المبارك أحد المساجد الثلاثة التى لا تشدّ الرحال إلا

إليها ، وذلك لفضلها واستواء سائر المساجد فى الفضل دونها ، فقد قال الحبيب ﷺ : «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى**» ، وقال ﷺ فى بيان فضله: «**صلاة فى مسجدى هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» ، وقال: «**من أتى مسجدى هذا لا يأتيه إلا لخير يعلمه أو يتعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله**» ، وقال - فداه أبى وأمى ﷺ -: «**ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة**» .

أما عن شرف المدينة وأهلها فحسبنا أن نورد بعض ما ورد وصحّ فى بيان فضلها وفضل أهلها ، ومن ذلك:

قوله ﷺ : «**إن الإيمان ليأرز**[١] **إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**»[٢] .

وقوله ﷺ : «**أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون: يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد**» .

ولو صح حديث: «**اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىّ فأسكنى فى أحب البلاد إليك**» .

ولم يعارض بحديث: «**والله إنك خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىّ ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت**»[٣] ، لكانت المدينة أفضل من مكة كرمها الله .

ومما يزيد المدينة حباً فى قلوب المؤمنين ورغبة فى المقام بها حتى الموت ، قوله ﷺ : «**من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ، فإنى أكون له شاهداً أو شفيعاً يوم القيامة**» ، عرف هذا عمر - رضى الله عنه - فكان يدعو ويقول: اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك ، وموتاً فى بلد رسولك .

وحسب المدينة شهادة وفضلاً أن أصبحت داراً للرسول ﷺ بها مسجده وفيها قبره ، ومنها مبعثه .

---

(١) يأرز: أرز: تقبض وتجمع .
(٢) فى الصحيح .
(٣) صحيح الإسناد .

وأما أهل المدينة وهم الأنصار فشرفهم كان بمسارعتهم للإيمان ، وإيواء الرسول والمؤمنين ، ونصرهم ، ومقاسمتهم العيش معهم . أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]. وقرر الرسول ﷺ شرفهم وفضلهم فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : **«آية الإيمان حب الأنصار ، وآية المنافق بغض الأنصار»** . وقوله: **«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله»** ، وقوله ﷺ : **«لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الأنصار وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبهم ، الأنصار شعار ، والناس دثار»** .

ولنستمع إلى شاعر الأنصار يقول ويذكر بما أكرمهم الله تعالى به من الإسلام وما خصهم به من هجرة رسوله إليهم ونصرهم له ، وبذل الرخيص والغالى له ﷺ ليأمن ويعزّ وينتصر:

ثَـوىَ فى قـريشٍ بضعَ عشرةَ حجةً ::: يُذكـر لـو يلقـى صـديقاً مواتياً
ويعـرضُ فى أهـلِ المواسـم نفسَه ::: فـلم يَـرَ مَـنْ يُؤوى ولم يَرَ داعياً
فـلما أتانـا أظهـرَ الله ديـنَه ::: وأصـبح مسـروراً بطيـبة راضياً
وَألفَـى صـديقاً واطمأنتْ به النَّوى ::: وكـان له عونـاً مـن الله باديـاً
يقـصُّ لـنا مـا قـال نوحٌ لقومه ::: ومـا قـال موسى إذ أجاب المناديا
فأصـبحَ لا يخشى من الناس واحداً ::: قريـباً ولا يخشـى مـن الناس نائيا
بذلـنا لـه الأموالَ من أجل مَالَنَا ::: وأنفسـنا عـند الوغـى والتآسـيا
نعادى الذى عادَى من الناس كلِّهـم ::: جميعاً ولـو كـان الحبيـبَ المواسيـا

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتى:

١- بيان تاريخ بناء المسجد النبوى الشريف وبناؤه أول عمل قام به النبىّ ﷺ فى المدينة .

٢- بيان فضل المسجد النبوى الشريف .

٣- بيان فضل المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

٤- بيان فضل الأنصار وهم سكان المدينة الذين آووا ونصروا .

٥- بيان فضل العيش فى المدينة والوفاة فيها .

* * * * * * * * * * *

جُهود الحبيب ﷺ فى الإصلاح والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية

إنه من ساعة حلوله بالمدينة أخذ ﷺ على عاتقه مهمة الإصلاح والتأسيس والبناء للمجتمع المسلم والدولة الإسلامية الوارثة لأكبر دولتين عالميتين ، وهما: دولة الفرس والروم ، وبتتبع الخطوات التالية تتجلى هذه الحقيقة ، وتتأكد بإذن الله تعالى:

الخطوة الأولى :

إن أول خطوة كانت فى الإصلاح والبناء والتأسيس بناء المسجد النبوى الشريف والحجرات الطاهرات .

الخطوة الثانية :

إنها استقدام الأسرتين الشريفتين ، أسرة الحبيب ﷺ وأسرة الصديق - رضى الله عنه - إنه لما كان عبد الله بن أريقط الخبير بالطرق استأجره الرسول ﷺ مع صاحبه فى هرجتهما عائداً إلى مكة المكرمة ، بعث الرسول ﷺ زيد بن حارثة ومولاه أبا رافع بمال ورواحل ، وأمره أن يأتى ببقية أسرته الشريفة ، فجاء فعلاً ببناته الطاهرات فاطمة وغيرها ، ما عدا زينب فإنها تحت أبى العاص بن الربيع ، كما جاء بسودة بنت زمعة ، إحدى أمهات المؤمنين ، وكذلك فعل الصديق إذ بعث فى طلب أسرته ، فجاء بها ولده عبد الله بن أبى بكر ، ومن بينهم عائشة أم المؤمنين ، كما جاء بأم أيمن زوج زيد مولى رسول الله ﷺ وبهذا استقر النبى ﷺ بالمدينة دار هجرته ، والتى أصبحت تُعرفُ به فيقال المدينة النبوية .

الخطوة الثالثة :

الاتصال باليهود بواسطة عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - ودعوتهم إلى الإسلام ، إنه ما إن نزل ﷺ بطيبة حتى جاءه عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود بالمدينة ليمتحنه فى صدق

نبوته وصحة رسالته فيسأله الأسئلة التالية: فيقول له: إنى أسألك عن ثلاثة لا يعلمهنّ إلا نبى وهى:

ما أول أشراط الساعة ؟

ما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ما بال الولد ينـــزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

فأجابه الحبيب ﷺ قائلاً: «أخبرنى بهن جبريل آنفاً» . فقال عبد الله: جبريل ؟ فقال النبى ﷺ : «نعم» ، قال عبد الله: هو عدو اليهود من الملائكة ، وأخذ الرسول ﷺ يشرح مضمون الأسئلة فقال: «أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب ، وأما اول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع الولد إلى أمه» .

وهنا قال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

ولما أسلم عبد الله بن سلام وحسن إسلامه كانت الفرصة مواتية للاتصال باليهود ودعوتهم إلى الإسلام ، فقال عبد الله: يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت وهم يعلمون أنّى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فسلهم عنّى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمتُ ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ . فأرسل النبى ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه ، فقال لهم: «يا معشر يهود ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلاهو إنكم تعلمون أنى رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق فاسلموا» ، فأجابوا قائلين: ما نعلمه ، فأعاد ﷺ دعوتهم إلى الإسلام ثلاث مرات ، ثم قال لهم: «فأىّ رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال: «أفرأيتم إن أسلم ؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم . هنا قال الحبيب ﷺ : «يا ابن سلام اخرج عليهم» ، فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، فلما سمعوا هذا القول ، قالوا: شرّنا وابن شرنا ، وتنقّصوه ، فأخرجهم الرسول ﷺ . وقال عبد الله لرسول الله ﷺ : هذا الذى كنت أخاف ، وكان عبد الله بن سلام يقول: لما دخل الرسول ﷺ المدينة نظرت إلى وجهه فعرفت أنه ليس بوجه

كذاب ، وكان أول شيء سمعته منه قوله ﷺ : «**أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام**» .

والخطوة الرابعة :

وضعه ﷺ ميثاقاً للمهاجرين والأنصار متضمناً موادعة اليهود بالمدينة . إن من أبرز الجهود التى بذلها الحبيب ﷺ فى الإصلاح والتأسيس والبناء كتابه الذى كتبه فضمنه ميثاقاً فى غاية الدقة ، وحسن السياسة فألف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود ، وربط بينهم فأصبحوا به كتلة واحدة يستطيعون أن يقفوا فى وجه كل من يريد أهل المدينة بسوء ، وهذه ديباجة الكتاب المذكور ، وبعض ما حواه من مواد الميثاق الذى اشتمل عليه .

* * * * * * * * * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

«**هذا كتاب من محمد النبى الأمى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس . . .**» . إلى آخر كتابه ﷺ المتضمن لأعظم ميثاق عرفه الناس . وهذا بعض ما جاء فيه من مواد فى غاية الأهمية .

إن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء وعقل .

لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسيعة ظُلم أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

لا يَقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يُجير عليهم أدناهم .

إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم .

إن سلم المؤمنين واحد ، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

من اغتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يُوتغُ[1] إلا نفسه وأهل بيته .

إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم .

إنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ، ولا يُؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .

الخطوة الخامسة :

هى مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

إن من الرشد والكمال النبوى ، والنضج السياسى ، والحكمة المحمدية ، خطوة الحبيب ﷺ فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى ظرف كان المهاجرون فيه أحوج ما يكونون إلى ما يخفف عنهم آلام الغربة ، والفاقة ، والفرقة إذ تركوا ديارهم ، وأموالهم ، وأهليهم ، وحلوا ببلد لم يكن ليتسع حتى لأهله فضلاً عن النازحين إليه .

وبهذه المؤاخاة التى آخى فيها الرسول الحكيم بين المهاجرين والأنصار ، والتى كان الأنصارى فيها يقول لأخيه المهاجر: انظر إلى أعجب نسائى إليك أطلقها فإذا انتهت عدتها تزوجتها ، بهذه المؤاخاة كان المجتمع المدنى قد التحم بعضه ببعض ، وأصبح جسماً واحداً ينهض

---

(١) يوتغ: لا يهلك .

بكل عبء يلقى عليه . وبذلك الرسول الحكيم لتحمل عبء إعلان الحرب على الأبيض والأصفر ، وقتال القريب والبعيد من كافة أهل الشرك والكفر .

وهذا نموذج مصغر من تلك المؤاخاة:



أخوان	المهاجر :	أبو بكر الصديق
	الأنصاري :	خارجة بن زهير
أخوان	المهاجر :	أبو عبيدة عامر بن الجراح
	الأنصاري :	سعد بن معاذ
أخوان	المهاجر :	عبد الرحمن بن عوف
	الأنصاري :	سعد بن الربيع
أخوان	المهاجر :	عمر بن الخطاب
	الأنصاري :	عتبان بن مالك
أخوان	المهاجر :	عثمان بن عفان
	الأنصاري :	أوس بن ثابت
أخوان	المهاجر :	طلحة بن عبيد الله
	الأنصاري :	كعب بن مالك
أخوان	المهاجر :	سلمان الفارسي
	الأنصاري :	أبو الدرداء
أخوان	المهاجر :	بلال بن رباح
	الأنصاري :	أبو رويحة

وها هى ذى الكلمة الطيبة التى قالها الحبيب ﷺ فتمت بها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إنها هى قوله فداه أبى وأمّى والناس أجمعون: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» ، وما إن قالها حتى قال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول

الله ﷺ : «أو غير ذلك ؟» ، فقالوا: وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم العمل ، وتقاسمونهم الثمر» ، فقالوا: نعم . وبعدها قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مُواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . فقال الحبيب ﷺ : «لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم» .

هكذا كانت المؤاخاة فى ظروف الحاجة ، ولما وسع على المسلمين نسخ التوارث بها ، وأقر المودة والحب بينهم . فقال تعالى: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦] .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- المسجد فى الإسلام هو المنطلق لكل خير وكمال تطلبه الأمة المسلمة ، إذ فيه تعالج أمراض الجهل وسوء الخلق ، والملكات السيئة فى بعض الأفراد .

٢- ظهور الحكمة المحمدية فى كل خطوة من هذه الخطوات الخمس .

٣- المواد التى اشتمل عليها الميثاق الذى تضمنه كتاب رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار دالة على ما كان يتمتع به الحبيب ﷺ من العلم والحكمة ، وحسن السياسة والرشد العام فيها .

٤- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكتاب الميثاق ، وما اشتمل عليه من مواد إصلاحية وسياسة الكل دال بوضوح على أن هناك توقعاً لحرب قد يطول مداها ، وكذلك فقد دامت زهاء عشر سنوات أى إلى أن التحق الحبيب ﷺ بالرفيق الأعلى . وخاضها بعده خلفاؤه وتابعوهم ، وستبقى الحرب وتستمر بين الشرك والتوحيد ، والإيمان والكفر ما بقيت فتنة ، ووجد من يعبد غير الله تعالى . مصداق هذا قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ [الأنفال: ٣٩] .

* * * * * * * * * * *

أحداث بعضها مفرح وبعضها محزن

ما زالت سنة هجرة الحبيب ﷺ الأولى لم تكتمل ، وما زالت الأحداث والوقائع فيها تتجدد . وهذه بعض تلك الأحداث نذكرها تحت عناوينها .

الصلاة والأذان :

من المعلوم أن النبي ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج يصلي هو والمؤمنون معه ركعتين في الصباح وركعتين في المساء ، لقوله تعالى في خطابه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥] ، ولما أسرى به ﷺ إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى الملكوت الأعلى فرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، ونزل جبريل – عليه السلام – فصلى بالرسول ﷺ عند الكعبة فعلمه كيفية الصلوات الخمس ، وبين له أوقاتها الاختيارية ، والضرورية . ولما هاجر إلى المدينة بعد ثلاث سنوات من فرض الصلوات الخمس نزلت الرخصة بقصر الرباعية إلى ركعتين في السفر ، كما كانت ركعتين قبل الإسراء والمعراج ، وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – في حديث البخاري: إن الصلاة نزلت ركعتين ركعتين فزيدت في الحضر وأقرت في السفر ؛ إذ نزلت الرخصة بقصر الرباعية على ركعتين في قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١] ، هذه هي الصلاة .

أما الأذان: فإنه بعد أن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة وبنى مسجده فيها "وأصبح المسلمون يجتمعون فيه للصلاة" ، وكانوا يأتون وقت الصلاة بدون إعلام ، فيصلون وينصرفون ، ويأتون في الوقت التالي للأول وهكذا ، ثم رأى الرسول ﷺ أنه ينبغي أن يكون هناك ما يعلم به المسلمون دخول وقت الصلاة ، وقرب إقامتها ، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالبوق ، فكرهه لاستعمال اليهود له ، وأشاروا بالناقوس ، فكره أيضاً لاستعمال النصارى له ، وانصرفوا ولم يتفقوا على شيء . فنام عبد الله بن زيد الأنصاري الخزرجي ، فرأى أن رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال: وما تصنع به ؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة . قال: ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت: وما هو ؟ قال: تقول: الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على

الفلاح . الله أكبر ، الله أكبر . لا إله إلا الله . فأخبر بها الرسول ﷺ فقال: «**إنها رؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فإنه أندى صوتاً منك**» .

فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ، ويقول: يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال الحبيب ﷺ : «**فلله الحمد**» ، وزاد بلال فى أذان الفجر ، الصلاة خير من النوم فأقر عليها . وعلم رسول الله ﷺ بلالاً الإقامة فقال له: «**وإذا أقمت للصلاة تقول: الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله**» .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردها إزاء الأرقام التالية:

١- تقرير أن الصلاة كانت قبل الإسراء والمعراج عبارة عن ركعتين فى أول النهار ، وركعتين فى آخره ، ثم فرضت كما هى الآن: الظهر أربع ركعات ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ، والصبح ركعتان ، ثم قصرت "رخصة" الرباعية إلى ركعتين فى السفر سواء كان مع السفر خوف أو لم يكن .

٢- رؤيا المؤمن صالحة ، وتحمل البشرى له ولمن رؤيت له .

٣- بيان صيغة الأذان والإقامة ، وفضل عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب لرؤياهما الأذان فى المنام .

٤- مشروعية مخالفة اليهود والنصارى .

٥- بيان أن المؤذن ذا الصوت الندى أولى بالأذان من غيره .

٦- بيان فضل بلال ، وأنه أول مؤذن فى الإسلام .

وفاة كلثوم بن الهدم ، وأسعد بن زرارة - رضى الله عنهما - :

ومن أحداث هذه السنة المؤلمة المحزنة ، وفاة كُلثوم بن الهدم الرجل الذى أسلم قبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة . ولما نزل ﷺ مُهاجراً من مكة إلى قباء نزل فى منـــزله فشرفه الله تعالى

بنـــزول صفيه وخيرته من خلقه فى منـــزله ، و لم يلبث كلثوم بن الهدم إلا قليلاً ، وكان رجلاً مسناً حتى مات ، فإلى رحمة الله ورضوانه ابن الهدم .

ومات بعد كلثوم أبو أمامة أسعد بن زرارة أحد النقباء ، وهو أول من بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية ، وكانت وفاته بسبب ذبحة صدرية . ولما مات قال اليهود والمنافقون: لو كان محمداً نبياً لما مات صاحبه ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنى لا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئاً**» .

وطلب بنو النجار من النبى ﷺ بعد أن مات أبو أمامة نقيبهم أن يقيم لهم نقيباً آخر ، فقال لهم: «**أنتم أخوالى وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم**» .

فكانت هذه منقبة لبنى النجار يعتدون بها على قومهم ، وترك النبى ﷺ تعيين أحد منهم كراهية أن يفضل بعضهم على بعض ، فخصهم بفضيلة عامة لهم جميعاً ؛ وهى كونه ﷺ نقيباً لهم ، وهذا من الحكمة المحمدية والرشد والنضج السياسى . اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

دروس وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلى:

١- موت فضلاء الرجال بعد رزية تؤلم المؤمنين وتحزنهم .

٢- بيان أن النبى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله تعالى .

٣- تجلى مظاهر الرشد والحكمة والسياسة المحمدية التى لا يجارى فيها أبداً .

أول مولود للمهاجرين بالمدينة :

ومن أحداث هذه السنة الأولى من هجرة الحبيب المفرحة ولادة عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – .

فقد جاءت أسماء إلى المدينة مهاجرة ضمن أسرة الصديق وهى مُتم فما إن نزلت بقباء حتى وضعت عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – فجاءت به إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحنكه بأن أخذ تمرة فمضغها ثم أدخلها فى فم الطفل ، فكان أول شىء دخل جوفه ريقة رسول الله ﷺ ، ودعا له بالبركة ، وكبر أصحاب رسول الله فرحاً بهذا المولود الذى كان أول مولود

يولد للمهاجرين فى الإسلام ، كما كان النعمان بن بشير أول مولود وُلد فى الإسلام وبذا أخرس الله ألسنة اليهود ؛ إذ ادعوا أن المسلمين قد سحروا فلذا لم يولد لهم ، فأكذبهم الله فى دعواهم بولادة عبد الله بن الزبير ، وولادة النعمان بن بشير الأنصارى - رضى الله عنهم أجمعين - .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتى:

١- بيان أن اليهود من دأبهم ترويج الشائعات الباطلة والمغرضة .

٢- تقرير أن اليهود يتعاطون السحر وهم أعلم به من غيرهم .

٣- فضيلة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بتحنيك رسول الله ﷺ له .

٤- جواز الفرح بفضل الله والتكبير عند حصول النعمة ورؤية الخير .

٥- معرفة أول مولود ولد فى الإسلام للمهاجرين والأنصار ، وهما: عبد الله والنعمان .

بناء النبى ﷺ بأحب نسائه إليه :

ومن أحداث هذه السنة الأولى المفرحة بناء النبى ﷺ بزوجه عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - إذ كان قد عقد عليها ﷺ بمكة قبل الهجرة ، وذلك بعد وفاة خديجة - رضى الله عنها - وكان عمرها إذ ذاك ست سنوات ، وفى شوال من هذه السنة المباركة بنى رسول الله ﷺ بعائشة بدار أبيها بالسنح نهاراً ، وهى بنت تسع سنوات ، وكان بعض الناس يتشاءمون بالبناء بين العيدين فردت عليهم عائشة بقولها: تزوجنى رسول الله فى شوال ، وبنى بى فى شوال . فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى ؟

وهو كما قالت فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: سألت رسول الله ﷺ عن أحب نسائه إليه فقال: «عائشة» وعن أحب أصحابه إليه قال: «أبوها» أى أبو بكر .

وفى دخول الحبيب ﷺ على عائشة بالنهار رد على ما اعتاده الناس من الدخول بالليل دون النهار .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها كالآتى:

١- جواز العقد على البنت قبل بلوغها دون الدخول بها .

٢- فضل عائشة على سائر النساء بحب الرسول ﷺ لها أكثر من غيرها .

٣- جواز الدخول على العروس نهاراً ، ولا معنى لتخصيص ذلك بالليل .

٤- إبطال وهم من توهم شؤم الزواج والبناء بين العيدين الفطر والأضحى .

٥- فضل أبي بكر الصديق لحب الرسول له أكثر من أصحابه .

* * * * * * * * * * *

آخر أحداث هذه السنة ثلاث سرايا يبعث بها النبي ﷺ

إنه بعد أن أصبحت المدينة وكأنها دار إسلام محضة على الرغم ممن فيها من المشركين ، والمنافقين واليهود حيث أصبح للمؤمنين فيها شوكة وقوة لا يستهان بها أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال ، وذلك في قوله تعالى من سورة الحج: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩ ، ٤٠] .

وعملاً بهذا الإذن الإلهي أخذ الرسول ﷺ يبعث بالسرايا لتعقّب قوافل المشركين التجارية لعله يظفر بأموالهم التي أصبح المسلمون أحق بها وأولى منهم بمثلها ، فبعث أول سرية ، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وعقد له لواء أبيض وهو أول لواء أو راية عقدت في الإسلام ، وبعث معه ثلاثين من المسلمين المهاجرين ، وذلك ليعترض عير قريش التجارية المارة بسيف البحر التي كان عليها أبو جهل في ثلثمائة رجل من قريش ، ولم يقع بينهم قتال ، لحجز مجدي بن عمرو الجهني بينهم ، إذ كان مجدي موادعاً للفريقين معاً ، وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد الغنوي ، وكانت هذه السرية في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالتالي:

١- بيان تقيد الرسول ﷺ بالإذن من ربه فلا يأتي ولا يذر غالباً إلا بإذن من ربه عز وجل .

٢- بيان أول سرية فى الإسلام ، وأنها سرية حمزة عم رسول الله ﷺ .

٣- بيان الكمال المحمدى فى إرساله عمه والمهاجرين دون الأنصار لتقى عير قريش .

٤- بيان أن أول لواء عقد فى الإسلام كان لواء سرية حمزة بن عبد المطلب – رضى الله عنه – .

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم :

فى شهر شوال وهو الشهر الثامن من مهاجر الحبيب ﷺ عقد ﷺ لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم لواء أبيض وأمره بالسير إلى بطن رابغ من الحجاز ، وكان اللواء مع مسطح بن أثاثة ، فسار فى ستين رجلاً ليس بينهم أنصارى قط ، ساروا طالبين قافلة للمشركين أفرادها مائتا رجل ، فالتقوا معهم على ماء يقال له: "أحياء" وكان على المشركين عكرمة بن أبى جهل أو مكرز بن حفص ، و لم يقع بينهم قتال ، وإنما تراموا بالسهام ، فأصيب سعد بن أبى وقاص بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ، ثم انصرف القوم عن القوم ، وفر إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى ، وعتبة بن غزوان ابن جابر المازنى ، وقد كانا مسلمين ، وإنما خرجا مع الكفار من أجل أن يهربا إلى المسلمين لمنع المشركين لهما من الهجرة ، وحبسهما دونها .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هى كالتالى:

١- من مظاهر الكمال المحمدى أن يرسل عميه حمزة وعبيدة للغزو دون غيرهما من أصحابه الأنصار والمهاجرين ، ليضرب المثل فى الكمال الخلقى والروحى .

٢- فضل مسطح بن أثاثة حيث قلد اللواء وهو ابن خال أبى بكر الصديق .

٣- بيان أن أول سهم رمى به فى سبيل الله الذى أصاب سعداً – رضى الله عنه – .

سرية سعد بن أبى وقاص :

وفى ذى القعدة من سنة الهجرة الأولى المباركة ، وبعد سريتى حمزة وعبيدة ، عقد لسعد بن أبى وقاص لواء أبيض وأرسله فى عشرين رجلاً يمشون على أقدامهم ، يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار ، وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود – رضى الله عنه – وكان أفراد السرية

كلهم مهاجرين ليس بينهم أنصارى ، أرسلهم إلى "الخرّار" وعهد إليهم أن لا يتجاوزوه فساروا فغاتهم عيرُ المشركين ، إذ وصلوا الخرار صبح خامسة ، وسبقتهم عير قريش بيوم ، فلم يظفروا بها ، ولم يقع قتال ، وعاداوا سالمين غانمين الأجر والمثوبة ، دون ما خرجوا له من الظفر بعير المشركين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- بيان فضل سعد بن أبى وقاص ، حيث عقد له النبى ﷺ لواء وأرسله على سرية يقودها إلى جهاد الكفار .

٢- شرف المقداد بن الأسود حيث حمل راية الجهاد فى سبيل الله .

٣- بيان كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ ، فى الالتزام بما يعهد به إليهم .

* * * * * * * * * * *

ظهور العداء الشديد وبدء الصراع الداخلى

إنه ما إن انقضت السنة الأولى من سنى الهجرة الأولى المباركة للحبيب ﷺ ولاح فى الأفق ظهور الإسلام ، وعزةُ أهله حتى نجم النفاق من اليهود والمشركين معاً ، وأخذ التحزّب والتكتل ضد الإسلام والمسلمين يلوح فى الأفق ، وأصبحت المدينة ميداناً للصراع الداخلى .

وها هى ذى قائمة بأسماء منافقى اليهود مقرونة بسوء أفعالهم ، وأخرى بأسماء منافقى المشركين ، مشفوعة كذلك بقبح أعمالهم وسوء سلوكهم .

منافقو اليهود :

إن من بين من عرفوا بالنفاق من اليهود بالمدينة حيث أظهروا الإسلام كيداً للرسول ﷺ والمسلمين ومكراً بهم ، وهم مصرون على كفرهم ويهوديتهم – عليهم لعائن الله –:

١- زيد بن اللصيت: وهو القائل لما ضلت ناقة النبى ﷺ : يزعم محمد أنه نبى يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ؟ ولما بلغ هذا القول النبى ﷺ قال: «**والله لا أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، فهى فى هذا الشعب**

قد حبستها شجرة بزمامها» ، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك .

٢- رافع بن حريملة: وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ لما مات – عليه لعائن الله –: «مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» .

٣- ٤- رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد بن الحارث: أظهرا الإسلام نفاقاً ومكراً وخديعة ، فوادهما بعض المسلمين اغترارٌ بهم ، فأنزل الله تعالى قوله ينهى المسلمين عن موادتهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] . ، وكان رفاعة هذا إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه ، ويقول: أرعنا سمعك يا محمد حتى نُفهمك ، ثم طعن فى الإسلام وعابه ، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ * وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٤٤ – ٤٦] .

٥-٦-٧- سعد بن حنيف ، ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وأخوه عثمان بن أوفى .

٨-٩- سلسلة بن برهام ، وكنانة بن صوريا: كل هؤلاء كانوا من أحبار يهود فأسلموا نفاقاً للدس والفتنة والوقيعة بين المسلمين – فلعنة الله عليهم أجمعين – .

فهؤلاء تسعة من أحبار اليهود أسلموا ظاهراً وهم كفار باطناً ، وكان غرضهم من إسلامهم الدس والوقيعة بين المسلمين ، والفتنة لضعفاء الإيمان ، والتعرف على أحوال المسلمين الخفية ، ليقفوا فى طريق دعوة الإسلام ، حتى لا تظهر ولا تنتشر حفاظاً على كيانهم المزعزع ، وتشبثاً بحلمهم الباطل ، وهو إعادة مجد ومملكة بنى إسرائيل التى تحكم من النيل إلى الفرات .

منافقو المشركين :

لقد كان لمنافقى اليهود أثر كبير إذ جل المنافقين من المشركين كان نفاقهم بسبب

منافقى اليهود ؛ إذ حسنوا لهم ذلك تحت عنوان النصيحة لهم ، وإرشادهم إلى السلوك اللائق بهم حفاظاً على وجودهم ومكانتهم بين الناس ، ومن بين من عُرف من منافقى المشركين هم:

١- زُوى بن الحارث من بنى عمرو بن عوف .

٢- جُلاس بن سويد من بنى حبيب ، وكان ممن تخلف عن الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ، وهو القائل: لئن كان هذا الرجل يعنى النبى ﷺ صادقاً لنحن شر من الحمر ، وسمع هذه المقالة الخبيثة ربيبه عمير بن سعد ، فقال له: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلىّ ، وأحسنهم عندى يداً ، وأعزهم علىّ أن يصيبه شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكنى دينى ، ولإحداهما أيسر علىّ من الأخرى ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ لقد كذب علىّ عمير ، وما قلت ما قال عمير بن سعد فأنزل الله فيه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤] .

وقد روى أن جلاساً قد تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الخير والإسلام .

٣- الحارث بن سويد أخو جلاس بن سويد ، كان منافقاً فخرج مع المسلمين يوم أحد فقتل المجذَّر البلوى ، وقيس بن زيد أحد بنى ضبيعة أخذا بثأر له منهما إذ قتلا أباه فى الجاهلية ، ثم التحق بقريش بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه بالمدينة ، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦] .

٤- نبتل بن الحارث من بنى لوذان بن عمرو بن عوف ، هو الذى قال فيه رسول ﷺ : «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث» ، وكان

رجلاً جسيماً أزلم(١) ، ثائر شعر الرأس ، أحمر العينين أسفع(٢) الخدين ، وكان يأتى النبى ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو القائل: إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه ، فأنزل الله تعالى فيه من سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١] الآية .

٥- مربع بن قيظى ، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ حين أجاز فى حائطه "بستانه" ورسول الله عامدٌ إلى أحد: لا أحل لك يا محمد - إن كنت نبياً - أن تمر فى حائطى ، وأخذ حفنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به ، ولما ابتدره الصحابة أن يقتلوه ، قال رسول الله ﷺ : «دعوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة» ، وضربه سعد بن زيد بالقوس فشجّه أى فى رأسه .

٦- أوس بن قيظى أخو مربع ، وهو الذى قال يوم الخندق: يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا فلنرجع إليها ، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

٧- حاطب بن أمية بن رافع الخزرجى ، وكان شيخاً كبيراً فى الجاهلية له ابن من خيرة المسلمين يقال له: يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد فنقل مثخناً بجراحاته إلى دار بنى ظفر ، فاجتمع إليه من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت فقالوا له: أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، فنطق أبوه حاطب المنافق ، فقال: أجل جنة والله من حرمل غررتم والله هذا المسكين من نفسه .

٨- بشير بن أبيرق أبو طعمة سارق الدرعين الذى أنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧] .

٩- قزمان حليف لبنى أبيرق ، والذى قال فيه رسول الله ﷺ : «إنه من أهل

---

(١) أزلم: مقطوع الأنف ، يشبه العبد .
(٢) أسفع: أسود مشرب بالحمرة .

النار» ، وذلك أنه قاتل يوم أحد قتالاً شديداً ، وقتل بضعة نفر من المشركين ، فأثبتته الجراحات فحمل إلى دار بني ظفر ، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قزمان فقد أبليت اليوم ، وقد أصابك ما ترى ، قال: بما أبشر فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي ، فلما اشتدت به جراحاته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه ، فصدق عليه قول الحبيب ﷺ : «**إنه لمن أهل النار**» .

١٠- عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ، وهو رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وذلك في غزوة بني المصطلق ، وفيه وفي رهطه نزلت سورة المنافقون بأسرها ، وهم الذين كانوا يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ ويقولون لهم: اثبتوا فوالله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١] .

هؤلاء عشرة من منافقي المشركين الذين كانوا يمالئون اليهود وغيرهم على الإسلام ، وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه ، ومات على النفاق من مات منهم ، بحيث لم يقبض رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم منافق ، لا من اليهود ولا من المشركين ، إذ اليهود قد أنهى وجودهم على يد رسول الله ﷺ إنهم كانوا ثلاث طوائف: بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، أما بنو قينقاع وبنو النضير فقد أخرجوا من المدينة ، وأما بنو قريظة فقد أعدموا فيها لخياناتهم وغدرهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، ومن أشهر من أسلم من أحبار اليهود وعقلائهم عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - ومخيريق ، وقد أسلم يوم أحد ، قال فيه رسول الله ﷺ : «**مخيريق خير يهود**» ، وذلك أنه خرج يوم أحد بسلاحه وقال لرهطه: إن مت فمالي لمحمد ﷺ بعد أن وعظ أهله ودعاهم إلى الإسلام ثم قاتل مع رسول الله ﷺ حتى قتل - فرضي الله عنه وأرضاه - .

الأعداء المعلنون عداءهم من اليهود :

إن من ذكرنا من منافقي اليهود كانوا قد ادعوا الإسلام كذباً لأجل الدسّ والوقيعة بين المسلمين ، وهناك عدد كبير من أحبار اليهود لم ينافقوا بل أعلنوا عن عدائهم للرسول ﷺ والمسلمين ، حملهم على ذلك البغي والحسد للعرب على ما فضلهم الله تعالى من اصطفاء محمد رسولاً منهم إلى الناس كافة .

ولنذكر هنا رؤساءهم من أهل البغى والحسد والضغينة منهم ، وما كانوا يقولون للرسول ﷺ وأصحابه من سوء القول وقبيحه جدالاً مرة ، وعناداً مرة أخرى ، وتطاولاً واعتزازاً مرة ثالثة ، وعلى المثال لا الحصر نذكر منهم :

حيى بن أخطب النضرى ، وكان أخبثهم وأكثرهم عداء للرسول ﷺ والمؤمنين وهو أبو صفية زوج رسول الله ﷺ . وأخواه أبو ياسر بن أخطب ، وجُدى بن أخطب ، وسلام ابن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وأخوه سلام بن أبى الحقيق ، ورافع الأعور الذى قُتل بخيبر ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب ابن الأشرف وهو طائى وأمة نضرية – والحجاج بن عمرو وحليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف ، وكل هؤلاء نضريّون .

وعبد الله بن صوريا الأعور ، وكان أعلم أحبار اليهود بالحجاز وهو من بنى ثعلبة .

ورفاعة بن قيس ، وسويد بن الحارث ، وفنحاص ، وشاس بن عدى ، ومالك بن صيف ، ودافع بن أبى رافع ، ورافع بن حريملة ، ومالك بن عوف ، وكعب بن راشد ، وعازر ، وكل هؤلاء من بنى قينقاع ، ومنهم عبد الله بن سلام ، وقد أسلم وحسن إسلامه ، وكان مبشراً بالجنة ، والزبير بن باطا ، وعزال بن شميل ، وكعب بن راشد ، ووهب بن يهوذا ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رميلة ، ونافع بن أبى نافع ، وعدى بن زيد ، وهؤلاء كلهم قرظيون .

ولبيد بن عاصم وهو الذى سحر النبى ﷺ بواسطة بناته وهو من بنى زريق ، وكنانة بن صوريا وهو من بنى حارثة .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتى:

١- صعوبة موقف الدعوة وتحرج القائمين عليها فى هذه الفترة من الهجرة .

٢- خطر المنافقين أشد من خطر الكافرين الظاهرين .

٣- معرفة ما ذكر من منافقى كل من اليهود والمشركين .

٤- مظاهر النبوة المحمدية فى عدة مواقف من هذا العرض .

٥- فضيلة كل من عبد الله بن سلام ومُخيريق من يهود المدينة الذين أسلموا وحسن إسلامهم .

٦- كفر اليهود وحربهم للإسلام وأهله كان نتيجة بغيهم وحسدهم للعرب على انتقال النبوة إليهم ، كما كان خوفاً من أن يحول الإسلام دون عودة مجدهم المتمثل فى مملكتهم التى يحلمون بها وأنها من النيل إلى الفرات .

* * * * * * * * * * *

جدليات اليهود ومظاهر عنادهم

وإلى جانب ذلك الدس والوقيعة التى يقوم بها منافقو يهود ممن أسلم من أحبارهم فى الظاهر ، وهو مبطن للكفر والعداء الشديد فى الباطن .

هناك جماعات أخرى تصرح بكفرها وحقدها وعدائها للرسول ﷺ ودينه وأتباعه ، وتجادل وتعاند ، ولنذكر للعبرة طرفاً من جدالها وعنادها .

فهذا رافع بن حريملة – عليه لعائن الله – يقول فى جدله الساقط: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل: لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] .

وهذا سلام بن مشكم ، ونعمان بن أبى أوفى ، ومحمود بن دحية ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف يقولون للرسول ﷺ : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله ؟ فأنزل الله رداً عليهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] .

وهذا جبل بن أبى قشير ، وشمويل يجدان رسول الله ﷺ فيقولان له: يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول ؟ فأنزل الله تعالى رداً عليهم بقوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] .

وهذا نعمان أضا ، وبحرى بن عمرو ، وشاس بن عدى أتوا النبى ﷺ يتحدثونه فكلموه وكلمهم ﷺ ، ودعاهم إلى الله تعالى ، وحذرهم نقمته ، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، فأنزل الله تعالى رداً عليهم من سورة المائدة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨] .

وهذا رافع بن حارثة ، وسلام بن مشكم ، ومالك بن الصيف ، ورافع بن حريملة أتوا النبى ﷺ يجادلونه فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها من الله حق ؟ قال: «بلى: ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها ، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من إحداثكم» ، فقالوا معاندين: إنا نأخذ بما فى أيدينا ، فإنا على الهدى والحق ، ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله تعالى فيهم قوله من سورة المائدة: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨] . .

وهذا النحام بن زيد ، وكردم بن كعب ، وبحرى بن عمرو أتوا النبى ﷺ يجادلونه ، فقالوا: يا محمد أما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله ﷺ : «الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو» ، فأنزل الله تعالى فيهم وفى قولهم: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩ ، ٢٠] .

وأتى رهط منهم ، فقالوا معاندين مجادلين: هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم[1] غضباً لربه ، فنــزل عليه جبريل فسكنه ،

---

(١) انتقع: تغير . ساورهم: الشدة والغضب والهياج عليهم .

وقال: خفّف عليك يا محمد ، وأتاه من الله بجواب ما سألوا عنه: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الصمد: ١- ٤] .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلى:

١- تقرير أنه كان من اليهود منافقون ، ولا عجب فإنهم أهل لكل شر إلا من رحم الله .

٢- بيان ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من جدل اليهود وعنادهم فى المدينة قبل خروجهم منها .

٣- نزول القرآن بالردّ على ما كان اليهود يلقونه من الشبه والحجج الباطلة والمزاعم الكاذبة .

* * * * * * * * * * *

وكاليهود نصارى نجران يجادلون، ويعاندون

وبمناسبة ذكرنا جدال اليهود وعنادهم ، نذكر جدال النصارى وعنادهم المتمثل فى وفد نجران ، وإن كان هذا الوفد لم يفد فى هذه السنة الأولى من الهجرة إذ وفد فى سنة الوفود وهى سنة تسع من الهجرة .

وكان أفراد هذا الوفد ستين راكباً من بينهم أربعة عشر راكباً من أشرافهم ، والذين يؤول أمرهم إليهم من رجال الوفد ثلاثة وهم: العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد واسمه الأيهم ، وأبو حارثة أسقفهم وهو أحد بنى بكر بن وائل ، وكانت له منــزلة رفيعة عند ملوك الروم ؛ ولما أبداه من اجتهاد فى دينهم ، ولما كان عليه من العلم ؛ فلذا أمدوه بالمال ، فبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات .

ولما وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة جلس إمامهم أبو حارثة على بغلته التى يركبها متوجهاً إلى رسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة ، فعثرت بغلته ، فقال أخوه كرز: تعس الأبعد يريد رسول الله ﷺ ، فقال له أخوه أبو حارثة: بل أنت تعست ، فقال: ولم يا أخى ؟ قال: والله للنبى الذى كنا ننتظر ، فقال له كرز: ما يمنعك منه ، أى من الإيمان به

واتباعه ، وأنت تعلم هذا ؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وولونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمرها كرز وأسلم بعد .

وحضرت صلاة العصر وقد دخلوا مسجد رسول الله ﷺ، فصلوا العصر إلى المشرق ، وكان بعض الصحابة أنكر عليهم ذلك ، فقال لهم النبي ﷺ : «**دعوهم يصلوا إلى المشرق إذ تلك قبلتهم في كنائسهم**» .

فكلم رسول الله ﷺ منهم ثلاثة وهم: أبو حارثة ، والعاقب ، والسيد وهم مع اختلافهم في أمرهم يقولون في المسيح: هو الله ، ويقولون: هو ولد الله ، ويقولون: هو ثالث ثلاثة ، وهذا قول أهل الملة النصرانية ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله ؛ لأنه لم يكن له أب يُعلم ، وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد ، من ولد آدم قبله ، ويحتجون في قولهم: أنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم . ويحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً .

ولما كلموا رسول الله ﷺ قال لهم: «**أسلموا**» ، قالوا: قد أسلمنا ، فقال لهم النبي ﷺ : «**إنكم لم تُسلموا فأسلموا**» ، قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك . قال: «**كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدا ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير**» ، قالوا: فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت عنهم رسول الله ﷺ فلم يجبهم ، وأنزل الله تعالى نيفا وثمانين آية من أول سورة آل عمران في شأن عيسى ، فحدثهم عنه بالتفصيل ، وبدأ الحديث بولادة جدته حنّة لأمه مريم ففي حديث عجيب ، يدل دلالة قطعية على عبودية عيسى – عليه السلام – ونبوة محمد ﷺ. وجاء فيه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وخرج ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين – رضي الله عنهم أجمعين – فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها ولم يباهلوا . ونزل في ذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] .

قالوا للرسول ﷺ : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما تريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا ، ثم خلوا بالعاقب الذى هو صاحب الرأى فيهم ، فقالوا له: يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم "يريد عيسى – عليه السلام –" ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا الرسول ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نُلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضاً .

وصالحوا النبى ﷺ على ألفى حلة ، وعلى أن يضيفوا رُسل رسول الله ﷺ ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ، ولا يُعشروا ، وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وبعث أبا عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة المحمدية – رضى الله عنه وأرضاه – .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- بيان أن موقف أهل الكتاب من يهود ونصارى من الإسلام واحد ، وهو موقف عدائى خالص وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

٢- بيان أن المنافع المادية كثيراً ما تحمل صاحبها على الإصرار على الباطل ، وهو يعرف الحق حفاظاً على تلك المنافع المادية حتى لا تنــزع منه كما قال أبو حارثة . .

٣- بيان مرية النصارى فى معرفة الله عز وجل إذ مرة يقولون: هو المسيح ، ومرة يقولون: هو ولد الله ، ومرة يقولون: هو ثالث ثلاثة .

٤- بيان أن من لم يوحد الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعباداته ، فليس بمسلم .

٥- حب المرئ للشيء وإلفه له يحمله على الإصرار على الباطل وإنكار الحق .

٦- مشروعية المباهلة في الإسلام ، كما كانت في أديان الإنبياء قبله .

* * * * * * * * * * *

الحالة الصحية بدار الهجرة

ولما قدم الحبيب ﷺ وأصحابه المدينة وجدوها أسوأ البلاد مناخاً وصحة ، كما قالت عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها وأرضاها – قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فعاني الأصحاب المهاجرون من حماها ما عانوا ، إلا أن الله تعالى وقى رسوله ﷺ فلم يمرض بها .

ولنستمع إليها – رضى الله عنها – وهى تصف الحالة الصحية المتردية بالمدينة فتقول: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهى أوبأ أرض الله من الحمَّى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ ، فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال موليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم أعودهم – وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب – وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت منَ أبى بكر فقلت له: كيف أجدك يا أبت ؟ فقال:

كلُّ امرئ مصبحٌ فى أهله ::: والموتُ أدنى من شِراك نعْلِه

فقلت: والله ما يدرى أبى ما يقول ، ثم دنوت من عامر بن فهيرة ، فقلت له: كيف تجدك يا عامر ؟ فقال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذَوْقه ::: إنَّ الجبانَ حتْفُه منْ فوقه
كلُّ امرئ مجاهدٌ بطَوقه ::: كالثور يحمى جلده بروقه[1]

فقلت: والله ما يدرى عامر ما يقول ، وكذا بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته يقول:

ألا ليتَ شعرى هل أَبيتَنَّ ليلةً ::: بفج وحولى إذخرٌ وجليلُ؟
وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مِجنة؟ ::: وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطَفيلُ ؟

---

(١) الروق: القرن .

والمقصود من إيراد الحالة الصحية بالمدينة أيام الهجرة إليها ، أن نعلم أن الحبيب ﷺ وأصحابه لم يجدوها مفروشة بالرياحين ، ولا سليمة من المنغصات والكدورات ، بل فيها المخاوف والشدائد ، إنما: كيد اليهود ومكرهم ، وخبث المنافقين وكفرهم ، وعداء المشركين وحربهم ، وحتى المناخ مفعم بحمى الملاريا والبلديزم ، فى هذا الجو القاتم يضطلع الحبيب ﷺ بأعباء دعوته ، ومهام رسالته فلا يترك فرصة تضيع بدون إبلاغ دعوته ، ونشر رسالته ، وها هو ذا الآن وقد قضى سنة فى دار هجرته ، وقد مرت بنا أحداثها ، وجلها مؤلمة ، يستقبل السنة الثانية من سنى هجرته بالإعداد للجهاد والتحرك لقتال من يليه من المشركين عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣] ، وذلك بعد أمره تعالى له بالجهاد فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣] .

وبعد الإذن العام بقتال المشركين الظالمين فى قوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] ، بعد أن كان محظوراً عليهم قتال الناس مطلقاً ، وذلك قبل الهجرة ؛ ففى السنة الأولى بعث ﷺ ثلاث سرايا تقدم الحديث عنا فى أحداث السنة الأولى . وقد ولت .

* * * * * * * * * * *

وفى هذه السنة الثانية بلغت غزواته فيها ثمانى عشرة غزوة وسرية .

وأولاها :

غزوة الأبواء

كانت هذه الغزاة المسماة بالأبواء ، أو ودَّان لقرب ما بين الأبواء وودان ؛ إذ ما بينهما من مسافة قد لا تزيد على ستة أميال .

وهى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت فى صفر ، وسببها أنه ﷺ بلغه مرور عير قريش بالأبواء ، ووجود بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فى المنطقة ، فخرج لذلك ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة – رضى الله عنه – ولما وصل إلى ديار بنى ضمرة ، وادعته هذه القبيلة بواسطة سيدهم وصاحب الأمر فيهم مَخشى بن عمرو الضمرى ، وفاتت عير قريش . فعاد ﷺ ولم يلق كيداً . غير أنه أقام بالأبواء بقية صفر ، وعاد فى ربيع الأول .

وكان لواؤه ﷺ فى هذه الغزوة أبيض يحمله عمه حمزة – رضى الله عنه – .

* * * * * * * * * * *

وثانيتها :

غزوة بُواط

وبعد عودته ﷺ من غزوة ودان أو الأبواء فى ربيع الأول من هذه السنة الثانية من هجرته المباركة ، استخلف على المدينة النبوية السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد بن معاذ – رضى الله عنهما – وخرج فى نفس شهر ربيع الأول فى مائتى راكب ، يريد عيراً لقريش عليها مائة رجل من بينهم أميّة بن خلف ، وتعداد أبعرتها يبلغ ألفين وخمسمائة بعير .

فسار ﷺ ولواؤه مع سعد بن أبى وقاص حتى بلغ بواط من ناحية جبل رضوى جهة ينبع النخل ، فلبث ببواط بقية شهر ربيع الثانى ، وعاد فى أوائل جمادى الأولى إلى المدينة دار هجرته المباركة ، ولم يلق كيداً ؛ وذلك لعدم اصطدامه بعير قريش حيث فاتت ونجت بتدبير الله عز وجل وإرادته ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وحسب رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم اجتهدوا باذلين الأسباب ، وليس عليهم إلا ذلك ، أما بلوغ الأرب والحصول على المطلوب فهو لله عز وجل ، وهو يعطى ويمنع لحكم عالية يجب التسليم له فى ذلك والرضا بما قضى .

* * * * * * * * * * *

وثالثتهما :

غزوة العشيرة

فى آخر جمادى الأولى ، وبعد عودته فى أول شهر من غزوة بواط بلغ النبى ﷺ أن أكثر من عير لقريش – أى قوافل تجارية – ذاهبة إلى الشام ، فعزم على السير إليها ، لعله يظفر ببعضها .

فخرج ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأعطى اللواء عمه حمزة بن عبد المطلب – رضى الله عنه – وسار حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ، ولم يلق من عيرات قريش ولا عيراً لفواتها ، ولكنه ﷺ وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، فكان فى ذلك خير للإسلام والمسلمين ، فأقام بالمنطقة بقية جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة ،

وعاد إلى المدينة ، و لم يلق كيداً من أحد ، والحمد لله رب العالمين .

* * * * * * * * * * *

ورابعتها :

غزوة بدر الأولى

إن سبب هذه الغزوة هو أن كرز بن جابر الفهرى أغار على سرح المدينة أى ماشيتها من إبل وغنم وبقر ، وذلك بعد عودة النبى ﷺ من غزوة العشيرة ببضعة أيام (عشرة فأقل) .

فلما أغار كرز على سرح المدينة ، خرج الحبيب ﷺ مع أصحابه فى طلبه لافتكاك الماشية منه ، فاستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة مولاه ، وأعطى اللواء علىّ بن أبى طالب ، وسار فى طلب كرز حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان فى ناحية بدر ، وفاته كرز فلم يدركه ، فسميت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى ، إذ انتهى فيها مسير رسول الله ﷺ إلى قرب بدر ، ووصفت بالأولى لأن بعدها بدراً الكبرى التى نصر الله فيها الرسول والمؤمنين على أبى سفيان والمشركين ، وهناك بدر الآخرة ، فلذا قيل فى هذه: بدر الأولى .

* * * * * * * * * * *

وخامستها :

سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف

هذه السرية شاء الله تعالى أن تكون سبباً قوياً فى غزوة بدر الكبرى ، ومقدمة عجيبة لها ؛ إذ كانت هذه السرية فى رجب من هذه السنة الثانية ، وكانت غزوة بدر الكبرى فى رمضان من هذه السنة نفسها ، فما بين سرية ابن جحش وبدر الكبرى إلا شهر شعبان لا غير ، فقد أمر النبى ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح أن يتجهز للغزو ، فأطاع وتجهز - أى أعد عدة سفر وغزوة - فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ أى تألم لفراقه ولم يطقه فبكى حنيناً وشوقاً ، فلما رأى منه ذلك رسول الله ﷺ وهو الحبيب المحب ، تركه وبعث غيره ، وهو عبد الله بن جحش ، وبعث معه ثمانية رجال من المهاجرين ، وكتب له كتاباً عهد له فيه بأمور ، وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، ويمضى لما أمره به ، ولا يكره أحداً من

أصحابه ، ففعل ، ولما سار اليومين فتح الكتاب ونظر فيه ، فإذا الأمر فيه النـــزول بنخلة ، وهى مكان بين مكة والطائف ، يرصد فيها قريشاً ويعلم أخبارها وتحركاتها وتدابيرها العسكرية الحربية ، فأعلم عبد الله أصحابه فساروا معه ، وكان سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان ، قد أضلا بعيراً لهما كان يتعقبانه ، فتخلفا يطلبانه ، فسار عبد الله مع بقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وغيره ، وفيها عمرو بن الحضرمىّ ، وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وقد حلق رأسه ، فلما رأوه حالقاً رأسه آمنوا بعد أن خافوهم ؛ إذ قالوا: لا بأس هؤلاء عُمّار .

وتشاور أفراد السرية الإسلامية ، وكان اليوم هو آخر يوم من رجب لئن تركناهم هذه الليلة دخلوا الحرم ، وامتنعوا منا ، ولئن قاتلناهم الليلة قاتلناهم فى الشهر الحرام فتردد القوم ، ثم تشجعوا على قتل من يقدرون عليه منهم ؛ لأن جرائم المشركين أعظم من القتل فى الشهر الحرام ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمىّ بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب نوفل فطلبوه فأعجزهم هرباً .

وأقبلوا بالقافلة والأسيرين عائدين إلى المدينة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، وذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ الخمس ، فعزل له خمس العير ، وذلك قبل أن ينـــزل فرض الخمس ، وإنما كان بإلهام من الله تعالى لعبد الله بن جحش ، صهر رسول الله ﷺ ، إلا أن النبى ﷺ أنكر عليهم قتالهم فى الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك . فلما فعل هذا رسول الله ﷺ سُقط فى أيدى السرية ، وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم المسلمون على صنيعهم هذا ، وأذاعت قريش الخبر مشنعة أكبر تشنيع: أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، واعتذر من اعتذر لهم بمكة من المؤمنين ، وقالوا: إنما أصابوا من أصابوا فى أول ليلة من شعبان ، وليس فى رجب الحرام كما أشيع ، إذ آخر يوم من رجب جائز أن يكون أول يوم من شعبان .

وكثرت التساؤلات ، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ عذر أصحاب السرية ، منددا بصنع المشركين ، فقال تعالى من سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

فقررت الآية الكريمة أن القتال فى الشهر الحرام أمر عظيم ولكن أعظم منه صد الناس عن الإسلام حتى لا يؤمنوا ويوحدوا فيكملوا ويسعدوا .

وأعظم من القتال فى الشهر الحرام أيضاً الكفر بالله تعالى وبرسوله ولقائه . كما أن الصد عن المسجد الحرام بمنع المؤمنين من دخوله والتعبد فيه ، كإخراج أهله المقيمين فيه بتعذيبهم والتنكيل بهم حتى يضطروا إلى الهجرة منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام . وأخيراً فإن فتنة المؤمنين عن دينهم باضطهادهم وتعذيبهم أشد ظلماً وأقبح جُرماً من القتال فى الشهر الحرام .

وعندما نزل عذر أصحاب السرية فى هذه الآية الكريمة سألوا رسول الله ﷺ قائلين: هل لنا من أجر فى قتالنا هذا ؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] ، فبشرهم تعالى بما رجوه من الأجر والمثوبة .

وانتهت تلك الضجة ، وبعثت قريش تطلب فداء أسيريها ، وأرجأهم رسول الله ﷺ حتى يرجع سعد بن أبى وقاص ، وزميله عتبة بن غزوان ؛ إذ تأخرا عن السرية فى طلب بعيرهما كما تقدم .

ولما وصل سعد وعتبة أفدى رسول الله ﷺ عثمان بن عبد الله فلحق بمكة أما الحكم بن كيسان فقد أسلم وحسن إسلامه ، فلم يرده رسول الله ﷺ على المشركين . واستشهد الحكم يوم بئر معونة – فرضى الله عنه وأرضاه – .

وقد سجل هذه السرية الصديق – رضى الله عنه – فى ستة أبيات من الشعر فقال:

تدعـون قـتلا فى الحـرام عظيمةً ::: وأعظـم مـنه لو يرى الرشدَ راشدُ
صـدودُكم عمـا يقـولُ محمـدٌ ::: وكفـرٌ بـه والله راءٍ وشـاهدُ
وإخـراجكم مـن مسجد الله أهلَهُ ::: لـئلا يُـرى لله فى البيـت سـاجدُ
فإنـا وإن عَـيَّرْتمونا بقـتله ::: وأرجـف بالإسـلامِ بـاغٍ وحاسدُ
سـقينا مـن ابن الحضرمى رماحَنَا ::: بـنخلة لمـا أوقـدَ الحـربَ واقدُ
دَمًـا وابـن عبـد الله عثمان بيننـا ::: يُنازِعُـه غُـلٌّ مِـن القـد عانـدُ

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلى:

١- بيان ما اضطلع به الحبيب ﷺ من أعباء الجهاد والدعوة إذ ما فرغ من غزوة حتى تهيأ وأعدّ لها، فجزاه الله عن الإسلام وأمته خير ما جزى به نبياً عن أمته .

٢- بيان الكمال المحمدى فى حسن التدبير ، وكمال التصرف وعظيم الرشد فى كل أعماله .

٣- بيان أول غنيمة كانت فى الإسلام ، وخُمست بإلهام من الله تعالى حتى فرض الله تعالى بعد ذلك تخميس الغنائم .

٤- بيان أول فداء فى الإسلام .

٥- بيان مدى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من حبهم لنبيهم حتى إن أبا عبيدة لم يستطع أن يفارق الحبيب ﷺ فرحمه لذلك وأبقاه معه .

٦- بيان أن سرية عبد الله بن جحش كانت مقدمة لغزوة بدر الكبرى .

* * * * * * * * * * *

وسادستها :

غزوة بدر الكبرى

هذه الغزوة الفاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، والَمعنون لها فى القرآن بيوم الفرقان ، لها خطوات قبل الالتقاء فيه ، وله أحداث جسام عنده وبعده وهذه هى الخطوات التى تمت من الجانبين الإيمانى والكفرى ، أو التوحيدى والشركى .

١- قافلة تجارية كبرى لقريش خرجت من الشام يقودها أبو سفيان ورجاله فى طريقها إلى مكة المكرمة .

٢- يصل خبر القافلة إلى النبى ﷺ فينتدب بعض أصحابه لاعتراضها إذا مرت بالحجاز لعل الله تعالى يُنفلهم إياها ، أى يرزقهم ما تحمله من بضائع وسلع نافعة عظيمة ، وهم أحوج ما يكونون إلى ذلك لأن أموالهم تركوها بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فصادرتها قريش منهم ، ولنستمع إلى الرسول ﷺ يقول لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها» . فخف بعض ، وثقل بعض ، لأن الأمر ما كان ملزماً وإنما و بمجرد عرض لا غير . كما

أهم ما كانوا يظنون أن النبى ﷺ سيواجه حرباً ويلقى قتالاً .

٣- أبو سفيان يدنو من الحجاز بقافلته ، وها هو ذا يتحسس الأخبار ويسأل كل من يلقى من الركبان خوفاً من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقه ، وفعلاً أصاب خبراً من بعض الركبان مفاده أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه له ولعيره ، فقوى بذلك خوف أبى سفيان ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشاً فيخرجوا لحماية عيرهم التى بها أموالهم .

٤- فى مكة ترى عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها ، وذلك قبل قدوم ضمضم الغفارى مكة بثلاث ليال ، فتبعث إلى أخيها العباس – رضى الله عنه – فتقول له: يا أخى لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى ، وتخوفت أن يدخل على قومك شر ومصيبة ، فقال لها: وما رأيت ؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يالغدر لمصارعكم فى ثلاث . فرأى الناس قد اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله ، مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ألا انفروا يالغدر لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل له بعيره على رأس جبل أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذ كانت بأسفل الجبل ارفضّت[1] فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فلقة[2] .

فقال لها العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد ، واستكتمته[3] إياها ، إلا أنه قصها على الوليد بن عتبة صديقه ، واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه ففشت حتى بلغت أبا جهل فغضب لذلك ، فلما رأى العباس يطوف بالبيت ناداه: يا أبا الفضل إذا فرغت فأقبل إلينا ، فلما جاءه قال له: يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ فقال العباس قلت: وما ذاك ؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة ، قال العباس: فقلت: ومـا رأت ؟ قـال: يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث ، فسنتربص هذه الثلاث ، فإن يكن حقاً ما تقول فسيكون ،

(١) ارفضت: ما تحطم وتفرق .
(٢) فلقة: قطعة .
(٣) طلبت منه ألا يخبر بها أحداً عنها .

وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب ، وبعد ثلاث وصل ضمضم بن عمرو الغفارى ، ووقف على بعيره ببطن الوادى ، وقد حول رحله وشق قميصه ، وجدع بعيره ، وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً: اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث ، وتجهزت قريش وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك ، ولما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بنى بكر من حرب ، فخافت أن تضرب من خلف ، إلا أن إبليس جاءهم فى صورة سراقة بن مالك بن جهشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال لهم: أنا جار لكم فلا تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فطمأنهم بهذا فمشوا سراعا .

وخرج النبى ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه ، وذلك يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، إلا أنه رد أبا لبابة من الروحاء ، واستعمله على المدينة ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان العقاب وكانت مع على بن أبى طالب ، والأخرى مع بعض الأنصار ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً ، وليس معهم إلا فرسان ، فرس الزبير بن العوام ، وفرس المقداد بن عمرو ، ثم سلكوا طريق العقيق على فجّ الروحاء ، ونزل ﷺ ببئر الروحاء ، ثم ارتحل منها فترك طريق مكة على يساره ، وسلك ذات اليمين ، وقطع الوادى إلى مضيق الصفراء ، ثم بعث بسبس الجهنى ، وعدى بن أبى الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان وغيره ، ثم سار سالكاً ذات اليمين على وادى ظفران ، ولما قطعه نزل ، وقد أتاه ﷺ الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن مسير قريش ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم قام عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن نقول: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ : خيراً ودعا له به .

ثم قال رسول الله ﷺ : «أشيروا علىّ أيها الناس» ، فوقف سعد بن معاذ وقال: والله لكأنك تعنينا يا رسول الله ، قال: «أجل» ! فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما

جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا أحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسُرّ رسول الله ﷺ لقول سعد ونشّطه ، فقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم» .

وطلب النبى ﷺ من أصحابه أن يشيروا عليه كان يعنى به الأنصار لأن شروط بيعة العقبة التى كانت بينه وبينهم لم تتضمن نصرتهم له خارج المدينة ، وإنما داخلها فقط ، فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله ، فلذا طمأنه سعد بما قال وسر به ، وتابع ﷺ سيره تجاه بدر حتى نزل قريباً منها .

تدبير حربى :

وركب رسول الله ﷺ وأبو بكر ، والأصحاب نزول ، ركبا ليمسحا المنطقة التى نزلوا بها تعرفاً إلى ما فى المنطقة ، وتطلعاً إلى أخبار العدو "العير وقريش" معاً ، فعثرا على شيخ يقال له: سفيان الضمرى ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد ﷺ وأصحابه ، وماذا يعرف عنهم ؟ فقال الرجل: ألا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : «إن أخبرتنا أخبرناك» – فى هذا القول من الحيطة والاحتراس مافيه – فقال الشيخ: أذاك بذاك ؟ فقال النبى ﷺ : «نعم» ، قال الشيخ مخبراً: قد بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم فى مكان كذا وكذا ، للمكان الذى نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن صدقنى الذى أخبرنى فهم الآن بمكان كذا وكذا ، إشارة إلى المكان الذى هم الآن به ، وهو العدوة القصوى ، ثم قال: وأنتما ؟ قال النبى ﷺ : «نحن من ماء...» ، أى من جنس الماء الذى خلقنا منه لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ، فكانت منه ﷺ تورية حسنة يتطلبها الموقف .

فأخذ الشيخ يردد كلمة من ماء محتاراً فى هذه النسبة ، أمن ماء العراق هما أم من ماء كذا ، وعاد النبى ﷺ إلى المعسكر الإسلامى .

تدبير آخر :

وفي المساء أرسل النبي ﷺ علياً ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص في رجال يتحسسون العدو ويتعرفون أخباره ، فعثروا على رجلين يسقيان الماء لقريش ، فأتوا بهما إلى المعسكر الإسلامي فسألوهما ، فقالا: نحن سقاة لقريش ، فأنكروا عليهما ذلك ، واتهموهما بأنهما سقاة للعير لا لقريش رغبة من الأصحاب في العثور على العير لا على النفير ، لأن العير لا شوكة فيها بخلاف النفير ، وهم يودون غير ذات الشوكة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ الأنفال: ٧] ، وسألوهما ، فلما أصرا على ما قالا ضربوهما فأوجعوهما ، فقالا: إنهما لأبي سفيان ، وكان النبي ﷺ يصلي فلما سلم من صلاته قال لهم: «**إذا صدقاكم ضربتوهما ، وإذا كذباكم تركتوهما ، صدقا والله إنهما لقريش ، أخبرانا عن قريش**» ، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال رسول الله ﷺ : «**كم ينحرون كل يوم من الإبل ؟**» قالا: ما بين التسعة إلى العشرة ، فقال ﷺ : «**إذا القوم ما بين التسعمائة والألف**» ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش**» ، قالا: عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام و . . . و . . . فذكرا كمًّا من أشراف قريش ، وهنا أقبل رسول الله ﷺ على الناس ، وقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**» .

ثم سار رسول الله ﷺ مع أصحابه فنـــزلوا مكاناً قريباً من العدوة الدنيا ، لا ماء فيه ، فعطش المعسكر ، وأصاب بعضه جنابة بالاحتلام ، فلم يجدوا ماءً يغتسلون به ، ووسوس الشيطان لبعضهم: كيف تقاتلون غداً وأنتم جنب ؟ وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم ، قد تموتون عطشاً ؟ إلى آخر ما يلقى الشيطان في نفوس الناس ، فأكرمهم الله تعالى فأنزل عليهم مطراً ، فسقوا واغتسلوا ، ولبد الرمل ليسهل الكرّ والفرّ عليه .

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١] .

تدبير سابق :

وكان المعسكر الإسلاميّ قد بعث بسبس بن عمرو ، وعدي بن الزغباء ، يتحسسان أخبار العدو ، ويرقبان تحركاته ، فنـــزلا على تل قريب من ماء ، ثم نزلا يسقيان الماء في شن

لهما ، وعلى الماء رجل يقال له: مجدى بن عمرو الجهنى ، فسمع بسبس وعدىّ صوت جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها: إنما تأتى العير غداً أو بعده ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ، فسمع عدى وصحابه حديثهما ، وما دل عليه ، فجلسا على بعيرهما وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا من خبر وُرُود العير إلى ماء بدر ، فوصله ووجد مجدياً فسأله قائلاً هل أحسست أحداً ؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن[1] لهما ثم انطلقا ، فأتى أبى سفيان مناخهما وأخذ بعر ناقتهما ففتته ، فإذا فيه النوى ، فقال: هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى العير سريعاً فحولها عن طريقها ، فأخذ الساحل وترك بدراً يساراً ، وانطلق مسرعاً ، وبذلك نجت العير بكل ما فيها .

وأرسل أبو سفيان إلى قريش يخبرهم أن العير قد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، وكانوا بالجحفة فنقيم عليها ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وترى مسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، وكانت بدر سوقاً سنوياً يجتمع فيه الناس ، ورفض الأخنس بن شريق الثقفى وهو حليف بنى زهرة ، فقال: يا بنى زهرة ارجعوا فإنه لا حاجة لكم بالمسير إلى بدر ، إذ نجى الله أموالكم وخلص صاحبكم وهو مخرمة بن نوفل ، فرجعوا إلى مكة فلم يشهدوا بدراً ، وسارت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى .

عودة إلى المعسكر الإسلامى :

ونظر الحباب بن المنذر إلى المكان الذى نزل فيه رسول الله ﷺ بأصحابه فرآه غير لائق عسكرياً ، فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنـــزل؟ أمنـــزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عن ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**» ، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنـــزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننـــزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنلمؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : «**لقد أشرت بالرأى**» ، فنهض رسول الله بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم فنـــزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فملئوه ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية .

---

(١) الشن: قربة الماء .

تدبير صالح :

وتقدم سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ قال: يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنا أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وبُنى العريش ، وجلس فيه رسول الله ﷺ ، وكان هذا من سعد تدبيراً حسناً .

تقارب المعسكرين :

وتحركت قريش نحو الوادى "وداى المعركة" فلما رآها رسول لله ﷺ تنحدر من الكثيب إلى الوداى قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحِنْهُم الغداة**» ، ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: «**إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا**» .

فى معسكر الكفر :

ولما استقرت قريش فى معسكرها ، بعثت عمير بن وهب الجمحى يحزر لها أصحاب محمد ﷺ فأجال فرسه حول المعسكر الإسلامى ثم رجع ، فقال: ثلثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر ما إذا كان للقوم كمين أو مدد ، وضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فَرُوا رأيكم ، وكان هذا من عمير - إن كان نصيحة - مثل الطابور الخامس ، فلما سمع حكيم بن حزام ما قال عمير أتى عتبة بن ربيعة قال: يا أبا وليد إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال: وما ذلك يا حكيم ؟ قال: ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ، قال: قد فعلت

فعلى عقله ، وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية – أبا جهل – فإنى أخشى أن يشجر[١] أمر الناس غيره . إلا أن عتبة قام خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون شيئاً بلقائكم محمداً وأصحابه ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه الرجل يكره النظر إليه ، قَتَلَ عمه ، او ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكُم و لم تعرضوا منه ما تُريدون .

وأتى حكيم أبا جهل وأخبره أن عتبة أرسله إليه بكذا وكذا "أى بالعدول عن الحرب والعودة إلى مكة" فقال: انتفخ والله سحره[٢] ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال . ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه ، فلما بلغ عُتبة قول أبى جهل "انتفخ والله سَحره" قال: سيعلم مُصَفِّر استه[٣] من انتفخ سحره أنا أم هو ؟ .

فى معسكر الإسلام :

وشرع القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ فى تعديل صفوف أصحابه ، وكان بيده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية وهو مُستنتل[٤] من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال: «استو يا سواد» فقال سواد: يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى من نفسك ، فكشف ﷺ عن بطنه وقال: «استقد» فاعتنقه يقبل بطنه ، فقال له: «ما حملك على هذا يا سواد ؟» ، قال: يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

وبعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ، وقام الحبيب ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها فى الأرض» ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم نصرك» ، ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر – رضى الله عنه – يلتزمه من ورائه ويسوى عليه

---

(١) يشجر: أى يتنازع ويتفرق القوم .
(٢) سحره: الصدر تحته الرئة . انتفخ من الخوف .
(٣) مصفر: واضع الطيب على . استه: فتحة الشرج .
(٤) مستنتل: متقدم .

رداءه ، ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال: يا رسول الله بعض مُناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وخفق النبي ﷺ خفقة أي إغفاءة قليلة ، ثم انتبه منها فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع» ، أي الغبار .

التقاء الفريقين :

في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، تلاقى فريق التوحيد مع فريق الشرك ، وقد قلل الله كلا من الفريقين في عين الآخر ، جاء هذا في قول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال: ٤٤] .

وبدأت المعركة فرمى المشركون مهجعاً مولى عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – بسهم ، فكان أول قتيل من المسلمين في المعركة ، ثم رمى حارثة بن سراقة – أحد بني عدي بن النجار ، وهو يشرب من ماء الحوض بسهم – فأصاب نحره ، فقتل ، وهو الذي جاءت أمه رسول الله ﷺ لما عاد إلى المدينة وقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع تريد من البكاء والنياحة عليه ، فقال لها رسول الله ﷺ : «ويحك أهبلت ، إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» ، وخرج من معسكر المشركين الأسود بن عبد الأسود المخزومي ، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فخرج إليه حمزة – رضي الله عنه – فلما التقيا ضربه حمزة فأطن[1] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض ، فكان أول قتيل من المشركين في بدر .

المبارزة قبل الالتحام :

من سنة الحرب عند الأولين أنهم يبدأون المعركة بالمبارزة بأن يطلب أحد المعسكرين المبارزة من الآخر من باب إثارة الحمية وتهييج المقاتلين . وهنا في غزوة بدر خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ،

(١) أطن: أصابه وأبقى فيه بقية .

وهم عوف ومعوّذ ابنا عفراء ، وعبد الله بن رواحة ، فسألوهم: من أنتم ؟ قالوا: رهط من الأنصار . قالوا: ما لنا بكم حاجة ، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ﷺ : «**قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على**» . فلما قدموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم ؟ قال عبيدة: عبيدة ، وقال حمزة: حمزة ، وقال علىّ: على . قالوا: نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىّ الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وكذلك على لم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين فأثبت كلاهما صاحبه ، وكرَّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فذففا[1] عليه واحتملا صاحبهما وحازاه إلى معسكرهم .

ثم ظهر النبى ﷺ للناس ، فحرضهم على القتال: «**والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**» ، فقال عمير ابن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل - رضى الله عنه وأرضاه - . ثم تقدم إلى رسول الله ﷺ ابن عفراء ، وهو عوف بن الحارث ، فقال: يا رسول الله ما يُضحك الرب من عباده ؟ قال: غمسه يده فى العدو حاسراً فنـزع درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل - رضى الله عنه وأرضاه - . وهنا تقدم الحبيب ﷺ فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ، وقال: «**شاهت الوجوه**» ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه وقال: «**شدوا**» ، وعاد إلى العريش ، واقتتل الفريقان ، وكانت الهزيمة للمشركين ، فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم ، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، كان الحبيب محمد ﷺ ساعتئذ فى العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من كرة العدو عليه .

نهاية سعيدة :

ودارت المعركة وشاركت فيها الملائكة وعلى رأسهم جبريل - عليه وعليهم السلام - وكان عددهم ألف ملك فى صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهورهم إذ شوهد بعضهم وأخبر بهم الرسول ﷺ ومن سورة الأنفال قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩] أى

(١) ذفف: أجهز عليه وأماته .

تطلبون الغوث منه لأنهم – رضى الله عنهم – ضجوا بالدعاء عند ملاقاة المشركين سائلين الله تعالى أن يمدهم بنصر منه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] ، وفيها أيضاً: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢] . فبعض الملائكة قاتل بالفعل وبعض كان يثبت قلوب المؤمنين حتى تصبر على القتال .

ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين ، إذ قتل من صناديد قريش سبعون ، وأسر منهم سبعون ، وكان بين القتلى الطاغية فرعون هذه الأمة ، أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وولده الوليد بن عتبة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبو البخترى ، وعبيدة بن سعيد بن العاص ، ونوفل بن خويلد ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، والعاص بن هشام وأمية بن خلف وغيرهم ، إذ كانوا سبعين قتيلاً .

ومن بين الأسرى: العباس عم النبى ﷺ ، وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن أبى سفيان ، وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير ، وسهيل بن عمرو ، أحد ساسة قريش البارزين .

آية محمدية :

كانت المعركة دائرة والقتال مستمراً ، وسيف عكاشة بن محصن ينقطع من الضرب فى يده فكيف يقاتل ؟ فأتى النبى ﷺ وهو فى العَريش – مركز القيادة – وشكا إليه انقطاع سيفه ، فأعطاه النبى ﷺ جذلاً[1] من حطب ، وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» ، فلما أخذه من يد رسول الله ﷺ هزه فى يده ، فعاد سيفاً فى يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى "العون" وما زال مع عكاشة يقاتل به حتى قتل – رضى الله عنه – فى حرب الردة على عهد أبى بكر الصديق ، فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القوية .

جيف المشركين :

لما خمدت نار المعركة ، ودفن المسلمون شهداءهم ، وكانوا أربعة عشر شهيداً ، سحبت جيف المشركين إلى قليب[2] كان فى ساحة المعركة ، فألقوا فيها إلا ما كان من الطاغية أمية بن

---

(١) جذلا: عوداً .
(٢) قليب: بئر لا ماء فيها .

خلف ، فإنه قد انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه فتزايل[1] لحمه فتركوه مكانه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة .

توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه :

وفى جوف الليل سُمع النبى ﷺ وهو اقف على القليب الذى ألقيت فيه جيف المشركين يناديهم موبخاً لهم ، مقرراً: «**يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلمتونى ونصرنى الناس ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً**» ، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادى قوماً قد جُيفوا ؟ فقال لهم: «**ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا**» . وفى هذا يقول حسان فى قصيدة سجل فيها غزوة بدر منها قوله:

فـدعْ عـنك الـتذكُّرَ كـلَّ يوم ::: وردَّ حـرارة الصـدر الكئيـب
وخـبر بـالذى لا عيـبَ فـيه ::: بصـدق غـير إخـبار الكـذوب
بمـا صـنع المليـكُ غـداةَ بـدر ::: لـنا فى المشـركين مـن النصـيب
غـداة كـأن جمعهـم حـراء ::: بـدت أركانـه جـنح الغـروب
فلاقيـناهم مـنا بجمـع ::: كأسـد الغـاب مـردان وشـيب
أمـام مُحمـد قـد وازروه ::: عـلى الأعـداء فى لفـح الحروب
بـأيديهم صـوارمٌ مـرهفاتٌ ::: وكـل مجـرب خـاطى الكعـوب
بـنو الأوس الغطـارف وازرتهـا ::: بـنو الـنجار فى الديـن الصليب
فغادرنـا أبـا جهـل صـريعاً ::: وعتـبةَ قـد تركـنا بالجـبوب
وشـيبةَ قـد تركـنا فى رجـال ::: ذوى حسـب إذ نُسـبوا حسـيب
يـناديهم رسـولُ الله لمـا ::: قذفـناهم كباكـبَ فى القليـب
ألم تجـدوا كلامـى كـان حقًّـا ::: وأمـر الله يـأخذُ بـالقلوب؟
فمـا نطقـوا ولـو نطقوا لقالوا: ::: صـدقتَ وكنـتَ ذا رأى مُصيـب

---

(١) تزايل: تفرق وانفصل .

خلاف الأحبة وحسمه :

وأمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ بعد انجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرهم ، أمر بجمع الغنائم فجمعت ، واختلف الأصحاب المجاهدون – رضوان الله عليهم – فيمن هو الأحق بها ؟ قال الجامعون لها: هى لنا ، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم: والله لولا نحن ما أصبتموها ، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم حتى أصبتم الذى أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون النبى ﷺ فى العريش خشية أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحق بها منا ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] ، وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسماً للخلاف ، ثم أنزل بيان قسمتها فى قوله: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١] ، وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائياً والحمد لله رب العالمين .

بشائر النصر :

وعجل الحبيب محمد ﷺ بتبشير المسلمين فى المدينة بالنصر الذى تم ، فبعث عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

قال أسامة بن زيد – رضى الله عنه –: أتانا الخبر – حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان – رضى الله عنه – أن زيد بن حارثة قد قدم ، فجئت وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البخترى ، وأمية بن خلف ، ونبيه ، ومنبه ابنا الحجاج ، فقلت: يا أبت أحق هذا ؟ قال: نعم ، والله يا بنى .

طلوع البدر :

وطلع الحبيب محمد ﷺ من بدر عائداً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه ﷺ الغنائم ، وجعل عليها عبد الله بن كعب النجارى ، وسار ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثب بين المضيق وبين النازية إلى سرحة به ، فقسم هناك الغنائم بالسوية على المسلمين ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ،

وعلى من معه بالنصر المبين ، وأثناء مسيره وبالصفراء بالضبط قتل على بن أبى طالب النضر بن الحارث أحد الأسرى ، كما قُتل عقبة بن أبى معيط ، قتله عاصم بن ثابت الأنصارى بعرق الظبية ، وثم لقى رسول الله ﷺ أبو هند حجام الرسول ﷺ لقيه بحميت حيسا[1] ، قال فيه رسول الله ﷺ : «**إنما هو أبو هند امرؤ من الأنصار ، فانكحوه وأنكحوا إليه**» ، ففعلوا وكان أبو هند مولى لفروة بن عمرو البياضى ، ثم مضى رسول الله ﷺ فى مسيره إلى المدينة فوصلها قبل الأسارى بيوم .

أيهما خير القتل أو الفداء؟ :

إنه بعد أن أتم الله نصره ولرسوله والمؤمنين حيث انهزم المشركون وفروا من المعركة لائذين بالفرار ، تاركين وراءهم سبعين جثة ألقيت فى القليب ، وسبعين أسيراً وُضعوا فى القيود ، وقفل رسول الله ﷺ راجعاً ، ونزل منــزلاً ، واستشار أصحابه فى الأسرى: أيقتلون أم يفادون بمال يستعان به على مواصلة الجهاد ؟ فقال ﷺ : «**إن الله قد أمكنكم منهم فما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟**» ، فقام عمر – رضى الله عنه – فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فقد كذبوك وأخرجوك ، فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد ﷺ إلى قوله طالباً المشورة فى الأسرى ، فقام أبو بكر – رضى الله عنه – فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، فذهب عنه وجه النبى ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم وقبل الفداء ، فأنزل الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧] ، فوافقت الآية عمر – رضى الله عنه – فيما رآه من قتل الأسرى فى هذه المعركة ، وأنزل الله تعالى عذر نبيه ﷺ وعذر أبى بكر الصديق فقال: ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٨ ، ٦٩] ، وأنزل فى الأسرى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠] ، فشجعهم بهذا على دفع الفدية وواعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم أسلموا وحسن إسلامهم .

ومن بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، وعقيل بن أبى طالب وغيرهما .

---

(١) الحميت: الزق وعاء من جلد يجعل فيه السمن والعسل والزيت . الحيس: السمن .

ولهذا كان القتل للأسرى فى هذه المعركة البدرية خيراً من المفاداة ، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام ، وإن كان المفاداة فى غيرها خيراً ، وفى كل خير والحمد لله إذ أنزل الله تعالى بعد هذه الآيات من سورة الأنفال أنزل سورة القتال ، وفيها قوله تعالى: ﴿ فَإذا لَقِيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] ، فخير تعالى فى هذه الأمة الإمام بين المن مجاناً وبين الفداء بمقابل ، وبين القتل ، فليدر الإمام مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، فإن كانت فى الفداء فدى ، وإن كانت فى القتل قتل ، وإن كانت فى المن مَنَّ .

كرم محمدى :

إنه لعظم كرمه ﷺ ووافر رحمته لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة النبوية ، مفرقين بينهم ، قال لهم: «استوصوا بالأسارى خيرا» ، وها هو ذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير ، وقد أسر ، يحدث فيقول: مر بى أخى مصعب ورجل من الأنصار بأسيرين ، فقال له: شد يديك به أى حافظ عليه ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ؟ قال أبو عزيز: وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله ﷺ بنا ، فما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردها على أحد ، فيردوها على ما يمسها . فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله لرسول الله !! فصلى الله عليه وسلم ما أرحمه !! لقد نالت رحمته أعداءه ، ورضى الله عن صحابته الطيعين البررة الخيرين .

صدى هزيمة المشركين فى مكة :

ودخل مكة أول داخل من المعركة الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فسألوه فى لهف: ما وراءك ؟ قال: قتل عتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومُنبه ، وأبو البخترى ، فلما أخذ يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية ، وهو قاعد فى الحجر: والله ما يعقل هذا ، فاسألوه عنى . فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: ها هو ذاك جالساً فى الحجر ، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

ولنستمع إلى أبى رافع مولى رسول الله ﷺ يحدث بنبأ هزيمة المشركين فيقول: كنت غلاماً للعباس ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاصم بن هشام ، فلما جاءه

الخبر أقبل يجر رجليه بشر ، حتى جلس على طُنب حجرة زمزم - أى طرفها - فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم ، فما إن رآه حتى قال له: هلم إلى ، لعمرى عندك الخبر ، فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال له: يا ابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ، كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض ، والله ما تُليق[1] شيئاً ولا يقوم لها شىء ، قال: أبو رافع ، قلت: تلك والله الملائكة ، فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهى ضربة شديدة ، وثاورته فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة شقت رأسه وقالت: أستضعفته أن غاب عنه سيده ؟ فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش بعد إلا سبع ليال فرماه الله بالعدسة[2] ، فقتلته .

هذه واحدة من صدى الهزيمة..

وأخرى: وهى أن قريشاً لما فوجئت بالكارثة الشديدة ناحت نساؤها نوحاً شديداً ، ثم رأوا أن النبى ﷺ وأصحابه إذا علموا ذلك شمتوا بهم ، فصدر أمر بمنع النياحة ، وعدم المطالبة بمفاداة الأسرى ، خشية أن يغالى محمد وأصحابه فى ثمن الفداء .

ومن غريب ما حصل أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده ، وهم زمعة ، وعقيل ، والحارث ، فأحب أن يبكى ، وحال دون ذلك قرار المنع الذى صدر عن قريش ، فبينما هو ذلك إذ سمع نائحة من الليل تنوح ، فقال لغلام له: اذهب فانظر هل أحل النحب ؟ أى هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى ولده زمعة - فإن جوفى قد احترق ، فذهب الغلام وعاد فقال له: إن الباكية امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فأنشد هو يقول:

أتبكى أن يَضِلَّ لها بعيرُ ::: ويمنعُها من النوم السهودُ[3]؟
فلا تبكى على بكرٍ ولكن ::: على بدرٍ تقاصرت الجدودُ
على بدرٍ سراةُ بنى هصيص ::: ومخزوم ورهط أبى الوليدِ

---

(١) ما تليق: لا تبقى شيئاً .
(٢) العدسة: بثرة - دمامل - تشبه حبة العدس .
(٣) السهود: الأرق والسهر .

من أصداء المعركة وآثارها :

إن لمعركة بدر أصداءً وآثاراً إنا وإن كنا قد عايشنا المعركة ورأينا أحداثها داخل الساحة وخارجها إلا أن لهذه المعركة التاريخية الفاصلة أصداء وآثاراً ذات مدى قريب أو بعيد ، فحسن رؤية ذلك ، ومشاهدته ، وإزاء النقاط السود نذكر ما يمكن ذكره من ذلك:

فداء أبى وداعة :

لقد أسر أبو وداعة السهمى فيمن أسر فى المعركة ، فما رآه النبى ﷺ أو سمع به أنه ضمن الأسرى ، قال - فداه أبى وأمى-: إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال ، وكأنكم به وقد جاءكم فى طلب فداء أبيه . ولما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسرائكم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه ، قال المطلب بن أبى وداعة: صدقتم لا تعجلوا ، وانسل هو ليلاً ، فقدم المدينة ففدى والده بأربعة آلاف درهم ، وهكذا يفعل الأكياس البررة بآبائهم ، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به ، وكانت آية نبوة .

سهيل بن عمرو :

قدم مكرز بن حفص المدينة فى فداء سهل بن عمرو ، وكان قد أسره مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف الأنصارى ، فلما خاطبهم مكرز فى فداء سهيل بن عمر قالوا له: هات الذى لنا - يريدون من المال - مقابل فداء سهيل ، فقال لهم مكرز: اجعلوا رجلى مكان رجله ، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه ، فخلوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزاً مكانه ، وكان سهيل رجلاً أعلم - أى مشقوق الشفة العليا ، وكان خطيباً - فقال عمر - رضى الله عنه -: يا رسول الله دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو فلا يقدم عليك خطيباً أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : «**لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً ، وإنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه عليه**» .

أبو العاص بن الربيع :

أبو العاص بن الربيع هو ختن النبى ﷺ إذ هو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ زوجه إياها قبل البعثة النبوية ، برغبة من والدتها خديجة - رضى الله عنهم أجمعين وألحقنى بهم آمين - .

ولما بُعث النبى ﷺ آمنت خديجة وكذا بناتها ومنهن زينب ، وبقى أبو العاص على شركه ، وخرج مع المشركين إلى بدر ، فوقع فى الأسر ، فبعثت زينب فى فدائه بمال ، وبعثت

فيه بقلادة لها ، كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها ما لها فافعلوا**» ، فقالوا: نعم يا رسول الله وأطلقوه وردوا عليها الذى لها ، وتجلت فى هذه آيات الحب الصادق والطاعة الإيمانية ، والبشرية المحمدية الطاهرة الرفيعة .

هجرة زينب - رضى الله عنها - :

لما منّ النبى ﷺ على أبى العاص بالفداء بدون مقابل ، كأنه التزم للنبى ﷺ أن يخلى سبيل زينب لتلتحق بأبيها ﷺ بالمدينة النبوية ، ومن هنا لما وصل أبو العاص بن الربيع إلى مكة ، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار إلى مكة ليأتيا بزينب ، وقال لهما: كونا ببطن يأجج ، حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها فخرجا مكانهما ، وذلك بعد بدر بشهر تقريباً ، فلما قدم أبو العاص أمرها باللحوق بأبيها ، وبينما زينب تتجهز للسفر لقيتها هند بنت عتبة ، فقالت لها: يا بنت محمد ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فخافتها زينب فقالت لها: ما أردت ذلك ، فقالت لها: اى ابنة عمّى لا تفعلى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك ، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك ، فإن عندى حاجتك ، فلا تستحيى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال ، قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك .

ولما فرغت زينب من جهازها قدم لها حموها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته وأخذ هو قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهى فى هودج لها على البعير ، وسمع بذلك رجال من قريش فلحقوا بها ، فأدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها فروّعها هبّار بن الأسود ابن المطلب بن أسد ، إذ أشار إليها بالرمح فخافت فطرحت ما فى بطنها ، وبرك على الأرض حموها ، ونثر كنانته ثم قال لهم: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهمى فتراجعوا عنه وانصرفوا ، ثم تقدم نحوه أبو سفيان مفاوضاً له ، فقال له: إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذلّ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وإن ذلك منّا ضعف ووهن ، ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من ثورة . ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سراً ، وألحقها بأبيها ، قال: ففعل فأقامت ليالى حتى هدأت الأصوات ، خرج بها ليلاً

حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدما بها على رسول الله ﷺ ، وكان فى قصة زينب عبرة لأولى الألباب .

إسلام أبى العاص وكيف كان ؟ :

قبيل فتح مكة خرج أبو العاص بن الربيع بعل زينب بنت رسول الله ﷺ المهاجرة إلى أبيها بالمدينة ، خرج تاجراً إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً يأخذ أموال أرباب الأموال ويتجر فيها ، وعند رجوعه من الشام اعترضته سرية من سرايا رسول الله ﷺ فأخذوا ما معه من أموال وهرب فأعجزهم ، ووصل المدينة ليلاً مختفياً ، فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، وقد جاء فى طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح ، وكبر فيها وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفّة النساء: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «**أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟**» قالوا: نعم ، قال: «**أما والذى نفس محمد بيده ماعلمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم**» ، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «**أى بُنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له**» .

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى أفراد السرية فقال لهم: «**إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، وأنتم أحق به**» ، فما كان منهم إلا ردوا عليه كل ماله حتى أن الرجل يأتى بالشنة والآخر يأتى بالشظاظ[1] ، حتى ردوا عليه ماله بأسره ، فاحتمله إلى مكة ، ورده إلى أهله ، ثم قال: يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا: لا ، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً ، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ فرد عليه زينب بعد فترة فرّق الإسلام فيها بينهما ، وذلك لتقدم إسلامها وتأخر إسلامه .

مثل رائع يضربه أبو العاص :

إنه لما قدم أبو العاص من الشام ومعه أموال التجارة واعترضته السرية ، قال له رجالها:

---

(١) الشظاظ: خشبة فى طرفها الحناء تدخل فى عروة الجوالق: الغرارة التى تحمل على جنب البعير .

هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى ، فرفض المقترح ، وكان الذى كان . . ووصل مكة وأدى أموال الناس وهى أمانات فى ذمته ، ثم أعلن إسلامه ، فكان هذا مثلاً رائعاً فى الوفاء يضربه ختن الحبيب محمد ﷺ أبو العاص بن الربيع – فرضى الله عنه وأرضاه – وجعل الجنة مأوانا ومأواه آمين .

إسلام شيطان :

كان بمكة رجل يدعى عمير بن وهب يمثل الشيطان فى كيده وخبثه ، آذى المؤمنين فى مكة أذى كبيراً وكثيراً ، وُصف بانه شيطان من شياطين قريش ، جلس يوماً يتحدث مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر ، فذكر أصحاب القليب ، فقال صفوان: والله ما فى العيش بعدهم خير ، فقال عمير: صدقت والله ، ثم قال: أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ؛ فإن لى قبلهم علة: ابنى وهيب أسير فى أيديهم . فاغتنمها صفوان ، وقال: علّى دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شيء ويعجز عنهم ، فقال له عمير: فاكتم شأنى وشأنك ، قال صفوان: أفعل .

فأمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ثم انطلق حتى أتى المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف ، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، فقال رسول الله ﷺ : «أدخله علّى» ، فأخذ عمر بحمالة سيفه فى عنقه ولببه بها ، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال: «**أرسله يا عُمر ، ادن يا عمير**» فدنا ، وقال: انعموا صباحاً – وكانت هذه تحية الجاهلية – فقال رسول الله ﷺ : «**قد أُكرمنا بتحية خير من تحيتك يا عمير: بالسلام تحية أهل الجنة**» ، فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد . قال: «**فما جاء بك يا عمير ؟**» ، قال: جئت لهذا الأسير الذى بين أيديكم – يعنى ولده وهيباً – فأحسنوا به قال الحبيب ﷺ : «**فما بال السيف فى عنقك ؟**» قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال: «**اصدقنى الذى جئت به ؟**» ، قال: ما جئت إلا لذلك ، قال

النبى ﷺ : «**بل قعدت مع صفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت: لولا دين علىّ ، وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان دينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك**» ، قال عمير: أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينـــزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق . فقال رسول الله ﷺ : «**فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره**» ، ففعلوا وعاد عمير إلى مكة ، وقام بالدعوة إلى الإسلام بنفس القوة التى كان يدعو بها ضد الإسلام وأوذى كثيراً فى ذلك ، وقد دخل بدعوته فى الإسلام خلق كثير .

وهكذا بعد ما كان عمير بن وهب شيطاناً ؛ أسلم فأصبح داعية إسلامية ، وهدى الله على يديه خلقاً كثيراً .

وهنا تتجلى آية النبوة المحمدية والحقيقة الإيمانية ، وهى أن من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

شرف أهل بدر :

أهل بدر هم المؤمنون الذين خرجوا من المدينة مع النبى ﷺ لاعتراض عير قريش القادمة من الشام ، ثم لما نجت العير تصدوا لقتال كفار قريش فى وادر بدر ، وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً على عدة قوم طالوت ، هؤلاء هم أهل بدر الفائزون بأكبر فضل ، وأعظم شرف تدل لذلك الأخبار النبوية الآتية :

١- قوله ﷺ لأم حارثة الشهيد الأنصارى ، وقد سألته قائلة: يا رسول الله قد عرفت منـــزلة حارثة منى ، فإن يك فى الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى ، فليرين الله ما أصنع – تعنى من البكاء والنوح – فقال رسول الله ﷺ : «**ويحك أوهبلت؟ أوجنة واحدة؟ إنها جنان كثيرة وإنه فى جنة الفردوس**» .

فهذا الخبر – وإن كان فى شهداء بدر – فإنه دال على فضل أهل بدر من استشهد منهم ومن لم يستشهد .

٢- قوله ﷺ : «**لن يدخل النار رجل شهد بدراً أو الحديبية**» رواه أحمد على

شرط مسلم فهذا الحديث صريح فى بيان فضل أهل بدر والحديبية .

٣- روى البخارى أن جبريل أتى النبى ﷺ قال له: ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: «من أفضل المسلمين» ، أو كلمة نحوها قال: (أى جبريل) وكذلك من شهد بدراً من الملائكة .

٤- رواية الشيخين فى حاطب بن أبى بلتعة ، وقد كتب كتاباً إلى أهل مكة قبيل تحرك الجيش الإسلامى لفتح مكة ، فقال عمر: ائذن لى يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال له النبى ﷺ : «قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم» ، فدمعت عينا عمر - رضى الله عنه - وقال: الله ورسوله أعلم .

هذا بيان شرف أهل بدر وفضلهم ، ولا يسعنا نحن إلا أن نترضّ عنهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضل منه ورحمة إنه بر رحيم وجواد كريم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- العمل بمشروعية: جزاء السيئة سيئة مثلها ؛ إذ قريش طردت المؤمنين وصادرت أموالهم ، فاعتراض عيرها لأخذ ما معها من أموال كان عدلاً لا ظلم فيه .

٢- الأخذ بمبدأ الدفاع عن النفس ، عملاً بقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] .

٣- لا إثم ولا عقاب على ترك المندوب من الأقوال والأعمال ؛ إذ لم يعتب على الذين لم يخرجوا إلى غزوة بدر لكون الطلب كان ندباً لا وجوباً .

٤- مشروعية الشورى وإنها من الواجبات الضرورية فى كل ما يهم أمر المسلمين ؛ لاستشارة رسول الله ﷺ أصحابه فى أمر قتال المشركين فى بدر .

٥- وجوب مراعاة العهود والمواثيق والالتزام بها تجلى هذا فى طلب النبى ﷺ بيان موقف الأنصار من القتال معه فيما لو حدث قتال بعد نجاة العير .

٦- بيان فضل أبى بكر ، وعمر ، والمقداد بن عمرو ، وسعد بن معاذ ، تجلى ذلك فى

كلماتهم التى قالوها للرسول ﷺ عند طلبه المشورة من أفراد أصحابه حيث قرت بذلك عينا النبى ﷺ .

٧- بيان أن من ضروريات الحرب بث العيون للتعرف على تحركات العدو وعلى أماكن وجوده ، وتقدير قواته وحزرها قوته ، ومعرفة مدى ما تقدر عليه .

٨- مشروعية استعمال الرموز والمعاريض والتورية فى الكلام فى حالة الحرب والتعمية على العدو ، وقطع الطرق عليه ، والحيلولة بينه وبين المرافق التى قد ينتفع بها فى شن غاراته ، والزحف بقواته .

٩- مشروعية الضرب الخفيف الذى لا يكسر عضواً ولا يشين جارحة من أجل استنطاق أفراد العدو للحاجة إلى ذلك ، وحرمة التنكيل وشدة التعذيب .

١٠- ضرورة استعمال الرأى والمكيدة فى الحرب .

١١- آية انقلاب العصا سيفاً صارماً فى يد عكاشة بن محصن ، قاتل به طوال حياته من أعظم آيات النبوة المحمدية .

١٢- آية حفنة الحصا التى رمى بها النبى ﷺ فأصابت جيشاً بكامله فخبلته ، وأصابته بالتمزق والهزيمة من آيات النبوة المحمدية .

١٣- تقرير مبدأ: لا موالاة بين الكافر والمؤمن ؛ إذ قاتل الرجل ولده وقاتل أباه ، وقاتل ابن عمه فى معركة بدر .

١٤- قتال الملائكة فى معركة بدر ورؤية بعضهم وظهور آثارهم آية النبوة المحمدية .

١٥- خذلان الشيطان إخوانه من المشركين إذ فر هارباً لما رأى الملائكة فى ساحة المعركة بعد أن أجارهم ودخل المعركة معهم .

١٦- بيان هلاك المستهزئين مصداقاً لقول الله تعالى لرسوله وهو فى مكة: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] ، إذ هلك بالمعركة جلهم كأبى جهل ، وعتبة ، وأمية ، والوليد ، وعقبة بن أبى معيط .

١٧- وجوب رد الخلاف إلى الله والرسول فى كل ما يشجر بين المسلم والمسلم ، إذ الخلاف الذى تم فى شأن الغنائم رد إلى الله والرسول وقضى الله تعالى فيه بما هو

العدل والخير .

١٨- مشروعية فداء الأسرى أو قتلهم أو المن عليهم إذ رد هذا إلى الإمام يحكم بما فيه خير للإسلام والمسلمين .

١٩- موافقة عمر – رضى الله عنه – ربه فى أسرى بدر ، إذكان قتلهم أولى من فدائهم .

٢٠- تجلى الرحمة المحمدية فى وصيته ﷺ بالأسرى خيراً وبيان مدى طاعة أصحابه له ﷺ .

٢١- تقرير مبدأ الجوار فى الإسلام وأن المسلمين يجير عليهم أدناهم والمرأة فى الجوار كالرجل سواء .

٢٢- بيان ما كان عليه العرب فى الجاهلية من بعض الكمالات كالأمانة والنجدة والعفة .

٢٣- آية النبوة المحمدية فى إخباره ﷺ عمير بما قاله فى الحجر مع صفوان وليس معهما أحد إلا الله .

٢٤- بيان تاريخ غزوة بدر ، وأنها فى رمضان من السنة الثانية من الهجرة .

* * * * * * * * * * *

أهم ما وقع من أحداث فى السنة الثانية من هجرة الحبيب ﷺ

لقد تمت أحداث فى السنة الثانية كالسنة الأولى من الهجرة تسجيلها مهم فى الناحية التاريخية ، لا سيما فى قضايا النسخ التى يتوقف الحكم بها على معرفة تاريخ وقوعها .

وهذه أهم الأحداث التى وقعت فى هذه السنة الهجرية المباركة:

وفاة عثمان بن مظعون أخى النبى ﷺ من الرضاع ، وقد دفن بالبقيع ، ووضع النبى ﷺ حجراً على قبره وقال: «أعلم به قبر أخى» ، وكانت وفاته فى ذى الحجة .

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة .

فرض صيام رمضان ونسخ صيام عاشوراء ، فنسخ وجوب صيام عاشوراءوبقى استحبابه ثابتاً بالسنة النبوية الصحيحة ، وإن صيامه يكفر ذنوب سنة ماضية .

مشروعية صلاة العيد ، وزكاة الفطر وأنها من سنن الإسلام الواجبة .

فريضة الزكاة وبيان أنصبتها وشروطها .

بيان المعاقل وجعلها فى كتاب معلقاً بقراب سيف النبى ﷺ .

وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ .

زواج عثمان بن عفان الخليفة الراشد بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية – رضى الله عنهما وأرضاهما – .

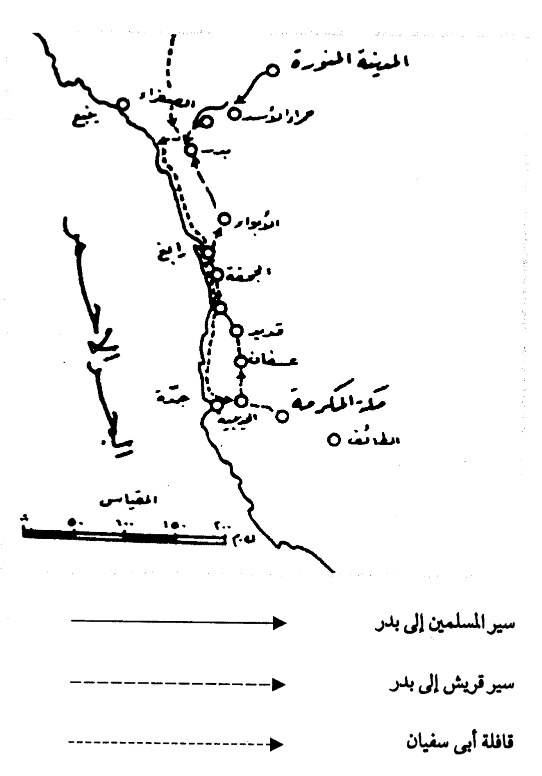
وصول زينب بنت رسول الله ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة النبوية .

إسلام ابن أبى العاص بن الربيع – رضى الله عنه – ورد الرسول ﷺ عليه زوجته زينب رضى الله عنها .

تزوج على – رضى الله عنه – بفاطمة بنت رسول الله ﷺ .

أول صلاة عيد وأضحيته كانت فى هذه السنة إذ صلى بهم الرسول ﷺ وضحى وضحى أصحابه من أهل اليسار معه .

آية نبوة الحبيب محمد ﷺ، إذ قال: «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين؟» ، قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: «أحيمر ثمود عاقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه ووضع يده على رأسه حتى تبتل هذه» ، ووضع يده على لحيته . وكان الأمر كما أخبر إذ ضرب علياً أحد الخوارج على رأسه فقتله .



بيان موقع بدر ، بين مكة والمدينة ، وبيان مسير قافلة أبي سفيان التي أسهل بها آخذاً في الساحل بين ينبع ورابغ ، حتى نجا بها من استيلاء المسلمين عليها ، بتدبير من الله عز وجل .

****

وسابعتها :

غزوة بني قينقاع

بنو قينقاع هم إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا نزلوا المدينة قبل الإسلام بزمن طويل ، فراراً من اضطهاد الروم لهم وانتظاراً للنبوة المحمدية المبشر بها فى التوارة والإنجيل ، ولما حل النبى ﷺ بالمدينة مهاجراً السنة الماضية – أى الأولى من الهجرة – عاهدهم معاهدة سِلم وحسن جوار ، وقد تقدمت وثيقتها تحمل نصوص موادها .

وقد نافق كثير من أحبارهم ووالوا المشركين فى الخفاء ، وكانوا يتربصون بالنبى ﷺ وأصحابه الدوائر ، ولما خرج ﷺ إلى بدر فرحوا ظناً منهم أن المسلمين سيهزمون ، وتخضد شوكتهم ، ويأفل نجم قوتهم ، ولما كان النصر للمسلمين والهزيمة للمشركين شرقوا بريقهم ، وكشروا عن أنيابهم ، وقالوا قالة السوء .

فما كان من الحبيب محمد ﷺ إلا أن جمعهم فى سوق بنى قينقاع ، وقال لهم فى جملة ما قال: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل» فقالوا – فى وقاحة – يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا – والله – لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس ، ونزل رداً على مقالتهم وتهديدهم من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٢ ، ١٣] ، فأمر تعالى رسولَ الله أن يخبرهم بهزيمتهم الآتية لا محالة ، وقد كانت ، وأن مردهم إلى جهنم ، وذكرهم بهزيمة المشركين أوليائهم على كثرتهم وشدة قوتهم .

ومضت أيام قلائل وجاءت امرأة مسلمة بجلب لها فباعته بالسوق ، ومالت إلى صائغ يهودى لتشترى منه مصاغاً ، فجلست وحوله يهود ، فعابوا عليها لستر وجهها ، وطالبوها بكشف وجهها ، فأبت ذلك حفاظاً على عفتها ، وصيانة لشرفها ، من أن تبذل وجهها ينظر إليها غير محارمها . فما كان من أحد أولئك اليهود عليهم لعائن الله إلا أن غافلها وربط طرف درعها من أسفله بطرف خمارها ، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت واكشفتاها . فسمعها رجل مسلم فهب إليها ، فرأى ما بها ، فضرب اليهودى ضربة قتله بها ، وقام يهود فاشتدوا على

المسلم فقتلوه ، فمات شهيداً – رضى الله عنه وأرضاه – وهب رجال من المسلمين للحادث فاقتتلوا مع اليهود ، وبها نقض يهود بنو قينقاع عهدهم ، وطرحوا معاهدتهم ، فنــزلوا حصونهم فتحصنوا بها ، فغزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم نصف شهر حتى نزلوا من حصونهم على حكمه ﷺ ، فكتفوا أى ربطوا بحبال فى أيديهم وأرجلهم ، لقتلهم بموجب بنود المعاهدة المعقودة بينهم وبين رسول الله ﷺ . وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط فى خلاصهم والعفو عنهم حليفهم عبد الله بن أبى كبير المنافقين ، فأتى الرسول ﷺ وكلمه فيهم ، وقال: إنهم موالى ، فغضب رسول الله ﷺ وانتهر ابن أبى ، وقال له: «ويحك أرسلنى» ، إذ قد أخذ المنافق بردائه ﷺ والرسول معرض عنه غضبان ، فقال المنافق: لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، وهم أربعمائة حاسر أى بدون دروع ، وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر ، فقال النبى ﷺ : «هم لك خلوهم» – لعنهم الله ولعنه معهم – وأنزل الله تعالى فيه لعنه الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥١ ، ٥٢] .

وجاء عبادة بن الصامت – وكان مرتبطاً بحلف مع يهود بنى قينقاع – فقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم فكان معنياً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥] ، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] .

ولما أطلقهم رسول الله ﷺ بشفاعة ابن أبى ، خرج بهم عبادة بن الصامت إلى أن وصل بهم ذباباً[1] ، ثم ساروا وحدهم إلى أذرعات من الشام ، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا .

ولما خرج رسول الله ﷺ لغزوهم فى حصونهم ولّى على المدينة أبا لبابة الأنصارى وأعطى لواءه حمزة بن عبد المطلب رضى اله عنه .

ولما أجلى بنى قينقاع قسم رسول الله ﷺ أموالهم بين أصحابه وأخذ خمس الغنيمة لينفقه

---

(١) اسم مكان .

فيما أمر الله تعالى أن ينفقه فيه حيث نزلت سورة الأنفال وفيها قول الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية .

وأخيراً هل كانت هذه الغزوة فى صفر أو فى شوال ؟ الراجح أنها كانت فى شوال عقيب غزوة بدر مباشرة ، فهى من أحداث السنة الثانية لا من الثالثة .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلى:

١- تسجيل خيانة اليهود وغدرهم وانعدام وفائهم بأى التزام يدعونه .

٢- تقرير أن الحجاب هو ستر المرأة عن الرجال الأجانب .

٣- بيان فضل المؤمن الذى غضب له فقتل اليهودى الساخر من المؤمنة ، فقتل شهيداً - رضى الله عنه - .

٤- تسجيل الكرم المحمدى فى أعظم صورة وأعلى مثال ، وذلك بين ظاهر فى قبوله شفاعة ابن أبى وعفوه عن الخائنين الغدر - عليهم لعائن الله - .

٥- فضيلة عبادة بن الصامت الذى تبرأ من اليهود وأعلن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين .

٦- نزول آية آل عمران فى الرد على تبجح اليهود وتهديدهم للرسول ﷺ والمؤمنين .

٧- نزول آية المائدة فى الرد والتنديد بابن أبى - عليه لعائن الله - لنفاقه وكفره .

* * * * * * * * * * *

وثامنها :

غزوة الكدر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر وإجلاء بنى قينقاع من اليهود لغدرهم وخيانتهم بلغه أن بنى سليم قد تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ على ماءٍ لهم يقال له: «الكدر» فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - .

وكان لواؤه عليه الصلاة والسلام مع على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فواصل سيره طالباً جموع بنى سُليم التى تجمعت لحربه ﷺ حتى بلغ ماءهم "الكدر" فلم يجد عنده أحداً ، وإنما وجد نعماً ورعاء فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبوية ، و لم يلق بالكدر كيداً والحمد لله ، وبعد أيام أرسل ﷺ غالب بن عبد الله الليثى فى سرية إلى بنى سُليم وغطفان ، فقتلوا فيهم وغنموا النعم ، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر – رحمهم الله تعالى ورضى عنهم – .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- تقرير مبدأ محاربة من يحارب ، ومسالمة من يسالم .

٢- مشروعية الاستخلاف عند غيبة الحاكم العام .

٣- حلية الغنائم وهى من خصائص هذه الأمة .

* * * * * * * * * * *

وتاسعتها :

غزوة السويق

إنه بعد هزيمة قريش فى معركة بدر وما أصاب رجالها من قتل وأسر آلى أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء من جنابة ، أى لا يطأ نساءه حتى يغزو محمداً ﷺ ويشفى صدره بقتل أصحابه أو أسرهم ، ولما لم يجد طريقاً إلى ذلك ، وطالت به مدة حلفه أراد أن يتحلل من يمينه فانتدب مائتى راكب من قريش وخرج يقودهم إلى المدينة لغزوها ، فوصلها ليلاً فترك رجاله خارجها وأتى حُيى بن أخطب النضرى اليهودى ، فقرع عليه الباب فلم يفتح له تخوفاً منه ، فأتى سلام بن مشكم وهو سيد بنى النضير – وصاحب خزانة أموالهم – فاستأذنه فأذن له ودخل وأطعمه وسقاه وبطن له من خبر الناس – أى أطلعه على ما يجرى فى المدينة من أمور هامة – ثم خرج من عنده ليلاً فأتى رجاله فأمر عدداً أن يدخلوا المدينة وأن يحرقوا بعض نخيلها ، فأتوا ناحية العريض شرق المدينة وحرقوا أصواراً من النخل أى مجموعات من النخل ، ووجدوا فلاحاً وحليفاً له فقتلوهما ، وانصرفوا راجعين إلى مكة ، وما إن وصل الخبر إلى النبى ﷺ حتى خرج فى أصحابه طالباً لأبى سفيان ورجاله ، ففاتوه هاربين ، وكان معهم سويق هو

زادهم فى غزوهم فألقوه فى الأرض ليتخففوا منه وهم هاربون فوجده النبى ﷺ وأصحابه فأخذوه ، وبذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق ، ورجع رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ولم يلقوا كيداً ، فسأل بعضهم رسول الله ﷺ أتطمع أن تكون لنا هذه الغزوة ؟ قال ﷺ : «نعم» ، ولأبى سفيان أبيات شعر قالها وهو يتزود لغزو المدينة يحسن ذكرها لأنها سجلت مجمل أحداث هذه الغارة على المدينة النبوية إذ قال فيها:

كـــروا عـــلى يـــثربَ وجمعهـــم ::: فـــإن مـــا جَمعُـــوا لكـــم نَفَـــلُ
إنْ يـــكُ يـــو مُ القليـــب كان لهم ::: فـــإن مـــا بعـــده كـــان لكم دُوَلُ
ليـــت لا أقـــربُ النســـاءَ ولا ::: يَمـــسُّ رأســـى وجلـــدى الغُســـلُ
حتـــى تُبيـــروا قبائـــلَ الأوس ::: والخـــزرج إن الفـــؤادَ يشتعـــلُ

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يلى:

١- بيان أن المشركين من العرب كانوا يغتسلون من الجنابة وهى مكرمة فيهم من بقايا دين إسماعيل وإبراهيم ، ومن ذلك الختان ، فقد كانوا يختتنون .

٢- بيان أن مشركى العرب كانوا يؤمنون بالله ويحلفون ويبرون أيمانهم .

٣- بيان أن الخروج للجهاد بنيته يحصل به الأجر ولو لم يقاتل .

****

أحداث السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

أولى غزوات السنة الثالثة :

غزوة ذى أمَر

ودخلت السنة الثالثة بعد انقضاء الثانية بما فيها من أحداث جسام ، وأمور عظام ، وها هى ذى السنة الثالثة تفتتح بغزوة ذى أمَر .

وذلك أن النبى ﷺ بلغه أن جمعاً مع غطفان من بنى ثعلبة بن محارب قد تجمعوا عند ماء يقال له: "ذو أمَر" من أرض نجد ليحاربوه ﷺ، فسار إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلاً ، وكان

ذلك يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة ، واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وسار حتى بلغ ماء "أمر" ، فعسكر حوله ، وقد هرب الأعراب الذين تجمعوا لحربه ﷺ ، والتحقوا برءوس الجبال ، وكان قد نزل عليهم مطر غزير بل الثياب ، حتى إن النبى ﷺ لما ابتلت ثيابه الطاهرة جلس تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتيبس من البل ، فرآه المشركون المعتصمون برءوس الجبال خالياً وحده ، فنـــزل رجل منهم يقال له: غورث ، أو دعثور بن الحارث ، نزل بإيعاز من إخوانه المشركين ، وكان أشجعهم وأقدرهم على القتال ، ومشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، وقد سل سيفه وقال: يا محمد من يمنعك اليوم منّى ؟ وهم بضرب رسول الله ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : «**الله**» . فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال لدعثور: «**من يمنعك منى ؟**» ، فقال: لا أحد ، وأنا أشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ووالله لا أكثر عليك جمعاً أبداً ، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فرجع إلى قومه ، فقالوا له: ويلك مالك ؟ ، فقال لهم: نظرت إلى رجل طويل فدفع فى صدرى ، فوقعت لظهرى ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت ، محمداً رسول الله ، ووالله لا أكثر عليه جمعاً ، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزل فى هذه الحادثة وفى نظائرها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إن هذه الآية وإن نزلت فى حادثة مشابهة فى الحديبية ، فإنه لامانع من القول بنـــزوله ، من [سورة المائدة: ١١] .

وعاد ﷺ مع أصحابه و لم يلقوا – والحمد لله كيداً .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يأتى:

١- مشروعية محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم .

٢- مشروعية الخروج إلى العدو وتتبعه إرهاباً له .

٣- ظهور آية من آيات النبوة المحمدية ، وذلك بسقوط السيف من يد دعثور ، وإعلان إسلامه ، وتعهده بأن لا يكثر جمعاً ضد رسول الله ﷺ لما شاهد من آيات نبوته ﷺ .

٤- تجلى الرحمة المحمدية فى العفو على من أراد قتله بعد التمكن منه .

٥- بيان حسن عاقبة العفو بعد القدرة على المؤاخذة .

وثانى الغزوات :

غزوة الفُرع من بحران

ببحران "معدن بالحجاز" ناحية الفُرع تجمع بنو سُليم لقتال النبى ﷺ وعلم ﷺ بتجمعهم لحربه ، فانتدب أصحابه ، وخرج إليهم فى ثلثمائة رجل بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم – رضى الله عنه – وسار إليهم ، فلما علموا بمسيره إليهم تفرقوا ، وكان هذا مصداق قوله ﷺ : «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» ، فرجع ﷺ مع أصحابه و لم يلقوا – والحمد لله – كيداً وكانت مدة الغياب عن المدينة عشرة أيام .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلى:

١- مظاهر العزم والحزم لدى الحبيب محمد ﷺ .

٢- آية النبوة المحمدية فى الهزام المشركين بمجرد تحركه ﷺ نحوهم .

٣- فضيلة ابن أم مكتوم لاستخلاف رسول الله له غير مرة إماماً وحاكماً .

٤- جواز تولية الأعمى إذا كان ذا أهلية للولاية من الإيمان والعلم والتقوى .

* * * * * * * * * * *

أولى السرايا :

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة

لما هُزمت قريش فى بدر وعرفت ألها غير قادرة على حماية قوافلها التجارية عبر طريق قوافلها القديم ، والذى كان يمر قريباً من المدينة إلى مكة ، غيرت طريقها الأول ، وصارت تسلك طريق العراق إلى الشام ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، كما بلغه أن عيراً لقريش تحمل كميات هائلة من الفضة ، وألها سلكت طريق العراق ، انتدب لها سرية من أصحابه ، بقيادة زيد بن حارثة حب الحبيب ﷺ ومولاه ، فسار زيد مع أفراد سريته ، حتى انتهوا إلى ماء يقال له: "القردة" ، وعليه عير قريش ، فهرب أهل القافلة ، وهم: أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وآخرون ، وغنم زيد مع رجاله القافلة بما فيها ، وأسروا معها الدليل ، وهو فرات بن حبان من بنى بكر بن وائل استأجره أبو سفيان ليدلهم على مسالك الطريق الجديد لقوافلهم .

ولما وصل زيد إلى المدينة سلم الغنائم إلى النبى ﷺ ، ومنها الأسير فرات بن حيان الوائلى ، وأسلم فرات وحسن إسلامه ، وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بعد أن خمسها ، فكان الخمس عشرين ألف درهم .

وقال فى هذه الغزوة المظفرة حسان شعراً ، هذه أبيات منه:

دَعُوا فلجات الشام قد حال دونها ::: جلادٌ كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم ::: وأنصاره حقاً وأيدى الملائك
إذ سلكت للغور من بطن عالج ::: فقولوا لها : ليس الطريقُ هنالك

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يأتى:

١- بيان مدى أثر هزيمة قريش فى بدر ، حتى أصبحت فى رعب وخوف لا نظير لهما .

٢- فضيلة زيد بن حارثة لاختياره لهذه السرية المظفرة قائداً ناجحاً .

٣- مشروعية تخميس الغنائم وتنفيذ ذلك .

٤- بيان أن النبى ﷺ كثيراً ما كان يكلف المهاجرين دون الأنصار فى شأن الغزو والحرب خارج المدينة نظراً إلى بنود بيعة العقبة .

****

وثانى السرايا :

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودى

لما انهزمت قريش فى بدر ، وجاء البشيران من قبل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة فبشرا بنصر المسلمين وهزيمة قريش فى بدر ، وبلغ ذلك كعب بن الأشرف الطائى الأصل ، اليهودى العقيدة ابن النضرية اليهودية ، لما بلغه ذلك قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم – يعنى أمية بن خلف ، وأبا جهل ، وعتبة بن ربيعة – لبطن الأرض خير من ظهرها ، وكشر عن نابه كالكلب العقور ، وأخذ يسب النبى ﷺ ، ويتشبب بنساء المسلمين ، ثم ذهب إلى قريش يستعدى رجالها على حرب النبى ﷺ فاستضافوه واجتمعوا عليه ، وهو يسب

النبى ﷺ والمسلمين ، وسألوه عن دينهم فقال: إن دينكم خير من دين محمد ﷺ وكذب اللعين وغش ، فنـــزل فيه قرآن من سورة النساء وهو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ٥١] .

ولما عاد إلى المدينة وأوحى الله تعالى إلى رسوله بما قاله كعب ، وما فعله ، وما عزم عليه الأمر ، الذى استوجب قتله ، بنقضه العهد ، وتأليبه الأعداء على المسلمين ، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه: «من لى بابن الأشرف ؟» فقال محمد بن مسلمة ، أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله ، قال: «فافعل إن قدرت على ذلك» ، فقال: يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول ، قال: «قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل من ذلك» ، فاجتمع على قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، أحد بنى حارثة ، وساروا نحوه ، ولما كانوا بمقربة من قصره ، قدموا سلكان بن سلامة أبا نائلة أمامهم ، فذهب فأتى كعباً فى قصره ، فجلس إليه ساعة ، وتحدث معه ، وتناشدا الشعر ، وكان كل منهما يقول الشعر . ثم قال سلكان: ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى ، قال: أفعل ، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، قال كعب: أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما تقول ، قال سلكان: إنى أردت أن تبيعنى طعاماً ، ونرهنك ونوثق لك ، قال كعب: أترهنونى أبناءكم ؟ قال سلكان: لقد أردت أن تفضحنا ، إن لى أصحاباً على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم ، فتبيعهم وتحسن فى ذلك ، نرهنك من الحلقة ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن يعمى عليه فلا ينكر السلاح إذا جاءوا به ، فقال كعب: إن فى الحلقة – السلاح – لوفاء ، ورجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا ، فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ فخرج معهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً: «اللهم أعنهم» ، ثم رجع ﷺ ، ومضوا هم حتى انتهوا إلى حصن كعب ، فهتف به أبو نائلة سلكان ، فنـــزل فى ملحفته ، وهو حديث عهد بعرس ، فأمسكت به امرأته وهو خارج ، فقالت له: إنك امرؤ محارب ، فكيف تنـــزل فى هذه الساعة ؟ فقال لها: إنه أبو نائلة لو وجدنى نائماً لما أيقظنى . فقالت له: والله إنى لأعرف فى صوته الشر ، فلم يلتفت كعب إلى

قولها . ونزل فتحدث مع أبي نائلة ساعة ، ثم قال له أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا هذه ؟ قال: إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده فى فود[1] رأس كعب ، ثم شم يده ، فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها ، حتى اطمأن كعب ، ثم عاد ساعة حتى اطمأن لمثلها وأخذ بفود رأسه . وقال: اضربوا عدو الله ، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً ، قال أبو نائلة: وذكرت مغولا فى سيفى حين رأيت أسيافنا لا تغنى شيئاً ، فأخذته فوضعته فى ثنته[2] ، وقد صاح عدو الله صيحة ، ما بقى حصن إلا وقد أوقدت عليه نارٌ ، فوقع عدو الله على الأرض هالكاً . فغادرناه صريعاً ومضينا ، وكان قد جرح الحارث أصابته سيوفنا ، فحملناه ومعه نزيف من جرحه ، حتى انتهينا إلى المدينة فوجدنا النبى ﷺ فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله ، وتفل على جرح صاحبنا فشفاه الله تعالى ، فعدنا إلى بيوتنا فأصبحنا ، وأصبح كل يهودى خائفاً على نفسه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فى الآتى:

١- مشروعية الاحتيال على قتل من وجب قتله لغدره ، وخيانته بتأليب الكفار على المؤمنين .

٢- جواز استعمال المعاريض والتوريات للتوصل إلى إحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

٣- آية نبوة الحبيب محمد ﷺ إذ شفا الله الجريح ذا النـــزيف الخطير برقيته الطيبة الطاهرة .

٤- فضل محمد بن مسلمة – رضى الله عنه – بقتله كعب الطاغية – عليه لعائن الله – .

٥- بيان آثار قتل كعب إذ أصبح كل يهودى خائفاً على نفسه لا يطمئن على حياته .

* * * * * * * * * * *

(١) الفود: جانب الرأس مما يلى الأذن .
(٢) الثنة: ما بين السرة والعانة من الإنسان .

وثالث الغزوات :

غـــزوة أحـــد

عوامل هذه الغزوة القاسية الشديدة :

إن لهذه الغزوة عوامل وأسباباً ظاهرة منها: أن قريشاً وقد أصيبت فى صناديدها الذين ألقوا فى القليب ، قليب بدر العام الماضى سنة اثنين من الهجرة المباركة ، فقد قام رجال منها بالدعوة إلى الحرب للأخذ بالثأر من محمد ﷺ وأصحابه ، ومن دعاة الحرب عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم كثير . فأتوا أبا سفيان بن حرب ، وطلبوا إليه أن يقنع أصحاب أموال العير التى نجت أن يجعلوها فى حرب تشنّ على محمد وأصحابه ، ولا يأخذوا منها شيئاً ، واستجابوا للطلب ، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] . هذا سبب ، وآخر: هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار كانوا يسألون الله تعالى أن يتيح لهم فرصة قتال المشركين ، كالتى أتيحت لأهل بدر ليُرُوا الله تعالى ما يفعلون بالمشركين من القتل لهم والفتك بهم إيماناً واحتساباً ، ليعوضوا ما فاتهم من الأجر والغنيمة يوم بدر . هذان عاملان ظاهران لغزوة أحد ، وهناك عوامل خفية قوية ذكرت فى قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ، ١٤١] .

وفى شوال من السنة الثالثة من الهجرة المباركة خرجت قريش برجالها ونسائها وأحابيشها وبكل من قدرت على تأليبه والإتيان به من بنى كنانة ، وأهل تهامة ، وسارت بقيادة أبى سفيان بن حرب ، زعيمها بعد هلاك أبى جهل ، حتى نزلت على شفير وادى قناة المقابل للمدينة النبوية ، وبلغ النبى ﷺ الخبر ، فاستشار أصحابه يوم الجمعة فى الخروج إلى المشركين لقتالهم خارج المدينة ، أو البقاء فى المدينة ، وقتالهم داخلها ، وأراهم أنه أقرب إلى النصر على المشركين من قتالهم خارجها . وقص عليهم رؤيا رآها ، وهى أنه رأى بقرة تذبح ، ورأى فى ذباب سيفه سلما وأنه رأى أنه أدخل يده فى درع حصينة وأولها المدينة ، ومع هذا أصر أكثر الأصحاب على القتال خارج المدينة ، فنـــزل رسول الله ﷺ على ما رآه لما رأوه ، ما دام الله تعالى لم يوح ففى ذلك إليه بشىء .

ودخل ﷺ بيته فلبس درعه ووضع لأمته على رأسه ، وخرج إليهم ، فما إن رأوه حتى ندموا ورأوا أنهم قد أكرهوه على الخروج ظاهر المدينة فندموا ندماً شديداً ، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، وقالوا: يا رسول الله أقم فالرأى ما رأيت ، وكان الذين أصروا على الخروج هم الذين تخلفوا عن بدر . فقال لهم ﷺ : **«ما ينبغى لنبى أن يضع لأمته بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه وقد دعوتكم إلى هذا - عدم الخروج - فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا»** .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج فى ألف مقاتل ، وسلك بمن معه من المؤمنين على البدائع فى حرة بنى حارثة ، ودليله فى هذا أبو خيثمة بن حارثة ، ومروا بحائط لمربع بن قيظى ، وكان منافقاً ؛ فلما سمع حس رسول الله ﷺ والمسلمين رفع حفنة من تراب ، وقال: والله لو أعلم أن لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فبدره سعد ابن زيد بضربة شج بها رأسه ، وابتدره رجال ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : **«دعوه لا تقتلوه فإنه أعمى البصر»** .

وساروا حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحُد انخذل عنهم عبد الله بن أبى بثلث الناس ، وكان - لعنه الله - رأيه عدم الخروج مثل رأى رسول الله ﷺ فلذا قال هنا: أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ وتبعهم عبد الله بن حرام والد جابر يقول لهم: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، فقالوا: لونعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا وأبوا إلا الانصراف قال لهم ﷺ : **«أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه»** ، وفيهم نزل قول الله تعالى من سوة آل عمران: ﴿ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] .

ولما هموا بالانصراف قال بعض المسلمن: هيا نقاتلهم ، وقال آخرون: ذروهم يعودوا إلى ديارهم ، فنــزل فيهم قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ [النساء: ٨٨] .

وهنا اضطرب المؤمنون ، وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة بالفشل ، إلا أن الله ثبتهم ، فثبتوا

مع رسول الله ﷺ وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢] .

وسار رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ، وكانوا سبعمائة رجل بينهم فارسان لا غير: رسول الله ﷺ وآخر ، ساروا حتى نزلوا بالشعب من أحد ، وجعل ظهرهم بجبل أحد ، وقال: «**لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال**» .

واستعرض الحبيب محمد ﷺ جيشه ، فرد عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب فى فتيان لم يبلغوا سن التكليف ، وأجاز سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وقد بلغا الخامسة عشرة ، وكانا قويين وتعبأت قريش وذلك صبيحة يوم السبت ، وكان جيش قريش ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مائتا فارس ، فجعلوا خالد بن الوليد على ميمنة الخيل ، وعكرمة بن أبى جهل على ميسرتها .

وهنا قال رسول الله ﷺ : «**من يأخذ هذا السيف بحقه ؟**» ، فقام رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله ؟ قال: «**أن تضرب به العدو حتى ينحنى**» قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه ، وكان أبو دجانة شجاعاً يختال عند الحرب ، وله عصابة حمراء فلفها على رأسه ومشى يختال بين الصفوف ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر فى مشيته بين الصفوف: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**» .

هذا هو الموقف فى معسكر التوحيد قبل الهجوم ، أما معسكر الشرك فإن أبا سفيان بعد ترتيب الصفوف قال يخاطب بنى عبد الدار ، فقال: يا بنى عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ؛ إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهتفوا به وتوعدوه ، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ؟!

وهنا الذى أراده أبو سفيان بن حرب وهو تحميسهم للقتال واستعدادهم له وشدتهم فيه .

ولما التقى الجمعان ، وتقابل الرجال ، قامت هند امرأة أبى سفيان تحرض على القتال فى نسوة معها يضربن بالدف ، خلف الرجال تحريضاً لهم على القتال ، وهذه بعض الأبيات التى

كن ينشدنها للتحريض:

وَيْهًـــا بـــنى عـــبد الـــدار ::: وَيْهًـــا حمـــاةَ الأدبـــار
ضـــرباً بكـــل بَـــتّار ::: نحـــن بـــناتُ طـــارق
إن تُقـــبلوا نُعـــانقُ ::: ونفـــرشُ الـــنمارقَ
أو تدبـــروا نفـــارقُ ::: فـــراقَ غيـــر وامـــقا

ونعود إلى معسكر التوحيد والإيمان:

أخذ أبو دجانة السيف ولف العصابة على رأسه علامة الموت ورمى بنفسه فى المعركة وهو يقول:

أنـــا الـــذى عـــاهدنى خليـــلى ::: ونحـــن بالســـفح لـــدى النخـــيل
ألا أقـــوم الدهـــر الكيـــول ::: أضرب بسيـــف الله والرســـول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، ورأى أبو دجانة مقاتلاً من المشركين يحمش[1] الناس حمشاً شديداً فقصد له ، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا به امرأة هى هند فأكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة .

ودارت رحى المعركة ، واستعرت نارها وتأجج لهبها ، وكان حمزة فيها أسداً يهد الرجل هداً ، وكان وراءه وحشى غلام جُبير بن مطعم يترصده ؛ إذ أوعز إليه سيده بأنه إذا قتل حمزة يعتقه ، وكان وحشى بارعاً فى الضرب بالرماح ، ضربته لا تكاد تخطئ ، وكانت هند موتورة بموت أبيها ببدر ، كلما مرت به تقول له: يا أبا دسمة استشف واشف تحرضه على قتل حمزة – رضى الله عنه – فقال وحشى: ما زلت أتبع حمزة وهو كالجمل الأورق إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة: هلم إلى يا ابن مقطعة البظور فضربه ضربة ما أخطأت رأسه فقتله ، ثم هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى فغلب فوقع فأمهلته حتى مات فجئت فأخذت حربتى ، ثم تنحيت إلى المعسكر ، ولم تكن لى فى شىء حاجة غيره .

وكان النبى ﷺ قد أعطى اللواء مصعب بن عمير – رضى الله عنه – وقتل مصعب فأعطاه على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وتقدم على باللواء ، وهو يقول: أنا أبو القصم ،

---

(١) يشجعهم ويوقد نار الحماس فى نفوسهم .

فناداه أبو سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين قائلاً: هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة ؟ قال عليّ: نعم ، فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه ، ثم انصرف عنه و لم يجهز عليه ، فقيل له: أفلا أجهزت عليه ؟ قال: إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

والتقى – والمعركة دائرة – حنظلة بن أبى عامر بأبى سفيان بن حرب ، فلما علاه حنظلة بالسيف رآه شداد بن الأوس فضربه أى شداد الكافر فقتله .

فقال رسول الله ﷺ : «**إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه؟**» ، فسئلت امرأته ، فقالت: إنه كان فى ليلة عرسه ، فسمع الهاتف بالجهاد فخرج و لم يغتسل ، فلذا غسلته الملائكة ، وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم بالسيوف حسا حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ، حتى قال الزبير بن العوام – رضى الله عنه –: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند وصواحبها وهن مشمرات هوارب . وفى هذا يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَـزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥١ ، ١٥٢] الآيات .

ولما رأى الرماة انكشاف المشركين والمؤمنين يسلبون ويجمعون الغنائم مالوا على المعسكر ، وكشفوا ظهور المؤمنين لخيل المشركين فكانت الهزيمة ، وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل ، وأصاب المؤمنين كرب عظيم ذهلت فيه العقول ، وخلص العدو إلى الرسول ﷺ فرماه ابن قميئة – أقمأه الله – بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجه ، وتفرق عنه أصحابه إلا قليلاً وأصعدوا فى الأرض ، حتى إن منهم من وصل إلى المدينة ، وفى هذا يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢ – ١٥٣] .

سبب الهزيمة :

وسبب هذه الهزيمة المريرة بعد ذلك النصر العظيم: هو أن الرماة الذين كانوا خمسين رامياً ، قد وضعهم الرسول ﷺ على جبل الرماء ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم موصياً إياهم فى شخص أميرهم: انفح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا ، واثبت مكانك إن كنت لنا أو علينا ، هؤلاء الرماة لما نصر الله المسلمين فى أول النهار ، وانهزم المشركين أمامهم ، وأكب المؤمنون على جمع الغنائم وحيازة الأموال ، ونساء المشركين مشمرات على سوقهن هاربات ولواؤهم على الأرض ، لم يحمله أحد ، حتى جاءت امرأة من قريش فرفعته . لما رأى الرماة هذا الواقع ثبت بعضهم فى أماكنهم وهم القليل ، ونزل البعض الأكثر متعللين بهزيمة المشركين ، وأخذوا فى نهب الأموال وجمع الغنائم كغيرهم .

ولما رأى خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين ، لما رأى خلو الجبل من الرماة ، وضعف المقاومة منه ، كرّ عليهم بخيله فاحتل الجبل وقتل من فيه ، وأصلوا المسلمين نار سهامهم فمزقوهم بها تمزيقاً ، وعاد المشركون الفارون إلى المعركة ، ووقع المسلمون بين نارين هما كفكّي المقارض ، فكانت الهزيمة ، وأصيب الرسول ﷺ بما أصيب به ، وصرخ الشيطان قائلاً: إن محمداً قد مات ، وألقى رجال سلاحهم من أيديهم وبقوا حيارى مدهوشين ، منهم عمر ، وطلحة ، فأتاهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فقال لهم: ما يحبسكم ؟ قالوا: قتل محمد ﷺ ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل المشركين فقاتل حتى قتل ، فوجد به أكثر من سبعين ضربة وطعنة ، ولم يعرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه ، وبلغ الركب المعسكر الإيمانى ، حتى قال من قال: ليت لنا من يأتى عبد الله بن أبى بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبى سفيان قبل أن يقتلونا ؟ فقال لهم أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما مات عليه محمد ﷺ ، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم قاتل حتى قتل – رضى الله عنه وأرضاه – .

وكان أول من عرف أن الرسول حى لم يقتل ، كعب بن مالك ، فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله لم يقتل ، والرسول ﷺ ينادى: «**إلىّ عباد الله !! إلىّ عباد الله !!**» ، وثاب إليه رجال ، وقاتلوا دونه ، وأبلى فى هذا أبو طلحة وأبو دجانة البلاء الحسن ، وتقدموا نحو الشعب وهم يدفعون ويقاتلون حتى وصلوا إليه ، وما إن أسند رسول الله ﷺ على الشعب حتى جاء أُبىّ بن خلف يصرخ: لا نجوتُ إن نجا . أى محمد ﷺ ، وهو يتقدم

نحو النبى ﷺ فتناول الرسول ﷺ حربة من يد أصحابه وطعنه بها فى ترقوته فخار كما يخور الثور ، فسحبوه كالثور المذبوح ومات بها فى طريقه إلى مكة بسرف إلى جهنم وبئس المهاد .

وارتفع الحبيب محمد ﷺ إلى الصخرة حيث يوجد بعض أصحابه ، فسر لذلك ، وجاء أبو سفيان يحاول الوصول إلى أصحاب الصخرة فى سفح أحد فردوه خاسئاً خائباً ، وأخذ النعاس الأصحاب ، فذهب بذلك الخوف عنهم ، وسكنت نفوسهم ، وفى هذا يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٣ ، ١٥٤] الآية .

وانتهت المعركة وكانت درساً قاسياً للمسلمين ، ومثلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان بالقتلى ، فقطعت الآذان والأنوف والمذاكير ، وبقرت بطن حمزة – رضى الله عنه – ولاكت كبده لتأكل منها فلم تقدر عليها فرمتها وذهبت .

وأتى أبو سفيان فوقف تحت الصخرة وقال: أفى القوم محمد ثلاثاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : «**لا تجيبوه**» ، ثم قال: أفى القوم ابن أبى قحافة ثلاثاً ؟ ، ثم قال: أفى القوم ابن الخطاب ثلاثاً ؟ ثم التفت إلى من معه قال: أما هؤلاء فقد قتلوا ، فقال عمر: كذبت يا عدو الله ، قد أبقى الله لك ما يحزنك ، فقال: اعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : «**أجيبوه ، قولوا الله أعلى وأجل**» ، فقال أبو سفيان: إنما لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**» ، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: لا وإنه ليسمع كلامك فقال: أنت أصدق من ابن قميئة . ثم قال: هذا بيوم بدر ، والحرب سجال . إما إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلا ، والله ما رضيت ولا سخطت ، ولا نهيت ولا أمرت ، ثم انصرف ومن معه وقال: إن موعدكم العام المقبل .

ثم بعث رسول الله ﷺ علياً فى أثرهم ، وقال له: «**انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأناجزنهم**» ، فخرج علىّ فى أثرهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فرجع يصيح ما استطاع أن يكتم الخبر ، وقد أمر أن يكتمه ، من شدة الفرح .

وأمر رسول الله ﷺ من ينظر فى القتلى ، فرأى سعيد بن الربيع الأنصارى وبه رمق ، فقال سعد للذى رآه: أبلغ رسول الله ﷺ منى السلام وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن

أمته ، وبلغ قومى السلام ، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ أذى وفيكم عين تطرف ثم مات إلى رضوان الله فرحمك الله يا سعد بن الربيع ورضى عنك .

ووجد حمزة - رضى الله عنه - ببطن الوداى قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به فقال النبى حين رآه: «**لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة لتركته حتى يكون فى أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**» ، وقال المسلمون: لنمثلن بهم . فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ، من سورة النحل ، فعفا رسول الله ﷺ وصحبه ، ونهى رسول الله ﷺ عن المثلة ، وهم رجال بحمل قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة ، فأمر رسول ﷺ بدفنهم حيث صرعوا ، وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة فى القبر الواحد ، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآناً ، وصلى عليهم ، فكان كلما أتى بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما .

ونزل فى قبر حمزة أبو بكر ، وعمر ، والزبير ، وجلس الرسول ﷺ على حافة القبر ، وأمر ﷺ أن يدفن عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام فى قبر واحد .

وانصرف الحبيب محمد ﷺ مع أصحابه عائدين إلى المدينة فدخلوها مساء يوم السبت يوم المعركة الخالدة معركة أحد التى نزل فيها جزء كبير من سورة آل عمران .

* * * * * * * * * * *

مواقف (فى أحد) ومواقف

مواقف مشرفة :

وباستعراض سريع لمعركة أحد تتجلى بنا مواقف مختلفة منها المشرف ومنها المخزى ، ومن المواقف المشرفة ما يلى:

موقف أبى طلحة الأنصارى إذ وقف موقفاً لا يزال يذكر له ما بقى الإسلام والمسلمون . قال أنس - رضى الله عنه - : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ وأبو طلحة بين يدى رسول الله ﷺ مُجوب[1] عليه بجحفة له ، وكان أبو طلحة رامياً ، كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة فإذا مرّ الرجل بجعبة من النبل ، يقول له: انثرها

(١) مجوب: محيط به .

لأبى طلحة ، ويشرف النبى ﷺ على القوم فيقول له أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك . فرضى الله عن أبى طلحة وأرضاه وجعل الجنة مأواه اللهم بحبنا فيك لهم فاجمعنا بهم .

موقف عائشة بنت أبى بكر ، وأم سليم الأنصارية ، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر ، وأم سليم وإنهما لمشمرتان على خدم سوقهما تنقزان[1] بالقرب تفرغانها فى أفواه القوم مرات عديدة ، فما أشرف هذا الموقف وما أشرف صاحبتيه - رضى الله عنهما وأرضاهما - .

موقف طلحة بن عبيد الله - رضى الله تعالى عنه - بينما رسول الله ﷺ فى الشعب ومعه نفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، ونهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بدن وظاهر بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها ، فقال ﷺ : «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع !» .

موقف الحبيب محمد ﷺ ومواقف كلها مشرفة ، ما أسند ﷺ فى الشعب أدركه أبىّ بن خلف على جواد له يزعم أنه يقتل عليه محمداً ، تقدم نحو رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا ، فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصمة فلما أخذها انتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير ، ثم استقبله فطعنه بها طعنة ، أصابت نحره ، فوقع عن فرسه ، فحمل إلى قريش وهو يخور كالثور ويقول: قتلنى والله محمدٌ ، فمات فى الطريق عند سرف .

موقف أنس بن النضر الأنصارى أنه لما صاح أزبُّ العقبة الشيطان قائلاً: إن محمداً قد مات ، وانجفل الأبطال ووقفوا عن القتال حيارى مشدوهين مدهوشين ، صاح فيهم أنس قائلاً: ما يحبسكم عن القتال ؟ قالوا: قد قُتل النبى ﷺ ، فقال لهم: ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه . يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء .

---

(١) تنقزان: تقفزان .

موقف الحبيب محمد ﷺ، وحياته كلها مواقف شرف وكمال، ولكن نذكر للمناسبة، ولإثارة كوامن الحب في النفس بالذكر. إنه ﷺ بعد تلك الجراحات المؤلمة أخذ ﷺ شيئاً فجعل ينشف الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟**»، فأوحى إليه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

موقف فاطمة بنت محمد ﷺ، إنه لما جُرح والدها ﷺ أخذ عليّ يأتي بالماء، وفاطمة تغسل جراحات الحبيب والدها محمد ﷺ. ولما رأت الدم لم يرقأ بالغسل جاءت بحصير فأحرقته وضمدت بالرماد الحار جراحات أبيها ﷺ فرقأ الدم ولم يسل. إن هذا الموقف للزهراء بنت الحبيب محمد ﷺ يسمو كل موقف.

موقف عبد الله بن عمرو بن حرام، إنه لما انخزل وانخزل ابن أبي بثلث الجيش وانصرف عائداً هو ومن معه إلى المدينة استقبلهم عبد الله وقال: تعالوا: قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم.. فأنزل الله تعالى فيه قرآناً يقرأ إلى يوم القيامة.

موقف حنظلة غسيل الملائكة إنه تزوج ولم يسلم بعد وبات عريساً ليلته فأيقظه صوت الجهاد فقام فلبس درعه وحمل سلاحه ولحق بالمعركة وهي دائرة، فخاضها خوض الأبطال، وقاتل حتى استشهد وهو جنب، فغسلته الملائكة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال: «سلوا امرأته» فسألوها، فأخبرته أنه خرج من عندها جنب ولحق بالجهاد لما سمع صوته، فكان موقفاً مشرفاً لحنظلة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

موقف أم عمارة نسيبة إنها خرجت أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء، فانتهت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه - والدولة والربح للمسلمين - فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله، وباشرت القتال تذب بالسيف عن رسول الله وترمي عن القوس حتى خلصت الجراحات إليها، بهذا حدثت - رضي الله عنها - فكان موقفاً مشرفاً لها رضي الله عنها.

مواقف مخزية:

كانت تلك مواقف مشرفة لأهلها ولمحبيهم معهم أيضاً ، وأول هذه المواقف المخزية:

موقف عبد الله بن أبى بن سلول – رأس المنافقين بالمدينة – إنه ما إن خرج الجيش الإسلامى من المدينة فى طريقه إلى أحد وهو يشكك فى صحة الجهاد وجدوى هذا الخروج حتى استجاب له ثلثمائة رجل من المنافقين وضعاف الإيمان ورجعوا من الطريق فخذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين ، فكان هذا موقفاً شرّ موقف وأخزاه لابن أبىّ ومن والاه .

موقف مربع بن قيظى الأعمى – عليه لعائن الله – إنه لما مرّ ببستانه الجيش الإسلامى بقيادة رسول الله ﷺ وسمع بحس الجيش وعرف أن محمداً ﷺ هو قائده رفع حفنة من تراب وحصى ، وقال: والله لو أعلم أن لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربتُ بها وجهك ، وقال: إن كنت رسولا فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى "بستانى" ، فكان موقف هذا المنافق الأعمى القلب والبصر أخزى موقف وأقبحه على الإطلاق .

موقف أبى عامر الذى لقبه الرسول ﷺ بالفاسق بدلاً عن الراهب الذى كان يعرف به فى الجاهلية قبل الإسلام . إنه وقف لعنه الله بين الصفين صبيحة يوم أُحد ونادى قومه وتعرف إليهم وحرضهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ، فوقف موقفاً مخزياً ، ولذا أجابه رجال من الأنصار بقولهم: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ، فقال – لعنه الله –: لقد أصاب قومى بعدى شرّ ، وقاتل مع المشركين قتالاً شديداً فكان بئس الموقف ؛ وموقف هذا الفاسق لا ينسى له الدهر كله .

موقف هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان ، إنها بإغرائها على قتل حمزة – رضى الله عنه – وبإثارتها الحماس فى جيش المشركين وبتمثيلها بقتلى المسلمين ، وببقرها بطن حمزة وأكلها كبده ، وإن لم تبتلعها لعدم قدرتها عليها بهذا قد وقفت شرّ موقف وأخزاه ولولا أن مَنَّ الله عليها بالإسلام لكانت مع أبى بن خلف وأبى جهل فى جهنم ، ولكن رحمها الله فأسلمت وحسن إسلامها ونسى لها موقفها هذا لأن الإسلام جب ما قبله .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها إزاء الأرقام التالية:

١- صدق رؤيا النبى ﷺ إذ رأى فى منامه ثلماً فى سيفه فأوله بموت بعض آل بيته فمات حمزة - رضى الله عنه - وعبد الله بن جحش ابن عمته .

٢- رد عين قتادة بعد أن تدلت على وجنته فأصبحت أحسن منها قبل إصابتها وتدليها بعد خروجها ، فكانت آية نبوة محمد ﷺ .

٣- قتل النبى ﷺ أبى بن خلف كان قد أخبره به فى مكة قبل الهجرة وتم كما أخبر ، فكان آية النبوة المحمدية ، و لم يقتل النبى ﷺ أحداً سواه ، وشر الخلق من قتله نبى ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ .

٤- تقرير مبدأ الشورى ، إذ استشار ﷺ أصحابه فى قتال المشركين خارج المدينة أو داخلها ، وأخذ برأى الأغلبية . وسجل حكمة انتفع بها كل من أخذ بها من مؤمن وكافر ، وهى قوله: «**ما كان لنبى أن يضع لأمته على رأسه ثم يضعها قبل أن يحكم الله بينه وبين عدوه**» ، إنها آية العزم ومظهر الحزم والصدق .

٥- بيان شجاعة الرسول ﷺ القلبية والعقلية تجلت فى مواقف عديدة له ﷺ ، منها: أنه لم يثن عزمه رجوع ابن أبى بثلث الجيش ، ثباته ﷺ فى المعركة بعد أن فر الكثير من أصحابه . انتفاضته وهو مثقل بجراحاته وطعنه أبى بن خلف طعنة خار لها كالثور وسقط منها كالجبل ومات فى طريقه .

٦- بيان كمال قيادته العسكرية ، ويتجلى ذلك بوضوح فى اختياره مكان المعركة وزمانها ، وفى وضعه الرماة على جبل الرماة ، ووصيته لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت الحال ولو رأوا الموت يتخطف إخوانهم فى المعركة ، ويدل على هذا أن الهزيمة النكراء التى أصابت الأصحاب كانت نتيجة تخلى الرماة عن مراكزهم كما مر فى عرض المعركة وتسجيل أحداثها .

وفى إرساله علياً - رضى الله عنه - يتتبع آثار الغزاة للتعرف على وجهتهم إلى المدينة أو إلى مكة ليتحرك بحسب ما يتطلبه الموقف .

٧- مظاهر رحمة الحبيب ﷺ حيث تجلت فى عفوه عن الأعمى الذى سبه ونال منه حتى هم أصحابه بقتله فأبى عليهم ، وقال: «**دعوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر**» ، وفى قوله وهو يجفف الدم السائل من وجه الكريم الشريف: «**اللهم**

اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» ، وفى بكائه على عمه عندما وضع بين يديه ليصلى عليه حتى أغمى عليه من شدة الوجد والبكاء .

٨- مظاهر صبره ﷺ وقد تجلى صبره بوضوح فى عدم جزعه لما أصابه وأصاب أصحابه من آلام وأحزان ، ومن فوات النصر الذى قاربه فى أول النهار وخسره فى آخره حيث انقلب إلى هزيمة مرة وانكسار خطير .

٩- بيان الآثار السيئة لتقديم الرأى على قول الرسول ﷺ ، إذ كان من عوامل الهزيمة إصرار الصحابة على رأيهم فى القتال خارج المدينة ، فى الوقت الذى كان الرسول يرى عدم الخروج حتى ألجئوه إلى إدراعه ولباس لأمته ، ثم ندموا فلم ينفعهم ندم .

١٠- بيان أن الرغبة فى الدنيا وطلبها بمعصية الله والرسول هى سبب كل بلاء ومحنة تصيب المسلمين ، فى كل زمان ومكان .

١١- بيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنصر ، إذ ظهر ذلك فى أول النهار . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] الآية .

١٢- بيان عقوبة الله تعالى للمؤمنين لما عصوه بترك الرماة لمراكزهم الدفاعية وطلبهم للغنيمة ، ولما تساءلوا عن سبب هزيمتهم أجابهم تعالى بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ، أى من النصر: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

* * * * * * * * * * *

ورابع الغزوات:

غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الكمال المحمدى فى كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية على حد سواء

خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء فى الداخل والخارج ؛ إنه بعد الهزيمة النكراء التى أصابت المسلمين يوم أمس السبت ما راع الناس إلا ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبى سفيان بن حرب وجيشه ، وقال: لا يخرج معنا إلا من حضر معنا معركة أحد أمس ، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان ، فكان خفيف الجراح يحمل أخاه ، فإذا تعب وضعه يمشى ساعة ثم يحمله حتى وصلا معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر ﷺ بحمراء الأسد . واستأذن جابر رسول الله ﷺ فى الخروج فأذن له بعد أن عرف عذره ، وهو أن والده الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام لم يأذن له فى الخروج إلى أحد وأوصاه بأخواته السبع إذ لم تطب نفس عبد الله أن يترك سبع بنات ليس معهن رجل .

وما زال النبى ﷺ بحمراء الأسد حتى مرّ به معبد الخزاعى ، وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نُصح رسول الله ﷺ أى موضوع سره وثقته لا تخفى عليه شيئاً من الناس فى تهامة ، فقال معبد ، وهو يومئذ مشرك: يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ولَوَدِدْنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ إذ قالوا: أصبنا منهم ما أصبنا فكيف نرجع قبل أن نستأصلهم ؟

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: له ، ما وراءك يا معبد ؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم فى جمع لم أر مثله أبداً ، فقال أبو سفيان: ويحك ما تقول ؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصى الخيل . فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال معبد: إنى أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر ، قال أبو سفيان: وما قلت ؟ قال: قلت:

كـادت تُهدُّ من الأصوات راحلتى ::: إذ سـالت الأرضُ بالجُـرْد الأبابيل

تـردى بأسـد كـرام لا تَـنابلة ::: عـند اللقـاء ولا مـيل مَعَـازيل

فظلـت عـدوًا أظـن الأرض مائلة ::: لمـا سمـوا برئـيس غـير مخـذول

فقلـتُ: وَيْلَ ابن حرب من لقائكم ::: إذا تَغَطمطـت الـبطحاءُ بالخـيل

إنى نذيـر لأهـل البسـل ضاحيةً ::: لكـل ذى إرْبـة مـنهم ومعقـول

مـن جيـش أحمدَ ولا وخشٍ تنابلـة ::: وليـس يوصـفُ ما أنذرتُ بالقيـل

فأوقع هذا الشعر فى نفس أبى سفيان هزيمة ، وذكر كذلك رأى صفوان بن أمية إذ سبق أن كفه عن الرجوع إلى المدينة عندما عزم على الرجوع ، وقال له: لا تفعل فإن القوم قد

حزنوا ، وإنى أخشى أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا فرجعوا ، ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة ، وأثناء ذلك مرّ به ركب من بنى عبد القيس فقال لهم: أين تريدون ؟ قالوا: نريد المدينة ، قال: و لم ؟ قالوا: نريد الميرة ، قال: فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها؟ وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، وكان هذا مجرد مناورة من أبى سفيان يريد بها تغطية هزيمته لما سمع من معبد ، ولما وصلت القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغوه رسالة أبى سفيان ، قال: «**حسبى الله ونعم الوكيل**» ، وفى هذا نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقال ﷺ : «**حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار**» .

وأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام الأحد والاثنين والثلاثاء ، والأربعاء ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة فظفر فى طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، وبأبى عزة الجمحى ، وقد تخلف عن المشركين نائماً ، وكان أبو عزة قد أسر يوم بدر واسترحم الرسول ﷺ فرحمه فمن عليه ، وعاهده ألا يقف موقفاً ضده ، وخان وجاء مع المشركين إلى أحد ، فلذا أمر الرسول ﷺ بقتله ، فقتل ، وقال ﷺ : «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**» ، وأما معاوية فهو الذى مثل بحمزة فى أحد فقطع أنفه فقد ضل الطريق ، فأتى دار عثمان وقد استشفع بعثمان ، فقبل النبى ﷺ شفاعته فيه ، على أنه لو وجده بعد ثلاثة أيام ليقتلنه ، فجهزه عثمان لقرابته ، وقال له: ارتحل فارتحل فأخطأ الطريق ، وكان النبى ﷺ قد ارتحل من حمراء الأسد وقال لأصحابه: إن معاوية أصبح قريباً و لم يبعد فاطلبوه فطلبه زيد بن حارثة ، وعمار بن يسار فوجداه فقتلاه .

وعاد الرسول ﷺ و لم يلق كيداً ، وأرهب بذلك العدو المنافق فى الداخل والمشركين فى الخارج ، فصلى الله عليه وسلم ما أعظم حكمته وأجل سياسته وأكمل صبره !!

نتائج وعبر:

إن لهذه القطعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فى الآتى:

١- بيان مظاهر الكمال المحمدى من شجاعة وصبر وتحمل وحسن سياسة ، وكمال تدبير .

٢- بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول .

٣- تأثير الدعاية فى نفوس غير الصابرين ، ولذا كان خطر الدعاية عظيماً ووجب اتقاؤه .

٤- تقرير مبدأ: المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .

٥- مشروعية الشفاعة فى غير الحدود الشرعية .

* * * * * * * * * * *

أهم ما وقع من أحداث فى السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

إن أهم ما وقع فى هذه السنة الثالثة من سنوات الهجرة المباكرة من أحداث ذات خطر وشأن يمكن ذكره إزاء النقاط التالية:

قتل كعب بن الأشرف الذى بسط يده ولسانه لرسول الله ﷺ والمؤمنين يؤذيهم ويكيد لهم ويؤلب المشركين واليهود عليهم ، قتله محمد بن مسلمة الأنصارى – رضى الله عنه – .

وقوع غزوة أحد واستشهاد قرابة سبعين رجلاً مسلماً فيها ، ونحو من ثلاثين مشركاً ومن بين الشهداء أربعة مهاجرين وهم حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، ومن بين الأنصار أنس بن النضر ، وسعد ابن الربيع وعمرو بن الجموح ، وعبد الله ابن عمرو بن حرام ، ومن مسلمى اليهود مخيريق – رضى الله عنه – .

غزوة حمراء الأسد فى اليوم الثانى بعد يوم أحد .

غزوة ذى أمر وهو ماء بنجد لغطفان .

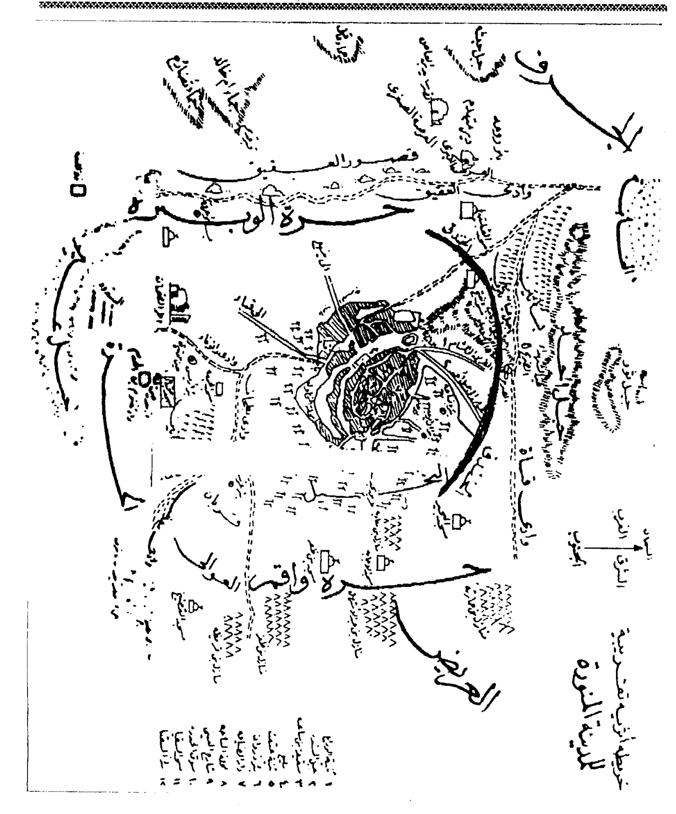
غزوة الفرع من بحران "المهد" .

سرية زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودى الظالم .

ولادة الحسن بن على – رضى الله عنه – وحمل فاطمة بالحسين بعد خمسين يوماً من ولادتها .

حمل جميلة بنت عبد الله بن أبى بعبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وذلك فى شوال ليلة أحد .



بيان موقع أحد من المدينة النبوية وهو بالشمال الشرقى منها وخلفه جبل نور الذى ذكر فى تحديد حرم المدينة إذ فيه المدينة حرام من عائر إلى نور ، وأما عائر أو عير فهو فى الجنوب الغربى من المدينة كما هو مبين فى الخريطة هذه .

* * * * * * * * * * *

أحداث السنة الرابعة
من هجرة الحبيب محمد ﷺ

ودخلت السنة الرابعة من سنوات الهجرة المباركة وأول أحداثها .

حدث الرجيع

في هذه السنة قدم نفر من عضل والقارة على رسول الله ﷺ بالمدينة وذكروا له أن فيهم إسلاماً ، وأن لهم رغبة في أن يبعث معهم نفراً يفقهونهم في الدين ، فبعث ﷺ معهم ستة نفر هم مرثد بن أبي مرثد الغنوى ، وخالداً بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت الأوسى ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة البياضى ، وعبد الله بن طارق حليف بنى ظفر ؛ وأمر عليهم ﷺ مرثد ابن أبي مرثد الغنوى وساروا حتى إذا بلغوا الرجيع غدر بهم النفر الذين طلبوهم من رسول الله ﷺ ليفقهوهم في الدين حيث استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم: بنو لحيان ، فجاءوهم في مائة رجل ، فلجأ المسلمون إلى جبل حيث لا طاقة لهم بقتال مائة رجل وهم ستة رجال لا غير ، فاستنـــزلوهم بعهد قطعوه بأنهم لا يمسونهم بسوء ، فقال عصام: والله لا أنزل على عهد كافر ، اللهم خبر نبيك عنّا ، وقاتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير ، ونزل ابن الدثنة وخُبيب ، وعبد الله بن طارق فأوثقوهم ، فقال عبد الله: هذا أول الغدر ، فقتلوه فألحقوه برفيقيه ، وانطلقوا بابن الدثنة وخُبيب فباعوهما بمكة ، فاشترى خبيباً بنو الحارث ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر فاشتروه ليقتلوه بالحارث فسجنوه في بيت ماوية مولاة حُجير بن أبي إهاب ، فبينما هو عندها وقد استعار منها مُوسى ليستحد بها .

حتى إذا قتل يكون نظيفاً من شعر عانته ؛ إذ جاء صبى يدب إليه فجلس على فخذه ، وهو يستحد الموسى في يده ، فلما رأته المرأة صاحت ، فقال لها: أتخشين أن أقتله ؟ إن الغدر ليس من شأننا ، فكانت المرأة تقول بعد ذلك: ما رأيت أسيراً خيراً من خُبيب لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإن في يده لقطفاً من عنب يأكله ، ما كان إلا رزقاً رزقه الله خبيباً .

ولما خرجوا به من الحرم إلى الحل ليقتلوه ، قال: ذرونى أصلى ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فكانت سنة القتل ؟ إذ علم بذلك رسول الله ﷺ وأقره عليها ، وصلاها غير واحد من المؤمنين ، ثم قال لهم: لولا أن تقولوا: جزع من الموت لزدت أو طولتهما ثم أنشأ يقول:

ولســـتُ أبـــالى حـــين أقتل مسلماً ::: عـــلى أى جنب كان في الله مصرعى
وذلـــــك في ذات الإله وإن يشـــــأ ::: يبـــارك علـــى أوصـــال شلـــو[1] ممزع

---

(١) الشلو: العضو من الإنسان المقطوع .

ودعا ربه قائلاً: اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحداً .

ثم صلبوه ، وقام إليه عتبة بن الحارث ليقتله ، وقال له: أترضى أن يكون محمد مكانك وأطلقك ؟ فقال: والله لا أرضى أن أطلق ويشاك محمد بشوكة ، وقتله فمات إلى - رحمة الله ورضوانه - .

وأما عاصم فإنهم بعثوا من يأتيهم برأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد ؛ إذ كانت نذرت أن تشرب الخمر فى رأس عاصم يوم قتل ابنيها فى أحد ، فجاء النحل فمنع من أرادوا أخذه فتركوه حتى الليل فجاء سيل فجرفه ولم يعثر عليه استجابة الله تعالى لعاصم إذ كان قد عاهد الله تعالى أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، فمنعه الله فى مماته كما منعه فى حياته .

وأما ابن الدثنة فإن صفوان بن أمية بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه ، إذ كان قتل يوم بدر وألقى فى القليب ، فلما وصل به هناك إلى الحل ساومه قائلاً: أنشدك الله أتحب أن محمداً الآن مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال: ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى !! فقال أبو سفيان وكان حضر الإعدام مع رجال من قريش: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتله نسطاس ، فانتقل إلى رحاب رحمات الله تعالى وسوم رضوانه ، فهنيئاً له .

ومن كرامات خبيب - رضى الله عنه - أن سعيد بن عامر وكان ممن حضر قتل خبيب كان كلما ذكر قتل خبيب بقلبه أو لسانه أخذته غَشية ، وبلغ ذلك عمر - رضى الله عنه - فسأل سعيداً فقال: نعم ما ذكرت خبيباً إلا غشى علىّ فزادته عند عمر خيراً .

نتائج وعبر:

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالتالى:

١- الغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك .

٢- بيان كرامة خبيب التي أكرمه الله تعالى بها ، وهي أكله قطف العنب في غير إبانه وغير مكانه ، والغشية التي تصيب سعيدا عند ذكره .

٣- مشروعية الصلاة عند القتل وإن خبيبا هو الذي سنها وأقره رسول الله ﷺ عليها .

٤- بيان فضل ابن الدثنة في رضاه بالموت ، ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه .

٥- تقرير أن أصحاب رسول الله ﷺ يحبونه ﷺ أشد من حبهم لأنفسهم وذلك واجبهم وواجب كل مؤمن ومؤمنة في الحياة .

* * * * * * * * * * *

وثاني أحداثها :

حدث بئر معونة الجلل

وفي هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب ﷺ حدث أفظع حادث ذلك هو حادث بئر معونة الذي ذهب ضحيته سبعون صحابيا من خيرة الأصحاب نتيجة الغدر والخيانة .

وذلك أن أبا براء بن عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة . فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ، و لم يبعد عن الإسلام ، وقال : يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله ﷺ : «**إني أخشى عليهم أهل نجد**» ، قال أبو براء : أنا جار لهم ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلا من خيرة رجال الصحابة ، ومنهم المنذر بن عمرو والحارث بن الصِّمَّة ، وحرام بن ملحان ، وعامر بن فهيرة مولى الصديق ، وعروة بن أسماء بن الصلت ، ونافع بن بديل بن ورقاء ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سُليم ، ولما نزلوها بعثوا حراما بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل . فلما أتاه لم ينظر فيه – أي في الكتاب – حتى عدا على حرام فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر قومه فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم جوارا فاستصرخ عليهم قبائل من بني سالم من عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم – رحمهم الله أجمعين – اللهم إلا ما كان من كعب بن زايد فإنهم تركوه بين القتلى وفيه رمق من حياة فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا – فرضي الله عنهم أجمعين – .

وكان عمرو بن أمية الضمري المضري ، والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري في سرح لقومهما ، فرأوا الطير تحوم على قتلى المؤمنين ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأنا فأقبلا نحوها لينظرا فإذا القوم في دمائهم ، الخيل التي قتلتهم واقفة ، فقال الأنصاري لعمرو : ما ترى ؟ ، قال : نرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر . فقال الأنصاري : لكني ما كنت لأرغب بنفسي

عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرا أسيرا فلما أخبرهم أنه من مضر تركوه ، وجزّ ناصيته عدو الله عامر بن الطفيل ، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه .

وسار عمرو حتى إذا كان بالقرقرة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا بظل هو فيه فسألهما : ممن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر . فأمهلهما حتى ناما ، ثم قتلهما أخذا بثأر شهداء بئر معونة الذين قتلوا باستصراخ عامر بن الطفيل العامري عليهم ، و لم يعلم بالعقد والجوار الذي لهما من رسول الله ﷺ ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره بما فعل ، قال له: لقد قتلت قتيلتين لأدينّهما !! .

وآلم رسول الله ﷺ الخبر وحزن لذلك ، وقال : «**هذا عمل أبي براء فقد كنت لهذا كارها متخوفا**» ، وبلغ هذا أبا براء فشق عليه وآلمه ، كما بلغ بنيه تحريض حسان له على قتل عامر بن الطفيل فقام إليه ربيعة فطعنه لعنه الله تعالى :

بـــني أمّ البـــنين ألم يَـــرُعْكُم ::: وأنــتم مـــن ذوائـــب أهـــل نجد
تهكّـــم عامـــرُ بـــأبي بـــراء ::: لـــيخفَره ومـــا خطـــأٌ كعمـــد
ألا أبلـــغْ ربـــيعَة ذا المســـاعي ::: فمـــا أحدثـــت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحـــروب أبو بــــراء ::: وما خالُكَ ما جدّ حكـــم بن سعد

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها إزاء الأرقام الآتية :

١- بيان أن الغيب استأثر الله تعالى به ، إذ لو كان النبي ﷺ يعلم الغيب بدون إعلام الله تعالى له لما أرسل شهداء بئر معونة .

٢- بيان ما باء به عدو الله عامر بن الطفيل من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

٣- فضيلة المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري ، إذ قاتل وحده طلبا للشهادة ففاز بها .

٤- بيان ما باءت به عصية ورعل وذكوان من غضب الله تعالى وعذابه .

٥- مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة ، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين .

٦- فضل الشهداء كل من الرجيع وبئر معونة إذ ذهبوا ضحية الغدر والخيانة ، لنـــزول قرآن فيهم هذا نصه: ﴿ بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه ﴾ ثم نسخ .

* * * * * * * * * * *

وثالث أحداثها :

سرّية عمرو بن أمية الضمري إلى مكة لقتل أبي سفيان

ما زال أبو سفيان يتحسر على فواته قتل النبي ﷺ ، حيث خاب أمله في ذلك بعد غزوة أحد التي كفلته أموالا طائلة وأتعابا شديدة رجاء أن يثأر لقتلاه في بدر من محمد ﷺ ، الذي قتل رجاله وأسر أعدادا منهم في بدر .

ومن هنا فكر في خطة خسيسة وهي إرسال من يغتال محمدا ﷺ ، إذ قال بين رجاله: ما أحد يغتال محمدا ؟ فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا منه ؟ .

فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منـــزله ، وقال له : إن أنت وفيتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فإني هاد بالطريق خرّيت معي خنجرا مثل خافية النسر ، فقال : له أبو سفيان : أنت صاحبنا وأعطاه بعيرا ونفقة ، وقال له : اطْوِ أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد ، فقال الأعرابي : لا يعلمه أحد ، فخرج ليلا فوصل إلى المدينة في ستة أيام ، فعقل راحلته بحي بني عبد الأشهل ، ثم أقبل قاصدا رسول الله ﷺ ، فوجده بين أصحابه يحدثهم في مسجده ، فلما دخل المسجد رآه الرسول ﷺ ، فقال : «**إن هذا الرجل يريد غدرا ، والله حائل بينه وبين ما يريد**» . فوقف وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : «**أنا ابن عبد المطلب**» فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يساره ، فجذبه أسيد بن حضير وقال : تنح عن رسول الله ﷺ ، وجذبه بداخل إزاره ، فإذا الخنجر ، فقال: يا رسول الله هذا غادر ، فأسقط في يد الأعرابي ، وقال : دمي دمي يا محمد ، وأخذه أسيد يلببه ، فقال له النبي ﷺ : «**أصدقني ما أنت وما أقدمك ؟ فإن صدقتني نفعك الصدق ، فإن كذبتني فقد اطلعت على ما هممت به**» . قال الأعرابي فأنا آمن ؟ قال : «**وأنت آمن**» . فأخبره بخبر أبي سفيان بن حرب ، وما جعل له . فأمر به النبي فحبس عند أسيد بن حضير ، ثم دعا به من

الغد ، فقال : «قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك؟» قال : وما هو؟ ، فقال : «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك أنت رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي ، وضعفت على ما هممت به فما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب شيطان . فجعل النبي ﷺ يبتسم ، وأقام أياما ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ولم يسمع له بذكر .

لما حدث هذا الذي حدث من أبي سفيان من إرساله من يغتال رسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الأنصار إلى مكة وأمرهما بقتل أبي سفيان ابن حرب .

قال عمرو فخرجت أنا ومعي بعير والرجل صاحبي علة ، فكنت أحمله على بعير حتى جئنا بطن ياجج فعقلنا بعيرنا بالشعب ، وقلت لصاحبي انطلق بنا إلى أبي سفيان لنقتله ، فإن خشيت شيئا فالحق بالبعير فاركبه والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبر وَخلِّ عنّي . قال عمرو : فدخلنا مكة ومعي خنجر قد أعددته إن عانقني إنسان ضربته به .

فقال لي صاحبي هل لك أن نبدأ فنطوف ونصلي ركعتين ؟ . فقلت له : إن أهل مكة يرشون أفنيتهم بالماء مساء ؛ ويجلسون فيها ، وأنا أعرف بهم ، قال : فمشينا حتى أتينا البيت ، فطفنا به وصلينا ، ثم خرجنا ، فمررنا بمجلس لهم فعرفني بعضهم ، فصرخ بأعلى صوته هذا عمرو بن أمية ، فثار أهل مكة إلينا ، وقالوا: ما جاء إلا لشر ، فقلت لصاحبي . أن جاء هذا الذي كنت أحذر ، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل ، فانج بنفسك . فخرجنا نشتد حتى صعدنا الجبل فدخلنا غارا بتنا فيه ليلتنا ننتظر أن يسكن الطلب ، فوالله إنا لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك التيمي يتخيل بفرس له ، فقام على باب الغار ، فخرجت إليه ، فضربته بالخنجر ، فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، فأقبلوا إليه ورجعت إلى مكاني فوجدوه وبه رمق فقالوا : من ضربك ؟ قال : عمرو بن أمية ، ثم مات ولم يقدر يخبرهم بمكاني ، وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي فاحتملوه ، ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا إلى التنعيم ، فإذا بخشبة خبيب ، وحوله حرس ، فصعدت خشبته واحتملته على ظهري ، فمشيت به نحو أربعين خطوة ، فعلموا به فطرحته ، واشتدوا في أثري ، فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا ، وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي ﷺ فأخبره ، وأما خبيب فلم ير بعد ذلك ، وكأن الأرض قد ابتلعته .

وسرت حتى دخلت غارا ومعي قوسي وأسهمي فبينما أنا فيه إذ دخل عليّ رجل من بني الديل أعور طويل يسوق غنما ، فقال : من الرجل ؟ قلت: من بني الديل فاضطجع معي ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولســـــتُ بمسلمٍ ما دمتُ حَيًّـــــــا ::: ولســـــتُ أدينُ دينَ المسلمينـــــا

ثم نام فقتلته ، ثم سرت فإذا رجلان بعثهما قريش يتحسسان أمر النبي ﷺ فرميت أحدهما بسهم فقتلته ، واستأسرت الآخر . فقدمت به على النبي ﷺ وأخبرته الخبر فضحك ودعا لي بخير .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة العطرة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها إزاء الأرقام التالية :

١- مشروعية المعاملة بالمثل وهي في كتاب الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] . إذ أبو سفيان هو الذي بدأ فبعث من يغتال رسول الله ﷺ ، ولذا بعث رسول الله ﷺ من يقتل أبا سفيان .

٢- تقرير القضاء والقدر ، إذ أبو سفيان قضى الله أن يسلم ويصبح في عداد المسلمين بل في الأصحاب – رضوان الله عليهم – فلذا لم يتأت لعمرو ابن أمية قتله .

٣- بيان شجاعة وبطولة عمرو بن أمية حتى لكأنها نادرة في الناس ، فوزه بدعاء الرسول ﷺ له بالخير .

٤- بيان تأثير الدعاية في عقول الناس ، وإلا كيف يتغنى الراعي الدئلي بكونه غير مسلم وأنه لا يدين بدين المسلمين ؟ .

٥- بيان مدى ما بذلته قريش في حرب الإسلام وإطفاء نوره ، ولم تقدر والحمد لله .

* * * * * * * * * * *

وأولى غزواتها :

غزوة بني النضير

بنو النضير إحدى ثلاث طوائف كانت تسكن حوالي المدينة من اليهود ، وقد وادعهم الرسول ﷺ يوم قدم المدينة مهاجرا ، وكتب لهم بذلك كتابا ، فنقضت بنو قينقاع عهدها أول

ما نقض ذلك في السنة الثانية وبعد غزوة بدر مباشرة ، كما تقدم استعراضه في أحداث السنة الثانية . فأجلاهم الرسول ﷺ ولم يقتلهم إذ قبل فيهم شفاعة حليفهم عبد الله بن أبي فخرجوا من المدينة ونزلوا أذرعات بالشام وهلكوا بها ، وهاهم أولاء بنو النضير ينقضون عهدهم اليوم بتآمرهم على قتل النبي ﷺ بصورة مكشوفة واضحة .

إنه بعد انتهاء وقعة أحد المؤلمة جاء أبو براء العامري زائرا المدينة فلاقى رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض ، وقال للرسول ﷺ : لو تبعث إلى ديارنا بعثا من صالحي رجالك يدعون إلى أمرك فإني أرجو أن يجابوا لذلك .

فأبدى النبي ﷺ تخوفا على أصحابه فوعده أبو براء بأنه سيكون جارا حتى لا يمسوا بسوء ، وبعث النبي ﷺ سبعين رجلا من خيرة الأصحاب .

وإن عمرو بن أمية لما وقع في أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عمرو إلى المدينة وفي طريقه لقي رجلين من بني عامر فقتلهما ثأرا لشهداء بئر معونة ، وكان القتيلان معاهدين للنبي ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو ، وأخبر النبي ﷺ بالحادث فقال النبي ﷺ : «لأدينهما» ، وفعلا جاء ذووهما يطالبون بديتهما ، وكانت معاهدة اليهود تقضي بأن يدي كل من الطرفين ما لزمه من دية شرعية ، فخرج النبي ﷺ مع أبي بكر ، وعمر ، وعلي إليهم أي إلى بني النضير يطالبهم بالإسهام في دية العامريين بموجب المعاهدة ، فانتهى إلى ديارهم ، وذكر لهم ما جاءهم من أجله فأبدوا ارتياحا واستعدادا وأنزلوه مع أصحابه منـــزلا حسنا في ظل جدار بيت أحدهم . وأظهروا أنهم يسعون في تحقيق طلبه ، وإذا بهم متآمرون على قتله ؛ إذ قالوا : إنها فرصة قد لا تتاح لكم فتخلصوا من الرجل بقتله ، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك ، فقالوا : نطلع على السطح ونلقي عليه رحى من فوقه نقتله بها ، وأنكر عليهم سلام بن مشكم عملهم ، وقال : لا تفعلوا ، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم القذرة هذه ، وقبل أن يفعلوا بدقائق أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما هموا به من قتله فقام على الفور كأنه يقضي حاجة ودخل المدينة ، ولما استبطأه أصحابه قاموا ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود ، وأن خبر السماء قد سبقهم .

وكان آية المائدة نزلت في هذه الحادثة وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] .

ولهذه الحادثة أشباه ، وتتلى الآية عند كل واحدة منها تذكيرا بنعمة الله وفضله على المؤمنين .

وبعث إليهم ﷺ محمد بن سلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، لنقضهم العهد الذي بينهم وبينه ، فبعث إليهم المنافقون – وعلى رأسهم ابن أُبي كبير المنافقين – يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء ، وفي ذلك يقول تعالى من سورة الحشر : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [الحشر: ١١] . في عدة آيات إلى قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٥] . وهم بنو قينقاع أهلكهم الله .

ولما لم ينصاعوا للأمر بالجلاء لتشجيع المنافقين لهم أعلن القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ الحرب عليهم ، فولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج إليهم برحاله ، فحاصرهم قرابة نصف شهر ، وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلهم وقطعه وفعلا أحرق بعض المؤمنين طرفا وقطعوا بعضا ، وتألم لذلك بعض المسلمين لا سيما لما قال اليهود للرسول ﷺ : عهدنا بك تنهى عن الفساد ، وتعيب صاحبه ، فكيف تأذن بإحراق النخيل ؟ . ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة الحشر :﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] .

ونزل اليهود أخيرا على حكم رسول الله ﷺ منصاعين لأمره ، وهو أن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم على إبلهم ، ما عدا الحلقة " السلاح " حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى ، فأخذوا أموالهم الصامتة والناطقة حتى إن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه ، أو يهد بحف الباب ليأخذ الباب ، وفي هذا يقول تعالى :﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٢ – ٤] .

وأجلى بنو النضير عن المدينة ، ولم يسلم منهم إلا رجلان ، هما يامين بن عمير ، وأبو سعيد بن وهب فأحرزا أموالهما . ولما مر اليهود بخيبر نزل بها سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع ، وحيي بن أخطب ، فاستقبلهم يهود خيبر بالطبول ، والمزامير ، والغناء بزهاء وفخر كأنهم أبطال فاتحون ، وما هم إلا خونة ناكثون مهزومون .

وقسم الحبيب محمد ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين لا غير ؛ إذ هم أصحاب الحاجة حتى أنهم عالة على الأنصار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن أموال بني النضير لم تكن غنائم أحرزت بالقتال ، وإنما كانت فيئا أفاءها الله على رسوله بدون سفر ولا قتال ، وفي هذا يقول تعالى من سورة الحشر : ﴿ وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٦ ، ٧] .

إلا أنه ﷺ شكا إليه أبو دجانة ، وسهل بن حنيف حاجة فأعطاهما خاصة دون بقية الأنصار – رضوان الله عليهم أجمعين – .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

١- تقرير مبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب .

٢- بيان الكمال المحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام التام بالمعاهدات .

٣- بيان سجية من سجايا اليهود وهي نقض المعاهدات وكذا الحال بالنسبة إلى الكفار إذا حاجتهم في النقض لكفرهم بالله ولقائه .

٤- قد تقتضي الضرورة هدم الجسور وبعض الدور وقطع الأشجار للضرورة .

٥- بيان أن الفيء خلاف الغنيمة صورةً وحكماً .

٦- ولوع اليهود بالمزامير ، والطبول والأغاني ، وحفلات الرقص ، والمجون في كل زمان .

٧- بيان أن سورة الحشر جلها نزل في يهود بني النضير .

* * * * * * * * * * *

عبرة خاصة

عبرة لو كان هناك من يعتبر ، أنه لما أخرج بنو النضير من ديارهم ، وتركوها خرابا مرّ بها عمرو بن سعدي اليهودي ، وكان متألها في بني قريظة لا يفارق الكنيسة ، فرأى خرابها .

وفقدان أهلها ، بعد ما كانوا يعمرونها ، ولهم فيها طيب عيش ، وهدوء نفس ، وراحة بال ، فأتى بوق الكنيسة ، فنفخ فيه فاجتمع رجال بنو قريظة فذكرهم بحال بني النضير ، وحال بني قينقاع من قبلهم وما حل بهم من ذل وهوان وخسران ، وقررهم بما يعرفون من التوراة ، وهو أن محمدا هو النبي الخاتم وأنه رسول الله ﷺ حقا وصدقا ، وأن النجاة في اتباعه والخسران في حربه والكفر به ومعاداته ، فأقروا لما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين ، فقال: له كعب بن أسد القرظي: ما يمنعك أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ ، قال: أنت يا كعب ، قال كعب: فلم - والتوراة - ما حلت بينك وبينه قط ؟ ، قال : الزبير بن باطا: بل أنت صاحب عهدنا . وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أبيت أبينا . فأقبل عمر بن سعدى على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال عمرو: ما عندي في أمره إلا ما قلت : ما تطيب نفسي أن أصير تابعا!! .

وهكذا يحمل الكبر صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة ، وهو الخسران المبين .

* * * * * * * * * * *

وثاني غزواتها :

غزوة ذات الرقاع

ذكر في سبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع ، وأجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم في أربعمائة مقاتل واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى أو عثمان بن عفان - رضى الله عنهما - وسار إليهم وهم بديار نجد فنـــزل (نخلا) وهو موضع من نجد في أرض غطفان .

ولما علم بمسيره ﷺ من أجمعوا أمرهم على قتاله تفرقوا ولحقوا برءوس الجبال فلم يكن قتال من هذه الغزوة بذات الرقاع لأنهم كانوا يعتقبون البعير كل ستة ببعير ، وكان الفصل صيفاً و لم يطيقوا الحر فكانوا يلفّون الخِرق على أرجلهم فسميت ذات الرقاع .

وحدث هذا في الغزوة ما يلي :

١- أن النبي ﷺ لما بات برحاله بات في مضيق " شعب بين جبلين وجعل على الحراسة مهاجرا وهو عمار بن ياسر ، وأنصاريا وهو عباد بن بشر ، فخير أحدهما الآخر في

حراسة أول الليل ، أو آخره . فاختار الأنصاري أول الليل . فحرس ثم قام يصلي ويقرأ في سورة الكهف . فجاء أحد القناصة من العدو ، فرماه بسهم فنــزعه ، وواصل صلاته ، ثم رماه بآخر فنــزعه ، وواصل صلاته ، ثم رماه بثالث فاستيقظ صاحبه ، فرأى الدم يسيل منه فسأله فأخبره . فقال: لم لا توقظني ؟ فقال: إني كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها ، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها أي أتمها قراءة .

٢- أن غورث الغطفاني قال لرجاله : ألا أقتل محمدا ؟ قالوا: بلى ، وكيف تقتله ؟ قال: أفتك به ، وأخذ يتتبع جيش الإسلام ، فلما نزلوا في واد كثير الأشجار ، وتفرقوا فيه للاستراحة تحت ظلال الأشجار ، وكان النبي ﷺ قد جلس تحت ظل شجرة وعلق سيفه بها ، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء وختل حتى أخذ السيف وأصلته ، وقال للرسول ﷺ : من يمنعك اليوم عني يا محمد ؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : «الله» . فانهار الرجل وسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ ، وقال : «من يمنعك مني اليوم ؟» . قال : لا أحد ، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ وعاهده على أن لا يحارب ضده ، ورجع إلى قومه فأخبرهم فأسلم كثير على خبر هذه الحادثة .

٣- أن جمل جابر بن عبد الله قد انقطع وأصبح لا يقدر على المشي إلا بصعوبة . فمر به الحبيب محمد ﷺ وهو واقف والجمل حاسر بارك ، فقال له : «ناولني سوطه» فناوله إياه فضرب به الجمل . فقام وسار حتى كاد يسبق غيره . ومن باب المطايبة قال ﷺ لجابر : «أتبيعنيه يا جابر ؟» قال : بل أهبه لك يا رسول الله . قال : «لا ، بل بعنيه» فساومه شيئا فشيئا حتى بلغ الثمن المطلوب فباعه إياه ، واشترط جابر حملانه إلى المدينة ، فقبل النبي ﷺ الشرط . ولما وصلوا إلى المدينة جاء جابر بالجمل فأناخه على مقربة من بيوت النبي ﷺ ، وقال لبعضهم : أخبر النبي ﷺ بأن جابر جاء بالجمل فأخبره . فقال ﷺ لعمار : «أعط هذه الدراهم لجابر وقل له يأخذ جمله ، فإنه لا حاجة لي به» . فأخذ جابر الجمل وثمنه شاكرا الله ولرسوله فضلهما .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي :

١- بيان مصداق قوله ﷺ : «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» .

٢- مشروعية اتخاذ الحرس عند الخوف .

٣- بيان كمال عباد بن بشر الأنصاري في خشوعه في صلاته وتدبره كلام الله تعالى .

٤- آية النبوة تتجلى في انهيار غورث وسقوط السيف من يده .

٥- بيان الكرم المحمدي المتجلي في إعطاء جابر الجمل والثمن معا .

٦- آية النبوة المحمدية في جمل جابر الذي أصابه الكلل والإعياء حتى انقطع ثم عاد خيرا مما كان ببركة ضربه له ورغبته في عودة صحته وسلامته .

* * * * * * * * * * *

وثالث الغزوات :

غزوة السَّويق أو بدر الآخرى

سبب هذه الغزوة : أن أبا سفيان بن حرب لما كان عائدا من غزوة أحد . قال للنبي ﷺ وأصحابه: موعدنا بدرا عاما قابلا .

فقال النبي ﷺ لأصحابه : «**قولوا له: نعم**» . فقالوا : نعم إن موعدنا معك العام القابل ، فلما آن أوان الموعد استخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة ، أو عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول ، وخرج في ألف وخمسمائة مقاتل ، وسار حتى وصل بدرا ، وكان بها سوق كبيرة تقام سنويا . ولذا واعد أبو سفيان فيها النبي ﷺ وأصحابه . فباع النبي ﷺ وأصحابه واشتروا فربحوا ضعف رأس المال إذ ربح الدرهم درهمين ، وعادوا لم يمسسهم سوء ، إذ أبو سفيان لما خرج برجاله ووصل إلى قريب من عسفان رأى أنه لا فائدة من الحرب وخاف الهزيمة . فخطب في رجاله فقال : إن هذا العام عام جدب ، ولا يصلح لكم إلا عام خصب فلذا أرى أن تعودوا ، فأكلوا أزوادهم وكانت سويقا ورجعوا ، فقال أهل مكة ينحون عليهم باللائمة كأنكم ما خرجتم للقتال ، وإنما خرجتم لأكل السويق . فسميت هذه الغزوة أيضا بغزوة السويق .

وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعرا من قوله :

وَعَدْنا أبو سفيان فلم نجِدْ ::: لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسمُ لو وافيتَنا فلقيتَنا ::: لأُبْتَ ذميمًا وافتقدتَ المواليا
تركنا به أوصالُ عتبة وابنه ::: وعمرًا أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتُم رسولَ الله أُفّ لدينكم ::: وأمركم السيئ الذي كان غاويا
فإني وإن عنفتموني لقائلٌ ::: فدًى رسول الله أهلي ومالي
أطعناه فلم نعدلْه فينا بغيره ::: شهابًا لنا في ظلمة الليلِ هاديا

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي الآتية:

١- بيان الوفاء المحمدي الدال على الشجاعة النادرة إذ لم يرهب أبا سفيان كما رهب هو وولى من الطريق خائفا .

٢- مشروعية البيع والشراء في كل فرصة تسنح حتى في الجهاد والحج .

٣- بيان مصداق حديث : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ؛ لانهزام جيش أبي سفيان قبل الالتقاء بأرض الموعد وهي بدر .

٤- تفسير قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤] .

****

أهم ما وقع من أحداث في هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

تمت في هذه السنة وهي الرابعة من الهجرة أحداث يحسن ذكرها مجملة للتاريخ والعبرة إزاء النقاط السوداء الآتية :

وفاة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول ﷺ برّة بنت عبد المطلب .

وفاة عبد الله بن عثمان بن عفان وهو ابن رقية بنت رسول الله ﷺ ، وله من العمر ست سنين .

ولادة الحسين بن علي – رضي الله عنهما – وهو وسيط النبي ﷺ لأنه ابن بنته فاطمة الزهراء – رضوان الله عنها – .

زواج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأم المساكين .

تزوج الحبيب محمد ﷺ بأم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة وانقضاء عدتها منه .

أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت الشاب الأنصاري أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها في نصف شهر .

* * * * * * * * * * *

أحداث السنة الخامسة

ودخلت السنة من هجرة الحبيب محمد ﷺ ، وكان أول أحداثها :

غزوة دومة الجندل

بلغ النبي ﷺ أن جمعا من المشركين بدومة الجندل وهي قرية تبعد عن المدينة بمسافة خمس عشرة ليلة ، وعن دمشق بنحو من خمس ليال ، فهي إلى الشام أقرب ، وإن كانت من أعمال المدينة النبوية – يتلصصون ، ويؤذون المارة . فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم من جهة – تخليصا للبلاد من ظلمهم ، ومن جهة أخرى ليرعب الروم ، وكل من في المنطقة حتى لا يفكروا في حربه ﷺ . ومن جهة ثالثة: ينشر دعوة الله تعالى ويبلغها إلى سكان تلك الديار .

فاستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري . وخرج في ألف مقاتل ، وانتهى إلى تلك البلاد ، ولم يجد بها أحدا ، إذ رعبوا وتفرقوا بمجرد أن علموا أن محمدا قد خرج إليهم .

وأقام ﷺ بالمنطقة كذا يوماً ، أرسل فيها السرايا هنا وهناك ولم يعثروا إلا على المواشي من إبل وغنم ، فساقوا منها ما شاء الله ، وعاد الحبيب محمد ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدا ،

والحمد لله أولا وآخرا .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي :

١- بيان ما كان من الفوضى في تلك الديار قبل الإسلام بدليل وجود عصابات تتلصص فتؤذي المارة وتسلب أموالهم .

٢- بيان ما أوتي النبي ﷺ من كمال السياسة وحسنها ، إذ خروجه إلى دومة الجندل حقق عدة أهداف شريفة منها إرعاب الروم ، ورفع الظلم والدعوة إلى الإسلام .

٣- بين مصداق قوله ﷺ : «**ونصرت بالرعب مسيرة شهر**» ، إذ بمجرد أن علم الظلمة بخروج النبي ﷺ إليهم حتى تفرقوا منهزمين والمسافة مسافة شهر .

٤- مشروعية أخذ الغنائم في الإسلام وحلّيتها لهذه الأمة المجاهدة المقيمة للعدل الناشرة للهدي والخير بين من تظلهم تحت راية الإسلام .

* * * * * * * * * * *

وثاني أحداثها :

غزوة الخندق أو الأحزاب

هذه الغزوة نزلت في بيان أحداثها الجسام سبع عشرة آية من سورة الأحزاب ، وهذه عناصر تكوينها متسلسلة ليسهل فهمها والانتفاع بعبرها :

أ- سبب وقوعها :

إن السبب الأقوى والمباشر لحدوث هذه الغزوة هو أن رؤساء بني النضير الذين نزلوا بخيبر يوم جلائهم ، واحتفل بهم يهود خيبر وأقاموا لهم الأفراح يوم استقبالهم كما تقدم في استعراض غزوة بني النضير من السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ .

هؤلاء الرؤساء وهو حيي بن أخطب ، وعبد الله بن سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وغيرهم رأوا أن يثأروا لما أصابهم من الذل والهوان ، وينتقموا من الرسول ﷺ والمؤمنين ، فخرجوا إلى مكة لتأليب قريش ، وتحزيب الأحزاب لقتال النبي ﷺ والقضاء

عليه ، فوجدوا قريشا مستعدة لذلك من أجل الهزائم التى لحقتها فى غير ميدان وساحة قتال ، وضللها هؤلاء اليهود ، إذ أعلموها أنها على حق ، وأن دينها خير من دين محمد ، وأنها أهدى منه سبيلا فى حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية ، وفى هذا نزل قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥١ ، ٥٢] .

فخرجوا من عند قريش وتركوها تعد العدة وتجمع الرجال من قبائلها على اختلافهم مجمعة الخروج إلى المدينة لحرب محمد ﷺ واستئصاله .

وذهب أولئك الرؤساء فى الشر إلى قبائل غطفان يؤلبونهم على حرب محمد ﷺ فاستجابوا لهم لظلمة نفوسهم ،ولقوة تأثير كلام اليهود فيهم ، وخرجت قبائل غطفان بزعامة عيينة بن حصن ، وكل قبيلة معها سيدها ، فمع بنى فزارة عيينة ، ومعمرة الحارث بن عوف المرى ، ومع الأشجع مسعر بن رخيلة الأشجعى .

وخرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب ، وواصل كل سيره فنـــزلت قريش بمجمع الأسيال قريبا من دومة الجرف والغابة ، وكان أفراد معسكرهم عشرة آلاف مقاتل من أحابيشهم ، ومن تبعهم من كنانة وتهامة ، ونزلت قبائل غطفان شرق المدينة إلى جنب أحد الشرقى ، وفى هذا يقول تعالى من سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٩ ، ١٠] .

ب - حفر الخندق إجراء وقائى:

وكان النبى ﷺ قد سمع بتحركات اليهود ، وتحزيبهم الأحزاب لقتاله - فداه أبى وأمى - فاستشار رجاله ، فاقترح سلمان الفارسى حفر خندق حول جبل سلع تكون ظهور المسلمين إلى جبل سلع ووجوههم إلى الخندق ، فيمنعون كل مقتحم للخندق يريد الوصول إليهم ، وأن يوضع النساء والأطفال فى حصون المدينة وآطامها ، فاجتمعت الكلمة على حفر الخندق ، وأخذ المسلمون يحفرون ومعهم نبيهم ﷺ يحفر معهم ، وقد وزع ﷺ الحفر عليهم فجعل لكل عشرة أنفار أربعين ذراعا ، واشتغلت الفئوس والمساحى فى الحفر ، والرجال فى نقل التراب

وإبعاده ، وكان بين الذين ينقلون التراب الحبيب ﷺ حتى علا جلده الطيب الطاهر ، وكان ذلك منه ﷺ تشجيعا لهم على العمل ومواصلته ، حتى إنه كان إذا تقولوا يقول معهم ، فقد كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له: جعيل وسماه النبى ﷺ عمرا فيقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا ، فيقول ﷺ : «**عمرا**» وإذا قالوا: وكان للبائس يوما ظهرا ، يقول هو ﷺ : «**ظهرا**» .

ولما رأى ما بهم من التعب والجوع قال: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**» .

فقالوا هم مجيبين له:

نحــــن الذين بايعــــوا محمــدًا ::: علـــى الجهــــاد مــــا بقينا أبدا

وكان ﷺ ينقل التراب معهم ويردد قول عبد الله بن رواحة:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ::: ولا تصـــدقنا ولا صـــلينا
فَأَنْــزلنْ ســـكينةً علينـــا ::: وثبـــت الأقـــدام إن لاقيـــنا
إنَّ الألـى قـد بَغَـوْا علينـا ::: إذا أرادوا فتنـــــةً أبينـــا

جـ - آيات تظهر أثناء الحفر وبعده:

وتجلت أثناء حفر الخندق آية من آيات النبوة المحمدية وذلك أن كدية قد اشتدت عليهم وهم يحفرون فشكوها إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أنا نازل**» أى: إليها داخل الخندق ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، إذ لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعاما فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب الكدية المستعصاه فعادت كثيبا أهيل ، **هذه آية ظاهرة** .

وأخرى: قال جابر بن عبد الله قلت: يا رسول الله ائذن لى إلى البيت فأذن له فأتيت امرأتى فقلت لها: إنى رأيت برسول الله ﷺ شيئا ، ما كان فى ذلك صبر ، فهل عندك شيء ؟ قالت: عندى شعير وعناق (جدى صغير) قال: فذبحت العناق ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى ﷺ ، والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافى[1] كادت تنضج ، فقلت: طعيم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال: «**كم هو ؟**» فذكرته له ،

---

(١) الأثافى: حجارة يوضع فوقها القدر وبينها النار .

فقال: «**كثير طيب قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى**» ، فقال: «**قوموا**» فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل جابر على امرأته قال لها: ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت: هل سألك ؟ قلت: نعم فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» فجعل ﷺ يكسر الخبز ويغرف من البرمة حتى شبعوا وبقى بقية ، فقال لى: «**كلى هذا واهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة**» .

وثالثة: قال سلمان – رضى الله عنه –: ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ورسول الله ﷺ قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقه أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى ، قال سلمان: فقلت له: بأبى أنت وأمى ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال: «**أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟**» قلت: نعم قال: «**أما الأولى: فإن الله فتح علىّ باب اليمن ، وأما الثانية: فإن الله فتح على باب الشام والمغرب ، وأما الثالثة: فإن الله فتح على بها المشرق**» .

د – موقف مخز للمنافقين:

لما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون فى حفر الخندق كان المؤمنون يواصلون العمل ، وإن كانت لأحدهم حاجة ضرورية استأذن رسول الله ﷺ فأذن لــه ، فيذهب إلى أهله فيقضى حاجته ويعود ، أما المنافقون فإن أحدهم يورى بقليل من العمل ثم يذهب إلى أهله بدون إذن ولا استئذان فى خفاء فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] .

ونزل فى المؤمنين الصادقين ثناء الله عليهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٦٢] .

هـ – مواجهة العدو:

وما إن تم حفر الخندق حتى وصلت قريش وعسكرت بمجمع الأسيال قريبا من بئر دومة الجرف والغابة ، ووصلت غطفان بقبائلها فعسكرت شرق المدينة بجانب أحد ، وكان عامة

أفراد قوات العدو تقدر باثنى عشر ألف مقاتل ، وخرج النبى ﷺ بأصحابه وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ووجوههم تجاه العدو ، بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم الأعمى ، وجعل النساء والأطفال فى الآطام والحصون .

و - عمل شرير يقوم به ابن أخطب:

وذهب حيى بن أخطب - عليه لعائن الله - إلى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، إذ كان قد عاقد الرسول ﷺ وعاهده على قومه ، فلما سمع كعب صوت حيى وعرفه أغلق باب حصنه دونه ، فاستأذن حيى فلم يأذن له فصاح حيى: ويحك يا كعب افتح لى ، فقال كعب: ويحك يا حيى فإنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا الوفاء والصدق ، وما زال يراوده على الفتح حتى فتح له الباب ودخل ، وكان أول ما قال قوله: ويحك يا كعب قد جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جنب أحد ، قد عاهدونى أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه ، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر ، ويحك يا حيى ، فدعنى وما أنا عليه ، وما زال حيى يراود كعبا حتى نقض عهده مع رسول الله ﷺ، وبرئ مما كان بينه وبين محمد ﷺ.

وبهذا نقضت قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، وبلغ هذا النبى ﷺ فأرسل السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من الأنصار لتقصى الحقيقة ، ومعرفة ما إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها حقا ، وذهب السعدان - رضى الله عنهما - ومن معهما وعادوا بالحقيقة المرة وهى أن قريظة قد نقضت عهدها وهى على أخبث حال ، وقد أوصاهم رسول الله ﷺ إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها أن لا يصرحوا بذلك ، ولكن يلحنوا به لحنا حتى لا يفتتن الناس فى المعسكر ، ولا يفت فى أعضادهم ، ولذا قالوا: عضل والقارة أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، وهنا قام رسول الله ﷺ فكبر وقال: «**أبشروا يا معشر المسلمين**» .

بنقض قريظة عهدها عظمت الفتنة ، واشتد البلاء ، وعظم الركب ، وأصبحت الحال كما وصف الله تعالى فى كتابه إذا قال من سورة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠] أى قريظة من فوق من الجنوب الغربى ، وقريش وغطفان من أسفل إذ هم من الشمال الغربى والشرقى ، ﴿ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾

[الأحزاب: ١٠] – أى من شدة الخوف –﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب: ١٠] – أى المختلفة وهذه حال المنافقين وضعفه الإيمان ، اما المؤمنون الصادقون فهم كما قال تعالى فيهم: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١١ – ١٢] إذ قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !! وقال أوس بن قيظى: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، أى مكشوفة له فأذن لنا أن نخرج أى من المعسكر فنرجع إلى ديارنا ، وهو ومن مالأه من قومه المعنيون بقول الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] فيه آيات كثيرة تكشف عوارهم وتظهر نفاقهم .

ز- رحمة نبوية تتجلى فى عرض صالح:

ولما رأى الحبيب محمد ﷺ صعوبة الموقف وشدة البلاء ، وما أصاب المسلمين من مخاوف بعث إلى عيينه بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف – وهما قائدا غطفان – يعرض عليهما صلحا وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم ، وتم الصلح حتى كتبت الوثيقة إلا أنها لم يشهد عليها بعد ، وقبل التوقيع النهائى بعث رسول الله ﷺ إلى السعدين فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمرا تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لابد لنا من عمل به ، أم شيءٌ تصنعه لنا ؟ قال: بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عليكم من شوكتهم لأمر ما» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله ﷺ : «فأنت وذاك» ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة (الوثيقة) فمحا ما فيها من الكتابة ، ثم قال: ليجهروا علينا .

ح- بداية المعركة:

ووقف الرسول ﷺ والمؤمنون وجها لوجه أمام العدو ، وتحركت خيل من قريش على رأسها عمرو بن عبد ود ، فمروا بخيمات بنى كنانة فقالوا لهم: تهيئوا يا بنى كنانة للحرب ،

فستعلمون من الفرسان اليوم ؟ ثم أقبلوا تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم قصدوا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم بين السبخة وسلع ، وما إن رآهم المسلمون حتى خرج على بن أبى طالب فى نفر معه من المسلمين ، ووقفوا بينهم وبين الثغرة التى دخلوا منها بخيلهم ، ولما رأوا ذلك أقبلوا مسرعين نحو الثغرة التى أخذت منهم ، فوقفوا دونها ، وقال عمرو ابن ود: من يبارز ؟ فبرز على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وقال له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله تعالى ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له: أجل ! فقال له على: إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام فقال: لا حاجة لى بذلك ، قال على: فإنى أدعوك إلى النـــزال ، فقال له: لم يا ابن اخى فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال على: لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك ، فنـــزل عن فرسه وعقره وضرب وجهه ثم أقبل على علىّ ينازله فتنازلا وتجاولا فقتل على عمرا ، ولما رأت خيل المشركين ذلك فرت هاربة مقتحمة الخندق ، ولم يقدروا بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق لا رجالا ولا فرسانا ، وإنما هى الاقتناص والرماية حتى إن ابن العرقة رمى سعد بن معاذ بسهم وقال: خذها وأنا ابن العرقة فقال له سعد: عرق وجهك فى النار ، وكان سعد قد أصيب فى أكحله ، وقل من ينجو من الموت من أصيب إصابته ، ولذا دعا فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، وعظم البلاء وفزع الحبيب ﷺ إلى ربه يدعوه ويسأله النصر له والهزيمة لأعدائه ، فقال: «**اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم**» ، وقال به بعض أصحابه ، يا رسول الله ﷺ هل من شئ نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال: «**نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**» ، وقد حالت المواجهة للعدو دون صلاة العصر حتى غربت الشمس فصلا بعدذلك ودعا على المشركين فقال: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى**» ، صلاة العصر ، وحصل هذا عدة مرات ، وذلك لأن صلاة الخوف لم ينـــزل القرآن بها بعد ، وإلا لصلوا على أى حال ولا يؤخروها عن وقتها .

واستجاب الله دعوة رسوله وعباده المؤمنين الصادقين ، فساق إلى رسوله نعيم بن مسعود الغطفانى – بعد أن هداه إلى الإسلام فأسلم – وأتى النبى ﷺ يقول له: يا رسول الله إنى قد

أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له رسول الله ﷺ : «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة**» وخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديما فى الجاهلية ، فقال: يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فقالوا له: لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج من عندهم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش ، قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموه عنى ، فقالوا: نفعل ذلك فقال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقكم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ، ولا أراكم تتهموننى ، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم ، قال: فاكتموا عنى . قالوا: نفعل فما أمرك ؟ فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

وكان من تدبير الله تعالى لرسوله والمؤمنين ليخرجهم من محنتهم أن أرسل أبو سفيان ورجال من غطفان إلى بنى قريظة وفى ليلة سبت يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا فإنا نخشى أن ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت الرسل إلى قريش وغطفان بما قالت بنو قريظة قالوا: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا

فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم: إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم ، فأرسلوا إلى قريش وإلى غطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم ، وخذل الله تعالى بينهم ، فلم يعزموا على القتال ، وأرسل الله عز وجل عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم ، وما أطاقوا المقام فقرروا العودة فورا إلى بلادهم ،وارتحلوا عائدين لم ينالوا خيرا ، وكفى الله رسوله والمؤمنين قتالهم ، وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل فى ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] وقوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

ولنستمع الآن إلى حذيفة بن اليمان – رضى الله عنه – يحدثنا عن مشاهدته لمعسكر أبى سفيان فى تلك الليلة الباردة وهو يعلن الرحيل بسرعة .

قال – رضى الله عنه –: وقد قال له رجل من أهل الكوفة: يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله وصحبتموه ؟ قال: نعم يا ابن أخى قال: فكيف كنتم تصنعون ؟ قال: والله لقد كنا نجهد ، فقال السائل لحذيفة: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا ، فقال حذيفة: يا ابن أخى والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق ، وصلى رسول الله ﷺ هويا[1] من الليل ثم التفت إلينا فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟**»– فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة – «**أسأل الله تعالى ان يكون رفيقى فى الجنة**» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ﷺ ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ، فقال: «**يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يصنعون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا**» قال: فذهبت ، فدخلت فى القوم والريح وجنود الله "الملائكة" تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم نارا ولا قدرا ولا بناء ، فقام أبو سفيان ، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت: من أنت ؟ قال فلان بن فلان ، ثم قام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا

---

(١) فترة من الليل .

عنهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا إنى مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىّ: «**لا تُحدث شيئا إلا تأتينى**» ثم شئت لقتلته بسهم . قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه ، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه وطرح علىّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانسحروا راجعين إلى بلادهم .

وهناك قال الحبيب ﷺ : «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**» وحقا لم تغز قريش النبى ﷺ بعدها حتى غزاهم فى عقر دارهم ، ودخل مكة عليهم ، ولما أصبح رسول الله ﷺ من تلك الليلة عاد إلى المدينة وعاد أصحابه ، والحمد لله .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها إزاء الأرقام التالية:

١- موقد نار حرب غزوة الخندق هم رؤساء يهود بنى النضير ، حيى بن أخطب ، وسلام بن مشكب وكنانة بن الربيع ، وما زال اليهود يوقدون نيران الحرب إلى اليوم .

٢- بيان خيانة وغدر عيينة بن حصن الغطفانى إذ وادعه الرسول واقتطع له أرضا وغدر .

٣- فضل سلمان الفارسى فى إرشاده المؤمنين إلى حفر الخندق ، وقول الرسول فيه: «**سلمان منا آل البيت**» لما تنازعه كل من المهاجرين والأنصار .

٤- تجلى آيات النبوة المحمدية عند حفر الخندق فى ثلاثة مواطن: وهى تفتت الصخرة حتى كانت كثيبا مهيلا ، وما أعلنه عند كل بارقة برقت إذ كان ما اخبر به كما أخبر ، وإطعام المئات بصاع شعير وجدى من الماعز .

٥- بيان أن هذه الغزوة كانت تمحيصا للمؤمنين ، وكشفا لعوار المنافقين .

٦- تجلى الرحمة المحمدية فى سعيه ﷺ للصلح مع العدو الغازى ليخفف به على المؤمنين .

٧- جلال موقف سعد بن معاذ فى رفضه الاتفاقية إيمانا وتوكلا وصبرا وصدقا .

٨- ظهور بطولة على بن أبى طالب فى منازلته عمرو بن ود وقتله إياه فى جولات محدودة .

٩- عظم مصاب المسلمين فى سعد بن معاذ وهو القائل عند قومه على المعركة:

لبــث قليلا يـــدرك الهيجا جمـــل ::: لا بأس بالمـــوت إذا حـــان الأجل

١٠- استجابة الله تعالى دعاء رسوله والمؤمنين .

١١- عظم دور نعيم بن مسعود فى تخذيل كل من اليهود والمشركين .

١٢- تقرير حقيقة سياسية رشيدة وهى عدم الأخذ بنصائح العدو مهما كان صادقا ، ووجوب الحذر منها ، تجلت هذه الحقيقة فى دور نعيم الذى قام به فى تخذيل العدو فى قالب نصائح لا نظير لها .

١٣- فضل حذيفة بن اليمان لاختيار الرسول ﷺ به ، وبعثه لاستطلاع حال العدو ، وفوزه بمرافقة الحبيب ﷺ فى الجنة .

١٤- تفسير آيات الأحزاب الواردة فى غزوة الأحزاب ، وهى نحو من سبع عشرة آية .

* * * * * * * * * *

وثالث أحداثها:

غزوة بنى قريظة

بنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون حول المدينة النبوية ووادعهم رسول الله ﷺ ، ونقضوا عهدهم واحدة بعد واحدة ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ كُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة: ١٠٠] فاليهود إلى اليوم لا يفون بعهد ، ولا يلتزمون بميثاق ، فكان النكث والغدر وصفا لازما لهم إلا من شاء الله منهم .

فبنو قريظة نقضوا عهدهم وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة الذين جاءوا لاستئصال الرسول والمؤمنين - خيب الله مسعاهم - فبهذا وجب قتالهم وتعين قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها .

كان هذا سبب غزوة بنى قريظة وهو نقضهم للمعاهدة وانضمامهم إلى المشركين الغزاة الظالمين المعتدين .

بداية غزوهم:

لما عاد الرسول ﷺ والمؤمنون من الخندق – وذلك يوم الأربعاء من أواخر شهر ذى القعدة من سنة خمس من الهجرة – ودخلوا المدينة فلما كان وقت الظهر أتى جبريل – عليه السلام – النبى ﷺ معتجرا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة ، عليها قطيفة من ديباج فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال: «نعم» فقال جبريل: «**فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم**» .

واستجاب الرسول الحبيب ﷺ لأمر ربه تعالى فعين على المدينة ابن أم مكتوم وأمر ابن عمه على بن أبى طالب أن يتقدم برايته إلى بنى قريظة يجس نبضهم ، ومعرفة أحوالهم ، وما هم عليه ، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس أن احضروا فورا إلى النبى ﷺ فحضروا فأمرهم بالمسير إلى بنى قريظة ، وقال لهم: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة**» وخف الناس وخرجوا ، وحانت صلاة العصر ، فمنهم من صلاها فى طريقه متأولا قول الرسول ﷺ ، ومنهم من لم يصلها حتى دخل الليل عملا بظاهر النَّصِّ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة**» ولم يعب النبى ﷺ على من صلى ولا من آخر ، إذ الكل عامل بطاعته ﷺ .

وخرج الحبيب ﷺ مع بعض أصحابه فإذا بعلى – رضى الله عنه – عائد من بنى قريظة وقال للرسول ﷺ لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخباث: فقال الرسول ﷺ : «**لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟**» قال: نعم . قال: «**لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا**» ، وكانوا قد نالوا من الرسول شيئا لما دنا منهم على وخاطبهم ، وسار الحبيب ﷺ حتى وصل إلى ديارهم ودنا من حصونهم ناداهم قائلا: «**يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وانزل بكم نقمه؟**» قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وأثناء مسيره ﷺ إلى بنى قريظة مر بنفر من أصحابه فسألهم: «**هل مر بكم أحد ؟**» قالوا: يا رسول الله مر بنا دحية بن خليفة الكلبى على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج ، فقال رسول الله ﷺ : «**ذلك جبريل بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم**» ونزل الحبيب ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بنى قريظة يقال لها: أنا أو أنى ، ولما تلاحق المسلمون حاصرهم ﷺ ، وطلب منهم النـزول فأبوا أن ينـزلوا وفى هذه الأثناء ، وعندما جهدهم الحصار وأيقنوا أن النبى ﷺ لا يفلتهم قام فيهم كعب بن أسد

أحد أشرافهم ، وهو صاحب الحل والعقد بينهم فقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا: وما هى ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره ، قال: فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟ قال: فإن أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة سبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّة ، قالوا: نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ؛ فأصابهم ما لم يخف عليك من المسخ ؟ .

وهنا قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

عرض مرفوض:

ولما اشتدت حيرتهم ، وعظمت مخاوفهم أنزلوا رجلا منهم هو شاس بن قيس ليفاوض رسول الله ﷺ فى شأنهم ، وكلم رسول الله ﷺ، وعرض عليه أن يعاملهم معاملة بنى النضير بحيث يخرجون بأموالهم ونسائهم وأولادهم ، ويتركون السلاح ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فقال شاس: تحقن دماءنا وتعطينا النساء والذرية ، ولا نأخذ من أموالنا شيئا ، فأبى ﷺ إلا أن ينـــزلوا على حكمه ، فعاد شماس فأخبرهم بنتيجة المفاوضات وأنها فى غير صالحهم .

وآخر مقبول:

ولما رفض رسول الله ﷺ مقترحهم بعثوا إليه يطلبون أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيروه فى موضوع النـــزول على حكم رسول الله ﷺ، وكان أبو لُبابة أوسيا – وقريظة كانت حلفاء الأوس – فبعث إليهم النبى ﷺ أبا لبابة فدخل إليهم حصنهم فما إن رأوه حتى قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان بالبكاء فرق لهم أبو لبابة . فقالوا له: يا أبا لبابة أننـــزل على حكم محمد ؟ قال: نعم ، وأشار بيده إلى حلقة أى إنه الذبح !! .

عثرة كريم أقالها الله جل جلاله وخرج أبو لبابة من عندهم وهو يقول: والله ما زالت

قدماى فى مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ﷺ ، ولذا انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ربط نفسه فى سارية المسجد ، وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت ، وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبداً ، ولا يرى فى بلد خان فيه الله ورسوله أبداً . وكانت آية الأنفال تعنيه وهى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧] .

ولما بلغ النبى ﷺ خبره وكان قد استبطأه فلم يأت قال: «**أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**» . وقضى أبو لبابة كذا يوما مربوطا تأتى امرأته وقت الصلاة فتطلقه فإذا صلى ارتبط .

وفى سحر الليلة السادسة من ارتباطه سمعت أم سلمة النبى ﷺ يضحك فقالت له: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟ قال: «**تيب على أبى لبابة**» قالــت: أفلا أبشـــره يا رسول الله وكان الحجاب لم يضرب بعد على نساء النبى والمؤمنين قال: «**بلى**» فقامت على باب حجرتها وقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا ، والله حتى يكون الرسول ﷺ هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه الرسول ﷺ خارجا إلى الصبح أطلقه .

فى ليلة نزول قريظة :

وفى ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلموا ثلاثة منهم ليسوا من بنى قريظة ، والرابع قرظى فغير القرظيين هم: ثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ، وهم من بنى هدل فليسوا قريظيين ولا نضريين ، والقريظى هو: عمرو بن سعدى القريظى فإنه أبى أن يدخل مع قريظة فى غدرها لرسول الله ﷺ وقال: لا أغدر محمدا أبدا ومر فى الليل بحرس رسول الله ﷺ الذى عليه محمد بن مسلمة ، فعرفه محمد بن مسلمة ، وقال: اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام وخلى سبيله ، فذهب على وجهه حتى أتى مسجد الرسول ﷺ فبات به تلك الليلة ، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومنا هذا ، ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال: «**ذاك رجل نجاه الله بوفائه**» .

نزول بنى قريظة على حكم رسول الله ﷺ :

ولما أصبح الصباح وأعلن عن نزول بنى قريظة على حكم رسول الله ﷺ توافد رجال

الأوس على رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ، وهو أنه قد وهب بنى قينقاع لابن أبى الخزرجى لما ألح عليه فى ذلك شافعا فيهم بوصفهم مواليه – أى أحلاف الخزرج – فقال لهم ﷺ : «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟**» قالوا: بلى ، قال ﷺ : «**فذلك إلى سعد بن معاذ**» .

من المستشفى إلى المحكمة :

لقد أصيب سعد فى الخندق بسهم فى أكحله ودعا ربه أن لا يتوفاه حتى يريه نقمة فى بنى قريظة الخونة الغادرين ، ولما هزم الله المشركين وارتحلوا ، وعاد النبى ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وضع رسول الله ﷺ سعد بن معاذ فى خيمة رفيدة الأسلمية فى مسجده ﷺ التى اتخذتها مثل المستشفى تعالج فيها الجرحى من فقراء المسلمين وضعفائهم ، محتسبة ذلك عند الله ترجو ثوابه يوم القيامة وأمر النبى ﷺ بوضع سعد فى خيمة رفيدة من أجل أن يقرب منه ليعوده من قريب .

ولما حكمه ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه من الأوس فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإنما ولاك رسول الله ﷺ ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهنا فهم القوم أن سعدا سوف لا يرحمهم ، فنعى إلى بعض رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، ولما وصل سعد قال رسول الله ﷺ : «**قوموا إلى سيدكم**» فقاموا إليه وأنزلوه من على الدابة وقالوا له: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال لهم سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيه ما حكمت ؟ قالوا: نعم وعلى من ها هنا ؟ يشير إلى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ جالس وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له وتوقيرا ، فقال رسول الله ﷺ : «**نعم**» قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . فقال رسول الله ﷺ : «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»[1] .

كيف نزل القريظيون من حصونهم :

إنه لما صدر حكم الله تعالى على لسان سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، ورضى الحكم

---

(١) المقصود: السماوات السبع . لأنها رقعة فوق أخرى .

رسول الله ﷺ والمؤمنون ووافقوا عليه مجتمعين كان القرظيون ساعتئذ فى حصونهم ، وقد أبوا أن ينــزلوا على حكم سعد ، فصاح على بن أبى طالب قائلا: يا كتيبة الإيمان ، وتقدم هو والزبير بن العوام: وقال والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتحمن حصنهم فصاح اليهود وقالوا: يا محمد ننــزل على حكم سعد بن معاذ ، ونزلوا واقتيدوا إلى المدينة وحبسوا فى دار بنت الحارث: امرأة من بنى النجار يقال لها: نسيبة بنت الحارث .

تنفيذ الحكم:

ثم خرج الحبيب محمد ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها ، ثم أمر أن يؤتى بهم أرسالا فتضرب أعناقهم ويلقون فى تلك الأخاديد ، وكانوا قرابة السبعمائة رجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم ، وعدو الله حيى بن أخطب النضرى محزب الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وقد قالوا لسعد وهم يساقون أرسالا إلى رسول الله ﷺ : إلى أين يذهب بنا يا كعب ؟ فقال لهم: أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينــزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل !! وأخيرا جىء بعدو الله حيى بن أخطب عليه حلة فقاحية(1) قد شقها من كل جهاتها حتى لا ينفع بها المسلمون جىء به مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسى فى عدواتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس ، وقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

القرظية العجب:

لقد أعدم كل من أنبت الشعر واحتلم من ذكران بنى قريظة إلا رفاعة فقد استوهبته سلمى بنت قيس أم المنذر النجارية النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة فإنه قد زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته أما نساؤهم فلم يقتل منهن إلا امرأة واحدة قتلت بجناية ارتكبتها ، وكانت المرأة عجبا فى حياتها ، ولنترك لأم المؤمنين عائشة تحدثنا عنها:

حدث عروة بن الزبير عن عائشة – رضى الله عنها – قال: إنها قالت: لم يقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة إنها والله لعندى تتحدث معى وتضحك وتتقلب ظهرا لبطن من الضحك ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق ، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت: أنا

---

(1) مزينة بحمرة الورد .

والله ، فقلت لها: ويلك مالك ؟ قالت: أقتل . قلت: و لم ؟ قالت: بحدث أحدثته ، فانطلق بها فضرب عنقها فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها ،وقد عرفت أنها تقتل .

وقرظى أعجب:

هذا القرظى الأعجب حالا من القرظية العجب هو الزبير بن باطا أحد أعيان بنى قريظة ، وكان هذا الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية ، وذلك فى حرب بعاث ، إذ قد جز ناصيته وخلى سبيله ، فجاء ثابت وهو شيخ كبير ، فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى؟ قال: وهل يجهل مثلى مثلك؟ قال: إنى أردت أن أجزيك بيدك عندى ، قال الزبير: إن الكريم يجزى الكريم .

ثم أتى ثابت النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنه قد كان للزبير بن باطا على منة ، وقد أحببت أن أجزيه فهب لى دمه ، فقال رسول الله ﷺ : «هو لك» فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك فهو لك ، فقال الزبير: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله هب لى امرأته وولده قال: «هم لك» فأتاه فقال له قد وهب لى رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك ؟ فقال: أهل بيت فى الحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ يا رسول الله ماله ، قال: «هو لك» فأتاه ثابت فقال: قد أعطانى رسول الله ﷺ مالك فهو لك ، قال: أى ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد ؟ قال: قتل ، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب؟ قال: قتل . قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن سموءل ؟ قال: قتل قال: فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قريظة ، وبنى عمرو بن قريظة ؟ قال: ذهبوا قتلوا ، قال: فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة ، فقدمه ثابت فضرب عنقه .

ولما بلغ أبا بكر الصديق قوله: "ألقى الأحبة " قال: يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا .

أموال بنى قريظة:

بناء على حكم سعد بن معاذ الذى وافق فيه حكم الله تعالى ورضيه رسوله محمد ﷺ فإن

أموال بنى قريظة – كنسائهم وذرياتهم – تقسم على المسلمين فلذا قسمها رسول الله ﷺ فأعطى للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهما بعد أخذ الخمس الذى هو لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وعلى هذه السنة مضت فى الإسلام قسمة الغنائم إلا أن بعض أئمة الفقه يرى أن الفارس يعطى سهمين والراجل يعطى سهما واحدا .

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فباعهم واشترى بثمنهم خيلا وسلاحا للمسلمين .

ريحانة الحبيب ﷺ :

ريحانة امرأة من بنى عمرو بن قريظة اصطفاها رسول الله ﷺ قبل قسمة السبايا وعرض عليها الزواج بها ويضرب عليها الحجاب فأبت ، وقالت: يا رسول الله اتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها ، وعرض عليها الإسلام فأبت إلا اليهودية فعزلها ﷺ ووجد فى نفسه لذلك من أمرها فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: «**إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرنى بإسلام ريحانة**» فجاء فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك من أمرها ، فكانت عنده ﷺ حتى توفى وهى فى ملكه – رضى الله عنها – .

وفاة سعد بن معاذ – رضى الله عنه – :

بعد أن حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة بحكمه الذى وافق حكم الله ورسوله عادوا به إلى خيمة رفيدة بالمسجد النبوى ، تعالجه وتشرف عليه رفيدة .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بنى قريظة حيث تم قتل رجالهم وقسمة أموالهم ونسائهم وذراريهم ، وفى ذات ليلة انفجر عرق سعد الذى كان قد رقأ حتى أقر الله تعالى عينه بهلاك بنى قريظة – كما سأل ربه ذلك – فأتى النبى ﷺ جبريل وقال له: يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ، فقام ﷺ سريعا يجر ردائه إلى سعد ولحق به أبو بكر وعمر ، فوجده قد مات شهيدا متأثرا بجرحه الذى أصيب به فى الخندق يوم أتى الخندق وهو ينشد:

لَبِّــــثْ قليلاً يــــدركُ الهيجا جمَلٌ ::: لا بــأس بالمــوت إذا حان الأجــلُ

قالت عائشة – رضى الله عنها –: سمعت بكاء أبى بكر ، وعمر على سعد إلا أن النبى ﷺ كان لا يبكى على أحد ، ولكن إذا اشتد وجده أخذ بلحيته ﷺ .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتى:

١- بيان وبال عاقبة الغدر والخيانة وانه عائد على صاحبها وفى القرآن الكريم: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] .

٢- بيان فضل الله تعالى على أبى لبابة فى قبول توبته ، وفضل أبى لبابة فى صدق التجائه إلى ربه تعالى .

٣- بيان أن فى الوفاء النجاة وأن الصدق منجاة .

٤- بيان فضل رفيدة الأسلمية فى بنائها خيمة فى المسجد تعالج فيها الجرحى كأنها بنت مصحة اليوم ، وتعالج فيها بنفسها فضربت المثل فى ذلك .

٥- بعض الأفراد من البشر أمرهم عجب كالقرظية القتيلة ، والزبير بن باطا .

٦- تجليات الكرم والحلم والحزم المحمدى فى غزوة بنى قريظة يرى ذلك كل من استعرض أحداث هذه الغزوة .

* * * * * * * * * * *

أهم ما وقع من أحداث فى السنة الخامسة من هجرة الحبيب ﷺ

إن ما اشتملت عليه السنة الخامسة من هجرة النبى ﷺ من أحداث ذات شأن يمكن الوقوف عليه إزاء النقاط السوداء الآتية:

غزوة دومة الجندل .

غزوة الخندق ، وما تجلت فيها من آيات النبوة المحمدية ، وما لاقى فيها المسلمون من بلاء .

غزوة بنى قريظة وهلاكهم بموت رجالهم وسبى نسائهم وأولادهم نتيجة غدرهم وخيانتهم .

وفاة سعد بن معاذ – رضى الله عنه – .

زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمه بعد طلاق زيد مولاه لها .

فرضية الحجاب صبيحة عرس زينب الذى تولى الله تعالى عقد نكاحها – رضى الله عنها وأرضاها – ثمرة طاعتها لله ورسوله .

إبطال عادة التبنى نهائيا بتزوج الرسول ﷺ بزينب امرأة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه النبى ﷺ فى مكة أيام العمل بهذه البدعة .

* * * * * * * * * * *

أحداث السنة السادسة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السادسة من هجرة النبى المباركة وكان أول أحداثها:

غزوة بنى لحيان

فى جمادى الأولى من هذه السنة السادسة من هجرته – فداه أبى وأمى ونفسى – رأى ﷺ أن يطالب بدم أصحاب الرجيع الذين غدر بهم رجال لحيان وقتلوهم وهم: خبيب وأصحابه– رضوان الله عليهم – فانتدب مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام – وهى تورية فقط والحرب خدعة – فخرج برجاله عن الطريق المؤدى إلى ديار بنى لحيان ، فغمى على الأعداء ، ثم عاد إلى الطريق القاصد ، وذلك من أجل أن يصيب من القوم غِرَّة ، وواصل سيره وأخذه وبسرعة هائلة حتى نزل على غران وهى منازل بنى لحيان ، وغران هذا واد بين أمج وعسفان ممتد إلى بلد يقال له: ساية ، فلما علموا بطلبه لهم حذروا فتمنعوا فى رءوس الجبال ، فلما نزل بديارهم ولم يلقهم لتحصنهم برءوس الجبال ، رأى أن يرهب قريشا فيشعرهم بقدومه إلى قرب ديارهم طلبا للغادرين من بنى لحيان ، ليكون ذلك ذا وقع فى نفوسهم وقد سبق له ﷺ أن صرح فقال: «**اليوم نغزوهم ولا يغزوننا**» قالها بعد خيبة قريش فى الخندق ، فسار ﷺ برجاله وهم مائتا راكب كما تقدم حتى هبط عسفان ، ثم بعث فوارس من رجاله على رأسهم أبو بكر الصديق حتى بلغوا كراع الغميم[1] ، ثم كر وراح ﷺ راجعا وهو يقول: «**آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء**

---

(١) اسم المكان بين مكة والمدينة .

السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال» ، وقال فى هذه الغزوة كعب بن مالك شعراً وهو:

لــو أنَّ بــنى لحــيان كانوا تناظروا ::: لقــوا عُصَبًا فى دارهم ذات مُصَدّق
لقــوا سَــرعانا يمــلأُ السِّرْبَ روعةً ::: أمــام طحــون كالمجـــرة فَــيْلَقَ
ولكنهــم كانــوا وبـــارًا تتَّبعَــتْ ::: شعــابَ حجــاز غيــر ذى متنفّــقِ

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوردها كالتالى:

١- مشروعية المعاقبة بالمثل بقتال وقتل من خان وغدر .

٢- مشروعية التورية والتعمية على العدو ليصاب منه غرة .

٣- مشروعية إرهاب العدو بالنــزول بساحته وإظهار القوة له .

٤- مشروعية قول آيبون تائبون لربنا حامدون عند العودة من السفر الصالح .

٥- مشروعية التعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال .

* * * * * * * * * * *

وثانى أحداثها:

غزوة ذى قرد

سبب هذه الغزوة:

إن لهذه الغزوة كما لغيرها سببا اقتضاها وهو: أن عيينه بن حصن الفزارى وهو ذاك الذى قاد قبائل غطفان لحرب الرسول ﷺ بالمدينة مع الأحزاب ، هذا العدو الحاقد أغار فى خيل له من رحاله على سرح المدينة وهى لقاح للنبى ﷺ تبلغ عشرين لقحة وهى الإبل ذوات الألبان ، فاستاقوا الإبل ، وقتلوا الراعى ، وأخذوا امرأته .

أول من علم بالغارة:

وكان أول من علم بهذه الغارة سلمة بن الأكوع السلمى – رضى الله عنه – إذ خرج يريد الغابة فلما علا ثنية الوداع شاهد خيل عيينة من بعد فعلا على جبل سلع وصاح:

واصباحاه ! واصباحاه ! وهى صيحة الإنذار فى ذلك الزمن ، ثم جرى وراء الخيل الغازية يطاردها يرميهم بالنبل وهم يخلون عن اللقاح ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخففا حتى افتك منهم أكثر اللقاح وتركها وراءه ، وما زال يطاردهم حتى وصلت خيل النبى ﷺ ، إذ كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ بعد صيحة سلمة من الفرسان المقداد بن عمرو الكندى ، ثم تتابعوا ، وقال الرسول ﷺ لأول مرة: «**يا خيل الله اركبى**» .

واستخلف النبى ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وسار بالناس ، وقد قدم الخيل وأمرهم سعد بن زيد ، وقال له: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس وسارت الخيل فكان أول فارس وصل إلى المغيرين هو محرز بن فضلة المقلب بالأخرم ، فلما انتهى إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بنى اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار فحمل عليه رجل من العدو فقتله ، وجال الفرس فى الميدان ، ولم يقدر عليه ، وعاد إلى المدينة حتى وقف على آريه ، وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة رجلا من المغيرين يقال له: حبيب بن عيينة وغطاه ببرده ، وتقدم يطارد القوم ، فلما وصل الناس إليه وظنوا أن القتيل أبو قتادة لوجود بردة على القتيل استرجعوا أى قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه بردة ليعرف أنه قتيله**» ، وأدرك عكاشة بن محصن أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فقتلهما معا .

وسار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزلوا بجبل بذى قردة ، وتلاحق به الناس فأقام بهم يوما وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع الذى كان يرمى القوم ويقول:

خُذْهـــا وأنـــا ابـــنُ الأكـــوع ::: اليــــوم يـــــوم الرضــــع

قال: يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال له رسول الله ﷺ : «**إنهم الآن ليغبقون فى غطفان**» بمعنى إنك لا تدركهم لأنهم وصلوا إلى ديارهم ، وهم يتناولون طعام العشاء ، ونحر لهم رسول الله ﷺ بعيرين طعموهما ، ثم ارتحلوا إلى المدينة النبوية ، وجاءت امرأة الغفارى الذى قتل يوم ساق رجال عيينة اللقاح ، وقتلوا زوجها ، فأخبرت النبى ﷺ أنها نذرت أن تنحر الناقة التى تركبها إن نجاها الله تعالى عليها ، فقال رسول الله ﷺ - وقد تبسم -: «**بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها ، إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هى ناقة من إبلى ، فارجعى إلى أهلك على بركة الله**» .

نتائج وعبر:

إن هذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرا نجملها مع الأرقام الآتية:

١- بيان تسمية هذه الغزوة بغزوة ذى قرد ، وذلك لأن الماء الذى نزل به رسول الله ﷺ يقال له: ماء ذو قرد .

٢- بيان فضل سلمة بن الكوع وأبى قتادة لقول رسول الله ﷺ : «خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالنا سلمة بن الأكوع» .

٣- تأكد عداوة عيينة بن حصن وبيان خبثه .

٤- تقرير بطولة سلمة بن الأكوع وشجاعته .

٥- بطلان نذر المعصية ، ونذر ما لا يملك .

٦- حلم الرسول ﷺ وكرمه وحسن سياسته ، وكمال أدبه ﷺ .

* * * * * * * * * * *

وثالث أحداثها:

غزوة بنى المصطلق من خزاعة أو المريسيع

سبب وقوع هذه الغزوة

لهذه الغزوة سبب كغيرها من الغزوات: وهو أن النبى ﷺ بلغه أن بنى المصطلق من خزاعة قد تجمعوا بقيادة الحارث بن أبى ضرار والد جويرية زوج النبى ﷺ ، وذلك بماء يقال له: المريسيع بناحية قديد ، وكذا سميت الغزوة بغزوة بنى المصطلق أو المريسيع ، فاستعمل النبى ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى ، وخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جمع المهاجرين والأنصار ، ونازلهم بالمريسيع فهزم المشركين ، وقتل من قتل منهم وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها بين المسلمين ، ومن بين السبايا جويرية أم المؤمنين – رضى الله عنها – وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس أو فى سهم ابن عم له .

جويرية تكاتب مالكها:

ولما وقعت جويرية وهى بنت سيد الحى الحارث بن أبى ضرار طلبت من مالكها ثابت

ابن قيس أن يكاتبها لتتحرر ، وأتت النبي ﷺ تستعينه في كتابتها فقال لها: «**هل لك في خير من ذلك ؟**» قالت: وما هو يا رسول الله ؟ قال: «**أقضي عنك كتابك وأتزوجك**» قالت: نعم يا رسول الله ، ففعل . أي تزوجها بعد سداد كتابتها وسمع المسلمون بتزوج رسول الله ﷺ بها فقالوا: أصهار رسول الله !! أي فكيف نملكهم ؟ فعتقوا ما لديهم من سبايا بني المصطلق فانعتق أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق ، فكانت عائشة – رضي الله عنها – أم المؤمنين تقول: ما اعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها !! .

فتنة أرادها ابن أبي ، ولكن الله سلم :

وما زال المسلمون معسكرين على المريسيع ، وإذا بصارخين: أحدهما يقول: يا للأنصار!! والآخر يقول: يا للمهاجرين !! ففزع الناس وإذا بجهجاه الغفاري وهو أجير لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وسنان الجهني حليف الخزرج يقتتلان على الماء ، فصرخ كل واحد بأحلافه فغضب لذلك رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، وعنده رهط من قومه من بينهم زيد بن أرقم وهو غلام حدث السن ، فقال ابن أبي: أو قد فعلوها !! قد كاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل ، ثم أقبل على رهطة وقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم ، ووالله ما أمسكتم بأيديكم لتحولوا إلى غيركم ، ولما سمع زيد مقالة ابن أبي هذه مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال ابن أبي وكان عنده عمر بن الخطاب . فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر فيقتله ، فقال رسول الله ﷺ : «**كيف إذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه !! ولكن أذن بالرحيل**» فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه – أي من التفكير في الفتنة – وهذا من الهدى النبوي الذي لا يجارى فيه ، ولا يلحق به ﷺ .

وجاء أسيد بن حضير فسلم على النبي ﷺ وقال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها !! فقال له ﷺ : «**أما بلغك ما قال عبد الله بن أبي ؟**» قال: وماذا ؟ قال: «**زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل**» قال أسيد: فأنت والله تخرجه إن شئت فإنك العزيز وهو الذليل ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا .

وسمع ابن أبي بالخبر فجاء يركض إلى رسول الله ﷺ ويحلف بالله ما قلت ما قال زيد ولا تكلمت به ، ولما كان ابن أبي شريفا في قومه ، قالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد

أخطأ ، وأنزل الله سورة المنافقون: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ [المنافقون: ١] إلخ .

موقف متحفظ :

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى – وهو شاب صالح أحد الذين كانوا يكتبون الوحى لرسول الله ﷺ – بلغه ما كان من أمر أبيه فأتى النبى ﷺ ، وقال: يا رسول الله بلغنى أن تريد قتل أبى فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، إنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى بين الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فأجابه الرسول ﷺ قائلا: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا» فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثا عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه .

أى الأمرين خير ؟

لما علم النبى ﷺ بما أصبح عليه قوم ابن أبى بعد الذى حدث ، وهو انهم أصبحوا إذا أحدث حدثا سيئا عاتبوه وعنفوه وتوعدوه ، وكفوا بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه قال ﷺ لعمر بن الخطاب: «كيف ترى ذلك يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتنى بقتله لأرعدت له آناف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر: أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

لا عجب فى غدر الكافر :

إنه لا ينبغى أن يتعجب من غدر الكافر ، لأن ظلمة الكفر عندما تغطى القلب تحجب عنه كل معنى للخير والفضيلة والمعروف ، فيصبح لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا .

وهذا مقيس بن صبابة الليثى كان قد قتل أخوه هشام بن صبابة فى هذه الغزوة ضربة رجل من الأنصار رهط عبادة بن الصامت بسهم فى المعركة خطأ فمات ، فجاء مقيس اليوم يدعى الإسلام ويطالب بدم أخيه هشام بن صبابة الليثى فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه ، وأقام قليلا عند رسول الله ﷺ ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدا وهو يقول:

حللتُ بها نذرى وأدركتُ ثؤرتى ::: وكنتُ إلى الأصنام أَوَّلَ راجعِ

فى ثلاثة أبيات المذكور ثالثها .

****

حادث الإفك

عند عودة النبى ﷺ وأصحابه من غزوة بنى المصطلق وقريبا من المدينة ، نزل الرسول ﷺ

منـــزلا ليلا ثم ارتحل ، وحدث فى ذلك ما حدث ، ولنترك لأم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – صاحبة القصة تحدثنا عنها بالتفصيل كما روى ذلك أصحاب السنن وأهل التفسير .

قالت – رضى الله عنها –: " كان النبى ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كان غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهمى فخرج بى معه ، وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق لم يهجهن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا وصل بعيرى جلست فى هودجى ، ثم يأتى القوم الذين يرحلون بعيرى فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر بعيرى ، ثم يأخذون برأس البعير ويسيرون . قالت: فلما قفل رسول الله ﷺ من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنـــزل بعض الليل ، ثم ارتحل هو والناس ، وكنت قد خرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى من جزع[1] ظفار ، انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت التمست العقد فلم أجده ، فرجعت إلى المكان الذى كنت فيه ألتمسه فوجدته ، وجاء القوم الذين يرحلون بعيرى فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه ، فاحتملوه على عادتهم وانطلقوا ورجعت إلى المعسكر ، وما فيه داع ولا مجيب أى ما فيه أحد فتلففت بجلبابى واضطجعت مكانى وعرفت أنهم يرجعون إلى إذا افتقدونى ، فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وكان تخلف عن المعسكر لحاجته فلم يبت مع الناس – فلما رأى سوادى أقبل حتى وقف على فعرفنى – وكان رآنى قبل أن يضرب الحجاب ، فلما رآنى استرجع ، وقال: ما خلفك ؟ فما كلمته ثم قرب البعير وقال: اركبى فركبت وأخذ برأس البعير مسرعا ، فلما نزل الناس واطمأنوا طلع الرجل يقودنى ، فقال أهل الإفك فى ما قالوا ، فارتج المعسكر ولم أعلم بشىء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة فاشتكيت شكوى شديدة ، وقد انتهى الحديث لرسول الله ﷺ وإلى أبوى ولا يذكران لى منه شيئا إلا أننى أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه فكان إذا دخل على وأمى تمرضنى قال: «كيف تيكم ؟» لا يزيد على ذلك ، فوجدت فى نفسى مما رأيت من جفائه فاستأذنته فى الانتقال إلى أمى لتمرضنى فأذن لى ، وانتقلت ولا أعلم بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة .

قالت – رضى الله عنها –: وكنا عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف نعافها ونكرهها ، إنما كان النساء يخرجن كل ليلة ، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب ، وكانت أمها خالة أبى بكر الصديق ، فوالله إنها لتمشى إذ عثرت فى مرطها ،

(١) جُزع: خرز .

فقالت: تعس مسطح ، فقلت لها: لعمر الله بئس ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا ، قالت: أو ما بلغك الخبر ؟ قلت: وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذى كان ، فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى فرجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى وقلت لأمى: تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شيئا !! فقالت لى: يا بنية خففى عليك فوالله قل ما كانت امرأة حسناء عند رجل لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها ، قالت وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم إلا خيرا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ولا يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى» ، قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح ، وحمنة بنت جحش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى[1] فى المنـــزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة فأشاعت تضارى لأختها فشقيت بذلك .

وتكلم أناس فى المسجد حتى كادت تكون فتنة ، ونزل رسول الله ﷺ فدخل على فدعا على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد فاستشارهما فى الأمر ، فقال على - رضى الله عنه - سل الجارية وهى بريرة ، فسألها وضربها على فحلفت وما زالت تحلف أنها ما تعلم عن عائشة إلا خيرا ، وأنها ما كانت تعيب عليها شيئا إلا أنها كانت - أى بريرة - تعجن العجينة وتأمر عائشة بحفظها فتنام عنها فتأتى الشاة فتأكلها .

ثم دخل على رسول الله ﷺ وعندى أبواى وامرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى ، فجلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال: «يا عائشة» وذكرت كلاما وكيف كانت حالها إذ ذاك . حتى قالت: فقلت كما قال أبو يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] . ثم قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم[2] تحت رأسه .

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت وما باليت قد عرفت أنى بريئة ، وان الله غير ظالمى ، وأما أبواى فالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

---

(١) تناصينى: أى تبلغ ناصيتى - ارتفعت تساوينى منزلة .
(٢) وسادة: ما توضع تحت الرأس عند النوم . أدم: جلد .

قالت: ثم سرى عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان فى يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «أبشرى يا عائشة قد أنزل الله براءتك» قالت: قلت: الحمد لله ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح ابن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم .

وروى: أنها لما نزلت براءتها ، قال لها أبواها: احمدى رسول الله ﷺ ، قالت: لا أحمد إلا الله الذى برأنى فقال رسول الله ﷺ : «لقد عرفت الحق لأهله» .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها كالآتى:

١- فى تزوج رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق مبدأ: (أنزلوا القوم منازلهم) إذ تزوجه ﷺ بها كان إكراما لها ولأبيها لشرفهما عند قومهما .

٢- بيان بركة جويرة إذ بزواجها انعتق أكثر من مائة بيت من قومها .

٣- بيان نفاق وخبث ومكر ابن أبى - عليه لعائن الله تعالى - وما أراده من الفتنة .

٤- تجلى الحكمة المحمدية والسياسية الرشيدة فى إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بالرحيل بالقوم وعدم الإذن فى قتل ابن أبى بعد أن استوجب القتل بقوله: ما زال ابن أبى كبشة يعيث فى البلاد فسادا ، وهى كلمة صاحبها مرتد قطعا ، إلا أن ابن سلول كافر ما آمن حتى يقال: ارتد .

٥- مشروعية القرع والأخذ بها بدل مجرد التخيير لما فيها من تطييب النفوس .

٦- مشروعية أخذ المجاهد امرأته معه للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك .

٧- بيان أن الحبيب ﷺ ما كان يعلم الغيب حتى يعلمه الله تعالى ، فكيف إذا بغيره ممن يدعون علم الغيب والمكاشفة تغريرا بالمسلمين وتضليلا لهم لاستغلالهم .

٨- بيان ما تعرضت لــه أم المؤمنين من البلاء وصبرها حتى كشف الله غمتها وفرج كربها ، وهكذا يتحقق مصداق قول الرسول ﷺ : «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» .

٩- بيان براءة أم المؤمنين ، ولذا من شك فى براءتها بعد نزول القرآن بذلك فقد كفر ، إما أن يراجع الإسلام وإلا فهو كافر من أهل النار .

١٠- بيان إقامة حد القذف على من قذف مؤمنا أو مؤمنة بفاحشة ، إذ أقيم الحد على مسطح ، وحسان ، وحمنة فطهرهم الله تعالى بذلك ، ولم يقم الحد على ابن أبى لأنه كافر لا تطهره الحدود .

١١- استجابة أبى بكر لربه فى قوله: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ [النور: ٢٢] إذ كان قد منع ابن خالته مسطحا ما كان يقدمه لـــه من طعام وكساء لما تورط فى قذف أم المؤمنين ثم كفر أبو بكر عن يمينه ، ورد إلى مسطح ما كان يجريه عليه من النفقة بوصفه ابن خالته ، وهو مهاجر فقير .

١٢- حرمة قذف المحصنات المؤمنات وكذا المحصنين المؤمنين ، وانه من كبائر الذنوب وموجب للحد وهو ثمانون جلدة .

١٣- تجلى الكمال المحمدى ، فى عدة مواقف من هذه الغزوة بما فيه حادثة الإفك من ذلك ، حلمه وأناته ، صبره وكرمه ، حسن تدبيره لأموره وأمور أصحابه ، استشارته لأفراد آل بيته فيما يتعلق بهم دون غيرهم .

* * * * * * * * * * *

ورابع أحداثها :

عمرة الحديبية ، وبيعة الرضوان ، والصلح فيها

فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة المباركة ، عزم الحبيب ﷺ على زيارة البيت الحرام فانتدب المؤمنين من حوله للخروج معه لأداء نسك العمرة فى الشهر الحرام ، فخف الناس ، وثقل آخرون ، وجل من ثقل كان من الأعراب النازلين حول المدينة .

وأحرم النبى ﷺ، وأحرم من معه ملبين بالعمرة ، وساروا فى طريقهم إلى مكة ، وبلغ قريشا خروج النبى ﷺ وأصحابه ، وكانوا ألفا وأربعمائة رجل ، وساقوا معهم الهدى وكان قرابة سبعين بعيرا ، وبذلك كان واضحا أنه ﷺ لا يريد حربا ، وإنما يريد قطعا الاعتمار لا غير .

ولما وصل ﷺ عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال له: إن قريشا قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمار ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم .

ولما سمع رسول الله ﷺ قول بشر ، قال: «**يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر الناس فإن أصابوا كان الذى أرادوا وإن أظهرنى الله دخلوا فى الإسلام وافرين ، والله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة**» .

ثم عدل عن الطريق التى هم بها ، فتيامن وسلك الطريق التى تهبط على الحديبية ، وفجأة بركت ناقته به ، فقال الناس خلأت[1] ، فقال: «**ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**» أى عن مكة ثم قال: «**لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**» ولما اجتازوا المضايق بين الجبال الوعرة وانتهوا إلى واد من أودية المنطقة ، قال لهم ﷺ : «**قولوا نستغفر الله ونتوب إليه**» وقالوا: انزلوا ، فقيل يا رسول الله: ما بالوادى ماء ننزل عليه ، فأخرج ﷺ سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل به فى قليب من تلك القلب الموجودة بالوادى فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن[2] – أى نزلوا حوله – يسقون ويشربون ويتوضئون كأنهم نزلوا حول نهر ماء .

ولما رأت خيل قريش عدول النبى ﷺ عن الطريق إليهم عادوا إلى مكة .

وفد خزاعة :

ولما استقر النبى ﷺ فى المنزل الذى نزله جاءه وفد من خزاعة برئاسة بديل بن ورقاء الخزاعى فكلموه وسألوه عن السبب الذى جاء به ، فأخبرهم بأنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ، ثم قال لهم: نحوا مما قال لبشر بن سفيان ، وعاد الوفد إلى قريش كوسيط فقال لقريش: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد إن محمدا لم يأت للقتال ، وإنما جاء زائرا هذا البيت فاتهموهم وجبهوهم[3] ، وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تتحدث بذلك عنا العرب .

---

(١) خلأت: تعبت فبركت .
(٢) العطن: مبرك الإبل .
(٣) جبهوهم: ردوهم عن حاجتهم ، وقابلوهم بما يكرهون .

سفارة قريش :

وبعثت قريش سفيرها مكرز بن حفص بن الأخيف ، ولما وصل ورآه النبى ﷺ وهو يتقدم نحوه حتى قال ﷺ : «هذا رجل غادر» ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له ، نحوا مما قال لبديل بن ورقاء وأصحابه ، فرجع السفير الغادر فبلغ قريش ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فبعثت سفيرا آخر هو الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، ولما وصل رآه النبى ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه» فلما رأى الهدى سيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس فى محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى فقال لهم ما رأى ، فقالوا: اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك !! .

غضبة صادقة :

ولما قالت لـــه قريش ما قالت من اتهامه بالجهل . قال لهم فى غضب: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفتكم ولا على هذا عاقدتكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟! والذى نفس الحُليس بيده لتخلن بين محمد وبينما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فلما رأت قريش الجد من الحليس والغضب لله قالت: مه[1] ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما ترضى به ، يريدون تحقيق بعض الأهداف أو اشتراط بعض الشروط دفعا للمعرة عنهم فى نظرهم .

سفير ثالث :

وبعثت قريش بعروة بن مسعود الثقفى ، فما لبث أن جاءهم فقال لهم: يا معشر قريش إنى رأيت ما يلقى منكم من تبعثونه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد ، وأنى ولد ، وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى ، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم ، فخرج حتى أتى النبى ﷺ فجلس بين يديه ، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب[2] الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ،

---

(١) مه: اسم فعل بمعنى: اكفف .
(٢) أوشاب: أخلاط الناس وأوباشهم . البيضة: كناية عن مكة . تفضها: تفتحها بقوة فتبين أهلها .

ولم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا – وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد – فقال: امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه ؟ قال: من هذا يا محمد ؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة» قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بها ، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ، فيقول: عروة ويحك ، ما أفظعك وأغلظـــك ، فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد ؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة» قال: أى غدر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس ؟! وكلمه رسول الله ﷺ بما كلم به من قبله ، وأنه لم يأت لحرب وإنما للعمرة فقط .

عودة السفير:

وعاد سفير المشركين عروة بن مسعود الثقفى بعد أن رأى بأم عينيه ما يصنع أصحاب النبى ﷺ بنبيهم من التقدير والتعظيم رأى أنه لا يتوضأ ﷺ إلا ابتدروا وضوءه ، ويبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، فعاد إلى قريش ليقول لهم: يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ؛ إنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه وقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم !!

سفير النبى ﷺ :

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئا يذكر . أرسل النبى ﷺ خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له: الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء لـــه فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

إساءة وإحسان:

لما فعلت قريش ما فعلت بسفير رسول الله ﷺ إليها حيث عقرت بعيره ، وأرادت قتله ، ولم تقبل منه قولا ولا رأيا ، وعاد إلى النبى ﷺ هاربا بنفسه فى هذه الأثناء تبعث قريش بأربعين مجرما من مجرميها يرمون معسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل لعلهم يصيبون بعضا من أصحاب رسول الله ﷺ فناهضهم بعض أفراد المعسكر المحمدى ، فألقوا القبض عليهم وأتوا بهم أحياء أذلاء للنبى ﷺ ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، فتحقق وصفه فى التوراة ؛ وأنه لا يدفع

السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح فـ ﷺ ، وهكذا يتجلى الإحسان المحمدى ، وتنكشف إساءة المشركين .

سفارة أعظم :

ولم يكل الحبيب ﷺ ولم يمل فى سبيل تحقيق السلم ، وإخماد نار الحرب التى يشعلها الكافرون ، فيدعو عمر بن الخطاب ليرسله سفيرا إلى قريش مرة ثانية إذ سبق له أن أرسل خراش بن أمية الخزاعى ، فيعتذر عمر لعدم قدرته على هذه المهمة فيقول: يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، إذ ليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظى عليها – واقترح عمر على رسول الله ﷺ أن يرسل بدله عثمان بن عفان– فقال ، ولكنى أدلك على رجل أعز منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

ويمشى عثمان سفيرا لرسول الله ﷺ إلى مكة ، وما إن دخل مكة حتى تلقاه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه إعظاما له لقرابته ، وأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق به إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، فبلغهم ما أرسل به وأذنوا له بالطواف بالبيت إكراما له ، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ، إلا أنه قد أشيع أن قريشا قتلت عثمان سفير رسول الله إليها .

بيعة الرضوان :

إنه بمجرد أن أشيع أن عثمان قد قتل قام رسول الله ﷺ فى أصحابه معلنا عزمه على قتال المشركين فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة ، وبايعهم تحت شجرة على أن لا يفروا عند لقاء العدو ، فكانت هذه بيعة الرضوان ، ونزل فيها قول الله تعالى من سورة الفتح: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح: ١٨] .

ولم يتخلف أحد عن هذه البيعة إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة قال فيه جابر بن عبد الله: لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ، وكان أول من بايع فى هذه البيعة أبو سنان الأسدى أخو عكاشة بن محصن ، وبايع رسول الله ﷺ لعثمان فضرب

بإحدى يديه على الأخرى وقال هذه لعثمان .

وبعد قليل من الوقت تبين أن عثمان لم يقتل ، وأن ما ذكر عنه باطل ، إذ جاء بعد الفراغ من البيعة بقليل ، والحمد لله .

سفارة وهدنة :

ولما علمت قريش بالبيعة على قتالها خفت فأرسلت سفيرها سهيل بن عمرو تطالب بالصلح إذ قالت له: ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا حفاظا لماء وجهها ، إذ قالوا: فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، وأتى السفير النبي ﷺ فما إن رآه مقبلا نحوه حتى قال: «**لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**» وانتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ ، وتكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح ولم يبق إلا كتابة الوثيقة بالصلح الذى انتج الهدنة المباركة .

عمر ينكر :

لما تمت المفاوضات وانتهت بالصلح ، وعمر يسمع ، أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ - أى محمد ﷺ - قال: بلى أو لسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى ، أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى ، قال:فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله ﷺ وقال له نفس القول الذى قاله لأبي بكر فقال رسول الله ﷺ : «**أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني**» .

توبة عمر :

روى أن عمر - رضى الله عنه - قال: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى واعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

كتابة وثيقة الصلح ونصها :

ودعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب - رضى الله عنه - ليكتب وثيقة الصلح ، وقال: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل - ممثل قريش وسفيرها - لا أعرف هذا ولكن اكتب "باسمك اللهم" فقال رسول الله ﷺ : «**اكتب باسمك اللهم**» فكتبها ، ثم قال: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو**» فقال سهيل: لو

شهدت انك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله ﷺ : «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا غيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه» وفعلا تواثبت خزاعة ، فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده وتواثب بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك تدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب: السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها وشهد على الوثيقة عدد من المسلمين وآخر من المشركين ، وأصبحت سارية المفعول .

أبو جندل يستصرخ:

ما زالت الوثيقة لم يجف حبرها حتى جاء أبو جندل – ابن السفير المشرك سهيل بن عمرو – يرسف فى الحديد هاربا من المشركين ، فقام إليه أبوه فضربه فى وجهه ، وقال يا محمد قد تمت القضية بينى وبينك قبل أن يجىء هذا ؟ قال: «صدقت» فجعل ينتهره ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين كى يفتنونى فى دينى ؟ ، فاغتم لذلك المسلمون وكربوا ، وزادهم أسى وحزنا ، فقال الرسول ﷺ : «يا أبا جندل أصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا عقدنا بيننا وبينهم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم» .

التحلل من الإحرام:

ولما فرغ الحبيب ﷺ من أمر المصالحة ، وكان من بنود وثيقة الصلح أن يعود محمد رسول الله وأصحابه إلى المدينة على ان يعتمروا من العام المقبل .

ومن هنا أمر الناس بالتحلل من الإحرام ليعودوا إلى المدينة فكبر عليهم ذلك و لم يفعلوا ، فدخل على أم سلمة – رضى الله عنها – فقالت له: انحر هديك وتحلل فسوف يفعلون ما

تفعل ، وكانت – رضى الله عنها – سديدة الرأى ، فنحر النبى ﷺ هديه وحلق رأسه وتحلل من إحرامه ، فما أن رآه أصحابه حتى فعلوا فحلق بعضٌ وقصر بعض فقال ﷺ : «**يرحم الله المحلقين**» قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال: «**يرحم الله المحلقين**» قالوا: والمقصرين يا رسول الله ، قال «**يرحم الله المحلقين**» ، وفى الرابعة قال: «**والمقصرين**» ويسألونه قائلين لم ظاهرت الترحيم للمحلقين أى قويته دون المقصرين ؟ . قال: «**لم يشكوا**» وقفل رسول الله ﷺ عائدا إلى المدينة مع أصحابه ، وأثناء مسيره نزلت عليه سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] إلى آخر السورة ، وقد اشتملت على حل أحداث غزوة الحديبية مما تم فيها وما لحق بها من فتح خيبر وفوز المؤمنين بغنائم خيبر ، والبشارة بعمرة القضاء وتمامها على الوجه الأكمل بعد عام واحد من تلك الأيام ، وبذلك صدق الله ورسوله رؤياه المبشرة له وللمؤمنين بدخولهم مكة آمنين غير خائفين .

آثار المصالحة :

ومن آثار المصالحة أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط قد هاجرت إلى المدينة بعد عقد الهدنة بأيام هاربة من دار الكفر إلى دار الإسلام فلحق أخواها عمارة والوليد يطالبان بها بموجب عقد الهدنة ، ولما كانت نصوص الهدنة تتعلق بالرجال دون النساء ، لأن النساء لا يحاربن ، أبى رسول الله ﷺ أن يردها إليهما ، وأنزل الله تعالى فى ذلك قرآنا هو قوله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية .

ومن آثار المصالحة أيضا: أن أبا بصير هرب من مكة فبعثت قريش فى طلبه رجلين فطالبا رسول الله ﷺ به فأعطاهما إياه بموجب بنود الاتفاقية ، وقال لـه: «**يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك**» فقال: يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

فقال: «**يا أبا بصير انطلق إلى قومك**» إلى قوله: «**مخرجا**» فانطلق أبو بصير مع الرجلين حتى نزلوا ذا الحليفة للاستراحة فنظر أبو بصير إلى سيف المشرك ، وقال له: أتأذن لى أن أنظر إليه ؟ .

قال: نعم فاستله من قرابه ، ثم ضرب به المشرك فقتله ، وهرب الثانى فلحق برسول الله ﷺ وأخبره بالحادث ، وجاء أبو بصير متوشحا بالسيف وقال: يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى بيد القوم ، وأدى الله عنك ، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه ، أو يعبث بى ، فقال رسول الله ﷺ : «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال» ، ثم خرج أبو بصير فارا حتى أتى العيص من ساحل البحر طريق قوافل قريش إلى الشام ، وسمع به آخرون فى مكة فهاجروا إليه فكونوا بذلك جيشا مسلما ، وأذاق قريشا الأمرين بأخذ قوافلهم وقتل رجالهم ، فما كان منهم إلا أن كتبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون إليه ويسألونه بالرحم إلا آواهم وردهم إليه ، فآواهم رسول الله ﷺ ، وردهم إلى المدينة ، وهذا من الفرج والمخرج الذى بَشَّرَ به رسول الله ﷺ أبا بصير ، وأبا الجندل قبله ، فكان والحمد لله .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نبينها كالآتى:

١- وجوب الاعتمار وحرمة البيت الحرام وتعظيمه .

٢- بيان العزم المحمدى الذى لا يهن ، المتجلى فى قوله: «والله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة» .

٣- كلمة التوبة هى: نستغفر الله ونتوب إليه .

٤- آية النبوة المحمدية المتجلية فى جيشان الماء فى البئر التى أدخل فيها سهم النبى ﷺ .

٥- بيان كمال الحليس سيد الأحابيش فى سفارته فقد كان لغضبه المشرف أثر طيب .

٦- بيان مدى إجلال الصحابة للنبى ﷺ ، الأمر الذى ادهش سفير المشركين عروة بن مسعود فحذر لذلك قريشا وقال: روا رأيكم .

٧- تجلى الكمال المحمدى فى عفوه عن الأربعين مجرما الذين ألقى القبض عليهم حول المعسكر وهم يرمونه بالحجارة والنبل أيضا ، وهو موقف مشرف كان له أثر طيب فى اتفاقية الهدنة المباركة .

٨- بيان فضيلة عثمان فى كونه لم يرض أن يطوف بالبيت دون رسول الله ﷺ ، وفى بيعة الرسول له وهو غائب .

٩- بيان فضل أهل بيعة الرضوان إذ هم فى الدرجة الثانية بعد أهل بدر قال تعالى فيهم: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] .

١٠- بيان فضل عمر بن الخطاب المتحلى فى توبته الطويلة الأمد من أجل كلماته التى قالها وهى حق إلا أنها اصطبغت بصيغة شبه المعارضة فى قضية عامة .

١١- من الحكمة أن يتنازل المرؤ عن أشياء لا تضر بأصل قضيته لتحقيق أشياء أعظم منها .

١٢- فضل على - رضى الله عنه - فى كتابته الوثيقة ، وعدم اعتراضه على ما اعترض عليه فيها غيره من الأصحاب .

١٣- وجوب الوفاء بالعهود وحرمة الغدر والخيانة .

١٤- وجوب الهدى على من أحصر عن إتمام الحج أو العمرة ، وبعد نحر الهدى يتحلل بحلق أو تقصير .

١٥- بيان حكم المهاجرات من النساء المؤمنات وأنهن لا يرجعن إلى دار الكفر بعد خروجهن منها .

* * * * * * * * * * *

وخامس أحداثها :

مجموعة السرايا الآتية

أ- سرية عكاشة بن محصن وكانت فى ربيع أول من هذه السنة فقد خرج فى أربعين رجلا فعلم بهم من خرجوا لهم فهربوا ، فطلبوهم هنا وهناك فلم يعثروا عليهم إلا أنهم عثروا على مائتى بعير فساقوها إلى المدينة ، وعادوا سالمين والحمد لله .

ب- سرية محمد بن سلمة إلى بنى ثعلبة بن سعد ، وكانوا عشرة فوارس ، فكمن العدو لهم وبيتوهم فلما ناموا قتلوهم عن آخرهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة فقد نجا وهو جريح - رضى الله عنهم أجمعين - .

ج- سرية أبى عبيدة عامر بن الجراح إلى ذى القصة وكان أفراد السرية أربعين رجلا ، ولما علم المشركون بخروج السرية إليهم هربوا ، ووصلت السرية إلى مائهم فلم تجد

أحدا إلا رجلا واحدا ونعما ، فساقوا النعم وأسلم الرجل فتركه النبى ﷺ .

د- سرية زيد بن حارثة بالجموم فأصاب امرأة من مزينة اسمها: حليمة فدلتهم على محلة من محال بنى سليم فأصابوا نعما وشاء وأسروا ، وكان بين الأسرى زوج حليمة التى دلتهم على محلة العدو ، فوهبه رسول الله ﷺ لزوجته حليمة وأطلقها .

هـ- سرية زيد بن حارثة أيضا إلى العيص ، وفيها أخذت الأموال التى كانت مع أبى العاص بن الربيع ، واستجار أبو العاص بزينب فأجارته كما تقدم ، وردت إليه أمواله كلها حتى الشظاظ .

و- سرية زيد ، وأيضا إلى بنى ثعلبة بالطرف على رأس خمسة عشر رجلا فهربوا منه ، وأصاب من نعمهم عشرين بعير وعادوا سالمين .

ز- سرايا زيد من غير ما ذكر وهى ثلاث: سرية إلى حسمى ، وثانية إلى وادى القرى ، وثالثة إلى أم قرفة .

ح- سرية كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين الذين قتلوا راعى رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل ، بعثه رسول الله ﷺ فى عشرين فارسا ، وقد استردوا الإبل ، وجاءوا بالعرنيين – وهم الذين قتلوا بالحرة – وتركوا بها أياما لأنهم أسلموا ثم ارتدوا وساقوا إبل الصدقة ، وفيهم نزلت آية: ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية ، وفعل بهم رسول الله ﷺ ذلك حكما بقضاء الله تعالى فيهم .

* * * * * * * * * * *

مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والرؤساء

وفى هذه السنة السادسة من الهجرة وبعد عقد الصلح مع قريش كاتب الرسول ﷺ الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام – الدين الحق الذى أرسل به – لهداية الناس كل الناس أبيضهم وأصفرهم إلى ما يكملهم عقولا وأخلاقا ويسعدهم أجساما وأرواحا فى الحياتين: الدنيا والآخرة .

فبعث ﷺ الرسل تحمل كتبه القيمة الكريمة إلى كل من كسرى ملك الفرس ، وقيصر

ملك الروم ، والنجاشى ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وأرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وأرسل سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى ، وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أخى عبد القيس .

أسماء حاملى كتبه إلى الملوك :

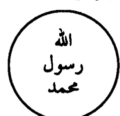
- دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم .
- حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك مصر .
- عبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس .
- عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة .

****

نماذج من كتبه ﷺ

أ - كتابه إلى كسرى :

إلى كسرى ملك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . وأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك» .



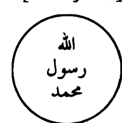
صورة الخاتم النبوى

ولما بلغ الكتاب كسرى غضب وقال هجرا ومزق الكتاب ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه بأن يمزق الله ملكه واستجاب الله له ومزق ملكه .

****

ب - كتابه ﷺ إلى قيصر :

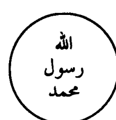
«**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين**» ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .



صورة الخاتم النبوي

ج - كتابه ﷺ إلى المقوقس :

«**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم وتسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط**» ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .



خاتمه ﷺ

د - كتابه إلى ملك الحبشة :

«**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله**

وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ﷺ ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى» .



صورة الخاتم النبوى

هـ - كتابه إلى الحارث الغسانى بالشام :

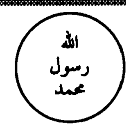
«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» .



صورة الخاتم النبوى

و - كتابه إلى ملك عمان :

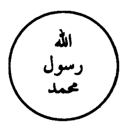
«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى ؛ سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ؛ فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل ساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما» .



صورة الخاتم النبوي

ز - كتابه ﷺ إلى هوذة صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على: سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك» .



صورة الخاتم النبوي

ح - كتابه ﷺ إلى المنذر حاكم البحرين :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد فإنى اذكرك الله عز وجل فإن من ينصح إنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» .



صورة الخاتم النبوي

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فى التالى:

١- لما كان كسرى مجوسيا غير كتابى قدم رسول الله ﷺ اسم كسرى على اسم الله تعالى وقاية كما فعل سليمان - عليه السلام - إذ كتب: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣١] فكتاب الرسول ﷺ إلى كسرى قال فيه: «إلى كسرى ملك فارس بسم الله الرحمن الرحيم» فقدم اسم كسرى وقاية لاسم الله تعالى، ولما كان الملوك الآخرين أهل كتاب قدم اسم الله تعالى لأنهم يؤمنون بالله ويعظمونه.

٢- تنوعت عبارات كتبه ﷺ بحسب مقام وحال من كتب إليهم وهذا من الحكمة التى هو أستاذها بلا منازع، قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩، الجمعة: ٢].

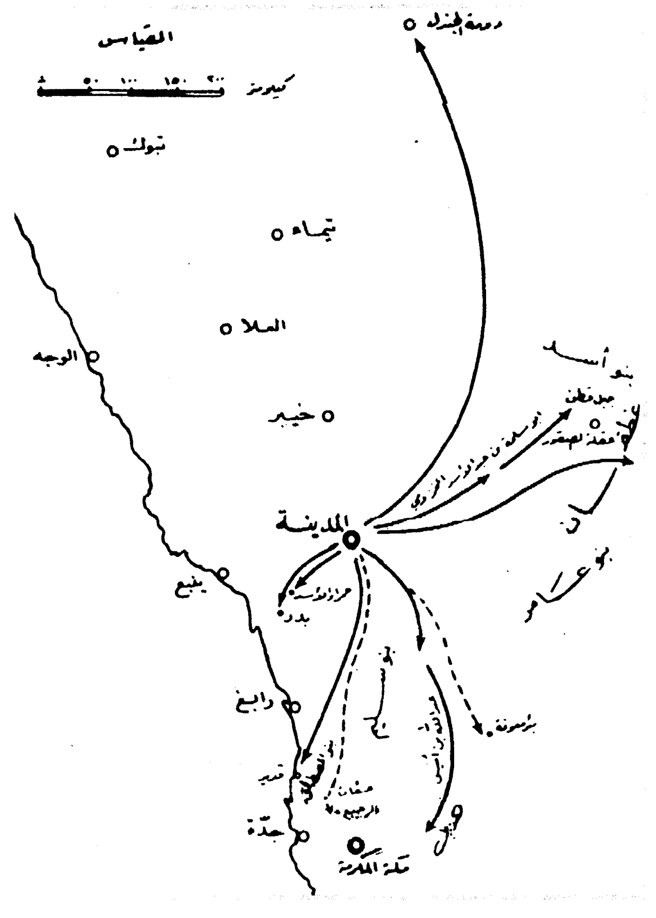
٣- سلك ﷺ فى كتبه مسلك: «أنزلوا القوم منازلهم» ولكل مقام مقال.

٤- إقراره ﷺ لمن كتب لهم - إن أسلموا - على ملكهم نابع من سياسة رشيدة لا يجارى فيها ﷺ.

٥- استعمل كلمة «يؤتك الله أجرك مرتين» فى كتبه إلى أهل الكتاب أخذا من قول الله تعالى فى خطاب أهل الكتاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨] أى: يعطكم نصيبين من الأجر: الأول: لإيمانهم برسولهم الأول، والثانى: لإيمانهم بمحمد ﷺ.

٦- جعله ﷺ اسم الله أعلى فى الخاتم واسمه الأدنى فيه من تعظيم الله وإعظام اسمه ما لا يقادر قدره، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما.

* * * * * * * * * * *



بيان مواقع غزوات الشمال: خيبر ، ودومة الجندل ، وتبوك

أحداث السنة السابعة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السابعة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها:

غزوة خيبر

خيبر مركز تجمع كبير لأعداء الإسلام والمسلمين ، إذ عصابات الشر اليهودية كانت قد تجمعت فيها ، وإن حرب الأحزاب كانت خيبر هي الرأس المفكر فيها ، والطاقة الدافعة لها ، ولذا تعين غزوها وتطهيرها من عصابات الشر بها .

ففي أول السنة السابعة في أواخر المحرم منها غزا رسول الله ﷺ خيبر ، فاستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغطفاني – وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي – وخرج في ألف وأربعمائة مقاتل من بينهم مائتا فارس ، وسار بجيشه المظفر مارا على عصر "جبل" حيث بني له فيه مسجدا ، ثم على الصهباء حتى نزل بالرجيع – وهو واد كبير يقال له: الرجيع – فنـــزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، إذ كانوا على وفاق معهم في حرب الرسول ﷺ .

ومن آيات النبوة المحمدية أنه ﷺ في مسيره قال لعامر بن الأكوع – عم سلمة بن عمرو بن الأكوع –: «خذ لنا من هناتك احد[1] لنا» فنـــزل وحداهم يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ::: ولا تصـــدقنا ولا صـــلينا
فأنزلـــن سكينـــة علينـــا ::: وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

فقال رسول الله ﷺ : «رحمك» فقال له عمر – رضي الله عنه –: هلا أمتعتنا به يا رسول الله ، وكان إذا قالها لرجل مات ، فكانت نعيا منه ﷺ لعامر – رضي الله عنه – وكانت آية نبوته ﷺ .

وفعلا فقد خاض عامر المعارك ورجع عليه سيفه فكلمه[2] كلما شديدا ، فمات متأثرا بذلك ، فقال بعض: إنما قتله سلاحه فعلم الرسول ﷺ بذلك فقال: «إنه لشهيد» ، وصلى عليه فصلى عليه المسلمون .

---

(١) احد: الحداء الغناء للإبل لتسرع في سيرها .
(٢) الكلم: الجرح .

وسار رسول الله ﷺ بالجيش حتى أشرف على خيبر ، وقال لأصحابه: «قفوا» فوقفوا ودعا قائلا: «**اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها**» ثم قال: «**أقدموا باسم الله**»[١] .

ونزل ﷺ بأصحابه خيبر ليلا ، ولم يعلم أهلها بنـــزوله ، فلما أصبحوا وخرجوا بمساحيهم إلى أعمالهم الفلاحية ، ورأوا الرسول ﷺ وجيشه قالوا: محمد والخميس[٢] ، محمد والخميس وعادوا إلى حصونهم فدخلوها ، فقال النبى ﷺ : «**الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» وأخذ يحاصرهم فى حصونهم ويأخذ أموالهم خارجها ، ثم أخذ بفتح الحصون حصنا بعد حصن ، وكان أول حصن افتتحه حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة – رضى الله عنهما – إذ ألقى عليه رحى فقتلته ، ثم افتتح القموص حصن بنى أبى الحقيق ، وأصاب منهم سبايا من بينهم صفية بنت حيى بن أخطب النضرى ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، ولم يعلم بذلك دحية فسأله إياها ، فأعلمه أنه اصطفاها لنفسه ، وأعطاه ابنتى عمها ، وكثر السبى فى أيدى المسلمين .

خطبة تشريع حكيم :

ولما كثر السبى بأيدى المسلمين مه جواز التسرى بالسبايا ، وكانوا قد أكلوا لحوم الحمر الأهلية لتوفرها فى خيبر وعدم الحاجة إليها ، خطب فيهم رسول الله ﷺ فضمن خطبته قواعد تشريعية هامة تتعلق بالسبى وغيره ، قال ابن إسحاق ابن حنش الصناعى قال: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها: جربة[٣] ، فقام فينا خطيبا فقال: يا أيها الناس لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر فقال: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره – يعنى إتيان الحبالى من السبايا – ولا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى**

---

(١) دعاء دخول البلد .

(٢) الخميس: الجيش الجرار ؛ سمى بذلك: لأنه خمس فرق: المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساق .

(٣) جربة: جزيرة فى البحر الأبيض تابعة لدولة تونس .

يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه» .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : "إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس" .

دعوة نبوية مستجابة :

أثناء قتال الرسول ﷺ ليهود خيبر وفتح حصونهم ، أتاه بنو سهم من أسلم وقالوا: يا رسول الله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يعطيهم إياه فقال داعيا: «اللهم إنك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونهم غناء وأكثر طعاما وودكا» فغدا الناس للقتال ففتح الله حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن أكثر منه طعاما وودكا منه .

آخر حصن يفتح:

واصل الحبيب ﷺ فتح حصون خيبر حصنا بعد حصن وانتهى إلى آخر حصن وهو الوطيح والسلالم فحاصرهم بضع عشرة ليلة ، وأثناء ذلك كانت مبارزات منها مبارزة مرحب اليهودى ، إذ خرج من الحصن وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول:

قد عَلمتْ خيبرُ أنى مرحبٌ ::: شاكى السلاح بطلٌ مجرَّبُ
أطعنُ أحيانا وحينا أضربُ ::: إذا الليوثُ أقبلتْ تحرب
إن حملى للحمى لا يُقربُ ::: يَحجمُ عن صولتى المجرب

فرد عليه على بن أبى طالب – رضى الله عنه قائلا –:

أنا الذى سمتنى أُمِّى حيدرةَ ::: كليثِ غاباتِ شديدِ القسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندرة

وقال: من يبارز ؟

فقال رسول الله ﷺ : «منْ لهذا ؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس ، فقال: «فقم إليه اللهم أعنه عليه» فتصاولا فترة ثم

أمكن الله منه فقتله محمد بن مسلمة استجابة الله دعوة نبيه ، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز ؟ فقال الزبير بن العوام: أنا لك ، فقالت أمه صفية ، لا يا رسول الله يقتل ابنى ، فقال لها: «**بل ابنك يقتله إن شاء الله**» فالتقيا فقتل الزبير ياسر اليهودى ، وبعد المبارزة اقتتل الناس ، وكانت الراية عند أبى بكر - رضى الله عنه - وشعارهم يومئذ:

يا منصور أمت أمت فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأخذها عمر - رضى الله عنه - فقاتل قتالا شديدا هو أشد من الأول ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أما والله لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار**» فدعا رسول الله ﷺ عليا - رضى الله عنه - وهو أرمد فتفل فى عينيه ، ثم قال: «**خذ هذه الراية فامض بها ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**» فخرج يهرول بها حتى ركز الراية فى رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال: من أنت ؟ قال: أنا على بن أبى طالب قال: علوتم وما أنزل على موسى ، فما رجع حتى فتح الله على يديه ، ودخل المسلمون المدينة وبذلك انتهى فتح خيبر ، وأصبحت دار إسلام إلى اليوم والحمد لله رب العالمين .

مواقف يحسن أن تذكر وهى:

١- لقد كان خروج النبى ﷺ إلى خيبر بإذن الله تعالى إذ وعد الله عز وجل المؤمنين غنائم خيبر عند رجوعهم من الحديبية فى قوله من سورة الفتح: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح: ٢٠] وهى صلح الحديبية ، والغنائم الكثيرة هى أموال خيبر .

٢- كان عدد من استشهد فى غزوة خيبر من المسلمين خمسة عشر رجلا .

٣- لما لم يبق لليهود من حصن إلا الوطيح والسلالم ، وقد فتحا عنوة سألوا رسول الله ﷺ أن يسيرهم فى الأرض ، ويحقن دماءهم ، ويتركوا له الأموال ففعل ، ثم صالحهم على أن يبقوا على مزارعهم ونخيلهم على أن لهم الشطر وللرسول والمؤمنين الشطر ، وأنه متى أراد إخراجهم أخرجهم ، فوافقوا على ذلك وأبقاهم .

٤- بعد سقوط خيبر فى يد المسلمين لم يقتل النبى ﷺ إلا ابنى أبى الحقيق لنكثهما

وخيانتهما ؛ وكان أحدهما: زوج صفية بنت حيى ، فأمر بلالا أن يذهب بصفية إلى رحله مع بعض نساء السبى فمر بهن على القتلى ، فبكين فعتب رسول الله ﷺ على بلال وقال: «**أنزعت الرحمة من قلبك يا بلال ؟**» وعرض رسول الله ﷺ على صفية الإسلام فأسلمت وتزوجها وجعل مهرها عتقها ، وبنى بها فى طريق عودته إلى المدينة ، وأولم عليها وليمة فاخرة ، ونظر الرسول ﷺ إليها فرأى فى وجهها خضرة إثر ضربة فسألها ، فقالت: كنت قد رأيت فى منامى القمر زال من مكانه وسقط فى حجرى فقصصتها على زوجى ابن أبى الحقيق فلطم وجهى ، وقال: تتمنين هذا الملك بالمدينة ، وأنا والله ما كنت أذكر من ذلك شيئا .

٥- قسم النبى ﷺ خيبر بعد فتحها على ستة وثلاثين سهما فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين نصفها ، والنصف الباقى لمن نزل به من الوفود ونوائب المسلمين .

٦- سمت النبى ﷺ زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودى ، إذ أهدت للرسول ﷺ شاة مصلية فيها سم فأكل منها بشر بن البراء فمات ، وسأل النبى ﷺ المرأة: «**لم فعلت هذا ؟**» قالت: أردت إن كنت ملكا استرحنا منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك ، فعفا عنها فأسلمت ، وقيل لما مات بشر: قتلت به .

٧- وصول جعفر بن أبى طالب وأصحابه - معهم الأشعريون - خيبر بعد فتحها فأسهم لهم رسول الله ﷺ ، وما أسهم لأحد غاب عن خيبر إلا هم لأنهم أدركوه فيها ، وروى أن النبى ﷺ قبّل جبهة جعفر ، وقال: «**والله ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟**» .

٨- لما كان النبى ﷺ محاصرا لبعض حصون خيبر أتاه راع أسود فقال: يا رسول الله اعرض على الإسلام ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، ثم قال: يا رسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم وهى أمانة عندى فكيف أصنع بها ؟ قال: «**اضرب فى وجهها فإنها سترجع إلى ربها**» فأخذ الأسود حفنة من الحصى ورمى بها فى وجهها ، وقال: ارجعى لصاحبك ، فرجعت كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن وتقدم الراعى إلى الحصن ليقاتل فأصابه حجر

فمات فسجى بثوب وأعرض عنه النبى ﷺ فقيل له: لم أعرضت عنه يا رسول الله ؟ قال: «**إن معه الآن زوجتيه من الحور العين**» .

٩- لما سمع أهل فدك بفتح خيبر نزل بهم الرعب ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فصالحهم على ذلك ، وكان ذلك لرسول الله ﷺ وحده لأنه فئ أفاءه الله عليه ، إذ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، وإنما بعث إليهم من خيبر محيصة يدعوهم إلى الإسلام فصالحوا وكان رئيسهم يوشع بن نون اليهودى .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلى:

١- جواز الحداء والأناشيد الحسنة من السوء والبذاء .

٢- بيان آية النبوة المحمدية فى نعى عامر بن الكوع قبل استشهاده ودخوله المعركة .

٣- استحباب قول: "اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن" ، نسألك خير هذا البلد إلخ . . . .

٤- حرمة الغلول ، أى الأخذ من الغنائم قبل قسمتها .

٥- حرمة وطء المسبية قبل استبرائها .

٦- بيان فضل على بن أبى طالب ، وما فاز به من حب الله ورسوله .

٧- بيان صدق وعد الله تعالى فى غنائم خيبر إذ وعد المؤمنين بها فأنجزها لهم وله الحمد والمنة .

٨- فضل صفية أم المؤمنين – رضى الله عنها وأرضاها – .

٩- مشروعية تقبيل جبهة الإنسان إن كان أهلا لذلك لصلاحه أو قربه .

١٠- فى مصالحة أهل فدك قبل غزوهم تقرير معنى حديث: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» .

* * * * * * * * * * *

وثانى أحداثها :

غزوة وادى القرى

وبعد الفراغ من غزوة خيبر ومصالحة أهل فدك - برئاسة يوشع بن نون على النصف من أموالهم ، وإقرارهم على العمل فيها كإقرار أهل خيبر - قصد ﷺ وادى القرى ليفتحها ، فحاصرها عدة ليال وافتتحها عنوة ، وأثناء الحصار قتل مولاه مدغم الذى أهداه إياه رفاعة بن زيد الجذامى ، أصابه سهم غرب فقتله ، وقال بعض المسلمين: هنيئا له بالجنة فقال رسول الله ﷺ : «**كلا والذى نفس محمد بيده إن شملته الآن لتشتعل نارا**» وكان قد غلها من فىء المسلمين يوم خيبر ، وهنا سمعه رجل فجاء فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لى كنت أخذتهما فقال له رسول الله ﷺ : «**يعد لك مثلهما من نار**» .

وترك النبى ﷺ النخل والأرض فى أيدى أهلها ، وعاملهم معاملة أهل خيبر وفدك سواء بسواء ، وبقى الأمر فى خيبر وفدك ووادى القرى كما تركه رسول الله ﷺ إلى عهد عمر - رضى الله عنه - ثم نفذ عمر - رضى الله عنه - وصية رسول الله ﷺ وهى قوله: «**لا يجتمع دينان فى الجزيرة**» فأجلى اليهود من الجزيرة إلى خارجها ، وطهرت قبة الإسلام من رجس المشركين وكفر الكافرين من سائر الناس .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى كالتالى:

١- مشروعية مواصلة الغزو والفتح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

٢- حرمة الغلول من الغنيمة ولو كان المأخوذ شراك نعل .

٣- لا يصح الجزم لأحد بأنه فى الجنة أو فى النار ، ولكن يرجى للمحسن ، ويخاف على المسىء من المسلمين .

٤- جواز الحلف بدون طلب واستحلاف ولكن لتأكيد الكلام وتقويته لفائدة المتكلم أو السامع .

* * * * * * * * * * *

ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة خيبر

لقد تمت أمور ذات بال والحبيب ﷺ فى طريقه إلى المدينة من غزوة خيبر ووادى القرى ، ومن تلك الأمور الهامة ذات البال والشأن ما يلى:

أ - بناء النبى ﷺ على صفية بنت حيى - رضى الله عنها - وكانت أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك هى التى أصلحتها وجملتها له ﷺ ، وبات فى قبة له ، وبات أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد متوشحا سيفه يحرس رسول الله ﷺ ، وهو معرس بصفية النضرية أم المؤمنين - رضى الله عنها وأرضاها - .

ب - نام ﷺ مع أصحابه بالطريق وقال: «**من رجل يحفظ عنا الفجر لعلنا ننام ؟**» فقال بلال: أنا يا رسول الله أحفظ عليك ، ونام رسول الله ﷺ ونام الناس وقام بلال يصلى فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس ، وكان الرسول أول أصحابه هب من نومه ، فقال: «**ماذا صنعت بنا يا بلال؟**» قال: يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك قال: «**صدقت**» ، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأذن وصلوا سنة الفجر ، ثم أقام بلال الصلاة فصلوا صلاة الصبح ثم أقبل ﷺ على الناس فقال: «**إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾**[طه: ١٤]» .

ج - رضخ النبى ﷺ للنساء من الغنيمة ولم يضرب لهن بسهم ، إذ كان قد حضر خيبر عدة نسوة من بنى غفار جئن النبى ﷺ عند خروجه إلى خيبر فقلن له: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا أى إلى خيبر فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال ﷺ : «**على بركة الله**» ، وحدثت إحدى هؤلاء النسوة فقالت: فخرجنا معه وكنت جارية حدثة فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله قالت: فوالله لنـــزل رسول الله ﷺ ونزلت عن حقيبة الرحل ، وإذا بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها ، فتقبضت إلى الناقة ، واستحييت ، فلما رأى رسول الله ما بى ورأى الدم قال: «**مالك ؟ لعلك نفست**» قالت: قلت: نعم قال: «**فأصلحى من نفسك ثم خذى إناءً من ماء فاطرحى فيه ملحا ثم اغسلى به ما أصاب الحقيبة من الدم ثم عودى لمركبك**» ، قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبرا رضخ لنا من الفىء ، ولم يسهم ، وأعطانى هذه القلادة التى فى عنقى فوالله لا تفارقنى أبدا .

د - احتال ونجح ، ذلك هو الحجاج بن علاط السلمى ، فقد كان من ذوى المال واليسار فى مكة ، وأسلم فى خيبر و لم يعلم المشركون بإسلامه ، فاستأذن الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة قبل وصول الخبر إليها بفتح النبى ﷺ وأصحابه لخيبر فأذن لـــه ، واستأذنه أن يقول ما يقول فأذن له ، وكان أهل مكة يتطلعون إلى أخبار النبى ﷺ وأكثرهم يرغب فى هزيمة النبى ﷺ ويقتل هو وأصحابه ، فخرج الحجاج يريد مكة ، واستحث الخطى ، وأغذ السير ، فوصل مكة ، فأشاع أن محمدا قد الهزم وأن اليهود قد عزموا على أن يأتوا به إلى مكة ليقتل بها ، فطار المشركون بالفرح وحزن العباس وآلمه الخبر ، فاتصل بالحجاج سرا فأطلعه إنما أراد بهذا أن يجمع أمواله ويخرج بها ، لأن قريشا لو تعلم بإسلامه لما سمحت له بإخراجْ درهم واحد وجمع أمواله ، وقال: إنه يريد أن يأتى خيبرا ليشترى من فىء محمد وأصحابه قبل أن يسبقه التجار إلى ذلك ، وعند انصرافه من مكة قال للعباس: إذا مضى على ثلاث فأعلن الحقيقة ، وهى انتصار محمد ﷺ وأصحابه على اليهود وفتح خيبرا بكل ما فيها . وفعلا فى اليوم الثالث لبس العباس حلة وتخلق أى: تطيب وأخذ عصا ، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة قال: كلا والله الذى حلفتم به لقد فتح محمد خيبرا وترك عروسا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبحت له ولأصحابه ، قالوا: من جاءك بهذا الخبر ؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما فأخذ ماله وانطلق ليلحق بمحمد ﷺ فيكون معه ، قالوا: ياللعباد الله انفلت عدو الله و لم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك .

* * * * * * * * * * *

وثالث أحداثها :

سبع سرايا تبعث إلى أنحاء مختلفة

إنه بعد أن عاد ﷺ إلى المدينة ظافرا منتصرا فى أواخر ربيع الثانى أخذ يبعث بالسرايا سرية بعد أخرى ، لإبلاغ دعوة الله ، وتفتيت قوى الشر ، والضرب على أيدى الظالمين ، فكانت أول سرية بعثها:

* * * * * * * * * * *

سرية أبى بكر الصديق

فقد بعث ﷺ أبا بكر الصديق ومعه سلمة بن الأكوع إلى نجد حيث بنو فزارة فغزوا

وأسروا من العدو ما شاء الله تعالى ، ووقع فى الأسر جارية حسناء كانت فى سهم سلمة ، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة موثقين .

* * * * * * * * * * *

وثانى سرية :

سرية عمر بن الخطاب

إذ بعث به ﷺ فى ثلاثين رجلا إلى تربة من أرض هوازن ، وكان دليله من بنى هلال فكانوا يسيرون الليل ، ويكمنون النهار ، فبلغ الخبر هوازن ، فهربوا ووصلت السرية إلى ديارهم ، فلم يلقوا منهم أحدا فانصرفوا راجعين المدينة ، و لم يلقوا كيدا .

* * * * * * * * * * *

وثالث سرية :

سرية بشير بن سعد الأنصارى

إذ بعث به ﷺ فى ثلاثين رجلا إلى بنى مرة بمنطقة فدك فاستاقوا نعمهم فقاتلوهم فقتلوا عامة أفراد السرية ، وصبر بشير يقاتل وحده قتال الأبطال حتى جاء جن الظلام ، فلجأ إلى فدك وحده فمات عند يهودى من أهلها ، ثم كر عائدا إلى المدينة وما شاء الله كان ولا قوة إلا بالله .

* * * * * * * * * * *

ورابع سرية :

سرية غالب الكلبي

وبعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الكلبى إلى الحرقات من جهينة ، فصبحوهم فهزموهم ، وكان فى السرية أسامة بن زيد بن حارثة ، ففر رجل من القوم ، فلحقه هو ورجل من الأنصار فأدركه أسامة فقال الرجل لا إله إلا الله فكف الأنصارى عنه وطعنه أسامة بحربته فقتله ، فلما قدموا إلى المدينة أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال له: «**يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**» ، فقال أسامة: إنما كان متعوذا فما زال الرسول ﷺ يكررها حتى قال أسامة: تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم وهذه الحادثة ينظر إليها من خلال قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ

السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] الآية فإنها تدل على نوع الحادث .

* * * * * * * * * * *

وخامس السرايا :

سرية بشير بن سعد الأنصارى

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصارى فى ثلثمائة رجل إلى اليمن من أرض غطفان ، وذلك من أجل جمع من المشركين تجمعوا للإغارة على المدينة النبوية بإغراء وإمداد عيينة بن حصن الطاغية الظالم ، فساروا إليهم يمشون الليل ويكمنون النهار ، وبلغ ذلك الجمع مسير بشير بن سعد الأنصارى ، فهربوا فأصاب بشير وأصحابه نعما كثيرة ، وأسروا منهم رجلين قدموا بهما إلى النبى ﷺ فأسلما وحسن إسلامهما .

* * * * * * * * * * *

وسادس السرايا :

سرية عبد الله بن رواحة

وبلغ رسول الله ﷺ أن يسير بن رزام اليهودى يجمع غطفان ليغزوه بهم ، فبعث عبد الله ابن رواحة فى ثلاثين راكبا من بينهم عبد الله بن أنيس ، فأتوه بخيبر ، فقالوا له: إن رسول الله ﷺ أرسلنا إليك ليستعملك على خيبر حتى تبعهم فى ثلاثين رجلا مع كل رجل رديف من المسلمين فلما بلغوا قرقرة نيار – وهى من خيبر على ستة أميال – ندم اليهودى فأهوى بيده إلى السيف ليضرب عبد الله بن أنيس ، ففطن له عبد الله فرجزه بعيره ، ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم حتى إذا استمكن من يسير اليهودى ضرب رجله فقطعها ، فاقتحم يسير وفى يده مخراش من شوحط ، فضرب به وجه عبد الله بن رواحة فشجه ، فانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم هربا ، ولم يصب من المسلمين أحد .

فقدموا على رسول الله ﷺ فبصق فى شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات – رضى الله عنه – .

* * * * * * * * * * *

وسابع السرايا:

سرية عبد الله بن حذافة

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة على رأس سرية ، وأمر أفراد السرية أن يسمعوا لعبد الله وأن يطيعوا ، وسار حتى إذا كان فى بعض الطريق نزل منـــزلا وطلب من أفراد السرية شيئا فأغضبوه فيه ، وهنا قال لهم: اجمعوا لى حطبا فجمعوا ، فقال لهم: أوقدوا نارا فأوقدوها ، ثم قال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ . قالوا: بلى ، قال: فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار ، وعندها سكن غضبه وطفئت النار ، فلما قدموا على النبى ﷺ ذكروا ذلك له ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها ، إنما الطاعة فى المعروف» .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالآتى:

١- بيان قوة وصحة العزم المحمدى وعظم صبره على الجهاد إبلاغا لدعوة ربه عز وجل .

٢- مظاهر الحكمة المحمدية حيث تجلت فى مواطن كثيرة .

٣- لا ينقص من قيمة السرية ولا من أجراها إذا فر العدو ولم يتمكنوا منه أو يحصلوا منه على طائل .

٤- مشروعية مفاداة الأسرى .

٥- لا يحل قتل من شهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله ولو اتهم بالتقية تخلصا من القتل .

٦- بيان بركة ريقة النبى ﷺ إذ شفى الله بها شجة عبد الله بن أنيس .

٧- وجوب طاعة أولى الأمر فى المعروف دون المنكر .

٨- بيان أن المعصية لله والرسول إن كانت من كبائر الذنوب موجبة لدخول النار إلا أن يغفرها الله تعالى .

* * * * * * * * * * *

ورابع أحداثها :

عمرة القضاء

إنه بموجب صلح الحديبية الذى تم فى السنة الفارطة خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه- رضوان الله عليهم - بعد أن استعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدئلى ، وكان عدد المسلمين ألفين ما عدا النساء والصبيان ، ومن بين أفراد هذا العدد من صد عن العمرة فى السنة الماضية ، وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة سبع بناء على بنود الاتفاقية القاضية بأن يرجع ﷺ وأصحابه من الحديبية فلا يدخلون مكة ولا يعتمرون على أن يعودوا فى السنة القابلة فتخلى لهم مكة ثلاثة أيام يعتمرون لا يمسهم سوء ، وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء أو القضية أو عمرة الصلح أيضا .

ولما قارب الرسول ﷺ دخول مكة أخلت قريش له مكة فلزموا بيوتهم وأنديتهم ، ودخل رسول الله ﷺ راكبا على ناقته وخطامها بيد عبد الله بن رواحة ، وهو ينشد ويقول:

خَلُّوا بنى الكفار عن سبيله ::: خَلُّوا فكلُّ الخير فى رسوله
يا ربِّ إنِّى مؤمنٌ بقيلِه ::: أَعْرِفُ حَقَّ الله فى قَبُولِه

وتحدث المشركون فيما بينهم وقالوا: إن محمدا وأصحابه فى عسرة وجهد وشدة ، وزين لهم الشيطان ذلك فى نفوسهم حتى هموا بالانقضاض عليهم ، وعلم ذلك رسول الله ﷺ فلما دخل ﷺ اضطبع واضطبع أصحابه ، وقال لهم: «**رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة**» ثم استلموا الركن وهرولوا فى الطواف ثلاثة أشواط فرأت قريش بأم عينيها مظاهر القوة فذهب وسواسها من نفسها ، وبقى الاضطباع والهرولة سنة ترمز إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون دائما وهو القوة ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

زواج الحبيب ﷺ :

وأثناء إقامته ﷺ بمكة تزوج ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل التى تحت العباس - رضى الله عنه - وقد وكلت زوج أختها العباس فتولى عقد نكاحها وأصبحت ميمونة أم المؤمنين والحمد لله رب العالمين .

وفى اليوم الثالث بعثت قريش رجلها حويطب بن عبد العزى ، ومعه نفر يطلبون من الرسول ﷺ أن يخرج بنهاية اليوم الثالث تنفيذا للاتفاقية ، فقالوا له: إذا انقضى أجلك فاخرج عنا .

الكرم المحمدي:

ولما أبلغ حويطب رسول الله ﷺ أمر قريش بالخروج قال لهم: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟» فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا ، فخرج ﷺ وترك أبا رافع مولاه لأجل ميمونة ، فإذا فرغ من جهازها أتاه بها ، وهو في سرف فبنى بها هناك ، ثم انصرف ﷺ عائدا إلى المدينة في أول ذي الحجة ، وتولى الحج هذا العام المشركون ونزل في عمرة القضاء قرآن هو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الحجرات: ٢٧] ومصداق ذلك فيما يلي:

١- فتح خيبر وهو فتح قريب ، والفتح البعيد هو فتح مكة العام القابل سنة ثمان من الهجرة ، لأن كلمة فتحا قريبا تشير إلى فتح بعيد يأتي بعد القريب .

٢- دخولهم مكة في عمرة القضاء آمنين غير خائفين .

٣- إذ بعد الفراغ من طوافهم وسعيهم منهم من حلق ومنهم من قصر ، فكان هذا تأويل رؤيا الرسول ﷺ التي رآها قبيل الحديبية .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي كالآتي:

١- مشروعية قضاء العبادة إذا فاتت لأسباب قاهرة حالت دون أدائها .

٢- جواز الاعتمار في الأشهر الحرم ، وقد كان أهل الجاهلية يكرهونه .

٣- مشروعية سنة الاضطباع والهرولة في طواف القدوم للعمرة أو الحج .

٤- بيان العلة في سنة الاضطباع والهرولة في الأشواط الثلاثة الأولى وهي إظهار القوة ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

٥- مشروعية الزواج في دار الحرب للقادر عليه .

٦- نظرا إلى الخلاف في هل تزوج الرسول ﷺ ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال؟ ، فإني أرى الخروج من الخلاف يكون بارتئاء أن النبي ﷺ خطب ميمونة

وعقد عليها بمكة بعد تحلله من إحرامه فى أول يوم دخل مكة ، ثم أمر مولاه أن يلحقه بها بعد تجهزيها فى سرف ، فبنى بها هنالك ، فلم يخطبها ، و لم يعقد عليها ، و لم ين بها وهو محرم أبدا .

٧- لطيفة فى أن آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه ميمونة ، وآخر من مات من نسائه بعده ميمونة ، وألها - رضى الله عنها - بنى بها بسرف ، وماتت ودفنت بسرف فمكان عرسها هو مكان دفنها - فرضى الله عنها وأرضاها وجعل الجنة مأواها - .

* * * * * * * * * * *

وخامس أحداثها :

سرية ابن أبى العوجاء

ولما رجع ﷺ من عمرة القضاء ، وذلك فى شهر ذى الحجة بعث بسرية عليها ابن أبى العوجاء السلمى فى خمسين فارسا بعثهم إلى بنى سليم ، وكان لهم عين ، فذهب إليهم فأخبرهم بقدوم السرية عليهم لدعوتهم إلى الإسلام ، فتهيأوا للقتال ، ودفع دعوة الإسلام فلما انتهى إليهم رجال السرية ودعوهم إلى الإسلام ؛ رشقوهم بالنبل و لم يسمعوا قولهم ، وقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه فرموهم ساعة ، وجعلت الأمداد تتلاحق ، وتحدق بهم من كل جانب ، وقاتل أفراد السرية قتالا شديدا حتى قتل عامتهم وأصيب أميرهم بجروح كثيرة إلا أنه تحامل حتى وصل المدينة مع من بقى معه من المسلمين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى:

١- وجوب الدعوة إلى الله تعالى والتحمل والصبر فى سبيلها .

٢- خطر العيون والجواسيس أيام الحروب ، ووجوب الحذر منهم .

٣- بيان شجاعة أصحاب الرسول ﷺ ، وسائر أهل الإيمان ، وعظيم صبرهم وتحملهم .

* * * * * * * * * * *

أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات والسرايا

من أهم الأحداث والوقائع عدا الغزوات والسرايا التي كانت في سنة سبع من الهجرة ما يلي:

١- رد النبي ﷺ ابنته زينب على زوجها أبي العاص بن الربيع .

٢- زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية .

٣- قدوم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس ملك الأقباط بمصر ومعه مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ وسيرين ، وقد أسلمتا في طريقهما إلى المدينة .

٤- قضاء الرسول ﷺ وأصحابه عمرتهم التي منعوا من إتمامها سنة ست من الهجرة .

* * * * * * * * * * *

أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة الثامنة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها:

سرية غالب

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي الكلبي إلى بني الملوح ، فلقيه في مسيره الحارث بن البرصاء الليثي فأخذه أسيرا ، فقال: إنما جئت لأسلم ، فقال له غالب: إن كنت صادقا فلن يضرك رباط ليلة ، وإن كنت كاذبا استوثقنا منك ، ووكل به بعض أصحابه ، وقال له: إن نازعك فخذ رأسه ، وأمره بالمقام إلى أن يعود ، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد ، فنـــزلوا بعد العصر ، وأرسلوا جندب بن مكيث الجهني ربيئة[1] لهم قال: فقصدت تلا هناك يطلعني على الحاضر ، فانبطحت عليه فرآني رجل منبطحا فأخذ قوسه وسهمين فرماني بأحدهما فوضعه في جنبي ، فنـــزعته ولم أتحرك ، ثم رماني بالسهم الثاني فوضعه في رأس منكبي فنـــزعته ولم أتحرك ، فقال الرامي: أما والله فقد خالطه سهماي ولو كان ربيئة لتحرك ، فأمهلناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا ، فشننا عليهم الغارة ، فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم ، ورجعنا سراعا ، وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به حتى إذا لم يكن بيننا إلا بطن الوادي من قديد ، بعث الله من حيث شاء سحابا ما رأينا قبل ذلك مطرا مثله ، فجاء الوادي بما لا يقدر

---

(١) الربيئة: الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عالٍ .

أحد أن يجوزه ، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد أن يتقدم .

وكان شعارنا فى هذه السرية: أمت أمت ، وكنا بضعة عشر رجلا .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى:

١- بيان إنفاذ الرسول ﷺ أمر ربه عز وجل فى إبلاغ دعوته بلا كلل ولا ملل ولا فتور .

٢- بيان الصبر والتحمل فى ذات الله عز وجل ، وأنه شعار المؤمنين الصادقين .

٣- مشروعية الغزو فى سبيل الله ليعبد الله وحده فيكمل الناس ويسعدوا على عبادته تعالى .

٤- بيان إكرام الله تعالى لأوليائه بإنجائهم بالمطر والسيول وبما شاء من أسباب .

* * * * * * * * * * *

وثانى أحداثها:

سرية شجاع

وبعث ﷺ شجاع بن وهب إلى بنى عامر فى أربعة عشر رجلا فأصابوا نعما ، فكان سهم كل واحد منهم خمسة عشر بعيرا .

* * * * * * * * * * *

وثالث أحداثها:

سرية عمرو بن كعب

وبعث ﷺ عمرو بن كعب الغفارى إلى ذات الأطلاع فى خمسة عشر رجلا ، فوجد بها جمعا كثيرا ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا أن يجيبوا ، وقتلوا أصحاب عمرو ولم ينج إلا هو ، وكانت ذات الأطلاع هذه من ناحية الشام ، وهم من قضاعة ورئيسهم يقال له: سدوس .

* * * * * * * * * * *

ورابع أحداثها:

إسلام كل من: خالد، وعمرو، وعثمان

إن في إسلام كل من خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة العبدري نصرا كبيرا، وفتحا عظيما للدعوة الإسلامية، ولذا كان إسلامهم حدثا هاما في تاريخ الدعوة، وقد تأخر إسلامهم إلى صفر من هذه السنة الثامنة.

وهذا بيان كيفية إسلامهم – رضي الله عنهم – يقول عمرو: لما انصرفنا عن الخندق قلت لأصحابي: إنني أرى أمر محمد يعلو علوا منكرا، وأني قد رأيت أن ألحق بالنجاشي، فإن ظهر على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا، فقالوا له: إن هذا الرأي، قال: فجمعنا له أي للنجاشي أدما كثيرا هدية، وخرجنا إلى النجاشي فإنا لعنده إذ وصل عمرو بن أمية الضمري رسولا من النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه، فدخلت على النجاشي، وطلبت منه أن يسلم إلى عمرو بن أمية لأقتله تقربا إلى قريش بمكة فلما سمع النجاشي كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره أي النجاشي فخفته، ثم قلت: والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي لموسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعه واتبعه فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنده، فقلت: فبايعني له على الإسلام فبسط يده فبايعته، ثم خرجت إلى أصحابي وكتمتهم إسلامي، وخرجت عائدا إلى رسول الله ﷺ.

ولقيني خالد بن الوليد – وذلك قبل الفتح، وهو مقبل من مكة – فقلت: أين أبا سليمان؟ قال والله لقد استقام المنسم إن الرجل لنبي أذهب والله أسلم، فحتى متى؟ فقلت: ما جئت إلا للإسلام، فقدمنا على النبي ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، ثم دنوت فأسلمت، وتقدم عثمان فأسلم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي:

١- بيان فضل العلم الشرعي فإن النجاشي آمن بالنبي ﷺ لما له من علم بذلك.

٢- بيان تدبير الله في خلقه، وذلك واضح في تأخر إسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة مع كمال عقولهم وذكائهم، وعظم دهائهم.

٣- سماحة الإسلام إذ احتضن الثلاثة مع ما قاموا به ضده وما تصرفوا ضد أهله ومن مبادئه " التوبة تجب ما قبلها " .

* * * * * * * * * * *

وخامس أحداثها :

سرية ذات السلاسل

وبعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلى وعذرة يدعون الناس إلى الإسلام ، وكانت أم عمرو من بلى فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ فسار عمرو حتى وصل ماء جذام المسمى بالسلاسل ، وبه سميت هذه الغزوة " غزوة ذات السلاسل " فلما كان به خاف ، فبعث إلى النبى ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، وقال الحبيب ﷺ لأبى عبيدة: «**لا تختلفا أى أنت وأمير السرية عمرو بن العاص**» . فخرج أبو عبيدة ومن معه فلما قدموا على عمرو ، قال عمرو: يا أبا عبيدة إنما جئت مددا إلى ، فقال أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تختلفا**» فإن عصيتنى أطعتك ، قال: فأنا أمير عليك قال: فدونك ، فصلى عمرو بالناس وبالمدد الذى بعث به رسول الله ﷺ ، بلغ عدد أفراد السرية نحوا من خمسمائة رجل فضربوا فى المنطقة شرقا وغربا ودوخوا من فيها ، وفى هذه السرية احتلم عمرو فلم يغتسل خوفا من الموت لشدة البرد ، وإنما استنجى وتوضأ وتيمم وصلى ، ولما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك سكت فأقر عمرا على فعله .

* * * * * * * * * * *

وسادسة أحداثها :

سرية عمرو بن العاص

وبعث ﷺ عمرو بن العاص إلى جعفر وعباد ابنى الجلندى بعمان فآمنا وصدقا ، وأخذ الجزية من المجوس القاطنين بعمان .

* * * * * * * * * * *

وسابعة أحداثها :

سرية الخبط

وفى هذه السنة الثامنة من الهجرة بعث رسول الله ﷺ سرية جعل عليها أبا عبيدة بن

الجراح ، وعدد أفرادها ثلثمائة مقاتل وزودهم رسول الله ﷺ بجراب من التمر ووجههم نحو ساحل البحر ، ونفد جراب التمر حتى كانوا يعطون منه تمرة تمرة ، وقال أحدهم: قلت فى نفسى: ماذا تعنى هذه التمرة ؟ ولما فقدنا عرفت قيمتها يومئذ ، وجاعوا حتى كانوا يضربون ورق الشجر فيسقط فيجمعونه ويبلونه بالماء ويأكلونه ، ولذا سميت هذه السرية سرية الخبط ، ولما قربوا من البحر لاح لهم شىء كأنه كثيب رمل فدنوا منه وإذا هو دابة من دواب البحر ميتة يقال لها: العنبر فأكلنا منه نحوا من نصف شهر حتى سمنا ، وكنا نغترف من عينها الدهن بالمغراف ، ونصبنا ضلعين من أضلاعها ، فكانت الراحلة تدخن من تحتها ولا تمسها ، وتزودنا من لحمها ولما وصلنا إلى المدينة وذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ قال: «**هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شىء من لحمه تطعمونا ؟**» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه شيئا فأكله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالتالى:

١- مواصلة الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغ رسالته ﷺ إلى كافة الناس لإصلاحهم وإسعادهم فى الدنيا والآخرة .

٢- بيان صبر الصحابة وتحملهم الشدائد فى ذات الله تعالى ما كانوا به مضرب المثل .

٣- بيان إكرام الله تعالى لأصحاب رسوله بأن ساق لهم العنبر فأكلوا نصف شهر منه .

٤- جواز أكل ميتة البحر .

٥- بيان تطييب رسول الله ﷺ خاطر أصحابه وتزكية نفوسهم وذلك بأكله من لحم الحوت الميت ، وهو القائل فى البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**» .

* * * * * * * * * *

وثامنة أحداثها :

سرية أبى قتادة

وفى شعبان من هذه السنة وجه رسول الله ﷺ أبا قتادة ومعه عبد الله بن أبى حدرد - فى رجال - إلى الغابة حيث بلغ رسول الله ﷺ أن رفاعة بن قيس قد جمع جموعا ونزل الغابة

يريد حرب رسول الله ﷺ ، ولما بلغوا من الحاضر مع غروب الشمس كمن كل واحد منهم فى ناحية ، وكان لقوم رفاعة راعٍ فأبطأ عنهم فخرج رفاعة بن قيس فى طلبه ومعه سلاحه ، قال عبد الله بن أبى حدرد: فرميته بسهم فأصبت فؤاده فلم يتكلم فأخذت رأسه ، ثم شددت فى ناحية العسكر ، وكبرت وكبر أصحابى فوالله ما كان إلا النجاء ، أى هرب أهل الحاضر طالبين النجاة لأنفسهم فأخذوا نساءهم وأولادهم وما خف عليهم من أموالهم ، واستقنا الإبل الكثيرة والغنم فجئنا بها رسول الله ﷺ ورأس رفاعة ، قال عبد الله: فأعطانى رسول الله ﷺ من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيرا وعدل البعير بعشر من الغنم .

* * * * * * * * * * *

وتاسعة أحداثها :

سرية أبى قتادة إلى إضم

وفى هذه السنة أيضا أغزى رسول الله ﷺ أبا قتادة إلى "إضم" ومعه محلم بن جثامة فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعى على بعير له ومعه متاعه فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فأمسكوا عنه ، وحمل عليهم محلم بن جثامة فقتله وأخذ بعيره ومتاعه ، ولما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر ، ونزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤] .

* * * * * * * * * * *

وعاشرة أحداثها :

غزوة مؤتة

هذه إحدى الغزوات العظيمة فى الغزو الإسلامى: وكانت فى جمادى الأولى من سنة ثمان ، فقد حدد الرسول ﷺ زمانها ومكانها ، وعين أمراءها ، فعين زيد بن حارثة مولاه أميرا عليها ، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحه .

وكان عدد أفراد هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل ، ولما عين الحبيب ﷺ زيدا أميرا ، وحد

جعفر فى نفسه ، وقال: يا رسول الله ما كنت أذهب أن تستعمل على زيدا ، فقال لــه رسول الله ﷺ : «امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير» ، وعندها بكى الناس وقالوا: هلا متعتنا بهم يا رسول الله ، وكان إذا قال: "فإن أصيب فلان فالأمير فلان" أصيب كل من ذكره .

وتجهز الناس وودعهم رسول الله ﷺ والناس ، ولما ودع عبد الله بن رواحه بكى فقال له الناس: ما يبكيك ؟ فقال: ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود؟ .

فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ، ولما تهيأ القوم للخروج أتى عبد الله رسول الله ﷺ فودعه ثم قال:

أنــتَ الرســولُ فمَنْ يُحرَمْ نوافلَه ::: والوجــه مــنه فقد أزرى به القدرُ
فثبَّــتَ الله مــا آتــاك مــن حُسْنٍ ::: فى المرســلين ونصرا كالذى نصروا
إنــى تفرسْــتُ فيــك الخيــرَ نافلةً ::: فراســة خالفتَ فيها الــذى نظــروا

ثم خرجوا وساروا حتى نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من العرب المتنصرة من لخم وجذام والقين وبلى ، فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون أمرهم: وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخبر ، وننتظر أمره ، فشجعهم عبد الله بن رواحه ، وقال: يا قوم والله عن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون إنه الشهادة ، وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين ، فانطلقوا فما هى إلا إحدى الحسنين ، فقال الناس: صدق والله ، وساروا فتلقتهم جموع الروم والعرب بقرية البلقاء يقال لها: مشارف ؛ وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة فالتقى الناس عندها ، وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى ميسرتهم عبادة بن مالك الأنصارى ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم أى مات ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل بها وهو يقول:

يــا حَــبَّذَا الجــنةُ واقــترابُها ::: طيــــبةٌ وَبَــــاردًا شــــرابُها
والــرومُ روم قــد دنــا عذابُهَــا ::: علــى إذ لاقيتُهــا ضرابُهَــا

ثم عقر فرسه ، وهو أول فرس عقر فى الإسلام ، وقاتل حتى قطعت يده اليمنى فأخذ

الراية بيده اليسرى ، وقاتل حتى قطعت يده اليسرى فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل ، فوجد به بضع وثمانون رمية وضربة وطعنة – فى جوار الله تعالى ورضوانه – وأخذ الراية عبد الله بن رواحه ، ثم تقدم فتردد بعض التردد ثم قال يخاطب نفسه:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنه ::: طائعةً أو لتكرهنه
إن أجلبَ الناسُ وشدوا الرنه ::: ما لى أراك تكرهين الجنه؟
طالما ما كنت مطمئنةً ::: هل أنت إلا نطفةٌ فى شنة؟

ثم نزل عن فرسه فجاء ابن عم له بعرق لحم ، فقال: شد بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت! فأخذه فانتهس[1] منه نهسة ، ثم سمع الحطمة فى ناحية العسكر فقال لنفسه: وانت فى الدنيا !! ثم ألقاه وتقدم فقاتل حتى قتل ، (فإلى رحمه الله ورضوانه) واشتد عليهم الأمر ، وكان قطبة قد قتل قبل ذلك قتله مالك بن زافلة قائد العرب المتنصرة ، ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا: أنت قال: ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز ، وانحيز عنه حتى انصرف الناس ، ثم أقبل بهم قافلا فى طريقه إلى المدينة النبوية .

إخبار النبى ﷺ بالواقعة :

وبالمدينة يخبر الحبيب ﷺ بجريان المعركة بالتفصيل كأنه يشاهدها عن كثب ، فيقول بعد أن رقى المنبر ونادى بالصلاة جامعة: «**باب خير، باب خير، باب خير أخبركم عن جيشكم هذا الغازى إنهم لقوا العدو ، فقتل زيد شهيدا فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر فسد على القوم حتى قتل شهيدا فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحه**» وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون ثم قال ﷺ : «**فقاتل القوم حتى قتل شهيدا**» ثم قال: «**لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب فرأيت فى سرير ابن رواحه ازورارا عن سريرى صاحبيه ، فقلت: عم هذا؟ فقيل: مضيا ، وتردد بعض التردد ثم مضى**» ولما قتل ابن رواحه أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصارى ، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلحوا على خالد بن الوليد فقال رسول الله ﷺ : «**ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فعاذ**

---

(١) انتهس: اللحم أخذه بمقدم أسنانه ونتفه للأكل .

بالناس» فمن يومئذ سمى خالد سيف الله ، وقال رسول الله ﷺ : **«مر بى جعفر البارحة فى نفر من الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم»**[1] .

امرأة جعفر تتحدث :

وقالت أسماء بنت عميس زوج جعفر الطيار بن أبى طالب – رضى الله عنهما – أتانى النبى ﷺ وقد فرغت من اشتغالى وغسلت أولاد جعفر ودهنتهم فأخذهم وشمهم ودمعت عيناه ، فقلت: يا رسول الله: أبلغك عن جعفر شيء ؟ قال: **«نعم أصيب هذا اليوم»** ، ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعاما فهو أول ما عمل فى دين الإسلام ، ولما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله ﷺ فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه ، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يا فرار يا فرار ، ويقول الرسول ﷺ : **«ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله»** .

نتائج وعبر :

إن لهذه القطعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلى:

١- فضيلة الأمراء الثلاثة: زيد ، وجعفر ، وابن رواحة .

٢- مشروعية توديع المسافر إلى سفر صالح كالجهاد والحج ونحوهما .

٣- عظم خشية عبد الله بن رواحه وخوفه من النار .

٤- بيان حقيقة كشف عنها ابن رواحه وهى أن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، وإنما يقاتلون بالدين فإن كانوا صالحين مستقيمين انتصروا ، وإلا انكسروا .

٥- مشروعية مخاطبة النفس وترويضها على الطاعات .

٦- آيات النبوة المحمدية تتجلى فى إخبار النبى ﷺ أهل المدينة بسير المعركة ووصفه لها كأنه يديرها ويشاهد سير القتال فيها ، ولم يخطئ فى شيء منها ولو قل ، ولم يكن يومئذ أخبار سلكية ولاسلكية ولا عرض تلفاز ولا فيديو فكان إخباره أعظم آية على أنه رسول الله ﷺ يتلقى الوحى من الله عز وجل .

---

(١) القوادم: "جمع قادمة" ريشات أربع فى مقدم الجناح .

٧- بيان فضل خالد ، وسبب تلقيبه بسيف الله .

٨- بيان تألم رسول الله ﷺ لموت الأمراء وخاصة جعفر بن أبى طالب – رضى الله عنهم أجمعين – .

٩- مشروعية صنع الطعام لأهل الميت لانشغالهم بالمصيبة وحزنهم على فقيدهم وان أول طعام صنع لهذا الغرض هو ما صنعه الرسول ﷺ لآل جعفر فكان سنة قولية عملية .

١٠- مشروعية حمل الطفل الصغير وشمه وتقبيله رحمه به وشفقة عليه .

****

وحادى عشر أحداثها :

غزوة الفتح : (فتح مكة)

أسباب هذه الغزوة :

لقد ورد فى اتفاقية الحديبية أن خزاعة دخلت فى عقد الرسول ﷺ وبكر دخلت فى عقد قريش ، وشاء الله عز وجل أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد شعرا فى هجاء النبى ﷺ فضربه فشجه فهاج الشر بينهم ، وثارت بكر على خزاعة حتى بيتوهم بالوتير ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح والدواب ، وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين ، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم لائذة به إلا أن بكرا لم تحترم الحرم وقاتلت خزاعة به وقتلت منهم .

وبهذا كانت قريش قد نقضت العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ إذ أعانت بنى بكر على خزاعة أحلاف النبى ﷺ ، وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ثم قال منشدا قصيدة مطلعها:

اللّهــــم إنى ناشـــــدٌ محمـــــدًا ::: حلْـــف أبـــيه وأبيـــنا الأتلـــدا
فوالــــدًا كنــــا وكنـــتَ ولـــدًا ::: ثُمَّـــتَ أسلمنـــا فلم ننـــزع يدا

إلى أن قال:

هــم بيتونـا بالوتيـــر هُجَّـــدا ::: فقتلونـــــا رُكَّعـــًا وسُجَّـــدًا

فقال رسول الله ﷺ : «قد نصرت يا عمرو بن سالم» وجاء بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة إلى النبى ﷺ فوافقه يغتسل فنادوه فقال: «يا لبيكم» وخرج إليهم فأخبروه الخبر ثم انصرفوا راجعين إلى مكة أى أعلموه بالذى جرى من نقض قريش عهدها ، وكان النبى ﷺ قد قال لأصحابه: «كأنى بأبى سفيان قد جاء ليجدد الهدنة خوفا ويزيد فى المدة» ومضى بديل فى طريقه ، وإذا بأبى سفيان فى عسفان فى طريقه إلى المدينة وصدقت فراسة الحبيب ﷺ فقال أبو سفيان لبديل ، من أين أقبلت ؟ قال: من خزاعة فى الساحل وبطن هذا الوادى ، قال: أو ما أتيت محمدا ؟ قال: لا ، فقال أبو سفيان لأصحابه لما راح بديل: انظروا بعر ناقته فإن جاء المدينة لقد علف النواء ، فنظروا بعر الناقة فرأوا فيه النوى ، وواصل أبو سفيان سيره حتى أتى المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبى ﷺ فلما أراد أن يجلس على فراش النبى ﷺ طوته عنه: فقال: أرغبت عنى به أم رغبت بى عنه ؟ فقالت: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه ، فقال: لقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى النبى ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل ثم أتى عمر فكلمه فقال: ما أنا بشافع لكم إلى رسول الله ﷺ ووالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ثم خرج حتى أتى عليا فكلمه فى ذلك ، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه فنادى فاطمة قائلا: يا بنت محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا - يشير إلى الحسن وهو يومها غلام - أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب ؟ فقالت: ما بلغ ابنى أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد . ثم التفت إلى على ، وقال: أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى قال: إنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس والتحق بأرضك .

فقام أبو سفيان فى المسجد وقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشا بما جرى له وما أشار به على عليه ، فقالوا: والله ما زاد على أن سخر منك!!

التجهيز والإعداد لفتح مكة :

وعزم النبى ﷺ على غزو قريش لفتح مكة لنقض قريش المعاهدة نقضا واضحا صريحا فتجهز وأمر أصحابه بذلك ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها» . ولما علم حاطب بن أبى بلتعة بعزم الرسول ﷺ على المسير إلى قريش وذكر أهله وولده بمكة ، وأن لا ولى له بها يدفعون عن أهله وولده ، وعلم أن الله ناصر رسوله فكتب كتابا إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ ، وبعث بالكتاب مع امرأة من مزينة اسمها:

كنود ، تحمله وتركب راحلتها وتسير ، وسبقها الوحي الإلهي إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام لافتكاك الكتاب منها قبل وصولها إلى مكة فخرجا في طلبها فأدركاها وأخذا الكتاب منها ، وهذه من استجابة الله تعالى دعوة رسوله ﷺ ، إذ قال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش**» وأحضر حاطبا وقال له: «**ما حملك على هذا؟!**» . فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما بدلت ولا غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم عليهم ، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق فقال رسول الله ﷺ «**وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وأنزل الله تعالى في حاطب فاتحة سورة الممتحنة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قـــوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١] .

المسير إلى مكة :

واستخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصن الغفاري ، وخرج في عشرة آلاف مقاتل ، وذلك لعشر مضين من رمضان ، وأثناء مسيره أدركه عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس كما لقيه العباس بن عبد المطلب بذي الحليفة معاجرا فأمره أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه ، ففعل وقال له: أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء ، وصام ﷺ وصام أصحابه حتى بلغ ما بين عسفان وأمج فأفطروا ، ولقيه في الطريق وهو نازل بنيق العقاب أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية فالتمسا الدخول عليه ﷺ فكلمته أم سلمة في شأنهما ، فقال: «**لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فقد هتك عرضي ، وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال**» فلما سمع ذلك وكان مع أبي سفيان ولد يقال له: جعفر ؛ فقال أبو سفيان: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا فرق لهما رسول الله ﷺ فأدخلهما إليه فأسلما ، وأنشد أبو سفيان في إسلامه واعتذاره قوله:

لعمـــرُك إني يـــوم أحمـــلُ رايـــةً ::: لتغلـــبُ خـــيلَ الـــلات خيلُ محمد
لكـــالمدلج الحـــيران أظـــلمَ لـــيلهُ ::: فهـــذا أواني حـــين أهدى فـــأهتدى
وهـــادٍ هدانـــي غيـــرَ نفسي ونالني ::: مـــع الله مـــن طـــــرّدته كلّ مطرد

بمر الظهران:

ونزل الحبيب الأحب والقائد الأعظم ﷺ بمر الظهران غير بعيد من مكة ونزل معه جيشه المظفر المقدر بعشرة آلاف مقاتل جلهم من المهاجرين والأنصار وباقيهم من جهينة ، وغفار ، ومزينة ، وسليم ، وتميم ، وأسد ، وقيس . . .

ونظر العباس إلى قوة الجيش وقال: يا هلاك قريش ، والله إن باغتها رسول الله ﷺ فى بلادها فدخلها عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، ثم جلس على بغله النبى ﷺ وقال: أخرج لعلى أرى حطابا أو رجلا يدخل مكة لحاجة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتوه ويستأمنوه ، وخرج يطوف فى الأراك وإذا به يسمع صوت أبى سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن الورقاء الخزاعى خرجوا يتحسسون الأخبار ويرقبون الأمور ، ورأوا نيران المعسكر تشتعل ليلا تضيئ الساحة كلها وهى آلاف النيران فقال أبو سفيان: ما رأيت نيرانا أكثر من هذه ، فقال بديل هذه نيران خزاعة ، فقال أبو سفيان خزاعة أذل من ذلك أو أقل ، فقال العباس: يا أبا حنظلة (كنية أبى سفيان) فقال: أبو الفضل ؟قلت: نعم لبيك فداك أبى وأمى ما وراءك ؟ قال: هذا رسول الله ﷺ فى المسلمين أتوكم فى عشرة آلاف قال: ما تأمرنى ؟ قلت: تركب معى فأستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، قال العباس: فركب معى فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ فكلما مررت بنار من نيران المسلمين يقولون عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال أبو سفيان: أى هذا أبو سفيان ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت عمر ، ودخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره وقال: دعنى أضرب عنقه ، فقلت: يا رسول الله إنى قد أجرته ، ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ وقلت: لا يناجيه اليوم أحد دونى ، فلما أكثر عمر فيه قلت: مهلا يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى ما قلت هذه المقالة فقال: مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : «**اذهب فقد آمناه حتى تغدو على به الغداة**» فرجعت به إلى منــزلى وغدوت به على رسول الله ﷺ فلما رآه قال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟**» قال: بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئا ، فقال: «**ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟**» فقال: بأبى أنت وأمى أما هذه ففى النفس منها شيء ، قال العباس: فقلت له ويحك

تشهد بشهادة الحق قبل أن تضرب عنقك قال: فتشهد وأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء .

استعراض القوة للإرهاب :

وأمر الحبيب ﷺ العباس أن يذهب بأبي سفيان فيحبسه في طريق مرور الجيش الإسلامي ليرى بأم عينيه قوة الإسلام والمسلمين ، قال ﷺ : «اذهب بأبي سفيان فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله» قال العباس: فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر فاجعل له شيئا يكون في قومه فقال: «فليدخل مكة وليقل: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن» قال العباس: فخرجت فحبسته أي أوقفته عند خطم الجبل فمرت عليه القبائل فيقول: من هؤلاء ؟ فأقول: أسلم ، فيقول: من هؤلاء ؟ فأقول: جهينة ، فيقول: ما لي ولجهينة حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ، فقال: من هؤلاء ؟ فقلت: هذا رسول الله صلى الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما !! فقلت: ويحك إنها النبوة فقال: نعم إذن فقلت: ألحق بقومك سريعا فحذرهم ، فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فقالوا: فمه[1] قال: من دخل داري فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق ، فقال: أرسلي لحيتي ، وأقسم لئن لم تسلمي لتضربن عنقك ، ادخلي بيتك فتركته وذهبت .

دخول القوات إلى مكة :

ومشى رسول الله ﷺ حتى وصل ذا طوى وقف على راحلته معتجرا بشقة برد حبرة حمراء ، وفرق جيشه فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى[2] ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء (المعلاة) وسمع سعد بن عبادة يقول: اليوم يوم

---

(١) ف "مه" اسم استفهام حذفت ألفها وألحق بها هاء السكت . أي فماذا تريد أن تفعل ؟ .
(٢) اسم جبل بمكة .

الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة ما تأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: «أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها» وأمر خالدا أن يدخل من الليط أسفل مكة فى بعض الناس وكان خالد على المجنبة اليمنى كما أن الزبير على المجنبة اليسرى ، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ ، وأنه ﷺ لتواضعه لربه لما رأى من إكرام الله تعالى له تكاد لحيته تمس واسطة الرحل تواضعا لله تعالى – فلم يدخل دخول الظلمة الفاتحين – يكاد يطير بهم الزهو والخيلاء والكبر والصلف .

وقد أوصى أمراءه أن لا يقتلوا إلا من قاتلهم ، وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسا بالخندمة ليقاتلوا فلما وصلهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد ناوشوهم شيئا من القتال فقتل من المشركين نحو ثلاثة عشر رجلا ، ثم انهزموا وقتل من المسلمين كرز بن جابر وحبيش بن خالد بن ربيعة بسبب سلوكهما طريقا غير طريق خالد الذى سلكه .

من القبة إلى المسجد الحرام:

وكان قد ضربت للحبيب ﷺ قبة بالحجون ، وها هو ذا ﷺ يخرج منها فى طريقه إلى المسجد الحرام وإلى جنبه الصديق يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت ، فطاف سبعا على راحلته واستلم الحجر الأسود بمحجن كان بيده ، وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما ، فجعل يطعن بعود فى يده ، وهى تتساقط وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد» .

وأمر بالصور والتماثيل التى داخل البيت ، فأخرجت ورميت هى ، وسائر الأصنام خارج المسجد الحرام ، ودخل ﷺ الكعبة ، وصلى فيها ، وكبر فى سائر نواحيها ، ثم خرج فجلس فى المسجد الحرام كالبدر فى هالته والعيون إليه شاخصة والقلوب واجفة .

مظاهر الكرم المحمدى:

ثم قام ﷺ على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» .

ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى ، فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج .

ألا وقتيل الخطأ - شبه العمد بالسوط والعصا - ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أو أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟» قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فعفا عنهم بعد أن أمكنهم الله تعالى منهم ، فضرب بذلك المثل في العفو والصفح على الجناة بعد القدرة عليهم والتمكن منهم .

المجرمون الثمانية :

لم يشمل ذلك العفو العام ثمانية مجرمين وأربع نسوة مجرمات .

فالرجال الثمانية هم :

عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نقيذ بن وهب ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن الزبعرى ، وهبار بن الأسود ، إذ كان هؤلاء أشد عدواة وأذى لرسول الله ﷺ من غيرهم ، ولذا أمر بقتلهم قبل توبتهم ، وقد تاب وأسلم وحسن إسلامه كل من عكرمة ، وصفوان ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وعبد الله بن الزبعرى وقتل الأربعة الباقون كفرا فإلى جهنم وبئس القرار وقال عبد الله بن الزبعرى لما أسلم شعرا يعتذر فيه:

يا رسولَ المليك إن لساني ::: راتقٌ ما فتقت إذْ انا بُورُ
إذ أباري الشيطان في سنن الغَيِّ ::: ومن مال مَيْلَه مثبورُ
آمَنَ اللحمُ والعظامُ لربي ::: ثم قلبي الشهيدُ أنت النذيرُ

وأما النسوة فهن: هند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن عبد المطلب ، وقينتا عبد الله ابن خطل ، فأسلمت هند وحسن إسلامها ، وكذا إحدى القينتين ، والاثنتان الأخريان قتلتا كافرتين ، فإلى غضب الله وأليم عذابه .

البيعة على الإسلام :

ثم جلس رسول الله ﷺ على الصفا للبيعة ، وعمر بن الخطاب تحته ، وتقدم الرجال

يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام ، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، ولما فرغ من بيعة الرجال جاءت النساء للبيعة وكانت بينهن هند بنت عتبة متنكرة لما صنعت بحمزة – رضى الله عنه – فقال لهن: «**تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئا**» قالت هند: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه قال: «**ولا تسرقن**» قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة: فقال أبو سفيان وكان حاضرا: أما ما مضى فأنت منه فى حل ، فقال رسول الله ﷺ : «**أهند ؟**» قالت: أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك ، قال: «**ولا تزنين**» قالت: وهل تزنى الحرة ؟ قال: «**ولا تقتلن أولادكن**» قالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال: «**لا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن**» قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل قال: «**ولا تعصين فى معروف**» قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «**بايعهن**» ، واستغفر لهن رسول الله ﷺ إذ كان رسول الله ﷺ لا يمس النساء ولا يصافح امرأة ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه .

الإنسان قبل الإيمان:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال وبيعة النساء كان قد آن أوان الظهر فأمر بلالا أن يطلع على سطح البيت الحرام ويؤذن ، وقريش فوق الجبال وسطوح البيوت ، فمنهم من يطلب الأمان ، ومنهم من أمن ، فلما أخذ بلال فى الأذان وقال: أشهد أن محمدا رسول الله ، قالت: جويرية بنت أبى جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة ، وقالت: لقد رفع الله ذكر محمد ، وأما نحن فسنصلى ، ولكن لا نحب من قتل الأحبة ، وقال خالد بن أسد: لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشام: ليتنى مت قبل هذا اليوم ، وقال غيرهم مثل قولهم ، ولكنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، فأشرقت نفوسهم بنور الإيمان وذهبت ظلمة الكفر والجهل التى من جرائها قالوا ما قالوا من كلمات الكفر التى يرضى المؤمن أن يصلب – ويقطع – ولا يرضى أن يقولها أبدا .

ذكريات فيها عبر وعظات:

(أ) قالت أم هانئ بنت أبى طالب – رضى الله عنها –: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائى من بنى مخزوم ، وكانت أم هانئ عند هبيرة بن أبى وهب

المخزومى قالت: فدخل على أخى على بن أبى طالب ، وقال: والله لأقتلنهما فأغلقت عليهما باب بيتى ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنه وإن فيها لأثر العجين وفاطمة بنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلى فقال: «**مرحبا وأهلا يا أم هانئ ما جاء بك ؟**» فأخبرته خبر الرجلين وخبر على فقال: «**أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا يقتلهما**» .

(ب) لما طاف ﷺ بالبيت دعا عثمان بن أبى طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخل فيها وصلى ، وأخرج منها بعض الصور والتماثيل فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة بيده ، فقال: يا رسول الله ﷺ اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : «**أين عثمان بن طلحة ؟**» فدعى له فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء**» .

(جـ) لما كان الحبيب ﷺ يطوف بالبيت يوم الفتح كان فضالة بن عمير بن الملوح فكر فى قتل النبى ﷺ وهو يطوف ، فلما دنا من الرسول ﷺ قال الرسول ﷺ : «**أفضالة ؟**» قال: نعم فضالة يا رسول الله . قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك ؟**» قال: لا شىء كنت أذكر الله ، قال: فضحك النبى ﷺ ثم قال: «**استغفر الله**» ثم وضع يده على قلبه فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت: هلم إلى الحديث ، فقلت: لا وانبعثت أقول:

قالـــتْ هَلُـــمّ إلى الحديث فقلتُ: لا ::: يـــأبى علـــيك الله والإســـلامُ
لـــو مـــا رأيـــت محمـــدًا وقبـــيله ::: بالفـــتح يـــوم تكســـر الأصـــنامُ
لرأيـــت ديـــنَ الله أضحـــى بينـــا ::: والشـــركُ يغشـــى وَجْهَـــهُ الإظلامُ

(د) لما دخل رسول الله ﷺ المسجد يوم الفتح – وذلك يوم عشرين من رمضان – أتى أبو بكر بوالده أبى قحافة يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه**» قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت فأجلسه النبى ﷺ بين يديه ، ثم مسح صدره ثم قال: «**أسلم**» فأسلم ، وقال لأبى بكر: «**غيروا هذا من شعره وجنبوه السواد**» وكان شعر أبى قحافة أبيض كأن رأسه ثغامة[1] .

---

(١) الثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلى:

١- بيان عاقبة نكث العهود وأنها وخيمة للغاية ، إذ قريش نكثت عهدها فحلت بها الهزيمة وخسرت كيانها الذى كانت تدافع عنه وتحميه .

٢- تجلى النبوة المحمدية فى العلم بالمرأة حاملة خطاب ابن أبى بلتعة إذ أخبر عنها وعن المكان الذى انتهت إليه فى سيرها وهو روضة خاخ .

٣- فضيلة إقالة عثرة الكرام ، وفضل أهل بدر تجلى ذلك فى العفو عن حاطب بعد عتابه .

٤- مشروعية السفر فى رمضان وجواز الفطر والصيام فيه على حد سواء .

٥- مشروعية التعمية على العدو حتى يباغت قبل أن يكون قد جمع قواه فتسرع إليه الهزيمة وتقل الضحايا والأموات من الجانبين حقنا للدماء البشرية .

٦- بيان الكمال المحمدى فى قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات الباهرة .

٧- مشروعية إرهاب العدو بإظهار القوة له وفى القرآن: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

٨- مشروعية إنزال الناس منازلهم تجلى هذا فى إعطاء الرسول ﷺ أبا سفيان كلمات يقولهن ليكون ذلك فخرا له واعتزازا وهو «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن**» ينادى بها بأعلى صوته .

٩- بيان تواضع الرسول ﷺ لربه شكرا له على آلائه وإنعامه عليه إذ دخل مكة وهو متطامن حتى أن لحيته لتمس رحل ناقته تواضعا لله وخشوعا . فلم يدخل وهو الظافر المنتصر دخول الظلمة الجبارين سفاكى الدماء البطاشين بالأبرياء والضعفاء .

١٠- بيان العفو المحمدى الكبير إذ عفا عن قريش العدو الألد و لم يقتل منهم سوى أربعة رجال وامرأتين إذ رفضوا الإسلام .

١١- بيان الكمال المحمدى فى عدله ووفائه ، تجلى ذلك فى رد مفتاح الكعبة لعثمان بن

أبى طلحة و لم يعطه من طلبه منه وهو على بن أبى طالب صهره الكريم .

١٢- مشروعية كسر الأصنام والصور والتماثيل وإبعادها من المساجد بيوت الله تعالى .

١٣- تقرير مبدأ الجوار فى الإسلام لقوله ﷺ : «**أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانئ**» .

١٤- وجوب البيعة على الإسلام وهى الطاعة لله ورسوله وأولى الأمر فى المعروف وما يستطاع .

١٥- آية النبوة تتجلى فى علمه ﷺ بما أضمره الرجل من اغتيال الرسول ﷺ وهو يطوف .

١٦- احترام الرسول ﷺ لأسرة الصديق وتكريمه لها ، والإكبار من شأنها إذ هى الأسرة الوحيدة التى أسلم كافة أفرادها: آباء وأمهات وبنين وبنات .

١٧- مشروعية صبغ الشعر بغير السواد سواء أكان شعر لحية أو رأس .

* * * * * * * * * * *

وثانى عشر أحداثها :

غزوة خالد إلى بنى جذيمة

ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة بعث رسول الله ﷺ بعض السرايا حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام و لم يأمرهم بالقتال ، وبعث خالد بن الوليد على رأس سرية داعيا و لم يأمره بالقتال فنـــزل على الغميصاء - ماء من مياه جذيمة -: وكانت جذيمة أصابت فى الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد ، كانا أقبلا تاجرين من اليمن فأخذت ما معهما وقتلتهما ، فلما نزل خالد بسريته ذلك الماء أخذ بنو جذيمة السلاح فقال لهم خالد: ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح ، فأمرهم خالد فكتفوا ثم عرضوا على السيف فقتل منهم من قتل .

ولما انتهى الخبر إلى النبى ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد**» ثم أرسل على بن أبى طالب ومعه مال وأمره أن ينظر فى أمرهم فودى لهم الدماء والأموال حتى إنه لبدى ميلغة[1] الكلاب وبقى معه من المال فضلة ، فقال لهم: هل بقى لكم

(١) إناء خشب تشرب فيه الكلاب .

مال أو دم لم يود ؟ فقالوا: لا ، فقال: إني أعطيكم هذه البقية احتياطا لرسول الله ﷺ ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «أصبت وأحسنت» .

واعتذر خالد بعد أن دار بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، فقد رأى هذا الحدث رسول الله ﷺ في رؤيا رآها قال: «**رأيت كأني لقمت لقمة من حيس فتلذذت طعمها ، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل على يده فنزعه**» فقال أبو بكر – رضي الله عنه –: يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ويكون في بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها في الأرقام التالية:

١- وجوب مواصلة الدعوة إلى الإسلام بعد الفتح كما هي قبله .

٢- بيان خطأ خالد في اجتهاده فيما أقدم عليه ، ولما كان متأولا عفا عنه و لم يؤاخذ .

٣- بيان أن رؤيا الأنبياء حق ومعرفة الصديق بتأويل الرؤيا .

٤- بيان فوز على بقول الرسول ﷺ : «أصبت وأحسنت» .

* * * * * * * * * * *

حدثان هامان عقيب الفتح

الأول: إسلام عباس بن مرداس:

كان لوالد عباس بن مرداس وثن يعبده يسمى: ضمار ، فلما حضره مرداس قال لولده عباس: أي بني اعبد ضمار فإنه ينفعك ويضرك ، فبينما عباس يوما عند ضمار إذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول:

قُــلْ للقــبائلِ مــن ســليم كلِّهــا ::: أَوْدَى وعـــاش أهـــلُ المســجدِ
إنَّ الــذى ورثَ النــبوة والهــدى ::: بعــد ابــن مريم من قريش مهتدى
أَوْدَى ضمـــارُ وكـــان يُعْبَدُ مـــرةً ::: قَبْــلَ الكتـــابِ إلى النبي محمـــدِ

فمزق عباس ضمار ولحق بالنبي محمد ﷺ فأسلم وحسن إسلامه .

والثانى : هدم خالد للعزى :

وفى الخمس الأواخر من شهر رمضان – والنبى ﷺ بمكة – بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها – وهى عبارة عن بيت له سدنة ، تعظمه قريش ، وكنانة ، ومضر وهو بنخلة: مكان بين مكة والطائف – ولما سمع سادن العزى بمقدم خالد إليها ليهدمها علق بها سيفه ، وقال يخاطبها:

أيا عــز شـــدى شـــدة لا شوى لها ::: علـــى خالـــد ألق القناع وشمـــرى

فلما انتهى إليها خالد جعل السادن يقول: أعزى بعض غضبانك فخرجت امرأة سوداء حبشية عريانة مولولة ، فقتلها خالد وكسر الصنم وهدم البيت الذى كان فيه ، ثم رجع إلى النبى ﷺ فأخبره بالذى صنع فقال ﷺ : «**تلك العزى لا تعبد أبدا**» .

وهدم عمرو بن العاص سواعا – وكان برهاط لهذيل – فلما كسر عمرو الصنم أسلم سادنه ، وهدم سعد بن زيد الأشهلى مناة بالمشلل .

* * * * * * * * * * *

وثالث عشر أحداثها :

غزوة هوازن

وانسلخ شهر رمضان بانتهاء فتح مكة المكرمة ، ومازال الرسول ﷺ بها حتى بلغه أن هوازن لما سمعت بفتح مكة جمعها مالك بن عوف النصرى من بنى نصر بن معاوية بن بكر ، وكانوا خائفين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، وقالوا: لا مانع له من غزونا ، فمن الرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا ، واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف ، وذو الخمار سبيع بن الحارث ، وأخوه الأحمر بن الحارث سيد بنى مالك ، ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال ، ولم يحضرها كعب ولا كلاب وفى جشم دريد بن الصمة شيخ كيس ذو رأى .

رأى صائب لم يقبل :

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى حرب رسول الله ﷺ جمع مع الرجال المقاتلين النساء والأطفال ، ولما نزلوا أوطاس قال دريد بن الصمة: بأى واد أنتم ؟ قالوا: بأوطاس قال:

نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ما لى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبعار الشاء ، وبكاء الصغير ؟ قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك ، فقال: يا مالك إن هذا اليوم له ما بعده ما حملك على ما صنعت ؟ قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله ، فقال دريد: راعى ضأن والله ، هل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل سيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا: لم يشهدها أحد منهم ، قال: غاب الجد والحد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ووددتم لو أنكم فعلتم ما فعلا ، ثم قال: يا مالك ارفع من معك إلى عليا بلادهم ، ثم الق الصباء[1] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ،وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

فقال مالك: والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ولم يقبل رأى دريد ، ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم ، وشدوا عليهم شدة رجل واحد .

عيون ترى الملائكة :

وبعث مالك عيونا له يأتونه بالخبر فرجعوا إليه ، وقد تفرقت أوصالهم وذهبت عقولهم ؛ فقال: ما شأنكم ؟ قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى ، ولم ينهه ذلك عن وجهه ، ولم يثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين ، والرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة ، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٢٦] أى لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة .

خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن :

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه هوازن من حربه والتصدى له ، إذ كان قد أرسل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى إلى هوازن لينظر ما هم عليه ، فذهب عبد الله ودخل بينهم وهم لا يعلمون به ، وتعرف إلى كل ما قاموا به ، وأجمعوا عليه ، وأتى النبى ﷺ فأخبره خبرهم ، فأجمع الرسول ﷺ المسير إليهم وبلغه أن صفوان بن أميه عنده أدرع وسلاح ، وكان لم يسلم بعد ، فاستعار منه مائة درع بما يصلحها من السلاح ، واستخلف على مكة عتاب بن

---

(١) الصباء: الخارجون من دين الله إلى دين آخر .

أسيد ، وخرج فى اثنى عشر ألفا ، ألفان من مسلمة الفتح ، وعشرة آلاف من الجيش الفاتح ، ولما ساروا قال قائل: لن نغلب اليوم من قلة ، وفى هذا يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥] .

طلب جاهلى مرفوض:

وأثناء مسير الجيش إلى حنين مروا بشجرة من السدر خضراء كبيرة ، فنادى رجال من مسلمة الفتح: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط – وهى شجرة كبيرة يزورونها كل سنة ويقومون عندها يوما وليلة ويعلقون بها أسلحتهم تبركا ويذبحون عندها– فلما سمع رسول الله ﷺ طلبهم قال: «**الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى:** ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]» ، ثم قال: «**إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم**» ورفض طلبهم الجاهلى ، ولم يعنفهم لأنهم حديثو عهد بالجاهلية ، وساروا حتى استقبلوا وادى حنين ، فانحدروا فيه وهو واد أجوف حطوط انحدارا وهم فى عماية الصبح ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادى فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فما راع المسلمين إلا الكتائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال: «**أيها الناس هلموا إلىّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله**» قالها ثلاثا ، ثم احتملت الإبل بعضها على بعض فى معترك عجيب إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته منهم: أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد .

وكان فى مقدمة هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رايته على رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فتصدى له على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فقتله وأراح الناس منه .

شماتة ذوى الضغائن:

ولما رأى مرضى النفوس – ممن ما زالت عداوة الإسلام كامنة فى نفوسهم ممن أسلم من أيام قلائل – لما رأوا هزيمة المسلمين لم يتمالكوا حتى قالوا الهجر ، فقال أبو سفيان بن حرب:

لن تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام معه فى كنانته ، وصرخ جبلة بن الحنبل قائلا: ألا بطل السحر ، فقال له صفوان بن أمية – وهو مشرك بعد ، إذ ما زال فى المدة التى أعطاه الرسول إياها ينظر فى أمر نفسه إما أن يسلم أو يهاجر أو يعدم – قال لأخيه جبلة: اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن ، وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه قد قتل بأحد مشركا ، وفعلا أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فلما أقبل عليه تغشى فؤاده شىء فلم يقدر على ما عزم عليه .

ودارت المعركة: وكان العباس مع النبى ﷺ آخذا بحكمة بغلته الدلدل وهو عليها ، وكان العباس جسيما شديد الصوت فقال له النبى ﷺ : «**يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة**» ففعل فأجابوه: لبيك لبيك حتى إن الرجل يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر فيأخذ سلاحه ثم ينــزل عنه ، ويؤم[1] الصوت فاجتمع على رسول الله ﷺ مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقاتلهم وهو يقول:

«أنا النبىُّ لا كذب أنا بنُ عبد المطلب»

«**الآن حمى الوطيس**[2] **واقتتل الناس قتالا شديدا**» وقال ﷺ لبغلته "الدلدل": «**ألبدى دلدل**» فوضعت بطنها على الأرض وأخذ حفنة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين فكانت الهزيمة ، فلما رجع الناس ممن فرو بعيدا إلا والأسارى فى الحبال عند رسول الله ﷺ ، وأنشدت امرأة مسلمة قائلة:

غلبـــتْ خيـــلُ الله خيـــلَ اللاتِ ::: وخَيْلُـــه أَحَـــقُّ بالثبـــات

ولما انهزمت هوازن قتل من ثقيف وبنى مالك سبعون رجلا ، فأما الأحلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين: لأنهم أسرعوا الهرب فنجوا ، وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك رئيس حربهم وتبعتهم خيل رسول الله ﷺ فقتلت بعضهم ، وكان بعض المشركين بأوطاس ، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعرى فى رجال ، أرسلهم إلى المنهزمين المتوجهين إلى أوطاس فناوشوه بالقتال ، فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه فقاتلهم حتى فتح الله على يديه فهزمهم ، وظفر المسلمون بالغنائم

---

(١) يؤم: يقصد .
(٢) الوطيس: اشتدت الحرب .

والسبايا فساقوا فى السبى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى فقالت لهم: والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبى ﷺ فقالت له: إنى أختك قال: «**وما علامة ذلك ؟**» قالت: عضة عضضتها فى ظهرى وأنا متوركتك فعرفها وبسط له رداءه وأجلسها عليه وخيرها فقال: «**إن أحببت فعندى مكرمة محببة وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك**» قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ففعل ﷺ ، وأمر ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت إلى الجعرانة ، وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعى ، واستشهد بحنين أيمن بن عبيدة ، وزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ، وغيرهما .

أنباء ذات خطر متفرقة :

وحدثت خلال غزوة هوازن أمور ذات بال إلا أنها متفرقة نذكرها هنا إتماما للفائدة وهى:

(أ) أمر أم سليم :

وهو أن النبى ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمة وسطها ببردها ، وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة: وقد خشيت أن يعزها أى يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خزامتها مع الخطام فقال لها رسول الله ﷺ : «**أم سليم ؟**» قالت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله ﷺ : «**أويكفى الله يا أم سليم**» . وكان معها خنجر فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته[1] به ، قال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء !؟ .

(ب) أمر أبى قتادة عجب :

إنه قال: رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلما وكافرا ، وإذا رجل مشرك يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقنى بيده الأخرى فوالله ما أرسلنى حتى وجدت الدم فكاد يقتلنى لولا أن الدم نزفه فسقط فضربته وأجهضنى عنه القتال ، أى شغلنى عنه فلم أسلبه ومر به رجل من أهل مكة فسلبه فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم قال رسول الله ﷺ : «**من قتل قتيلا فله سلبه**» فقلت: يا رسول الله والله لقد قتلت

---

(١) بعجت: شققت بطنه .

قتيلا ذا سلب فأجهضنى عنه القتال فما أدرى من استلبه ؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله ، وسلب ذلك القتيل عندى فأرضه عنى من سلبه ، فقال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه -: لا ، والله لا يرضيه منه تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه ؟ اردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله ﷺ : «صدق اردد عليه» فقال أبو قتادة: فأخذته منه فبعته فاشتريت بثمنه مخرفا[1] فإنه أول مال اعتقدته[2] .

(جـ) وأمر دريد بن الصمة أعجب:

وذلك أن ربيع بن رفيع أدرك دريد بن الصمة وهو على راحلته ، فأخذ بخطام الراحلة يقودها يظن أن عليها امرأة ، فأناخ الراحلة فإذا بالراكب رجل كبير السن أعمى ، والربيع بن رفيع لا يعرفه فسأله: من أنت ؟ فقال دريد: وماذا تريد منى ؟ قال: أقتلك ، قال: ومن أنت ؟ قال: أنا ربيع بن رفيع السلمى ، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا ، فقال له: بئس ما سلحتك به أمك ، خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ فإنى كنت كذلك أضرب الرجال ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك ، فلما رجع وأخبر أمه بقتله إياه قالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى كالآتى:

١- تقرير مبدأ حكيم وهو أن الرأى الصائب السديد من ذى الخبرة والتجربة يقدم على الشجاعة مهما كانت ، وحتى عن القوة مهما عظمت .

٢- آية النبوة المحمدية تتجلى فيما شاهده عيون المشركين من الملائكة - عليهم السلام - .

٣- مشروعية استعمال العيون " الجواسيس " فى الحروب لمعرفة قوة العدو ، وما عزم عليه .

٤- حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة إذ ترتب على لك هزيمة المؤمنين فى أول لقائهم لعدوهم .

---

(١) مخرف: سكة من النخل - سطر .
(٢) التملك بالعقد - عقد شراء .

٥- وجوب الحذر من التبرك غير الشرعي ، فإنه يؤدى إلى الشرك بالله تعالى .

٦- بيان الفرق بين من رسخ الإيمان فى قلبه ، وبين من لم يرسخ ، فإن الأخير سرعان ما يظهر جهله وظلمه .

٧- مشروعية إكرام الإخوة من الرضاعة .

٨- بيان فضل أم سليم امرأة أبى طلحة لمواقفها المشرفة .

٩- بيان حصافة رأى دريد بن الصمة وشجاعته الفذة وهو على جاهليته ، فكيف لو آمن وأسلم ؟ .

* * * * * * * * * *

ورابع عشر أحداثها :

حصار الطائف

إنه بعد الفتح ، والنصر على هوازن ، وثقيف بحنين ، وأوطاس ؛ وقد لاذت ثقيف ومن معها بالطائف حيث تحصنوا به وجمعوا فيه ما يحتاجون إليه إن طال الحصار بهم تبعهم رسول الله ﷺ وأصحابه فحاصروهم بمدينة الطائف الحصينة واستعمل فى فك الحصار دبابة ومنجنيقا بإشارة سلمان الفارسى ، ومع هذا فلم يتيسر فتح الطائف ، لأن المشركين استعملوا سلك الحديد المحماة وضربوا بها الدبابة فخرج منها رجالها وتعرضوا لنبل المشركين الذى صبوه عليهم من الحصون كالمطر ، فقتل من المسلمين رجال ، وأمر النبى ﷺ بقطع أعنابهم لعلهم يفكون الحصار فلم يجد ذلك فيهم .

وأثناء الحصار نزل بعض الرقيق من الحصون ، فأعتقهم النبى ﷺ منهم: أبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة ، وكنى بأبى بكرة لنــزوله من الحصن ببكرة ، وطالت مدة الحصار فاستشار النبى ﷺ بعض رجاله من ذوى الرأى ، فقال نوفل بن معاوية الدؤلى: يا رسول الله هم كثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، فأذن بالرحيل بعدما أقام بضعا وعشرين يوما .

ولما كان ﷺ سائرا إلى الطائف وانتهى إلى نجرة الرغاء أمر بقتل رجل من بنى ليث قصاصا لأنه قتل رجلا من هذيل ، فكان أول دم أقيد به فى الإسلام ، ولما رجع الناس قال رجل

من المسلمين: يا رسول الله ادع على ثقيف فقال: «**اللهم اهد ثقيفا وائت بهم**» .

واستشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلا: سبعة من قريش ، وخمسة من الأنصار ، من بينهم: عبد الله بن أبي بكر الصديق ، مات بالمدينة متأثرا بجراحاته وذلك بعد وفاة النبي ﷺ .

أحداث يحسن ذكرها :

وتخلل حصار الطائف أحداث نجمل ذكرها فيما يلي :

١- أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر الطائف: «**إني رأيت أني أهديت لي قعبة مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها**» فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ : «**وأنا لا أرى ذلك**» .

٢- لما أسلمت الطائف طالب أهل العبيد الذين نزلوا من الحصن على رسول الله ﷺ أيام الحصار فأعتقهم طالبوا بردهم إلى سيادتهم ، أبى ذلك رسول الله ﷺ وقال: «**أولئك عتقاء الله**» .

٣- لما حاصر النبي ﷺ ثقيفا ضربت له قبتان: إحداهما: لزوجه أم سلمة - رضى الله عنها - والثانية للأخرى ، وكان ﷺ يصلي بين القبتين ، فلما أسلمت ثقيف بني على مصلى رسول الله ﷺ عمرو بن أمية بن وهب مسجدا ، ولعله هو مسجد ابن عباس اليوم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي:

١- بيان مدى ما كان عليه رسول الله ﷺ من الحزم والعزم في إنفاذ أمر الله تعالى .

٢- مشروعية استشارة ذوي الرأي ، وعدم الاستبداد بالرأي مع وجود ذوي الرأي السديد .

٣- مشروعية استعمال أحدث الأسلحة وأجداها في الحرب لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، بأن لا تكون فتنة ويعبد الله وحده لا شريك له .

٤- مشروعية إقامة الحدود في غير دار الإسلام إذا كان هناك أمن وعدم خوف .

٥- استجابة دعوة الرسول ﷺ وهى آية من آيات نبوته ، إذ هدى الله ثقيفا وأتى بهم .

٦- مشروعية قص الرؤيا على العبد الصالح ، ومشروعية تأويلها .

٧- بيان فضيلة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وبيان مدى ما كان يلقى من رسول الله ﷺ من التقدير والاحترام .

* * * * * * * * * * *

وخامس عشر أحداثها :

قسمة غنائم حنين

ولما رحل ﷺ من الطائف أتى الجعرانة حيث إن المال والسبى محبوسان بها ، وقبل الشروع فى قسمة الغنائم جاء وفد هوازن يعلن إسلامه ، ويطلب سبيه وأمواله فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا من الله عليك ، وقام زهير المكنى بأبى صُرد فقال: يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا - أى أرضعنا - للحارث بن أبى شمر ، أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين وأنشد يقول:

امْنُنْ رسول الله فى كرمٍ ::: فإنك المرءُ نرجوه وندّخرُ
امْنُنْ على نِسْوةٍ قد عَاقَها قدرٌ ::: مُمَزِّقٌ شملَها فى دهرها غيرُ

وعندئذ خيرهم رسول الله ﷺ بين نسائهم وأبنائهم وأموالهم ، فاختاروا نساءهم وأبناءهم فقال ﷺ : «**أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم**» ثم قال: «**فإذا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم وأسأل فيكم**» .

فلما صلى الظهر بالناس فعلوا ما أمرهم فقال رسول الله ﷺ : «**ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم**» ، وقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأقرع بن حابس: ما كان لى ولبنى تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن: ما كان لى ولفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس: ما كان لى ولسليم فلا ، فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال عباس: وهنتمونى !! .

فقال رسول الله ﷺ : «**من تمسك بحقه من السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول فىء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم**» .

وغاب مالك:

وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف قائد الحرب الخاسرة ، فقيل: إنه بالطائف فقال: «**أخبروه أنه إذا أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله**» فأخبروه فجاء سرا فأسلم وحسن إسلامه فأعطاه رسول الله ﷺ أهله وماله ، ومائة بعير واستعمله على قومه ، وعلى من أسلم من تلك القبائل ، وكان له عمل مشكور حيث ضيق على المشركين بالإغارة عليهم حتى أسلموا ، وقال شعرا يمدح فيه رسول الله ﷺ هذا نصه:

مـا إن رأيـتُ ولا سمعـتُ بمـثله ::: فى الـناس كلّهـم بمـثل محمـد
أوفى وأعطـى لـلجزيل إذا اجتدىَ ::: ومـتى تشـأ يخـبرْك عمـا فى غد
وإذا الكتيـبةُ عـرَّدت أنـيابها ::: بالسـمهرى وضـرب كُـلّ مهند
فكأنـه ليـثٌ علـى أشبالـه ::: وَسْطَ الهباءة خـادرٌ[1] فـى مَرصدِ

مطالبة النبى الكريم:

ولما رد النبى ﷺ السبايا ركب على بعيره فاتبعه الناس يقولون يا رسول الله أقسم علينا الفىء حتى اضطروه إلى شجرة من شدة الزحام عليه ، فلصق رداؤه بأغصان شجرة ، فقال: «**ردوا على ردائى أيها الناس فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم لا تجدونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا**» ثم رفع وبرة من سنام بعير وقال: «**ليس لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس وهو مردود عليكم**» .

ثم أعطى المؤلفة قلوبهم وهم أشراف الناس يتألفهم على الإسلام ، فأعطى أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ، وأعطى حكيم بن حزان ، والعلاء بن حارية الثقفى ، والحارث بن هشام وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ومالك بن عوف النصرى . أعطى كل واحد منهم مائة بعير ، وأعطى دون المائة رجالا آخرين ، وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها فزاده حتى رضى .

---

(١) الهباءة: التراب الذى تطيره الريح . الخادر: الأسد فى عرينه .

من لا يُعطى خير ممن يُعطى:

ولما شاهد العطاء رجل فقال: يا رسول الله أعطيت عيينه ، والأقرع ، وتركت جعيل بن سراقة ، فقال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده لجعيل خير من طلاع الأرض رجالا كلهم مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أتألفهم ، ووكلت جعيلا إلى إسلامه**» .

موجدة الأنصار:

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من أموال لقبائل قريش وهوازن وتميم ، ولم يعط الأنصار شيئا ، وجدوا فى أنفسهم حتى قال قائل منهم: لقى رسول الله قومه !! وأخبر سعد بن عبادة رسول الله ﷺ بذلك فقال له: «**فأين أنت يا سعد؟**» قال: أنا من قومى ، قال: «**فاجمع قومك لى**» فجمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما حديث بلغنى عنكم ؟ ألم آتيكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ وفقراء فأغناكم الله بى ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بى ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله ، والله ولرسوله المن والفضل فقال: «**ألا تجيبونى ؟**» قالوا: بماذا نجيبك ؟ فقال: «**والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، والذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار**» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم بالدموع ، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا وتفرقوا فعادوا إلى رحالهم .

واعتمر الحبيب ﷺ :

وكان شهر ذى القعدة قد دخل فأحرم رسول الله ﷺ والمسلمون معه من الجعرانة ، وأمر ببقايا الفيء فسبقت إلى مجنة فحبست بها وهى بناحية مر الظهران ودخل مكة ملبيا بعمرة فطاف وسعى وحلق وتحلل واستخلف على مكة عتاب بن أسيد ، وجعل له راتبا هو درهم كل يوم ، وخلف معه معاذ بن جبل يعلم الناس الدين ويفقههم فيه ، وخطب عتاب الناس فى مكة ، فقال: أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد ، وعاد الحبيب بأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة ، فوصلها لست ليال بقين من القعدة .

وبقى أهل الطائف على شركهم إلى شهر رمضان من سنة تسع من هجرة الحبيب ﷺ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى الآتية:

١- لحسن القول وطيب الكلام أثر فى نفس من قيل فيه كسنة عامة قلما تتخلف .

٢- تقرير مبدأ من طالب بمكرمة فليكن البادى بها فإنه يعطاها .

٣- بيان جفاء وغلظة الأعراب لبعدهم عن الحضارة فلم يتروضوا .

٤- بيان الكمال المحمدى فى خلقه ومروءته فهى بذلك مضرب المثل وفى القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ من سورة [القلم: ٤] .

٥- مظاهر الكمال المحمدى فى حسن السياسة والتدبير الأمر الذى لا يجارى فيه قط .

٦- فضل جعيل – رضى الله عنه وأرضاه – وهنيئا له بما ولاه الله وشرفه به رسول الله .

٧- فضيلة الأنصار ، وبيان ما حباهم الله به من حب الحبيب ﷺ ودعائه لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم وهم أهل القرون الثلاثة المفضلة أى الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وتابعوهم إلى ثلاثة قرون .

٨- مشروعية الاعتمار فى الشهر الحرام ، وبيان أن الجعرانة ليست من الحرم .

٩- مشروعية كفالة رزق العامل للدولة .

١٠- مشروعية تولية الولاة وتعيين المعلمين والمفقهين للناس فى دينهم .

* * * * * * * * * * *

أهم أحداث سنة ثمان من هجرة الحبيب ﷺ

من أبرز الأحداث التاريخية فى سنة ثمان غير السرايا والغزوات ما يلى إزاء النقاط السوداء :

* تزوج الرسول ﷺ بفاطمة بنت الضحاك الكلابية ، واستعاذت من الرسول ﷺ ففارقها فورا .

* ولد إبراهيم بن النبي ﷺ من جاريته مارية القبطية ، ودفع إلى أم بردة بنت الأنصارية فكانت مرضعته – عليه السلام – .

* بعث الرسول ذات أطلاح من الشام إلى نفر من قضاعة يدعوهم إلى الإسلام ، ومعه خمسة عشر رجلا فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، وقتلوا المسلمين إلا أميرهم كعبا فإنه نجا وعاد إلى المدينة .

* بعث النبي ﷺ عيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم فأغار عليهم وسبا منهم نساء وكان على عائشة – رضى الله عنها – عتق رقبة من ولد إسماعيل نذرتها نذرا فقال لها رسول الله ﷺ : «هذا سبى بنى العنبر يقدم علينا فنعطيك إنسانا تعتقينه» فجاءت وأعطاها فأعتقته ، ودل على هذا على أن بني تميم من ولد إسماعيل .

بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في مائة وخمسين رجلا إلى ذى الخلصة وهي بيت لخثعم ، وبجيلة فيها نصب يعبد يقال له: الكعبة اليمانية ، فأتاها فأحرقها بالنار وكسرها ، ولما بلغ الخبر النبي ﷺ بارك على خيل أحمس ورجالها خمس مرات .

* * * * * * * * * * *

ودخلت السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها :

إسلام كعب بن زهير بن أبى سلمى

إن كعب بن زهير كان شاعرا كأبيه زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة ، وكان كعب قد هجا النبي ﷺ فكتب إليه أخوه ، وقد أسلم وحسن إسلامه: كتب إليه يخبره بأن النبي ﷺ قد أمر بقتل كل من هجوه وآذوه من الشعراء ، إلا أنه من جاء مسلما تائبا يعفو عنه ويسامحه ، وعليه فأنصح لك أن تأتى النبي ﷺ بالمدينة وتسلم وتنجو ، وإلا فانج بنفسك حيث تجد مكانا للنجاة ، وأن من بقى من الشعراء في قريش ابن الزبعرى ، وهبيرة بن أبي وهب ، وقد هربوا في كل وجه ، لكن كعبا لم يأخذ بنصيحة أخيه وقال:

أَلا أَبْلِغَـــا عـــنى بجـــيرًا رســـالةً ::: فهـــل لكَ فيما قلتَ وَيْحَك هلكا؟
فَبَـــيِّن لـــنا إن كنتَ لستَ بفاعل ::: عـــلى أى شـــىء غـــير ذلك دلكا

عــلى خُلُــقٍ لم تُلــفَ أما ولا أبا ::: علــيه ولم تــدرك علــيه أخــا لكا
فــإن أنــتَ لم تفعلْ فلست بآسف ::: ولا قــائل إمــا عــثرت: لعــا لكا
سقــاك بهــا المأمــونُ كأســاً رَوِيَّةً ::: فأنهلكَ المأمــونُ منهــا وعلَّكــا

ولما بلغ بجيرا ما قاله كعب أخبر به رسول الله ﷺ فغضب ﷺ وأهدر دمه فكتب بذلك بجير إلى كعب ، وقال: إذا أتاك كتابى هذا فأسلم وأقبل على رسول الله ﷺ فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله ، فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد ورسول الله ﷺ مع أصحابه ، قال كعب: فعرفته بالصفة فتخطيت الناس إليه فأسلمت وقلت: الأمان يا رسول الله هذا مقام العائذ بك قال: «من أنت ؟» فقلت: كعب بن زهير . قال: «الذى يقول» ثم التفت إلى أبى بكر فقال: «كيف قال؟» فأنشده أبو بكر الأبيات التى أولها:

ألاَ أبلغــا عنــى بجيــرًا رسالــةً

فقال كعب: ما هكذا قلت يا رسول الله؟ إنما قلت:

سَقَــاك أبو بكر بكأسٍ رويــةٍ ::: فأنهلك المأمونُ منها وعلكــا

فقال رسول الله ﷺ : «مأمون والله» - فتجهمته الأنصار وأغلظت له القول ولانت له قريش وأحبت إسلامه ، فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته التى أولها:

بانــتْ سعــادُ فقلبــى اليــوم متبول ::: متيــمٌ إثرهــا لــم يُفْــدَ مكبولُ

فلما انتهى إلى قوله :

وقــال: كُــلُّ خلــيل كنــتُ آمله ::: لا أُلهيــنَّك إنى عــنه مشــغولُ
نُبِّئْــتُ أن رســولَ الله أوعــدنى ::: والعفــو عــند رســول الله مأمولُ
فى فتــية مــن قــريش قال قائلُهم ::: ببطن مكــة لمــا أســلموا: زُولوا
زالــوا فمــا زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ ::: عــند اللقــاء ولا مــيلٌ معــاذيلُ
لا يقــعُ الطعــنُ إلا فــى نحورهــم ::: وما لهم عــن حياض المــوت تهليــلُ

ونظر رسول الله ﷺ إلى قريش فأومأ إليهم أن اسمعوا حتى قال:

يمشون مشى الجمالِ الزهرِ يعصمُه ::: ضربٌ إذا عرّد السُّودُ التنابيلُ

يعرض بالأنصار لغلظتهم التى كانت عليه ، فأنكرت قريش قوله ، وقالوا: لم تمدحنا إذا

هجوهم ، و لم يقبلوا ذلك منه ، وعظم على الأنصار هجوه فشكوه فقال يمدحهم:

مَــنْ سَــرّه كَــرمُ الحــياة فلا يزل ::: فى مِقْنــب مــن صــالحى الأنصار
الــباذلين نفوسَــهم ودمــاءهم ::: يــوم الهــياج وســطوة الجــبار
يتطهــرون كأنــه نُسُــكٌ لهــم ::: بدمــاء مــن قتلــوا مــن الكفــار

فى أبيات كثيرة وعندها كساه النبى ﷺ بردة كانت عليه .

ولما كان زمن معاوية بعث إليه يطلب شراءها منه فأبى ، وقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا ، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم ، وبقيت تلك البردة زمنا طويلا يتوارثها الخلفاء ، ولعلها الآن فى متحف الآثار بتركيا .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها كالآتي:

١- حب المدح وكراهية الذم فطرى فى الإنسان ، فهو كما قيل:

يهــوى الثنــاء مبــرز ومقصــر ::: حــب الثنــاء طبيعــة الإنســان

٢- ذكاء كعب يتجلى فى إسلامه وإتيانه النبى ﷺ ومعرفته بالصفة بدون سؤال عنه ، وفى سرعة بداهته حيث يمدح ويعرض ويغضب ويرضى فى الجلسة الواحدة .

٣- مشروعية مدح الرسول ﷺ وفضيلته إذا خلا من الغلو المحرم الذى نهى عنه ﷺ .

٤- بيان تنافس الصحابة ومن بعدهم فى الآثار المحمدية ، وحق لهم ذلك حتى إن البردة اشتريت بعشرين ألف درهم .

٥- تجلى الكرم المحمدى فى عفوه عن كعب وكسوته بردته بعد إهداره دمه .

****

وثانى أحداثها :

غزوة تبوك

غزوة تبوك تعتبر من أعظم مغازى الحبيب ﷺ وذلك لصعوبة الظرف الذى وقعت فيه ، إذ هو ظرف جدب ومجاعة وشدة حر ، وبعد مكان وشقة ، وكثرة عدو وقوة ، ولم يكن هناك

نفير عام فى غزوة غير هذه ، ولم يكن الرسول القائد الأعظم ﷺ ليحدد اتجاهه فى غزوة من الغزوات إلا فى هذه .

كل هذا أو غيره جعل غزوة تبوك من أعظم الغزوات ، ويدل على ذلك ويشهد له الآيات العديدة من سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٣٨] فى آيات عديدة ، وآخر تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآيات ، وسمى جيشها بجيش العسرة إذ بلغت العسرة يومها أشدها .

أسباب هذه الغزوة:

إن السبب الرئيسى فى هذه الغزوة الصعبة: أن النبى ﷺ بلغه أن هرقل ملك الروم ، ومن معه من العرب المتنصرة من قبائل لخم ، وجذام قد أجمعوا المسير إلى الحجاز لحرب محمد ﷺ والمسلمين مبادرة منهم له حتى لا يكون هو الذى يغزوهم بعد أن ذاقوا مرارة غزوة مؤتة التى جلبوا لها مائتى ألف مقاتل ، ولم يتمكنوا من إبادة ثلاثة آلاف مقاتل لا غير ، بل ولا حتى هزيمتهم والحمد لله .

التعبئة العامة:

وأعلن الحبيب ﷺ لأول مرة عن قصده فلم يور ولم يعم كما كان قبل يورى ويعمى على العدو ، بل أمر الناس بالجهاز ، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم وأعلن التعبئة العامة ، وتجهز أقوام وتباطأ آخرون ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿ انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ [التوبة: ٤١] .

جمع المال لخوض المعركة:

ولما كان المال ضروريا للتجهيز الكامل من رجال وسلاح وكراع ، أمر الحبيب القائد العظم ﷺ ، بجمع الأموال ، وتسابق الصالحون فى هذا الميدان ، فأنفق أبو بكر الصديق كل ما يملك ، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ما يملك ، وأنفق عثمان نفقة قال فيها رسول الله ﷺ :

«اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض» إنه جهز جيش العسرة وحده أو كاد إذ أنفق ألف دينار وألف بعير ، وحمل رجال من أهل اليسار والغنى واحتسبوا أجرهم على الله تعالى .

اعتذار كاذب:

ووجه النبى ﷺ الدعوة رسميا إلى الجد بن قيس لضلوعه فى النفاق فقال: «**يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟**» فقال: يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى لأخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه النبى ﷺ وقال: «**قد أذنت لك**» وفيه نزل قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩] فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩] تلويح بكفرهم ، وذلك لرغبتهم بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ .

اعتذار مردود:

وجاء نفر من غفار وهم أعراب فى البادية حول المدينة يعتذرون عن التخلف فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ، ولم يأذن لهم فى التخلف ، وقعد كبار المنافقين عن الاعتذار ، وعن الخروج مع رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وفى هؤلاء وأولئك نزل قوله تعالى: ﴿ وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٠] .

تخلف من غير شك:

وقد تخلف أناس عن الخروج إلى تبوك لا رغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ ولكن غلبتهم نفوسهم لصعوبة الظرف لا سيما ، وقد آن أوان الرطب ، وظلال الأشجار فى آخر الصيف ، فاعتذروا بعد عودة الرسول ﷺ ، وقبل عذرهم وتاب الله عليهم ، وأرجأ توبة ثلاثة منهم امتحانا لهم ، لأنهم من كبار الصحابة ، وخيرتهم وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، حتى ذاقوا مرارة المقاطعة التى أعلنها رسول الله ﷺ ، فمحصوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ،وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم .

البكاءون:

إنهم سبعة رجال من أهل الإيمان الصادق والإسلام الحسن كانوا أهل حاجة وفقر فلم يجدوا زادا ولا راحلة ، وعز عليهم التخلف فأتوا رسول الله ﷺ يبكون وقالوا: احملنا يا رسول الله ، فكيف نتخلف ؟ فلم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه فرجعوا إلى بيوتهم يبكون ، فكادت أعينهم تفيض من الدمع حزنا ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] .

مسير الحبيب ﷺ :

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة ، وعلى أهله على بن أبي طالب وأرجف المنافقون ، وقالوا: ما خلف عليا إلا استثقالا له ، فسمع ذلك على ، فلحق برسول الله ﷺ حاملا سلاحه ، وأخبره بما قال المنافقون ، فقال: «**كذبوا وإنما خلفتك لما ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى؟**» فرجع على ، وسار رسول الله ﷺ فى طريقه إلا جلاد بنى الأصفر .

المثبطون:

وقبل مسير الحبيب ﷺ بلغه أن جماعة من المنافقين يجلسون فى بيت أحدهم وهو سويلم اليهودى يثبطون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ويقولون لا تنفروا فى الحر ، تزهيدا فى الجهاد ، وتشكيكا فى الحق ، وإرجافا برسول الله ﷺ فأنزل فيهم قوله: ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١] وأمر الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا ، وفى هذا يقول الضحاك:

كـادتْ - وبيـتُ الله - نارُ محمد ::: يشـيطُ بهـا الضـحاكُ وابنُ أُبيرقِ
وظلـتْ وقـد طبقت كبس سُويلمٍ ::: أنـوء عـلى رجلى كسيرا ومرفقى
سـلامٌ عليكـم لا أعـودُ لمثلهـا ::: أخافُ ومن تشملْ بـه النـار يحـرقِ

أبو خيثمة يفوز:

وتأخر عن المسيرة أبو خيثمة ، وكان له زوجتان وجاءهما يوما فوجد كل واحدة منهما قد رشت بالماء عريشها وبردت الماء له ، وصنعت الطعام فلما رأى ذلك أبو خيثمة ، قال على الفور: أيكون رسول الله ﷺ في الحر والريح وأبو خيثمة في الظل والماء البارد مقيم؟ ما هذا بالنصف؟ أي بالإنصاف ، والله ما أحل عريشا منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيأ زاده وخرج إلى ناضحه (جمله) فركبه ، وجرى وراء رسول الله ﷺ فأدركه في تبوك ، ورآه الناس من بعيد فقالوا: يا رسول راكب مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : «كن أبا خيثمة» فقالوا: هو والله أبو خيثمة ، وأتى رسول الله ﷺ وأخبره بخبره ، فدعا له ففاز بدعوة الحبيب ﷺ وقال: أبو خيثمة في قصته هذه شعرا هذا نصه:

ولما رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا ::: أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرَما
وبايعتُ باليمنى يدى لمحمد ::: فلم أكْتَسبْ إثما ولم أغشَ مَحْرَمَا
تركتُ خضيبا على العريش وحرمةً ::: صفايا كراما بسرها قد تحمما
وكنتُ إذا شَكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ ::: إلى الدين نفسى شطره حيث يَمَّمَا

من أعلام النبوة:

ولما مر النبي ﷺ بالحجر – وهي ديار ثمود وهو في طريقه إلى تبوك – نزل بها واستقى الناس من بئرها فلما زاحوا قال رسول الله ﷺ : «**لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، ولا يخرجن أحد منكم الليل إلا ومعه صاحب له**» ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته مخالفا أمر رسول الله ﷺ بعدم الخروج وحده فخنق في طريقه ، وخرج الآخر في طلب بعير له مخالفا أمر رسول الله ﷺ فاحتملته الريح حتى طرحته في جبال طيئ ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه؟**» ثم دعا للذى أصيب بخنق الجن فشفى ، وأما الآخر الذى وقع في جبال طيئ ، فإن طيئا أهدته لرسول الله ﷺ بعد عودته للمدينة ، فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية .

وأخرى: فقد كان رجل من المنافقين معروفا بالنفاق يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار

ولما مر رسول الله ﷺ بديار ثمود غطى وجهه بثوبه واستحث السير ، وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» .

وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فدعا ربه ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، وأخذوا حاجتهم من الماء فكانت آية من آيات النبوة ، وقيل لذلك المنافق ويحك هل بعد هذا شيء أي من الشك في نبوة محمد ﷺ فقال: سحابة مارة ! .

وثالثة: ونزل الرسول ﷺ والمؤمنون منــزلا فضلت راحلة النبي ﷺ فخرج أصحابه يطلبونها ، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال عمارة بن حزم وكان عقبيا بدريا ، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي – وكان منافقا – فقال وهو في رحل عمارة ، وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعم انه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى: أين ناقته؟ فقال النبي ﷺ وعمارة عنده: «**إن رجلا – يعني ابن اللصيت المنافق – قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، انطلقوا حتى تأتوني بها**» فذهبوا فجاءوا بها فكانت آية من آيات النبوة المحمدية ، ورجع عمارة من عند رسول الله ﷺ إلى رحله فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذي قال زيد بن اللصيت ، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ ، قال زيد – والله – هذه المقالة قبل أن تأتي فأقبل عمارة على زيد يجأر عنقه – أي يطعن بيده في عنقه – ويقول: إليّ عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني .

ورابعة: ويمضي رسول الله ﷺ في مسيرة إلى تبوك ويتخلف عنه الرجل فيخبر بذلك فيقول: «**دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوم أبا ذر على بعيره – أي تمهل وتمكث – فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع آثار رسول الله ﷺ ماشيا على رجليه ومتاعه على ظهره ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن رجلا يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : «**كن أبا ذر**» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله إنه هو أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : «**رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت**

وحده ويبعث وحده» .

وتمضى الأيام والأعوام ، وينفى أبو ذر إلى الربذة ، ويحضره الموت هناك وليس معه إلا امرأته وغلامه ، وقبل موته أوصاها إذا مات ان يغسلاه ويكفناه ويضعاه على الطريق ، وأول ركب يمر عليكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله فاعينونا على دفنه ، وفعلا فعلا به ذلك وجاء عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق عمار فلم يرعهم إلا والجنازة على قارعة الطريق كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام ، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه ، فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى ويقول: صدق رسول الله ﷺ : تمشى وحدك وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، ثم نزل هو وأصحابه فواروه التراب فكانت آية من آيات النبوة المحمدية .

وخامسة: بواد المشقق فى طريق تبوك ماء يخرج من وشل[1] قدر ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة فقال رسول الله ﷺ : «**من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه**» إلا أن منافقين سبقوا إليه فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله ﷺ، وقف عليه فلم ير فيه شيئا من الماء ، قال: «**من سبقنا إليه ؟**» قيل له: يا رسول الله فلان وفلان فقال: «**أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه؟**» ، فلعنهم ﷺ ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبب فى يده ما شاء أن يصب ، ثم نضحه به ومسحه بيده ، ودعا ﷺ بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء كما يقول – من سمعه –: ما إذا له حس كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية .

المقام المبارك:

وانتهى مسير الحبيب ﷺ بنـــزوله بتبوك ، وأقام بها بضع عشرة ليلة إلى عرشين ، وكان يقصر الصلاة ، ويجمع الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء تخفيفا على أصحابه ، وحتى لا يوقعهم فى حرج أو مشقة ، ولم يتم الصلاة خلال هذه المدة لأنه لم تحدد مدة إقامته ، وإنما ينتظر الأمر من ربه تعالى ، إذا أمره بالإقامة أقام وإذا أمره بالمسير سار ، وقد استشار أصحابه فى التقدم إلى الشام والمسير إلى بلاد الروم فقال له عمر: إذا كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال ﷺ : «**لو أمرت ما استشرتكم فيه**» فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها

---

(١) الوشل: ماء قليل يتحلب من صخر أو جبل .

أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم وأفزعتهم دونك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك فى ذلك أمرا ، فانصرف رسول الله ﷺ عائدا إلى المدينة ، و لم يلق كيدا فقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر ، فلم يخرج إليه الروم ، و لم يقربوا من ساحته خوفا ورعبا منه ﷺ بعد أن عزموا على حربه وغزوه فى عقر داره .

خطبة نبوية جامعة :

ولما أصبح رسول الله ﷺ بتبوك خطب خطبة عظيمة جامعة هذا نصها:

حمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ، ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر فى القلب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والسكر كى من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، وشر المال مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسبابة المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتآل على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يتصبر يغفر الله له ، ومن يعص الله يعذب» ثم استغفر ثلاثا .

* * * * * * * * * * *

إيجابيات نبوية :

وأثناء إقامته ﷺ بتبوك اتخذ خطوات إيجابية عظيمة وموفقة ولله الحمد وهى:

(أ) إتيانه بيحنة بن رؤبة صاحب أيلة ومصالحته على جزية مقدارها ثلثمائة دينار ، وكتب له بذلك كتابا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر» .

* * * * * * * * * * *

(ب) أتاه أهل جرباء وأذرح وهما بلدان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأعطوه الجزية وكتب لهم بذلك كتابا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح ، وجرباء: إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد النبى ، وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين» .

(جـ) بعث ﷺ خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين رجلا إلى أكيدر بن عبد الملك الكندى ، وكان ملكا فى دومة الجندل التى هى حصن وقرى من قريات وادى القرى ، وحصنها يقال له مارد وهو حصن أكيدر الخاص به ، وقال خالد لرسول الله ﷺ : كيف لى به وسط بلاد كلب ، وأنما وأنا فى أناس قليل ؟ فقال رسول الله ﷺ : **«ستلقاه يصيد الوحش - أو قال البقر - فتأخذه»** ، فخرج خالد ومن معه ، فلما بلغوا قريبا من حصنه ، وكانت ليلة مقمرة صائفة ، وأكيدر على سطح له فى الحصن ومعه امرأته فبات البقر يحك بقرونه باب الحصن ، وأشرفت امرأته على باب الحصن فقالت: ما رأيت كالليلة فمن يترك هذه الليلة ؟

قال: لا أحد ، فنـــزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فاستأسر أكيدر ، وامتنع حسان فقاتل فقتل وهرب من كان معه ، ودخلوا الحصن ، وكان على أكيدر قباء مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد منه ، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه ، قال أنس: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه ويعجبون منه فقال رسول الله ﷺ : «**أتعجبون من هذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذا ؟**» .

ثم إن خالدا قدم بأكيدر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحقن دمه ، وصالحه على الجزية فرجع إلى قريته وبقى بها ، وكان نصرانيا فلم يسلم ، وقتل كافرا حيث حاصره خالد على عهد أبي بكر الصديق لنقضه العهد ، فهلك كافرا مشركا .

حدث هام :

لاشك أن أحداثا كثيرة وقعت فى ذهاب الحبيب ﷺ إلى تبوك ، وفى مجيئه منها ، وقد ذكرنا طرفا منها للعظة والاعتبار ، وهذا حدث هام وقع فى طريق العودة ، إنها مؤامرة دنية قام بها أدنياء سفلة منافقون: إنهم اثنا عشر منافقا من شر المنافقين تواطئوا على قتل رسول الله ﷺ ، وذلك بأن يضايقوه فى عقبة فى الطريق حتى يسقط عن راحلته فيهلك ، وفعلا لما وصل إلى العقبة وكان حذيفة بن اليمان آخذا بخطام ناقته ﷺ ، وعمار بن ياسر يسوقها ، وإذا باثنى عشر راكبا قد اعترضوا ناقة رسول الله ﷺ قال حذيفة – رضى الله عنه –: فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ فيهم فولوا مدبرين ، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ودعا عليهم رسول الله ﷺ فأصابتهم الدبيلة ؛ وهى خراج يخرج فى الظهر فيظهر على القلب فيهلك صاحبه ولا ينجو أبدا .

يا ليتنى كنت صاحب الحفرة :

إن صاحب هذه الأمنية عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – وصاحب الحفرة هو عبد الله ذو البجادين ، ذلك المؤمن الذى كان ينازع فى إيمانه ويأبى عليه قومه الإسلام ، حتى اضطروه إلى أن يهاجر ويترك أهله وقومه فى بجاد هو وثوب غليظ كالكساء ، ولما وصل المدينة وقارب أن يرى رسول الله ﷺ قسم بجاده قسمين فائتزر بنصفه وارتدى بنصفه الآخر فقيل له:

ذو البجادين قال عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار ناحية المعسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ فى حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول: «أدنيا إلىّ أخاكما» فدلياه فلما هيأه لشقه قال: «**اللهم إنى أمسيت راضيا عنه فارض عنه**» . قال عبد الله بن مسعود فقلت: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة !! .

مسجد الضرار:

مسجد الضرار . عبارة عن وكر مؤامرات أقيم لمناوأة رسول الله ﷺ والمسلمين بالمدينة بناه اثنا عشر رجلا من كبار المنافقين ، ولما فرغوا منه أتوا النبى ﷺ وهو يتجهز لغزوة تبوك ، وطلبوا منه أن يأتيهم ويصلى لهم فيه ليأخذ الصبغة الشرعية وإنهم لكاذبون ، إلا أن الرسول ﷺ اعتذر لهم بقوله:

«**إنى على جناح سفر ، وحال شغل**» أو كما قال: «**ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه**» .

ولما غزا رسول الله ﷺ تبوك وعاد ووصل إلى ذى أوان ونزل بها – وهى على ساعة من المدينة – أتاه خبر المسجد إذ نزل فيه قرآن وهو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [التوبة: ١٠٧] الآية .

فدعا ﷺ اثنين من أصحابه هما مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف ، ومعن بن عدى أخو بنى العجلان . فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه**» ، وفعلا أتياه فهدماه وحرقاه ، وتفرق أهله عنه وتركوه للنار تلتهمه .

عود مبارك واستقبال حافل:

ولما دنا رسول الله ﷺ ، عائدا من تبوك خرج أهل المدينة لاستقباله والجوارى ينشدن:

طلع البدرُ علينا ::: من ثنيات الوداع
وجبَ الشكرُ علينا ::: ما دعا لله داع

وهنا قال ﷺ : «**إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا**

معكم حبسهم العذر» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة قال: «نعم وهم بالمدينة» .

الرهط المتخلف:

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة وذلك فى رمضان وأعلام النصر عالية خفاقة وسر المؤمنون والمؤمنات بعودة الحبيب سالما منتصرا ظافرا ، أتى المسجد فصلى ركعتين ، وجاء المخلفون من المنافقين يحلفون ويعتذرون طالبين الصفح والعفو ، فعفا عنهم وصفح لكن الله عز وجل لم يعذرهم ، وكذا رسوله ﷺ إذ لا عذر لهم ولم يقعد بهم إلا نفاقهم وسوء ظنهم ، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ – أى لن نصدقكم –﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ [التوبة: ٩٤] وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦] .

هذا وهناك ثلاثة من صالحى المؤمنين تخلفوا عن المسير مع رسول الله ﷺ – لا شكا ولا نفاقا – ولكن كسلا وتسويفا ، وهم: كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية – رضى الله عنهم – أعلن الرسول الحبيب ﷺ مقاطعتهم وهجرانهم حتى ينـــزل الله حكمه فيهم بتعذيبه ، أو بالتوبة عليهم ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦] .

ودامت مقاطعتهم وهجر الناس لهم مدة خمسين يوما ثم تاب الله عليهم وأنزل فى توبتهم قوله: ﴿ لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧ ، ١١٨] .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى:

١– مشروعية إعلان التعبئة العامة والنفير التام ، ولا يحل يومئذ لأحد التخلف إلا أن يكون من أهل الأعذار ، أو يتخلف بإذن الإمام الخاص .

٢– مشروعية افتتاح اكتتابات عامة لجمع المال للجهاد فى سبيل الله تعالى .

٣- قد يقصر المجتهد ، ويتأخر المتقدم كما قيل: لكل جواد كبوة ، ولكل سيف نبوة .

٤- بيان رفع الحرج على ذوى الأعذار كالعمى والعرج والمرض والعجز المالى .

٥- من آيات الإيمان ومظاهره لدى المؤمنين البكاء الصادق عن العجز عن السير .

٦- بيان أن المثبطين عن الجهاد والمرجفين بين صفوف المؤمنين لم يكونوا مؤمنين .

٧- بيان فضيلة أبى خيثمة وأبى ذر ، وذى البجادين ، وعبد الله بن مسعود - رضى الله عنهم أجمعين - .

٨- بيان خمس آيات للنبوة المحمدية ، وأعلام لها .

٩- حرمة الضحك وعدم البكاء أو التباكى عند المرور بديار المعذبين .

١٠- مشروعية قصر الصلاة فى السفر ، وجواز الجمع فيه .

١١- مشروعية عقد الإمام الصلح مع المشركين إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

* * * * * * * * * *

وثالث أحداثها :

غزوة طيئ ، وإسلام عدى

وبعث رسول الله ﷺ عليا فى مائة وخمسين رجلا من بينهم خمسون فارسا بعث بهم إلى ديار طيئ حيث يوجد بها صنم يقال له: (الفلس) وكان معهم راية سوداء ولواء أبيض ولما انتهوا إلى ديار طيئ شنوا الغارة على محلة آل حاتم ، الطائى فتمكنوا من هدم الصنم ، ومن أخذ سبى وشاء ونعم ، وكان من بين السبى فاطمة أخت عدى بن حاتم الطائى ، أما عدى أخوها فقد فر إلى الشام بمجرد أن سمع ببعث السرية إلى دياره ، وكان على الصنم سيفان يقال لأحدهما: مخذم ، وللآخر: رسوب ، فأخذهما على - رضى الله عنه - كما وجد فى خزانة عدى ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، واستعمل على السبى: أبا قتادة وعلى الأموال: عبد الله بن عتيك ، وقسم الغنائم فى الطريق ، وعزل الصفى لرسول الله ﷺ، ووصل ببنت حاتم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ، وكان من أمرها ما حدث به أخوها عدى فلنستمع إليه:

قال عدى - وهو يقص قصة إسلامه - جاءت خيل رسول الله ﷺ - يعنى سرية على -

فأخذوا أختي وناسا فأتوا بهم رسول الله ﷺ فقالت أختي: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن على من الله عليك !! فقال: «ومن وافدك ؟» قالت: عدى بن حاتم ، قال: «**الذى فر من الله ورسوله ؟**» . فمن عليها ، وإلى جانبه رجل قائم - وهو على بن أبي طالب - قال: سليه حملانا فسألته فأمر لها به وكساها وأعطاها نفقة ، قال عدى: وكنت ملك طيئ آخذ منهم المرباع[1] ، وأنا نصراني ، فلما قدمت خيل رسول الله ﷺ هربت إلى الشام من الإسلام ، وقلت: أكون عند أهل ديني ، فبينما انا بالشام إذ جاءت أختي ، وأخذت تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها ، ثم قالت لي: أرى أن نلتحق بمحمد سريعا فإن كان نبيا كان للسابق فضله ، وإن كان ملكا كنت في عز وانت أنت ، قال عدى بن حاتم: فقدمت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، وعرفته نفسي ، فانطلق بي إلى بيته ، فلقيته امرأة ضعيفة فاستوقفته ، فوقف لها طويلا فكلمته في حاجتها ، فقلت: ما هذا بملك . فقال لي: «**يا عدى إنك تأخذ المرباع وهو لا يحل فى دينك ، ولعلك يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا ، والله ليفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ووالله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله ، ووالله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فتحت**» قال: فأسلمت فقد رأيت القصور البيض وقد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله ، ووالله لتكونن الثالثة ، أي ليفيضن المال حتى لا يقبله أحد .

قال عدى بن حاتم: ودخلت عليه ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] فقلت: إنهم لم يعبدوهم قال: «**بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فى ذلك فتلك عبادتهم إياهم**» .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا تذكر إزاء الأرقام الآتية:

١- مشروعية هدم الأصنام ، وغزو أهلها ليدخلوا في الإسلام ليكملوا ويسعدوا .

٢- بيان جهل المشركين وضلالهم في تعليقهم السلاح على أصنامهم لتدفع به عن نفسها .

---

(١) المرباع: ربع الغنيمة يأخذه الرئيس في الجاهلية .

٣- بيان الكرم المحمدى ، وتقرير مبدأ أكرموا عزيز قوم ذل .

٤- آية النبوة المحمدية المتجلية فى تحقيق ما أخبر به من الغيب .

٥- بيان أن طاعة العلماء والحكام فى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم ، هى عبادة لهم إن كان ذلك بغير إكراه .

* * * * * * * * * * *

ورابع أحداثها :

قدوم عروة بن مسعود الثقفى على رسول الله ﷺ

عروة بن مسعود من عظماء رجالات ثقيف وهو الذى عناه المشركون فى مكة بقولهم: ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] الذى حكاه القرآن عنهم فى سورة الزخرف .

والرجل الثانى هلك ببدر ، وهو أبو جهل الذى يكنونه بأبى الحكم ويسمونه عمرو بن هشام .

وفد عروة بن مسعود على رسول الله ﷺ فى هذه السنة - سنة تسع - وفد مسلما ، وذلك بعد أن رأى قريشا قد دخلت فى الإسلام بعد فتح وهزيمة هوازن وثقيف ، وكان رجلا عاقلا فهداه الله إلى الإسلام ، فلما أتى النبى ﷺ وأسلم قال للنبى ﷺ : أرجع إلى قومى ، وأدعوهم إلى الإسلام ، فقال له النبى ﷺ : «**إنهم قاتلوك**» ، فقال عروة: إنى أحب إليهم من أبكارهم ، ورجا أن يوافقوه لمنـــزلته فيهم فلما رجع إلى الطائف ديار قومه صعد إلى علية له ، وأشرف منها عليهم ، وأظهر الإسلام ، ودعاهم إليه رموه بالنبل ، فأصابه سهم فقتله ، وقبل وفاته قيل له: ما ترى فى دمك؟ قال: كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها إلى ، ليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله مع رسول الله ﷺ فادفنونى معهم ، فلما مات متأثرا بجراحاته دفنوه معهم - رضى الله عنه - .

ولما بلغ الخبر النبى ﷺ قال فيه: «**إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس فى قومه ، إذ دعاهم إلى خير فقتلوه**» .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها كالآتى:

١- بيان علم من أعلام النبوة المحمدية فى إخباره عروة بأن قومه قاتلوه ، فكان كما أخبر .

٢- بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى ، وما تتطلبه من أذى ، وما يلزم صاحبها من الصبر والتحمل .

٣- بيان فضل عروة بن مسعود – رضى الله عنه – إذ ألحقه الرسول ﷺ بصاحب "يس" وهو حبيب بن النجار – عليه السلام – .

* * * * * * * * * * *

وخامس أحداثها :

قدوم وفد ثقيف

وبعد قدوم الحبيب ﷺ وفى رمضان قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ وقد سبق أن النبى ﷺ لما كان محاصرا لهم قيل له: ادع اللهم عليهم يا رسول الله فقال: «**اللهم اهد ثقيفا وأت بهم**» هذا سبب لقدومهم ، وآخر: هو أنهم رأوا أن من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشنوا عليهم الغارات ، وكان أشدهم فى ذلك مالك بن عوف النضرى ، فلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، والحكم بن عمرو بن وهب ، وشرحبيل بن غيلان ؛ وهؤلاء من الأحلاف ، وأرسلوا من بنى مالك عثمان بن أبى العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة ، فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم فى قبة فى المسجد ، فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلون مع خالد ، وكانوا لا يأكلون طعاما حتى يأكل خالد منه حتى أسلموا .

شروط مرفوضة :

واشترط رجال وفد ثقيف لإسلامهم شروطا هى كالتالى :

١- أن لا يهدم النبى ﷺ طاغيتهم – وهى اللات – إلا بعد ثلاث سنوات فأبى عليهم ذلك ﷺ ، وكان قصدهم من هذا الشرط حتى يسلموا إذا هى تركت من سخط سفهائهم ونسائهم ، وتنازلوا إلى شهر واحد فلم يقبل منهم ولو ساعة من نهار .

٢- أن يعفيهم من الصلاة ككل فأبى وقال: «**لا خير فى دين لا صلاة فيه**» فقالوا: نصلى ولكن لا نجبى - أى لا نركع - بل نخر من القيام إلى السجود فقال ﷺ : «**لا خير فى صلاة لا ركوع فيها**» أو كما قال ﷺ ، ولما أسلموا أمر عليهم عثمان بن عمرو بن أبى العاص ، وكان أصغرهم سنا لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه فى الدين ، ثم رجعوا إلى بلادهم ، وأرسل ﷺ معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب لهدم الطاغية ، فتقدم المغيرة فهدمها ، وقام قومه من بنى متعب دونه خوفا أن يرمى بسهم كما رمى عروة بن مسعود من قبل ، ولما أخذ فى هدمها خرج نساء ثقيف حسرا يبكين ، وأخذ حليها .

قضاء ديون من مال الطاغية :

كان للطاغية مال كثير مودع فيها ، فلما هدمها المغيرة ، وأبو سفيان بأمر رسول الله ﷺ وأخذا مالها اتصل برسول الله ﷺ أبومليح بن عروة بن مسعود ، وطلب منه أن يقضى دينا كان على والده عروة من مال الطاغية ، فأجابه الرسول ﷺ لذلك ، وعندها قال قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضه - وعروة والأسود أخوان شقيقان - فقال رسول الله ﷺ : «**إن الأسود مات مشركا**» فقال: قارب يا رسول الله لكن تصل مسلما ذا قرابة - يعنى نفسه - إنما الدين على ، وأنا مطالب به ، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود معا من مال الطاغية ففعل .

عهد لابن أبى العاص :

لما أسلم وفد الطائف وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص لصفات كمال فيه كتب لهم بذلك كتابا ، ومن جملة ما ورد فيه قوله ﷺ : «**يا عثمان تجاوز فى الصلاة واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير وذا الحاجة**» .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالآتى:

١- بيان آية نبوية وهى استجابة دعوته ﷺ فى ثقيف إذ هداهم الله وأتى بهم .

٢- بيان احترام النبى ﷺ للوفود وإكرامهم قبل أن يتبين إصرارهم على شركهم وكفرهم .

٣- مشروعية إبطال كل شرط يتنافى مع مراد الله تعالى وشرعه بين خلقه ، وهكذا كل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا ، فهو شرط باطل فى أى عقد و اتفاقية .

٤- بيان أعظم أركان الدين بعد التوحيد وهو الصلاة ، وأعظم أركانها الركوع والسجود .

٥- بيان ضعف النساء العقلى ، وبيان مدى تعلقهن بالشرك وأسبابه لجهلهن وضعفهن .

٦- مشروعية قضاء الديون من بيت مال المسلمين إذا رأى الإمام ذلك .

* * * * * * * * * * *

وسادس أحداثها :

قدوم الوفود على الحبيب ﷺ

إن الوفود التى بدأت فى هذه السنة التاسعة تتوافد على رسول الله ﷺ فى دار نبوته – المدينة الطيبة الطاهرة – تعلن عن ولائها لله ورسوله وعن رضاها بالإسلام ودخولها فيه وفود كثيرة ذكر منها كل مؤرخ للإسلام طرفا مما تهيأ له ، و لم يأت عليها أحد كلها وذلك لكثرتها .

والسبب الظاهر لهذا الحديث الكبير – الذى هو كثرة الوفود فى هذه السنة بالذات – هو دخول قريش زعيمة العرب فى الإسلام ، ففتح مكة ثم الطائف وغزو الروم فى تبوك لم يبق لأحد التفكير فى غلبة صاحب الرسالة والانتصار عليه بحال من الأحوال .

فلهذا أخذت وفود القبائل العربية تتوافد من اليمين والشمال والشرق والغرب ، وقد أخبر تعالى بهذا فى قوله: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [الفتح: ١ – ٣] .

فقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ١] ، هو الانتصارات التى تحققت لرسول الله ﷺ فى بدر ، وحمراء الأسد والأحزاب ، والحديبية ، وخيبر وغيرها ، والفتح هو فتح مكة والطائف ، والطائف وإن لم تفتح عنوة ، فقد جاء وفدها وسلم زمام قيادتها للقائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ ، فهو فتح وأى فتح ؟ .

وقوله تعالى: ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [الفتح: ٢] يعنى الوفود فى هذه السنة .

وها هى ذى أهم الوفود مع ذكر بعض مميزاتها وأحداثها :

(١) وفد بنى أسد: وكانوا أقوياء أشداء يسكنون شمال شرق الحجاز وعدد رجال هذا الوفد عشرة ، وقالوا: لما وفدوا على رسول الله ﷺ : أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا يمنون بهذا على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ من سورة [الحجرات:١٧] .

وسألوا رسول الله ﷺ عن العيافة[١] ، والكهانة ، وضرب الحصى ، فنهاهم عن ذلك .

(٢) وفد بلى: وقد نزلوا على أحد البلويين بالمدينة وهو رويفع بن ثابت البلوى فلما رآهم قال: الحمد لله الذى هداكم إلى الإيلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار .

وقبل أن يودعوا رسول الله ﷺ قال له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله إنى رجل فى رغبة من الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ؟ قال: «**نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة**» وقال الرجل: يا رسول الله كم وقت الضيافة ؟ قال: «**ثلاثة أيام ما كان بعد ذلك فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك**» .

ثم ودعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم .

(٣) وفد تميم: وقد كان عدد أفراده يزيد عن العشرة أنفار وكلهم من أشراف بنى تميم وعلى رأسهم عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمى ، ومن بينهم الأقرع بن حابس ، والحجاب ، والزبرقان بن بدر بن يزيد أحد بنى دارم بن مالك ، وعيينة بن حصن ، وقد كان عيينه والأقرع شهدا مع النبى ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف .

جفاء هذا الوفد وسوء أدبه :

ودخلوا المسجد النبوى ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: بلفظ الجفاء وسوء الأدب قائلين: يا محمد يا محمد ، اخرج إلينا ، فآذوا بذلك رسول الله ﷺ بصياحهم ورفع أصواتهم فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال رسول الله ﷺ : «**لقد أذنت لخطيبكم فليقل**» فقام لرئيس الوفد عطارد بن حاجب ، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها

---

(١) العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها ومرها .

المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدد ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ن وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس ثم قال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: «أجب الرجل» فقام ثابت ؛ فقال: الحمد لله الذى له ما فى السموات والأرض خلقه قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبا وأصدقهم حديثا ، وأفضلهم حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وأئمنه على خلقه ، فكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن به المهاجرون من قومه وذوى الرحمة أكرم الناس نسبا وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق استجابة له حين دعاه نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا . والسلام عليكم .

ثم قالوا: يا رسول الله ائذن لشاعرنا ، فأذن له ، فقام – وهو الزبرقان بن بدر – قال:

نحـــــنُ الكــــــرامَ فلا حَىٌّ يعادلُنــــا ::: منـــا الملـــوكُ وفينا تنصـــبُ البيـــعُ

فى ثمان أبيات .

وكان حسان بن ثابت غائبا فدعاه الرسول ﷺ ليجيب شاعرهم فحضر وأجاب قائلا:

إن الذوائـــبَ مـــن فهـــر وإخْوَتهم ::: قـــد بيـــنوا سُـــنَنًا للـــناس تتـــبعُ

قـــــومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوَّهـــم ::: أو حاولوا النفعَ فى أشياعهـــم نفعـــوا

فى ثلاثة عشر بيتا .

ومما لا شك فيه أن فرقا كبيرا بين خطيب المشركين وشاعرهم ، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم ، إذ شتان ما بين من فى قلبه ظلمة الشرك والكفر ، وبين من فى قلبه نور الإيمان وحكمة الإسلام والإحسان ، لذا لما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له ، خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، ثم أسلموا ، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة الحجرات: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤ ، ٥] .

(٤) وقدم وفد عبد القيس: وهى قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبد القيس بن

أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفدوا على رسول الله ﷺ فقال لهم: «من القوم؟» قالوا: من ربيعة ؛ قال: "مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى" . فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نصل إلا فى الشهر الحرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ومن وراءنا ، وندخل به فى الجنة ، فقال: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع ، آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع: الدباء ، والحنتم ، والنقير ، والمزفت فاحفظوهن ، وادعوا إليهن من وراءكم**» ؛ ثم قال رسول الله ﷺ : «**لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**» .

(٥) وقدم وفد بنى حنيفة: ومن بينهم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ إلا أن مسيلمة خلفوه فى رحالهم فلم يشرف بمقابلة رسول الله ﷺ إلا أنهم أسلموا وأمر لهم بجوائز ، وذكروه له فأمر له بمثل ما أمر لهم ، ثم انصرفوا وأعطوا مسيلمة الذى أعطاه رسول الله ﷺ .

فلما قدم اليمامة ارتد عدو الله ، وادعى النبوة وتنبأ كذبا ، وأخذ يسجع ويقول – مضاهيا بقوله القرآن–: لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين شغاف وحشا . ووضع عنهم الصلاة وأباح لهم الخمر والزنا إلى آخر هرائه العفن ، وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتاب جاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**» ، ردا على كتابه الذى بعث به إلى رسول الله ﷺ ونصه من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد: فإنى قد أشركتكم فى الأمر وليس قريش قوما يعدلون .

(٦) وقدم وفد رسل ملوك حمير: وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ، ومعافر ، وهمدان يبلغونه إسلام أقوامهم ، وكان رسولهم إليه ﷺ هو مالك بن مرة الرهاوى بعث به زرعة ذو يزن إليه ﷺ فكتب إليهم ﷺ كتابا هذا نصه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن كلال وإلى نعيم بن عبد كلال ، وإلى النعمان قيل ذى رعين ، ومعافر وهمدان ، أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد وقع بنا**

رسولكم منقلبا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم به ، وخبر ما قلتم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم أطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم نبيه وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة» وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم ، ثم قال: «فمن زاد فهو خير لـه ، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرايته فإنه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حالم ذكرا كان أو أنثى ، حرا أو عبدا دينارا وافيا من قيمة المعافر أو عوضه ثيابا فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ورسوله» .

(٧) وقدم وفد بهراء: من اليمن الجنوبي ، وكان مكونا من ثلاثة عشر رجلا ، ونزلوا على المقداد بن عمرو ، وأقاموا بالمدينة أياما تعلموا فيها الفرائض ، وواجبات الإسلام ، ثم دعوا رسول الله ﷺ ، وأمر لهم كغيرهم جوائز فأخذوها وانصرفوا إلى ديارهم .

(٨) وقدم وفد عذرة: وكانوا اثنى عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان ، ولما شرفوا بالمثول بين يدى رسول الله ﷺ سألهم قائلا: «من القوم ؟» فقال متكلمهم: ممن لا تنكر نحو بنو عذرة إخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، ولنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله ﷺ : «مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم» ، فأسلموا وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده ، ونهاهم عن سؤال الكهنة ، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية ، ثم أجازهم رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى بلادهم .

(٩) وقدم وفد ذى مرة: وكان مكونا من ثلاثة عشر رجلا ورئيس الوفد الحارث ابن عوف ، فسألهم رسول الله ﷺ قائلا: «كيف البلاد ؟» قالوا: والله إنا لمسنتون فادع الله تعالى لنا ، فقال الحبيب ﷺ : «اللهم اسقهم الغيث» ثم أقاموا أياما ، وأجيزوا بجوائز رسول الله ﷺ ، ثم عادوا إلى بلادهم ، فوجدوها أمطرت فى ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رسول الله ﷺ .

(١٠) وقدم وفد سعد بن بكر: وكان رئيسهم ضمام بن ثعلبة ، فتقدم فسأل رسول الله ﷺ أسئلة انتظمت قواعد الدين ، وكثيرا من الواجبات والمحرمات فأسلم ، ولما

قفل راجعا إلى قومه ليبلغهم دعوة الله تعالى . قال رسول الله ﷺ : «لئن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة» ، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به قوله: بئست اللات والعزى ، فقالوا محذرين له: اتق البرص ، والجذام ، والجنون ، أى أن تصيبك من أجل ذمك اللات والعزى – وهما إلهان – عندهم ، فقال ضمام: ويحكم إنهما لا يضران ولا ينفعان ، وإن الله قد بعث محمدا رسولا ، وأنزل عليه كتابا ، وقد استنقذكم به مما كنتم فيه ، وأظهر لهم إسلامه ، فما أمسى فى ذلك اليوم رجل مشرك ، ولا امرأة مشركة ، فما سمع بوافد قوم كان أبرك ولا أفضل من ضمام بن ثعلبة .

(١١) وفدم وفد الأزد: قال سويد بن الحارث الأزدى وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه فأعجبه ما رأى من سمتنا وزينا . قال: «ما أنتم؟» قلنا: مؤمنون فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟» قلنا: بخمسة عشر خصلة: خمس منها أمرتنا بها رسلك ، أن نؤمن بها وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئا ، فقال رسول الله ﷺ : «ما الخمسة التى أمرتكم بها رسلى أن تؤمنوا بها ؟» قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال: «وما الخمسة التى أمرتكم ان تعملوا بها ؟» قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فقال: «وما الخمسة التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟» قالوا: "الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال رسول الله ﷺ : «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال: «وأنا أزيدكم خمسا فيتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه تزولون ، واتقوا الذى إليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون» وانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها .

(١٢) وفدم وفد طيئ: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وعلى رأسهم زيد الخيل ، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ كلموه وعرض عليهم ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ : «ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا

رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه» ثم سماه زيد الخير ، وقطع له فيدا[1] وأرضين معه ، وكتب له بذلك كتابا ، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعا إلى قومه ، فقال رسول الله ﷺ : «إن ينج زيد من حمى المدينة» فإنه قال . . قال وقد سماها رسول الله ﷺ غير الحمى وغير أم حلدم ، فلم يثبته ، فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له: فردة أصابته الحمى بها فمات ، ولما مات عمدت امرأته إلى ما كان معه من كتبه التي قطع له رسول الله ﷺ فحرقتها بالنار .

عبر ونتائج:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي:

وفد بني أسد: حرمة العيافة ، والكهانة وضرب الحصى .

وفد بلي: من مات على غير دين الإسلام فهو في النار .

فضل الضيافة: وأنها ثلاثة أيام ، وكل معروف صدقة .

وفد تميم: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه .

وفد عبد القيس: الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، وفضل الحلم والأناة .

وفد بني حنيفة: بيان ردة مسيلمة الكذاب وادعائه الكاذب في النبوة .

وفد رسل ملوك حمير: بيان أصول الدين ، وحكم الجزية ، وممن تؤخذ ، وبيان مقدارها .

مشروعية قول مرحبا وأهلا .

وفد عذرة: بيان آية النبوة المحمدية إذ أخبرهم بغيب فكان كما أخبر ﷺ .

ليس على المسلم ذبائح تذبح إلا الأضحية .

وفد ذي مرة: فيه بيان آية النبوة إذ دعا لهم رسول الله ﷺ بالغيث فسقوا في نفس اليوم .

وفد سعد بن بكر: فيه بيان كرامة ضمام وفضله إذ أسلمت قبيلته كلها بدعوته .

وفد الأزد: فيه بيان أن لكل قول حقيقة ، وبيان عشرين خصلة هي جماع الخير كله .

وفد طيئ: فضل زيد الخير وفوزه برضا رسول الله ﷺ عنه وتعديل اسمه بزيد الخير .

* * * * * * * * * * *

---

(١) اسم مكان .

وسابع أحداثها:

حج أبى بكر الصديق بالناس

وفى أواخر شهر ذى القعدة من هذه السنة - سنة تسع - خرج أبو بكر الصديق بإذن رسول الله ﷺ أميرا على الحج ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وله هو خمسون بدنة ، وكان فى ثلثمائة رجل من أهل المدينة ، فلما كان بذى الحليفة (آبار على) على سبعة أميال من المدينة أرسل رسول الله ﷺ فى أثره على بن أبى طالب ، وأمره بقراءة سورة براءة على المشركين ، فعاد أبو بكر إلى رسول الله بالمدينة ، وقال: يا رسول الله أنزل فى شىء؟ قال: «لا ، ولكن لا يبلغ عنى إلا أنا أو رجل منى ، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار ، وصاحبى على الحوض» قال: بلى يا رسول الله ، فسار أبو بكر أميرا على الموسم ، فأقام الناس الحج وحجت العرب والكفار على عادتهم فى الجاهلية ، وعلى - رضى الله عنه - يؤذن ببراءة ، فنادى يوم الأضحى قائلا: لا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته ، ورجع المشركون ، فلام بعضهم بعضا ، وقالوا: ما تصنعون ، وقد أسلمت قريش فأسلموا .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلى:

١- فرض الحج يسقط بالعجز ، وهو على التراخى لا على الفور ، إذ لم يحج مع أبى بكر سوى ثلثمائة رجل ، مع وفرة الرجال والنساء بالمدينة يومئذ .

٢- مشروعية تعيين أمير للحج .

٣- فضيلة كل من أبى بكر وعلى - رضى الله عنهما - .

٤- مشروعية سوق الهدى ، وإرساله مع تخلف المدى عن الحج .

٥- حرمة دخول الحرم على المشركين والكافرين ، ووجوب ستر العورة فى الطواف .

٦- شرف مركز قريش بين العرب ، إذ العرب تبع لها .

* * * * * * * * * *

أهم أحداث السنة التاسعة: من هجرة الحبيب ﷺ

لقد وقعت فى هذه السنة أحداث تاريخية هامة يحسن ذكر طرف منها إزاء النقاط السوداء الآتية:

بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلى إلى ذى الخلصة فهدمها .

فيها توفى إبراهيم ابن الرسول ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهرا ودفن بالبقيع .

فيها طلع جبريل على النبى ﷺ والناس حوله فى المسجد فى صورة رجل وسأل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وعن أمارات الساعة .

فيها بعث النبى ﷺ المصدقين إلى كافة أنحاء البلاد التى أسلم أهلها .

فيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب – رضى الله عنهن – .

فيها توفى رأس النفاق عبد الله بن أبى سلول ، وصلى عليه الرسول ﷺ ، ثم نهاه الله عن الصلاة على المنافقين مطلقا ، بقوله: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ ﴾ من سورة [التوبة:٨٤] .

فيها توفى النجاشى وصلى عليه الرسول والمؤمنون بالمدينة صلاة الغائب – رحمه الله رحمة واسعة – .

* * * * * * * * * * *

ودخلت السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان من أول أحداثها :

بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران

فى هذه السنة العاشرة بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية ، بعثه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام ، وإن لم يفعلوا قاتلهم .

فخرج – رضى الله عنه – إليهم منفذا لأمر رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا وأسلموا فأقام فيهم يعلمهم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا يعلمه فيه بإسلامهم .

ولما قضى فترة تعليمهم عاد إلى المدينة ومعه وفد منهم من بين أفراده قيس بن الحصين بن يزيد بن قينان ، ويزيد بن عبد المدان وغيرهما ، فقدموا على رسول الله ﷺ ، ثم عادوا إلى ديارهم ، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام ، ويأخذ صدقاتهم (زكواتهم) وكتب معه كتابا ، وولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم على نجران .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى كالاتى:

١- وجوب الدعوة إلى الإسلام .

٢- وجوب تعليم من دخل فى الإسلام شرائع الإسلام .

٣- وجوب نصب الولاة فى البلد الذى يدخل فى الإسلام أو ذمة المسلمين .

* * * * * * * * * * *

وثانى أحداثها :

وصول وفد نصارى نجران إلى الحبيب ﷺ

وفى هذه السنة العاشرة وصل وفد نجران على رأس الوفد العاقب والسيد يريدون مباهلة رسول الله ﷺ ليهلك من لم يكن على الحق فى دعواه ، إذ هم يدعون ان عيسى – عليه السلام – ابن الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – وأن المسيحية دين الله . والرسول محمد ﷺ يقول: «عيسى عبد الله ورسوله ، والدين عند الله الإسلام» .

وفعلا خرج رسول الله ﷺ ومعه على ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين فلما رأوهم خافوا ، وقالوا: هذه الوجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها ، و لم يباهلوه وصالحوه على ألفى حلة ثمن كل حلة أربعون درهما ، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله ﷺ ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ان لا يفتنوا فى دينهم ولا يعشروا ، وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وفيهم نزل نيف وثمانون آية من سورة آل عمران ، وفيها آية المباهلة ، وبيان حقيقة عيسى وانه عبد الله ورسوله ، و لم يكن ابن الله ، ولا يإله مع الله ، إذ قص عليهم نشأة عيسى

ابتداء من حدته حنة إلى ولادة مريم له – صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم تسليما كثيرا – .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي:

١- هروب نصارى نجران من المباهلة دليل على نبوة محمد ﷺ ، وصحة دينه الإسلام ، وبطلان المسيحية وألوهية عيسى – عليه السلام – .

٢- مشروعية إقرار أهل الكتاب على دينهم ، وإن كان باطلا لنسخه بالإسلام .

٣- حرمة أكل الربا والتعامل به حتى على أهل الذمة من يهود ونصارى .

* * * * * * * * * * *

وثالث أحداثها:

قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ

والسنة العاشرة كالتاسعة كانت سنة وفود أيضا وها هى ذى قائمة بأسماء الوفود ، وبعض أحوالها:

(١) وفد سلامان: فى شوال وكانوا ستة عشر نفرا ، وعلى رأسهم حبيب السلامانى فأسلموا وشكوا إلى رسول الله ﷺ جدب بلادهم وقحطها ، فدعا لهم رسول الله ﷺ ، ثم أمر لهم بجوائز فأخذوها وودعوا الحبيب ﷺ ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت فى نفس اليوم الذى دعا لهم فيه ، وفى نفس الساعة بالضبط فكانت آية نبوته ﷺ .

(٢) وفد غسان فى رمضان من هذه السنة .

(٣) وفد عامر فى شهر رمضان منها أيضا .

(٤) وفد الأزد: وكان يتألف من بضعة عشر رجلا على رأسهم صرد بن عبد الله فأسلموا وأمر النبى ﷺ صردا على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد المشركين بمن معه من المسلمين ، فسار صرد الأمير إلى مدينة جرش – وفيها قبائل من اليمن فيهم خثعم – فحاصرهم قريبا من شهر فامتنعوا منه فرجع حتى كان بجبل يقال له: كشر فظن أهل جرش أنه منهزم ، فخرجوا فى طلبه فأدركوه فعطف عليهم ، فقاتلهم قتالا شديدا ، وقد كان أهل جرش قد بعثوا

رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران حاله فبينما هما عنده إذ قال: «**بأى بلاد الله كشر ؟ وإن بدن الله لتنحر عنده الآن**» فقال لهما أبو بكر أو عثمان: ويحكما إنه ينعى لكما قومكما فسألاه أن يدعو الله يرفع عنهم ، ففعل فقال: «**اللهم ارفع عنهم**» فخرج من عنده إلى قومهما فوجداهم قد أصيبوا ذلك اليوم فى تلك الساعة التى ذكر فيها رسول الله ﷺ حالهم ، وخرج وفد جرش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا .

(٥) وفد مراد: مع فروة بن مسيك المرادى على رسول الله ﷺ مفارقا لملوك كندة ، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة ظفرت فيها همدان وأكثروا القتل فى مراد ، وكان يقال لذلك اليوم يوم: الرزم ، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك ؛ وفى ذلك يقول فروة:

فـــإن تغلـــبَ فغلاَّبـــون قدْمًـــا ::: وإن نُهـــزمْ فغـــيرُ مهزَّميـــنا
ومـــا إن طبـــنا جـــبنٌ ولكـــن ::: مـــنايانا ودولـــةَ آخريـــنا
كـــذاك الدهـــرُ دولـــتُه ســـجالٌ ::: تكـــر صـــروفُه حيـــنًا فحيـــنا
فبيـــنا مـــا يُسَـــرُّ بـــه ويُرضـــى ::: ولـــو لبســـت غضـــارتُه ســـنينا
إذا انقلبـــتْ بـــه كـــرَّاتُ دهـــر ::: فـــألفى لـــلألى غـــبطوا طحيـــنا
ومـــن يغـــبطْ بريـــب الدهر منهمَ ::: يجـــدْ ريـــبَ الـــزمان لـــه خؤونا
فلـــو خُلِّـــدَ الملـــوكُ إذا خلدْنـــا ::: ولـــو بقـــى الكـــرامُ إذا بقيـــنا
فأفنـــى ذاكـــم ســـروات قـــومِ ::: كمـــا أفنـــى القـــرونُ الأولينـــا

ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال:

لمـــا رأيـــتْ ملـــوكَ كندة أعرضتْ ::: كالرِّجْل خان الرجلَ عِرْقُ نسائها[١]
قربـــت راحلتـــــى أؤم محمـــــدا ::: أرجو فواضلها وحســـن ثرائهـــا

فلما وصل إلى رسول الله ﷺ سأله قائلا: «**هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟**» قال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الرزم ولا يسوؤه ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ له: «**أما إن ذلك لا يزيد قومك فى الإسلام إلا خيرا**» واستعمله رسول الله على مراد ، وزبيد ، ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله ﷺ .

(٦) إرسال فروة بن عمرو الجذامى: رسولا إلى رسول الله ﷺ يعلمه بإسلامه

(١) عِرْقُ النسا: وجع من أوجاع الأعصاب يبتدئ من مفصل الورك ويمتد إلى الركبة أو إلى القدم .

وبعث معه بغلة بيضاء أهداها إلى رسول الله ﷺ ، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منـزله بمعان في أرض الشام ، ولما بلغ الروم إسلامه طلبوه فأسروه وحبسوه ليقتلوه فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: (عفرى) بفلسطين قال:

ألا هـل أتـى سـلمى بأنّ خليلَها ::: على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل؟
عـلى ناقـة لم يلقـح الفحلُ أمَّها ::: مُشـذّبة أطـرافُها بالمـناجلِ
بَلّـغْ سـراةَ المسلميـن[1] بأننـي ::: سلْـمٌ لربـي أعْظُمـي، ومقامـي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه فمات شهيدا من أجل إسلامه لله وجهه وقلبه .

(٧) قدوم وفد زبيد: على رسول الله ﷺ برئاسة عمرو بن معد يكرب ، وكان النبي ﷺ قد استعمل على زبيد ، ومراد فروة بن مسيك في هذه السنة ، وذلك قبل قدوم عمرو عليه ، فلما عاد عمرو من عند رسول الله ﷺ إلى بلاده أقام في بني زبيد ، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو وقال حين ارتد:

وجدنـا مُلْـكَ فـروة شَـرَّ مُلْك ::: حمـارا سَـافَ مـنْخَره بـثَفْر[2]
وكنـتَ إذا رأيـتَ أبـا عُمَيْـر ::: تـرى الحولاء مـن خَبَـثٍ وغـدرِ

(٨) قدوم وفد عبد القيس: على رسول الله ﷺ ، وفيهم الجارود بن عمرو ، وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه ، وكان الجارود حسن الكلام ، نهى قومه عن الردة بعد موت الرسول ﷺ لما ارتدوا مع الغرور المنذر بن النعمان ، وقد كان النبي ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة بعثه إلى المنذر بن ساوى العبدي ، فأسلم وحسن إسلامه ، ثم هلك بعد وفاة النبي ﷺ وقبل ردة أهل البحرين ، والعلاء يومها أمير على البحرين من قبل رسول الله ﷺ .

(٩) قدوم وفد كندة: برئاسة الأشعث وكانوا ستين راكبا فقال الأشعث نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فقال النبي ﷺ : **«نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ، ولا ننتفي من أبينا»** فقال الأشعث: والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين ، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ كانوا قد رجلوا جممهم[3] وتكحلوا عليهم جبب[4] الحبرة وقد كففوها بالحرير فقال لهم رسول الله ﷺ : **«ألم تسلموا ؟»** قالوا: بلى . قال: **«فما بال هذا**

---

(١) سراة المسلمين: سادتهم ورؤساؤهم .
(٢) ساف منخره: اشتمه . ثفر: للدواب والسباع الفرج .
(٣) الجمة: شعر مقدم الرأس .
(٤) الجيب: جمع جبة – الثياب المعروفة .

الحرير فى أعناقكم ؟ فشقوه منها وألقوه» .

(١٠) قدوم وفد محارب.

(١١) قدوم وفد عبد عبس.

(١٢) قدوم وفد صدف: وافوا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع .

(١٣) قدوم وفد الرهاويين: وهم بطن من مذحج .

(١٤) قدوم وفد خولان: وكانوا عشرة أنفار .

(١٥) قدوم وفد بنى عامر: بن صعصعة فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى بن مالك بن جعفر ، وكان عامر يريد الغدر برسول الله ﷺ فقال له قومه: إن الناس قد أسلموا فأسلم فقال: لا اتبع عقب هذا الفتى ، ثم قال: لأربد إذا قدمنا عليه فإنى شاغله عنك فاعله بالسيف من خلفه .

فلما قدموا جعل عامر يكلم النبى ﷺ يشغله ليفتك به أربد ، فلم يفعل أربد شيئا ، فقال عامر للنبى ﷺ : لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى . قال رسول الله ﷺ : «اللهم اكفنى عامرا» فلما خرجوا قال عامر: لأربد لم لم تقتله ؟ قال: كلما هممت بقتله دخلت بينى وبينه حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف ؟ ورجعوا فلما كانوا ببعض الطريق أرسل الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون فقتله وإنه لفى بيت امرأة سلولية ، فمات وجعل يقول: يا بنى عامر أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ؟! وأرسل الله على أربد صاعقة فأحرقته ، وكان أربد بن قيس أخا للبيد بن ربيعة لأمه .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة الذاتية العطرة نتائج وعبرا نجملها كالآتى:

١- من آيات النبوة المحمدية استجابة دعائه ﷺ فى موطنين مرتين .

٢- حرمة لبس الحرير على الرجال ، ووجوب سرعة الامتثال لأمر الله ورسوله .

٣- آية النبوة المحمدية فى نزول الصاعقة بأربد ، والطاعون بابن الطفيل - لعنة الله عليه - .

* * * * * * * * * * *

ورابع أحداثها :

إرسال النبي ﷺ عليا إلى اليمن وإسلام همدان

وفى هذه السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ بعث النبى ﷺ على بن أبى طالب إلى اليمن ، وقد كان أرسل فيها خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فأرسل عليا وأمره أن يقفل[1] خالدا أو من شاء من أصحابه ففعل ، وقرأ على كتاب رسول الله ﷺ على أهل اليمن ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «**السلام على همدان**» ، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام ، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فسجد شكرا لله تعالى .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى الآتية:

١- فضيلة همدان إذ أسلموا فى يوم واحد ، وسلم عليهم رسول الله ﷺ ثلاثا .

٢- مشروعية سجود الشكر عند حصول النعمة .

٣- فضيلة على بن أبى طالب إذ هدى الله على يديه ما لم يهد على يد خالد – رضى الله عنهما – معا .

* * * * * * * * * * *

وخامس احداثها :

بعث النبي ﷺ أمراء على الصدقات

إن شأن الزكاة فى الدولة الإسلامية عظيم فهى من جهة حد فاصل بين الكفر والإيمان ، ومن جهة أخرى فإن مصالح الدولة والأمة قائمة على المال ، والزكاة هى المورد الثابت لذلك ، فمن هنا كان النبى ﷺ يختار الأكفاء لهذه المهمة .

وها هى ذى قائمة بأسماء المصدقين – أى جباة الزكاة وجامعيها – وسميت الزكاة صدقة ، لأنها تدل على صدق إيمان مؤديها .

---

(١) يقفل: يرجع .

(١) المهاجر بن أمية بن المغيرة بعثه إلى صنعاء ، فخرج عليه العنسى وهو بها .

(٢) زياد بن لبيد الأنصارى . بعثه إلى حضرموت .

(٣) عدى بن حاتم الطائى . بعثه إلى طيئ ، وأسد .

(٤) مالك بن نويرة بعثه إلى بنى حنظلة .

(٥) الزبر بن بدر . بعثهما إلى بنى سعد بن زيد مناه بن تميم .

(٦) وقيس بن عاصم .

(٧) العلاء بن الحضرمى . بعثه إلى البحرين .

(٨) على بن أبى طالب بعثه إلى نجران ليجمع الزكاة والجزية من نصارى نجران ، واستخلف - رضى الله عنه - على الجيش الذى كان معه رجلا من أصحابه وسبقهم إلى النبى ﷺ بمكة حاجا حجة الوداع ، فعمد الرجل المستخلف إلى الجيش ، فكساهم كل رجل حلة من البز[1] الذى مع على ، فلما دنا الجيش خرج على ليتلقاهم ، فرأى عليهم الحلل فنـزعها عنهم ، فشكا الجيش إلى رسول الله ﷺ فقام النبى ﷺ خطيبا ، فقال: «**أيها الناس لا تشكو إلى عليا فوالله إنه لأخشن فى ذات الله أو فى سبيل الله من أن يشكى**» .

نتائج وعبر:

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالآتى:

١- أهمية الزكاة وجبالها والتأمير عليها فى الإسلام ودولته الرشيدة .

٢- مشروعية أخذ الجزية على أهل الكتاب .

٣- مشروعية المبادرة إلى تغيير المنكر ، إذ نزع على ما كان قد كساه خليفته أفراد الجيش بدون إذن الأمير .

٤- فضل على إذ أخبر النبى ﷺ أنه أخشن فى ذات الله أو سبيله من أن يشكى ، وتقبل الشكوى فيه .

* * * * * * * * * *

(١) البز: ثياب من الكتان .

وسادس أحداثها :

حجة الوداع والبلاغ

هذا الحدث ذو أهمية كبرى لما بين الحبيب ﷺ فى حجته هذه من شرائع وأحكام وآداب ، وسميت حجة الوداع لأن قوله ﷺ فيها: «لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا» كان مشعرا بالوداع ، وكذلك كان ، إذ لم يعش بعدها ﷺ إلا بضعة شهور وتوفاه الله عز وجل ، وتسمى أيضا: حجة البلاغ: لأن الرسول ﷺ بلغ فيها الكثير من الأحكام ، إنه لما دخل شهر ذى القعدة أخذ الرسول ﷺ يتجهز ، وأمر الناس بالجهاز كذلك معلنا لهم أنه يريد الحج ، ولما بقى خمس ليال من شهر ذى القعدة استعمل ﷺ على المدينة أبا دجانة أو سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج وخرج المسلمون معه وهو لا يريد إلا الحج ، فلما كان بوادى العقيق على سبعة أميال من المدينة نزل عليه جبريل - عليه السلام - بالسلام من رب العالمين فقال هل: «إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إنك بالوادى المبارك ؛ فصل فيه وكل عمرة فى حجة» وخير أصحابه بين الأفراد والتمتع والقران فمنهم من أهل بحج ، ومنهم من أهل بعمرة ، ومنهم من أهل بحج وعمرة ، وساروا حتى إذا بلغوا سرف حيث جاءت عائشة - رضى الله عنها - العادة الشهرية فبكت وطمأنها الحبيب ﷺ بقوله: «هذا شىء كتبه الله على بنات آدم فافعلى يا عائشة كل ما يفعله الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت حتى تطهرى» ثم أمر من لم يسبق الهدى أن يجعل حجة عمرة تخفيفا عليهم ورحمة بهم وبمن يأتى بعدهم .

ولما دخل مكة طاف بالبيت وسعى و لم يتحلل لسوقه الهدى ، وبقى بعض أصحابه مفردين - وليس معهم هدى - فلم يتحللوا فأمرهم بالتحلل ، وقال مرغبا لهم: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ، ولجعلتها عمرة» فحلوا من إحرامهم وسألوه: هل هذا لعامنا هذا خاصة أى التحلل بالعمرة ؟ فقال: «لا بل لأبد الأبد» أى يجوز لأى مسلم يأتى مفردا بالحج وليس معه هدى أن يفسخ الحج إلى عمرة .

ومكثوا بمكة محلين حتى يوم التروية فأحرموا بالحج وخرجوا إلى منى وباتوا بها وبعد صلاة الصبح من يوم عرفة (تاسع الحجة) خرجوا إلى عرفة وعلم أثناء ذلك الناس مناسكهم وسنن حجهم ، وخطب خطبة بعرفة لم يسمع مثلها فى طولها ولما اشتملت عليه من الشرائع والهدى ، وهذه جل فقراتها فتقرأ وليوقف عند كل جملة منها ، فإنها كواكب هدى تضىء

للمسلم الدجى ، فقد حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال: «**أيها الناس اسمعوا قولى: فإنى لا اجرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا**» .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس ان يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكن إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم ، أيها الناس عن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ .

فقال الناس: اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم فاشهد ، أيها الناس إن الله**

قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» .

وإنه ﷺ بعد أن زالت الشمس وصلى بالناس وخطبهم ، أتى جبل عرفة فوقف فى سفحه وقال: «**وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف**» ولما غربت الشمس ، ركب إلى مزدلفة ، فوصلها بعد العشاء جمعا ، وبات بها ولما طلع الفجر ، صلى الصبح ، ووقف على جبل قزح وقال: «**وقفت ها هنا ، ومزدلفة كلها موقف**» ولما أسفر جدا أتى الجمرة فرماها ، ثم المنحر فنحر ، ثم قال: «**نحرت ها هنا ومنى كلها منحر**» ، ثم أفاض من يومه وعاد إلى "منى" ، فبات بها ثلاث ليال يرمى الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم ، يبدأ بالصغرى ، ويختم بالكبرى وخطب أيام منى ، وعلم كل ما الأمة فى حاجة إليه إلى يوم الدين ، ولذا كانت هذه الحجة تسمى حجة الوداع ، لأنه ﷺ ودع أمته فيها إذ لم يحج بعدها ، فــ ﷺ يوم ولد ، ويوم دعا وجاهد ، ويوم حج واعتمر ، ويوم ودع ، ويوم مات ، فالتحق بالرفيق الأعلى فى جنة عرضها السموات والأرض .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نسجلها إزاء الأرقام الآتية:

١- وقوع حجة الوداع - بعد تطهير الحرم من الشرك والمشركين - دال على حصاد جهاد دام نيفا وعشرين سنة ، وفى هذا عبرة لمن يعتبر .

٢- بيان أن وادى العقيق مبارك ، وانه ميقات أهل المدينة إذ ذو الحليفة على شاطئه الأيمن .

٣- مشروعية الإهلال بأى نسك من الأنساك الثلاثة ، الإفراد ، والتمتع ، والقران .

٤- بيان أن الحائض لا يمنعها الحيض من الإحرام ، إذ تفعل كما يفعل الحاج إلا أنها لا تطوف حتى تطهر وتغتسل .

٥- من مظاهر الرحمة المحمدية الإذن بفسخ الحج إلى عمرة ، تيسيرا وتسهيلا على الأمة .

٦- مشروعية الحرص على مخالفة اليهود والنصارى والمشركين ، إذ كان المشركون يعدون الاعتمار في أشهر الحج من أفجر الفجور ، وكانوا يقولون: إذا برأ الدبر ،وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر ، فلذا أمر النبي ﷺ أصحابه بالتحلل والاعتمار ولما تردد أصحابه في ذلك غضب حتى أذعنوا لأمره وتحللوا - رضى الله عنهم - .

٧- بيان باقي المناسك عمليا ، إذ كان يقول: «حجوا كما رأيتموني أحج» .

٨- الإعلان عن حقوق المسلم ، وأنه محرم الدم والمال والعرض .

٩- الإعلام عن تحريم الظلم والربا ، وكل عادات الجاهلية .

١٠- الإعلان عن حقوق النساء ، والأمر بالاعتراف بها وأدائها ، وكذا حقوق الزوج على زوجته .

١١- تحريم الوصية للوارث ، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم .

١٢- حرمة التبني والانتساب إلى غير الموالى .

١٣- تقرير أن الولد ينسب إلى من ولد على فراشه ، وأن العاهر لا حق له فيه ، وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنى .

* * * * * * * * * * *

ودخلت السنة الحادية عشرة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها :

بعث جيش أسامة إلى الشام

إن آخر بعث في الجهاد المحمدى هو بعث أسامة بن زيد الحب ابن الحب - رضى الله عنهما - .

ففى المحرم - وبعد العودة من حجة الوداع - رأى النبي ﷺ أن يبعث بعثا إلى الشام وأن يكون أسامة بن زيد - الشاب الذى لم يتجاوز من العمر ثمانى عشرة سنة - هو قائد هذا الجيش الذى عقد لواءه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء ، والداروم من أرض فلسطين . وتكلم بعض طاعنا في أسامة ؛ لصغر سنه فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله: «إن تطعنوا

فى إمارة أسامة فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل» ، وذلك لكون كل من زيد وأسامة ولده مولى وليس بسيد .

وتجهز الناس للخروج ، وفى هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار كأبى بكر ، وعمر وغيرهما ، وبينما الناس فى التجهيز والإعداد للخروج إذا برسول الله ﷺ يبتدئه مرضه الذى قبض فيه . فوقف الجيش فى انتظار شفاء الحبيب ﷺ، ولم يمض إلا أسبوع واحد ويقبض رسول الله ﷺ، ويلتحق بالرفيق الأعلى ، ويبقى جيش أسامة فى انتظار ما يحدث بخصوصه ، وولى أمر المسلمين أبو بكر ، وأنفذ جيش أسامة كما أراد رسول الله ﷺ وأحب ، وذلك نزول من الصديق على رغبة الحبيب فى تنفيذ ما يحب ، فرضى الله عن أبى بكر ما أرضاه وأوفاه فاللهم اجعل الجنة مأوانا ومأواه .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فى الآتى:

١- بيان مواصلة الرسول ﷺ الجهاد حتى آخر يوم من حياته .

٢- جواز إسناد قيادة الجيوش إلى الشاب الكفء المقتدر ، إذا كان فى قيادته ذوو الرأى والمشورة من كبار السن من كهول وشيوخ .

٣- بيان أن الطبع البشرى لم يتبدل ، فقد طعن فى إمارة زيد وإمارة أبيه وفى حضرة الرسول ﷺ .

٤- بيان كمال أبى بكر الصديق ، وصادق وده وعظيم طاعته لرسول الله ﷺ حيا وميتا وذلك بإنفاذه جيش أسامة وفى أصعب الظروف وأشدها حلوكة .

* * * * * * * * * * *

خاتمة الجهاد المحمدى ببيان عدد غزواته ﷺ وسراياه

لقد غزا ﷺ ستا أو سبعا وعشرين غزوة فى خلال سنوات هجرته العشر . باشر القتال بنفسه فى تسع غزوات منها ، وهى: بدر الكبرى ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وباقى الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه وإنما بواسطة أصحابه – رضوان الله عليهم – وهى: ودّان ، وهى الأبواء ، ثم بُواط ،

ثم العشيرة ، ثم بدر الأولى ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان ، ثم غزوة نجران بالحجاز ، ثم حمراء الأسد ، ثم بنى النضير ، ثم ذات الرقاع ، ثم بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة ذى قرد .

وأما سراياه ﷺ : فقد بلغت نحوا من خمس وثلاثين سرية وبعثا ، وقد مرت هذه السرايا والبعوث ، وتلك الغزوات مفصلة واحدة بعد الأخرى فى سنوات الهجرة العشر المباركة ، والحمد لله أولاً وآخرا .

* * * * * * * * * * *

وآخر أحداثها وأجلها :

مرض الحبيب ﷺ ووفاته

بداية مرضه ﷺ :

فى أوائل شهر ربيع الأول ، وفى يوم الأربعاء بالذات بدأ وجع الحبيب ﷺ فأصابه صداع وحمى . وقبل هذه البداية المؤلمة ببعض الأيام خطب ﷺ الناس فنعى إليهم نفسه وهم لا يشعرون . إذ صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال: «إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله» فبكى أبو بكر فعجب الناس من بكائه . بكى لأنه فهم أن المخير هو رسول الله ﷺ ، وقال ﷺ : «إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبى بكر» .

وفى جوف الليل يوقظ رسول الله ﷺ مولاه أبا مُويهبة ويقول: «يا أبا مُويهبة إنى قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى» فلما وقف بين أظهرهم ، قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها . الآخرة شر من الأولى» . ثم أقبل على أبى مويهبة وقال: «يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة» ، فقال له أبو مويهبة: بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة ، فقال: «لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة» . ثم استغفر ﷺ لأهل البقيع ثم انصرف . فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى

قبض فيه ، إذ دخل على عائشة بعد رجوعه من البقيع فوجدها تشكو صداعا وتقول: وارأساه ! فقال: «**بل أنا والله يا عائشة وارأساه !!**» ثم قال لها: «**وما ضرك لو مت قبلى فقمت إليك وكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك**» فقالت عائشة: والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك ، قالت عائشة - رضى الله عنها - فتبسم رسول الله ﷺ وتتام به وجعه ،وهو يدور على نسائه حتى استعز به - وهو فى بيت ميمونة - فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيتى فأذن له .

فى بيت عائشة :

وبعد أذن له أمهات المؤمنين فى أن يمرض فى بيت عائشة - رضى الله عنها - خرج ﷺ يمشى بين رجلين من أهله هما العباس وعلى وهو عاصب رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة - رضى الله عنها - ثم حمى ﷺ واشتد به الوجع ، فقال: «**هريقوا على سبع قرب من ماء حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم**» قالت عائشة: فأقعدناه فى مخضب لحفصة بنت عمر ثم صب عليه الماء حتى طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**» ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم ، ثم ازداد مرضه فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت عائشة: إن أبا بكر إذ قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس ، وكررت عليه عائشة القول فكرر الإجابة حتى قالت عائشة لحفصة: قولى له إن أبا بكر إذ قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس ، فقالت له فقال ﷺ : «**مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس**» ، فقام أبو بكر يصلى بالناس ، ووجد النبى ﷺ من نفسه خفة فخرج بين رجلين العباس وعلى لصلاة الظهر فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه أن لا يتأخر ، وقال للرجلين: «**أجلسانى إلى جنبه**» فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ وهو قاعد والناس يصلون بصلاة أبى بكر .

وفى مرضه هذا قال لعائشة: «**ما زلت أجد ألم الطعام[1] الذى أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم**» .

ولما كان يوم الخميس وقبل وفاته ﷺ بأربع ليال اجتمع عنده ناس من أصحابه فقال: «**ائتونى بكتف ودواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا**» . فتنازعوا عنده

---

(١) الشاة المسمومة التى أكل منها يوم خيبر.

وأخذوا يردون عليه ، فقال: «**دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه**» وأوصاهم بثلاث فقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم**» ، وسكت عن الثالثة .

ولما كان يوم الاثنين الذى قبض فيه ﷺ ، والناس فى صلاة الصبح يكشف ستر حجرة عائشة فينظر إليهم وهم صفوف فى الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج للصلاة ، وهم الناس أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستار ، وانصرف الناس وهم يرون أن النبى ﷺ قد أفاق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح ، ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده سواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدرى فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت: آخذه لك ؟ فأشار أن نعم ، فتناولته فاشتد عليه ، فقلت: ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم فلينته بأمره فاستن به ، وهو مستند إلى صدرى ، وبين يديه ركوة ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات**» وآخر كلمة قالها: «**اللهم الرفيق الأعلى**» .

ومن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قد قبض فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألتدم[1] مع النساء وأضرب وجهى ، وكانت تقول – رضى الله عنها – إن من نعم الله على أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه ، أن لينت له السواك فاستاك به .

وتوفى رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة المباركة ، وفى مثل الوقت الذى دخل فيه المدينة .

فيوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع ولد فيه وأوحى إليه فيه ، ووصل دار الهجرة فيه وتوفى فيه ، ولذا كان يصومه ﷺ ويقول: «**يوم الاثنين ولدت فيه وأوحى إلى فيه**» .

اشتداد الكرب وكمال الصديق :

وما ان علم الناس بوفاة الرسول ﷺ حتى طاشت عقولهم ، وعمتهم الحيرة وأقعدتهم الدهشة وأظلمت الحياة فى وجوههم حتى أن عمر على جلالته قام يحلف للناس بأن الرسول ما

---

(١) ألتدم: ألطم .

مات حتى جاء أبو بكر من السنح فدخل على رسول الله ﷺ فوجده مسجى فى ثوب حبرة ، فكشف عن وجهه وقبله وبكى ، ثم قال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا ، ثم خرج عمر يكلم الناس ، فقال: اجلس يا عمر فأبى أن يجلس فأقبل عليه الناس وتركوا عمر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال: أما بعد فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦] وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، فنشج الناس يبكون ، قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها الناس منه كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها .

غسل الحبيب ، وكفنه ، ودفنه :

ولما فرغ الصديق وفرغ الأصحاب من البيعة ، وبويع لأبى بكر الصديق بالخلافة لرسول الله ﷺ على أمته أقبلوا على تجهيز الحبيب ﷺ ، فتولى غسله آل البيت وهم: على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل ، وقثم ابنا العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وكان العباس وولداه يقلبانه ، وأسامة ، وشقران يصبان الماء وعلى يغسله بيده فوق ثيابه ، فلم يفض بيده إلى جسده الطاهر قط فلم ير من رسول الله ﷺ ما يرى من الميت ، وكان على يغسله ويقول: بأبى أنت وأمى ما أطيبك حيا وميتا ، وكفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب ، ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيها إدراجا .

ومن آيات نبوته ﷺ أنهم اختلفوا: هل يغسلونه كما يغسل الرجال بأن يجرد من ثوبه؟ فأخذهم النوم وهم كذلك ، وإذا بهاتف يقول: غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه ففعلوا ، ولما أرادوا دفنه اختلفوا فى موضع دفنه ، فجاء أبو بكر – رضى الله عنه – وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض» فرفع فراشه ﷺ وحفر فى موضعه ، وذلك بأن حفر لـــه أبو طلحة الأنصارى لحدا ، ثم دخل الناس أرسالا يصلون عليه فرادى الرجال ، ثم النساء ، ثم الصبيان ، ثم العبيد ، ولما فرغوا من الصلاة عليه دفن ﷺ وذلك ليلة الأربعاء ، وكان الذى نزل فى قبره على بن أبى طالب ، والفضل وقثم ابنا العباس وشقران ، وأثناء ذلك قال أوس بن حولى الأنصارى لعلى: أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ أى أن تأذن لى فى النـــزول إلى قبر رسول الله ﷺ فأذن له بالنـــزول فى القبر معهم فنـــزل ، وسووا عليه التراب

ورفعوه مقدار شبر عن الأرض .

وقبض رسول الله ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة ، ولم يخلف من متاع الدنيا دينارا ولا درهما ، بل مات ودرعه مرهون فى كذا صاعا من شعير ، فـﷺ يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا .

* * * * * * * * * * *

بكاء ودموع على فراق الحبيب ﷺ

لا أحب أن أثير شجون المؤمنين والمؤمنات ، ولا أن أهيج نفسى بالبكاء الذى لا يجدى ، بلى يجدى إذ يطفئ نار أحشاء تلتهب ، ولكن كيف أواصل الحديث والقلب جريح ، والعين تذرف والدمع منهمر فلذا نكتفى بتسجيل دالية حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ فإنها تعبر عن حزن وألم ودموع كل مؤمن ومؤمنة فى هذه الحياة .

قال – رضى الله عنه وأرضاه –:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهدُ ::: منيرٌ وقد تعفو الرسومُ وتمهدُ
ولا تَّمحى الآياتُ من دار حرمة ::: بها منبرُ الهادى الذى كان يصعدُ
وواضحُ آثار وباقى معالمٍ ::: وربع له فيه مصلى ومسجدُ
بها حجراتُ كان ينزلُ وَسْطها ::: منَ الله نورٌ يستضاءُ ويوقدُ
معارفُ لم تطمسْ على العهد آيُها ::: أتاها البلى فالآى منها تجدَّدُ
عرفتُ بها رسمَ الرسول وعهدَه ::: وقبرًا بها واراه فى الترب مُلحدُ
ظللتُ بها أبكى الرسولُ فأُسْعدَتْ ::: عيونٌ ومثلاها من الجفن تسعدُ
تذكرن آلاء الرسول وما أرى ::: لها مُحْصيا نفسى فنفسى تبلَّدُ
مُفجَّعةُ قد شفَّها فَقْدُ أحمدَ ::: فظلت لآلاء الرسول تعددُ
وما بلغت من كلِّ أمر عشيرة ::: ولكن لنفسى بعد ما قد توجَّدُ
أطالتْ وقوفًا تُذرفُ العينُ جهدَها ::: على طَلَلِ القبر الذى فيه أحمدُ
فَبُوركْتَ يا قبرَ الرسول وَبُوركَتْ ::: بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المسددُ
وبُورك لَحْدٌ منك ضُمِّن طَيِّبًا ::: عليه بناءٌ من صفيح مُنَضَّدُ
تُهيلُ عليه التربَ أيدٌ وأعينٌ ::: عليه وقد غارت بذلك أسعدُ

لقد غيّبوا حُلْما وعلْمًا ورحمةً ::: عشيةَ عَلَوْه الثرى لا يوسَّدُ
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيُّهم ::: وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضدُ
يبكون من تبكي السماواتُ يومه ::: ومن قد بكته الأرضُ فالناس أكمدُ
وهل عدلت يوما رزيةُ هالك ::: رزيةُ يومَ مات فيه محمدُ؟
تقطعَ فيه منزلُ الوحى عنهم ::: وقد كان ذا نور يغورُ وينجدُ
يدلُّ على الرحمن مَنْ يقتدى به ::: وينقذُ منْ هول الخزايا ويرشدُ
إمامٌ لهم يهديهم الحقَ جاهدا ::: مُعلِّمُ صدق إن يطيعوه يسعدواْ
عَفُوٌّ عن الزلات يقبلُ عذرَهم ::: وإن يحسنوا فَالله بالخير أجودُ
وإن ناب أمرٌ لم يقوموا بحمله ::: فَمنْ عنده تيسيرُ ما يتشددُ
فبيناهم فى نعمة الله بينهم ::: دلَيلٌ به نهجُ الطريقة يقصدُ
عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى ::: حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدواْ
عطوفٌ عليهم لا يُثنى جناحَه ::: إلى كنف يحنو عليهم ويمهدُ
فبيناهُمُ فى ذلك النورِ إذْ غدًا ::: إلى نورهم سهمٌ من الموت مُقْصدُ
فأصبَح محمودًا إلى الله راجعًا ::: يبكيه حقُّ المرسلات ويحمدُ
وأمست بلادُ الحرم وَحْشاً بقاعها ::: لغيبةِ ما كانت من الوحىَ تعهدُ

إلى أن قال:

فَبَكّى رسولَ الله يا عينُ عبرَةً ::: ولا أعْرِفنْك – الدهر – دمعك يجمدُ
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى ::: على الناسِ منها سابغٌ يتغمدُ؟
فجودى عليه بالدموعِ وأعولى ::: لفقد الذى لا مثلُه الدهرُ يُوجدُ
وما فَقَدَ الماضون مثل محمدٍ ::: ولا مثلُه حتى القيامة يفقدُ

إلى أن قال:

أقولُ ولا يُلْقى لقولى عائبٌ ::: من الناس إلا عازبَ العقل مُبعدُ
وليس هوائى نازعًا عن ثنائه ::: لَعَلّى به فى جنة الخلد أُخلدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جوارَهُ ::: وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهدُ

* * * * * * * * * * *

الذات المحمدية

إن الحبيب صلوات الله وسلامه عليه بشر إلا أنه أكمل البشر وأفضلهم ، وواهب كماله وفضله هو الله جل جلاله ، وتعالى جده ، وعظم سلطانه .

ومن هنا كان الكمال المحمدى - ذاتا وصفات - عطاء إلهيا لا يسامى رسول الله فيه ، ولا يقوى القلم على رسم حقيقته ، ولم يخطئ من قال فى هذا الشأن:

ومَــــا مثَّلُــوا صفاتِــك للنــاسَ ::: إلا كما مثــل النجـــوم المـــاء

وقد وصف الحبيب محمدا ﷺ بعض من أصحابه ومواليه وآل بيته ، وكل واصف لم يعد الحقيقة بل لم ينته إليها ، وذلك لعجزه وعدم قدرته على رسم الصورة الحقة للذات المحمدية .

وبناء على هذا الذى قلنا ، فإنا نكفتى بوضع رسم أمام القارئ كان قد رسمه أعلم أصحابه به ، وألصقهم بجنابه ، لأنه فرع دوحته ، وبعل ابنته ، وأبو حسنيه ، هو على بن أبى طالب - رضى الله عنه وأرضاه - إذ يقول:

الرسم الكريم لمحمد الحبيب ﷺ

"كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا القصير ، فخم الرأس واللحية ، شثن[1] الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس[2] ، مشربا وجهه حمرة ، طويل المسربة[3] ، إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب[4] ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان أدعج[5] العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين ، ذا وفرة ، كأن عنقه إبريق فضة . وإذا التفت التفت جميعا ، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ الرطب ؛ لطيب عرقه وريحه ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، وهو بضعة لحم ناشزة[6] حولها شعر طيب جميل" .

كانت تلك صورة رسول الله ﷺ رسمها أبلغ أصحابه بيانا وأفصحهم لسانا ، ومن أصدقهم لهجة ، وأكثرهم تحريا للحقيقة والصواب ، فلو أراد المصورون اليوم - وقد لعنهم الله

---

(١) ممتلئ لحمهم .
(٢) الكراديس: المناكب .
(٣) المسربة: شعر الصدر .
(٤) صبب: التحدر .
(٥) أدعج: الدعج سواد العين .
(٦) ناشزة: عالية مرتفعة .

على لسان رسوله – لو أرادوا أن يرسموا صورة لمثل رسول الله ﷺ والله ما قدروا ولو اجتمعوا لذلك ، ولكانوا كاذبين وملعون من كذب على رسول الله ﷺ فيما تخيلوه ورسموه ، وبلغنى وانا أكتب هذه الرسالة فى السيرة المحمدية العطرة ان منظمة ما فى بلد ما رسمت صورة فى شكل تمثال وقالوا: هذا محمد ﷺ فكر عليها رجال سفارة خادم الحرمين الشريفين ، فهدموها وحطموها ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وحفظ الله خادم الحرمين وحكومته التى تذب عن الإسلام ، وتدفع عن حرمات شرائعه أصولا وفروعا آمين .

* * * * * * * * * * *

أسماء الذات المحمدية

إن لكل ذات اسما أو أسماء تعرف بها من بين سائر الذوات ، وهذا أمر مقرر فى جميع الشرائع ، مستقر فى النفوس ، وملازم للفطرة ، ومقبول لدى العقول ، وبقدر شرف الذات وسموها وكمالها تكثر أسماؤها وصفاتها ، حتى تجل عن الحصر ، فإن لله تعالى مائة اسم إلا اسما ، وقد ذكرت فى القرآن متفرقة وذكرت فى السنة مجملة .

وأما الحبيب ﷺ فإن له خمسة أسماء ، وليس هذا لغيره من سائر إخوانه الأنبياء فضلا عمن دونهم ، وقد جاء ذكر أسمائه الخمسة فى حديث مالك فى موطئه وهى «محمد ، وأحمد ، والمقفى ، والعاقب ، والحاشر» .

وأما صفاته ﷺ مثل نبى الرحمة ، ونبى الملحمة ، ونبى التوبة ، فهى كثيرة جدا ويطول ذكرها ، وقد كتب قدر منها فى الجدار القبلى لمسجده ﷺ وما كان ينبغى أن تكتب أسماؤه وصفاته على الجدران والحيطان ، وإنما على ألواح الذهب ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * * * * * * * * * *

ماله علاقة بالذات المحمدية كالزوجات والأولاد والموالى والممتلكات له كالمراكب وأنواع السلاح

(١) أزواجه ﷺ :

أجمل ابن الكلبى كما ذكر ذلك ابن الأثير القول فى زوجات الرسول ﷺ فقال: تزوج النبى ﷺ خمس عشرة امرأة ، ودخل بثلاث عشرة منهن ، وجمع بين إحدى عشرة منهن ، وتوفى عن تسع منهن – رضى الله عنهن – .

وتفصيل ذلك كالآتى :

تزوج رسول الله ﷺ أول من تزوج **خديجة** بنت خويلد ، وكانت قبل تحت عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم فمات عنها وتزوجها بعده أبو هالة بن زرارة بن النباش التميمى ، فولدت له هند بن أبى هالة ، ثم مات عنها فتزوجها رسول الله ﷺ وهى أم أولاده كافة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية جاريته التى أهداها إياه الملك المقوقس ملك القبط وهو بالمدينة المنورة .

ثم تزوج **عائشة** بنت أبى بكر الصديق ، وكانت صغيرة السن ، فلم ين بها حتى هاجر إلى المدينة ، وهاجرت أسرتها الكريمة ، ثم تزوج ﷺ بمكة **سودة** بنت زمعة وهى ثيب ، إذ كانت تحت السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو ، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافرا ، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس ، وخطبتها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان ابن مظعون ، فدخل بها بمكة وأصدقها أربعمائة درهم . ثم تزوج **حفصة** بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمى وأمهرها ﷺ أربعمائة درهم ، ثم تزوج **أم سلمة** بنت أبى أمية المخزومية ، وكانت عند أبى سلمة بن عبد الأسد شهيد أحد – رضى الله عنه – ثم تزوج **زينب** بنت خزيمة ام المساكين ، وكانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، وماتت عند رسول الله ﷺ ولم يمت فى حياته من نسائه ﷺ إلا هى وخديجة قبلها ، ثم تزوج **جويرية** بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية من بنى المصطلق ، وكانت عند مالك بن صفوان المصطلقى ولم تلد له شيئا ، ثم تزوج **أم حبيبة** بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت عند عبيد الله بن جحش ، وهو من مهاجرة الحبشة وتنصر ومات بها ، فأرسل النبى ﷺ إلى النجاشى فخطبها عليه وتزوجها وهى بالحبشة ، وتولى عقد نكاحها خالد بن سعيد بن العاص ، ودفع مهرها النجاشى ، وكان أربعمائة دينار ، واسم **أم حبيبة** رملة ؛ ثم تزوج **زينب** بنت جحش ، وكانت عند زيد بن حارثة مولاه ، فزوجه الله تعالى بها ، وبعث فى ذلك جبريل ، فكانت – رضى الله عنها – تفخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول: أنا أكرمهن وليا وسفيرا ، وهى أول من توفى من زوجات رسول الله ﷺ بعد وفاته ، فقد توفيت فى خلافة عمر – رضى الله عنهما وأرضاهما – ثم تزوج **صفية** بنت حيى بن أخطب النضرية ، وكانت قبله عند سلام بن مشكم فمات عنها وخلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق فقتل فى خيبر ، ثم أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها لأنها كانت من سبى خيبر ، ثم تزوج **ميمونة** بنت الحارث

الهلالية وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفى ، ثم تزوجها بعد عمير أبو زهير بن عبد العزى ، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعده ، وهى خالة عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – تزوجها رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء عقد عليها بمكة بعد التحلل من العمرة ، وبنى بها بسرف كما تقدم بناؤه فى عمرة القضاء ، ثم تزوج **شراف** بنت خليفة الكلبى وتوفيت قبل أن يبنى بها ، وهى أخت دحية بن خليفة الكلبى – رضى الله عنه – ثم تزوج امرأة من كلاب وتوفيت قبل البناء بها ، ثم تزوج **الشنباء** بنت عمرو الغفار فلما مات ابنه إبراهيم قالت: لو كان نبيا ما مات ولده فطلقها ، ثم تزوج **عمرة** بنت جابر الكلابية فلما قدمت عليه ﷺ استعاذت بالله منه ففارقها وقال: «منيع عائذ الله» ، ثم تزوج **العالية** بنت ظبيان فبنى بها ثم فارقها وردها إلى أهلها لعلة كانت بها .

المذكورات هن النسوة اللاتى تزوجهن رسول الله ﷺ ذكرناهن تفصيلا لا إجمالا ، وأما السرارى فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية ، وريحانة بنت زيد القرظية أو النضرية .

ومما ينبغى أن يقال هنا ويعلم أن النبى ﷺ لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة – رضى الله عنها– وكان زواجه بها إكراما لوالدها الصديق الوفى والأخ الصادق الأخوة الذى آزره منذ اللحظات الأولى فى دعوته وحمل رسالته ، وبهذا يتبين بوضوح لذى العقول والبصائر أن النبى ﷺ لم يتزوج امرأة من نسائه الثلاث عشرة اللاتى بنى بهن بمجرد الرغبة فى الاتصال الجنسى ، وإنما كان لأهداف سامية وغايات شريفة لم يسم إليها غير الحبيب ﷺ ، فقد تزوج خديجة بعد رغبتها فى الزواج منه لتكون قاعدة دعوته ، وأمينة سره ، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به وحلوكه الأيام والليالى عليه ، وتزوج أم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة ، وميمونة ، وأم المساكين وهن أرامل مرملات إيواء لهن لما فقدن أزواجهن ، ولما أصابهن من عذاب واضطهاد فى ذات الله تعالى .

وزوجه ربه تبارك وتعالى زينب بنت جحش وهو كاره لذلك خاش أن يقول الناس: محمد تزوج امرأة زيد الذى تبناه ، وتزوج حفصة بنت عمر الثيب إكراما لعمر وتحقيقا لرغبته فى أن تكون بنته فى بيت النبوة الطاهر وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين ، وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه فمن يكرم إذا ؟ .

وتزوج صفية ، وجويرية مسحا لدموعهما وإذهابا لحزنهما لموت زوجيهما فى معركة

قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما .

وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله ، ولا بدون إذن من الله ورضاه ، ألا قاتل الله الطاعنين في الكمال المحمدى ، وقطع ألسنة الجاهلين ببغاوات أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومجوس ومشركين الذين يهرفون بما لا يعرفون .

(ب) أولاده ﷺ :

إن النبى ﷺ مثل غيره من أنبياء الله ورسله إذ كانت لهم أزواج ، وكان لهم أولاد من بنين وبنات وهذا من الكمال لا من النقصان قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨] وقال تعالى فى خطابه إياه ﷺ : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] . ومن هنا تزوج رسول الله ﷺ ما سبق بيانه من النساء اللاتى شرفهن الله تعالى بصحبة نبيه وخليله محمد ﷺ إلا أنه لم ينجب من نسائه إلا اثنتان هما خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ، ومارية بنت شمعون القبطية المصرية ، فخديجة أنجبت من الذكور: القاسم ، وعبد الله ، والطيب أو الطاهر وماتوا صغارا لم يبلغ الحدث منهم أحد ، وماتوا ودفنوا بمكة قبل الهجرة ، وأنجب من الإناث: زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وكلهن كبرن وتزوجن . فزينب تزوجت من أبى العاص بن الربيع ، ورقية ، وأم كلثوم تزوجهن عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ، وتوفاهن الله تعالى عنده ، وفاطمة تزوجها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وأنجبت الحسن ، والحسين وهما أصل الأشراف فى العالم الإسلامى اليوم وبعد اليوم إذ بارك الله تعالى فى نسلهما كرامة الله لآل البيت .

ومارية القبطية أنجبت إبراهيم ومات وهو رضيع لم يفطم بعد ودفن بالبقيع وكذا فاطمة - رضى الله عنها - هؤلاء هم أبناء النبى ﷺ وبناته - فعلى جميعهن السلام - .

(ج) موالى الحبيب ﷺ :

إن المراد من الموالى أولئك الأرقاء الذين عتقهم رسول الله ﷺ وشرفوا بخدمته يوما من الدهر ، وهذه قائمة بأسمائهم:

- زيد بن حارثة الكلبى وولده أسامة بن زيد وهما الحب وابن الحب - رضى الله عنهما - .

- ثوبان ويكنى بأبى عبد الله أصابه من السّراة ، سكن حمص بعد وفاة رسول الله ﷺ ومات بها .

– شقران واسمه صالح ، قيل: إنه من الحبشة ، وقيل: من الفرس ، وغالب الظن أنه من الفرس الذين كانوا يسكنون اليمن من بقايا الجيوش التى دخلت اليمن من الفرس فى الجاهلية قبل الإسلام كما تقدم بيانه فى هذه الرسالة .

– أبو رافع ، واسمه إبراهيم القبطى كان لآل العباس ، فأسلم ووهبه العباس لرسول الله ﷺ فأعتقه وزوجه فأنجب أولادا وكان ينحت القداح ، وكان كاتبا ، واستكتبه على – رضى الله عنهما – .

– سلمان الفارسى الأصبهانى كان مملوكا فى آخر أيامه قبل الإسلام ليهودى ، فكاتب اليهودى ، وأعانه رسول الله ﷺ حتى عتق .

– سفينة ، وكان لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول الله ﷺ مدة حياته ، فقبل بالشرط ونفذه ، فخدم رسول الله ﷺ وشرف بذلك ويا ليتنى كنت انا وأمى وأولادى خدما لرسول الله ﷺ مدة حياته .

– أنسة ويكنى أبا مشرح وهو من مولدى السراة ، وكان يأذن على رسول الله ﷺ إذا جلس ، توفى فى حياة أبى بكر – رضى الله عنه – .

– أبو كبشة واسمه سليم اشتراه الرسول ﷺ وأعتقه وشهد بدرا والمشاهد كلها وتوفى يوم استخلف عمر – رضى الله عنه – .

– رويفع ويكنى أبو موهبة كان من مولى مزينة اشتراه النبى ﷺ وأعتقه .

– رباح الأسود ، وكان يأذن على رسول الله ﷺ فى المجلس وهو الذى أخذ الإذن لعمر حتى دخل على رسول الله أيام آلى من نسائه .

– فضالة اليمانى نزل الشام .

– مدعم ، قتل بوادى القرى بسهم عائر أى بسهم لا يعرف من رماه .

– أبو ضميرة قيل كان من الفرس أصابه رسول الله ﷺ فى بعض الوقائع وأعتقه .

– يسار وكان نوبيا أصابه رسول الله ﷺ فى بعض غزواته فأعتقه وهو الذى قتله العرنيون الذين أغاروا على لقاح النبى ﷺ .

– مهران مولاه حدث عن النبى ﷺ .

– حنين مولى رسول الله ﷺ وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين كان يخدم رسول الله ﷺ ويوضئه ثم وهبه رسول الله ﷺ لعمه العباس فأعتقه .

– زيد أبو يسار روای حديث «**من قال: استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم واتوب إليه غفر له وإن كان فَرّ من الزحف**» .

– كركرة كان على ثقل النبى ﷺ فى بعض غزاوته ومات وهو غال عباءة فقال النبى ﷺ «**هو فى النار**» .

– كيسان راوى حديث: «**إنا أهل بيت نهينا أن نأكل الصدقة**» ورواه البغوى .

– أبو بكرة نويفع الثقفى تولى ببكرة من حصن الطائف فأعتقه رسول الله ﷺ مع أعبد كانوا معه وطلب أهل الطائف بهم بعد إسلامهم ، فلم يردهم رسول الله إليهم وقال: هم عتقاء الله .

(د) إماء رسول الله ﷺ :

وكان للحبيب إماء كثيرات منهن :

– بركة أم أيمن ، وأم أسامة بن زيد فازت بحضانة النبى ﷺ مع والدته آمنة كان قد زارها أبو بكر ، وعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ فبكت أمامهما فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ فقالت: بلى ، ولكنى أبكى لأن الوحى قد انقطع من السماء فجعلا يبكيان – رضى الله عنهم أجمعين – .

– خولة خادمة رسول الله ﷺ .

– رضوى بنت كعب .

– ريحانة بنت شمعون القرظية أو النضرية .

– سائبة مولة رسول الله ﷺ .

– سلمى أم رافع امرأة أبى رافع .

– ميمونة بنت سعد روى عنها أصحابه الستة .

– عنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة كان اسمها عنبة فسماها رسول الله ﷺ عنقودة .

- أم عياش بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوجها عثمان - رضى الله عنه - .

- ميمونة بنت أبى عسيب راوية حديث: «**ضعى يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه وقولى: بسم الله ، اللهم داونى بدوائك واشفنى بشفائك واغننى بفضلك عمن سواك**» حيث طلبت دعوة من رسول الله ﷺ يسكن بها قلبها وتطمئن بها نفسها ، فقال لها الرسول ﷺ : «**قولى**» الحديث . . . . .

هؤلاء مواليه وهم خدمه . أما مواليه وخدمه من الأحرار .

فأفضل الصحابة كأبى بكر الصديق فقد خدمه واعتز بخدمته ، فلذا من خدمه من أصحابه لا يقلون عن عدد الموالى من خدمة بل هم أكثر ، فصل اللهم على نبيك وصفيك وخيرتك من خلقك محمد وعلى آله وصحبه ومواليه ومن آمن به واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

(هـ) كتابه ﷺ :

إن من صفات الكمال المحمدى الأمية إذ بها نعت فى الكتب الأول ومعناها:

أنه لا يقرأ فى كتاب ولا يكتبه ، إذ لو كان كذلك لارتاب المبطلون فكانت الأمية صفة كمال له دون غيره من سائر الناس .

ومن هنا كان لابد من كتاب يكتبون له ﷺ الوحى النازل إليه من ربه تعالى وغير الوحى مما لابد من كتابته كالوثائق والعهود السياسية وكمراسلة الملوك والرؤساء ، لإبلاغ دعوة الله عز وجل ، وللحبيب ﷺ كتاب كثيرون هذا طرف منهم:

- أبو بكر الصديق .
- عمر بن الخطاب .
- عثمان بن عفان .
- على بن أبى طالب .
- خالد بن سعيد .
- أبان بن سعيد .
- العلاء بن الحضرمى .

– أبى بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة .

– زيد بن ثابت ، وقد أمره أن يتعلم العبرانية فتعلمها كتابة وقراءة فى نصف شهر لا غير .

– عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، ثم ارتد وعاد إلى الإسلام يوم الفتح وحسن إسلامه .

– حنظلة الأسيدى .

– الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته .

– خالد بن الوليد المخزومى صاحب المواقف البطولية فى الجهاد .

– ثابت بن قيس بن شماس .

– عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – .

– عبد الله بن أرقم بن أبى الأرقم المخزومى .

– عبد الله بن زيد بن عبد ربه صاحب رؤيا الأذان .

– محمد بن سلمة الأنصارى .

– معاوية بن أبى سفيان ، وكان يكتب بين يدى رسول الله ﷺ .

– المغيرة بن شعبة الثقفى راوى حديث المسح على الخفين .

(و) أسماء خيله ﷺ :

إن تسمية الدواب من إنسان وحيوان وغيرهما أمر مقرر فى الشرع والعقل إذ لا نعرف الذات إلا بسمة أى علامة تدل عليها ، ومن ذلك كانت تسمية الأشياء .

وللحبيب ﷺ خيل يركبها للجهاد عليها لا للفخر والمباهاة ، إذ ذلك شأن أبناء الدنيا ، وأما الحبيب ﷺ فقد كان أرقى البشر فكرا وأرجحهم عقلا وأصفاهم ذهنا وأطهرهم روحا وأزكاهم نفسا ، فكيف يكون للدنيا ابنا وهى بئست الأم ؟ ومن خيول النبى ﷺ التى عرفت بأسمائها ما يلى:

– السكب وهو أول فرس ملكه ، وغزا غزوة أحد عليه ، وسمى بالسكب لأنه كثير الجرى .

– ملاح .

– المرتجز .

– اللحيف . أهداه إليه ربيع بن أبى البراء .

– الظرب . أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامى .

– الورد . أهداه إليه تميم الدارى فوهبه ﷺ لعمر بن الخطاب – رضى الله عنه – .

– اللزاز . أهداه إليه المقوقس كما أهدى إليه مارية والبغلة (الدلدل) .

(ز) أسماء بغال الحبيب ﷺ :

لقد كان للنبى ﷺ بغلتان: الأولى: "الدُّلْدُلُ" وهى بغلة بيضاء أهداها إليه المقوقس ملك القبط ، وهى أول بغلة رؤيت فى الإسلام ؛ والثانية (فضة) أهداها إليه فهروة بن عمرو فوهبها ﷺ إلى أبى بكر الصديق ، وكان له حمار واحد يقال له: يعفور أو عفير أهداه إليه المقوقس ملك القبط .

(ح) أسماء إبله ولقاحه ومنائحه ﷺ :

أما الركائب من الإبل فلم يكن له ﷺ سوى القصوى ويقال لها: العضباء والجذعى أيضا أخذها من أبى بكر بأربعمائة درهم ، وهاجر عليها من مكة إلى المدينة ، وبقيت معه مدة طويلة ، وأما اللقاح فكان له عشرون لقحة ترعى بالغابة وهى التى أغار عليها العرنيون ومنهن الحسناء ، والسمراء ، والعريس ، والسعدية ، والبغوم ، واليسيرة ، والريا ، ومهرة ، والشقراء كان يأتى لبنها أهله كل ليلة .

وأما المنائح[1] فقد كان له ﷺ سبع منائح من الغنم وهى ، عجوة ، وزمزم ، وسقيا ، وبركة ، وورسة ، وأطلال ، وأطراف ، كما له سبع أعنــز كان يرعاهن أيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ .

(ط) أسماء سلاح الحبيب ﷺ :

من أشهر سلاحه ﷺ سيفه (ذو الفقار) الذى غنمه يوم بدر ، وكان لمنبه بن الحجاج ، وغنم من بنى قينقاع ثلاثة أسياف ، هى القلعى ، والبتار ، والحتيف ، وكان له سيف يدعى

---

(١) المنائح: الشياه .

المخذم وآخر يسمى: رسوب ، وكان له بمكة سيفان قدم بهما المدينة ، وحمل أحدهما معه إلى بدر ، وهو القضب .

وأما الرماح والقسى فقد كان له ﷺ ثلاثة رماح ، وثلاث قسى ، إحداها تسمى: الروحاء ، والثانية: البيضاء ، والثالثة: الصفراء .

وأما الدروع: فقد كان له ثلاثة دروع الأولى: تسمى: الفضة غنمها من بنى قينقاع ، والثانية: تسمى: ذات الفضول ، كانت عليه يوم أحد مع الفضة ، والثالثة: الصعدية ، وكان له ترس واحد فيه تمثال رأس كبش فكرهه لذلك ، فأصبح وقد أذهبه الله تعالى عنه ، وكان له قضيب يسمى: الممشوق .

هذا ويقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - نظرا إلى ما صح من قول على وخبر الصحابة أن النبى ﷺ مات و لم يترك دينارا ولا درهما ، وأن درعه مرهونة فى ثلاثين صاعا من شعير أن جميع ما ذكر من العبيد والإماء والحيوان والسلاح قد أنجز التصدق به قبل موته ، وهو كذلك ، وكيف وقد قال: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**» .

الخصائص المحمدية

إن للحبيب ﷺ خصائص اختصه الله تعالى بها لكماله الذاتى والروحى لم تكن لغيره من أفراد أمته ، وهذا طرف منها:

(١) **النبوة:** فليس لأحد بعده أن يدعيها ، او تكون له بحال لأن الله تعالى ختم بنبوته سائر النبوات وبرسالته سائر الرسالات قال تعالى: ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] من سورة الأحزاب فمن ادعى النبوة معه كمسيلمة الكذاب أو بعده فهو كاذب يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفرا .

(٢) **الوحى:** فليس لأحد بعده أو معه أن يدعى أنه أوحى إليه بكذا أويوحى إليه فى كذا لا يقظة ولا مناما ، لا بالإلقاء فى الروع ، ولا بهتاف ملك فضلا عن رؤية الملك والتلقى عنه ، وذلك لانقطاع الوحى بموت النبى ﷺ ولكمال الشريعة وتمامها ، وعدم حاجتها إلى إكمال أو إتمام ، فمن ادعى الوحى ، وإن قل فهو كافر يعامل معاملة مدعى النبوة .

(٣) **نوم العينين دون القلب:** فهذا من خصائصه ﷺ : إذ هو الذى تنام عينه ولا ينام قلبه ، خصوصية أخبر بها له ﷺ فلم تكن لغيره فمن ادعاها فهو كاذب مفتر لا تقبل منه دعواه .

(٤) **إباحة الله تعالى له نكاح أكثر من أربع زوجات:** وعدم إباحة ذلك لغيره من سائر رجالات أمته ، إذ قال: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وكان تحته تسع نسوة يوم نزلت هذه الآية ، هذا ولأمته قال تعالى: ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: ٣] فلم يحل لهم أكثر من أربع ، فكانت الزيادة على الأربع من خصائص النبى ﷺ .

(٥) **وصال الصيام:** إذ من خصائصه ﷺ مواصلة الصوم فيصوم يومين متتاليين لا يفطر إلا فى نهاية اليوم الثانى ، ولم يؤذن لأحد من أمته فى ذلك وقد قيل له فى ذلك فقال: «**إنى لست كأحدكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى**» رواه الشيخان ، والإطعام والسقى هنا معنويان على حد قوله فى المريض: «**لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم**» .

(٦) **حرمة أكل الصدقة:** ويشاركه فى هذه الخصوصية آل بيته دون سائر أفراد أمته فإنه يحل لأى فقير ومحتاج أن يأكل الصدقة ويطلبها إن احتاج إليها إلا رسول الله ﷺ وآل بيته .

(٧) **قيام الليل:** فإنه ﷺ كان يقوم الليل على سبيل الوجوب لقوله تعالى: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل: ٢] وقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩]

بخلاف أفراد أمته فقيام الليل ليس واجبا على أحد منهم ، وإنما يقومونه تطوعا ونافلة لا غير .

(٨) **عدم إرثه ﷺ:** فما تركه كان صدقة ، فلم ترث فاطمة نصفها ولا أزواجه أمهات المؤمنين ثمنهن ، ولا العباس العاصب ما أبقت الفرائض ، بل قال ﷺ : «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة**» وقوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: ١٦] فليس المراد منه إرث المال بل النبوة والملك ، إذ لا يخبر تعالى فى مقام الإنعام والتكريم بأن ولدا ورث والدا فيما ترك من مال إن هذا أمر معلوم بين سائر الناس ، ولا فضل فيه لأحد على آخر .

(٩) **هبة النكاح:** وهى من خصائصه ﷺ فأيما امرأة وهبت نفسها للنبى ﷺ له أن يتزوجها بدون مهر يقدمه لها ، ولم يكن هذا لأحد من أفراد أمته قط إذ لابد للنكاح من مهر معجلا أو مؤجلا ، إلا ما كان لرسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا

لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ومن لم تهب له نفسها فعليه أن يدفع لها مهرا ، وقد أمهر الكثير من نسائه أربعمائة درهم .

(١٠) **حرمة نكاح نسائه بعده:** وليس هذا لأحد سواه قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] فلا يحل لمؤمن أن يتزوج امرأة من نساء النبى اللاتى توفى عنهن بخلاف أفراد أمته من علماء وصلحاء وكلهم أولياء فلا يحل لأحدهم أن يمنع امرأته من الزواج بعده إلا أن تشاء هى ذلك فلها ما شاءت ما شاء الله تعالى لها ذلك .

* * * * * * * * * * *

المعجزات المحمدية

إن المراد من المعجزات:ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله فيكون ما يأتى به النبى معجزا لغيره من سائر الناس ، بحيث لم يقدروا عليه أفرادا او جماعات لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم ، فإن قرن بالتحدى كان المعجزة الخاصة بالأنبياء ، وإن لم يقرن بتحد فهو كرامة يكرم الله تعالى بها من يشاء من أوليائه وصالحى عباده ، **إذ الفرق بين المعجزة والكرامة:** أن المعجزة: تكون مقرونة بالتحدى غالبا ؛ والكرامة: خالية من ذلك ، لأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: "صدقوا النبى فيما يخبر به عنى" فالمعجزة مثبتة للنبوة مقررة لها ، إذ بها يعرف النبى الحق من المدعى الكاذب .

ولفظ المعجزة غير وارد فى القرآن الكريم ، وإنما الوارد لفظ "الآية" ، لأن الأصل فى "الآية" العلامة الدالة على الشيء ، إذ يقول الإنسان لأخيه: فلان يقول لك: أعطنى كذا أو كذا ، فيقول له: ما آية ذلك أى ما علامته أنه قال أعطه كذا أو كذا ؟ فيريه خاتمه أو كتابه أو سيفه أو أى شيء خاص به فيكون ذلك آية وعلامة على صدق ما ادعاه وطالب به .

ومن القول الشائع عند الناس قولهم: لا نبى إلا بالمعجزات ، ولا ولى إلا بالكرامات وهو قول فى الجملة صحيح .

هذا وللحبيب محمد ﷺ معجزات أكرمه الله تعالى بها ، وصدق رسالته بمثلها بلغت الألف معجزة ، هكذا قرر أهل العلم إن لم تكن أكثر من ذلك وها نحن نورد ما يحضرنا منها:

* * * * * * * * * * *

وأولى تلك المعجزات أو الآيات:

القرآن الكريم

لأنه كلام الله تعالى أوحاه إليه فدل ذلك على نبوته ، وصدقه فى رسالته لأن القرآن الكريم معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه ، ومعانيه ، وأخبار الغيوب التى وردت فيه ، فكانت كما أخبر ، كما هو معجز بالأحكام الشرعية والقضايا العقلية التى لا قبل للبشر بمثلها ، مع التحدى القائم إلى اليوم بأن يأتى الإنس أو الجن متعاونين بمثله قال تعالى موحيه ومنـــزله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ، وتحدى العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان على أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣] وتحداهم بسورة واحدة من مثله فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة: ٢٣] نفى لقدرتهم على الإتيان بسورة مثل القرآن فى مستقبل الأيام ، وقد مضى حتى الآن ألف وأربعمائة سنة وسبع سنين ، ولم يستطع الكافرون أن يأتوا بسورة من مثله .

وبهذا كان القرآن معجزة خالدة باقية ببقاء هذه الحياة ، ولذا سيخلد الإسلام ويبقى إلى نهاية الحياة ، لأن معجزته باقية كذلك .

* * * * * * * * * * *

وثانية المعجزات:

انشقاق القمر

فقد روى أحمد والبخارى ، ومسلم فى صحيحهما أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين ، قال مطعم: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا: سحرنا محمد وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ من [سورة القمر:١– ٣] .

* * * * * * * * * * *

وثالثة المعجزات:

نزول المطر بدعائه

لقد أمحلت البلاد ، وأصابها قحط شديد فدخل رجل المسجد ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب ، فاستقبل الرجل النبى ﷺ ، وقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله لنا يغيثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا**» قال أنس: والله ما فى السماء من سحاب ولا قزعة ولا شىء ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، والله ما رأينا الشمس ستا ، ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله الرجل وقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ادع الله أن يمسكها فرفع رسول الله ﷺ يديه ، ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والجبال ومنابت الشجر**» ، قال أنس فانقطعت وخرجنا نمشى فى الشمس .

فهذه المعجزة وهى نزول المطر بدعائه ﷺ قد كررت مرات عديدة وهى معجزة سماوية كانشقاق القمر لا دخل لغير القدرة الإلهية فيها ، وهى آية نبوته ﷺ ولكثرة تكرار هذه الآية كانوا يرددون قول أبى طالب فيه:

وأبيـــضَ يُستسقـــى الغمامُ بوجهـــه ::: ثمـــالُ اليتامـــى عصمةٌ للأرامـــل

* * * * * * * * * * *

ورابعة المعجزات:

نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ

ومن معجزات الحبيب ﷺ الدالة على نبوته وصدق رسالته نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة ، فقد قال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده فى ذلك الإناء ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم ، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم ؟ قال: زهاء ثلثمائة رجل .

فهذه معجزة ظاهرة ، إذ ليس فى طوق البشر أن يأتوا بمثلها ، إذ لم تجر سنة الله فى الكون أن الماء ينبع من بين أصابع الإنسان مهما كان إلا أن تكون آية تدل على صدق نبوة من ادعاها ، فقد كانت هذه آية نبوته ﷺ ، إذ وقعت فى سوق المدينة العاصمة وحضرها وشهدها

قرابة الثلثمائة رجل من أصدق الرجال وأذكاهم ، وأتقاهم .

* * * * * * * * * * *

وخامسة المعجزات:

فيضان ماء بئر الحديبية

ومن معجزاته ﷺ أنه لما كان الحديبية هو وأصحابه سنة ست من الهجرة وكان الحديبية بئر ماء فنــزحها أصحابه بالسقى منها حتى لم يبق فيها ما يملأ كأس ماء وكانوا ألفا وأربعمائة رجل ، وخافوا العطش فشكوا ذلك إليه ﷺ فجاء فجلس على حافة البئر فدعا بماء فجيء به إليه فتمضمض منه ، ومج ما تمضمض به فى البئر فما هى إلا لحظات ، وإذا البئر فيها الماء فأخذوا يسقون فسقوا وملأوا أوانيهم وأدوات حمل الماء عندهم وهم كما تقدم ألف وأربعمائة رجل وهم أهل بيعة الرضوان الذين – رضى الله عنهم – وأنزل فيهم قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] ففيضان الماء من بئر جاف لا ماء بها حتى سقى منها أهل معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبوية صادقة تنطق قائلة أن صدقوا محمدا فيما جاءكم به ودعاكم إليه فإنه رسول الله إليكم حقا وصدقا .

* * * * * * * * * * *

وسادسة المعجزات:

قدح لبن روى فئاماً من الناس ببركته ﷺ

روى البخارى – رحمه الله تعالى – فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – القصة التالية:

قال: والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر عمر – رضى الله عنه – فسألته عن آية من كتاب الله تعالى إلا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر أبو القاسم ﷺ فعرف ما فى وجهى ، وما فى نفسى فقال: «أبا هريرة» قلت له: لبيك يا رسول الله فقال: «الحق» واستأذنت فأذن لى فوجدت لبنا فى قدح ، قال: «من أين لكم هذا اللبن ؟» فقالوا: أهداه

لنا فلان أو آل فلان ، قال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله ، قال: «**انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لى**» قال - أى أبو هريرة - وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ، ولا مال ، إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها ، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم و لم يصب منها ، قال أبو هريرة: وأحزننى ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها بقية يومى وليلتى ، وقلت: أنا الرسول فإذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم ، وقلت: ما يبقى لى من هذا اللبن ؟ و لم يكن من طاعة الله ورسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: «**يا أبا هريرة خذ فأعطهم**» فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ، ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه فى يده وبقى فيه فضلة ، ثم رفع رأسه ونظر إلى وابتسم ، وقال: «**أبا هريرة**» فقلت: لبيك يا رسول الله ، قال: «**بقيت أنا وأنت**» فقلت: صدقت يا رسول الله قال: «**فاقعد فاشرب**» قال: فقعدت فشربت ، ثم قال لى: «**اشرب**» فشربت فما زال يقول لى: اشرب فأشرب حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق ما أجد له فى مسلكا ، قال: «**ناولنى القدح**» فرددته إليه فشرب من الفضلة .

وهكذا تتجلى هذه المعجزة وهى آية النبوة المحمدية ، إذ قدح لبن لا يروى ولا يشبع جماعة من الناس كلهم جياع بحال من الأحوال ، فكيف أرواهم وأشبعهم ؟ إنها المعجزة النبوية! وآية أخرى للكمال المحمدى أن يكون ﷺ هو آخر من يشرب من ذلك القدح الذى شرب جماعة من الناس .

وهنا يقال: ما بال الذين يتقززون من شرب السئور ويرفضونه فى كبرياء وخوف أيضا أن يصابوا بمرض من ذلك ؟ أين هم من هذا الكمال المحمدى ؟ إنهم بعيدون كل البعد ذاهبون فى أودية الأوهام حيث لا يسمعون ولا يبصرون .

* * * * * * * * * *

وسابعة المعجزات:

امتلاء عكة سمن بعد فراغها

روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه قال: كانت لأمى أم سليم شاة فجمعت من سمنها فى عكة فملأت العكة ثم بعثت بها ربيبة فقالت: يا ربيبة أبلغى

هذه العكة رسول الله ﷺ يأتدم بها ، فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم قال: «أفرغوا لها عكتها» فأفرغت العكة ودفعت إليها قالت: فانطلقت بها ، وجئت وأم سليم ليست في البيت فعلقت العكة على وتد ، فجاءت أم سليم فرأت العكة ممتلئة تقطر ، فقالت: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ ؟ فقالت: بلى قد فعلت فإن لم تصدقيني فسلي رسول الله ﷺ ، فانطلقت ومعها ربيبة ، فقالت: يا رسول الله إني بعثت معها إليك بعكة فيها سمن قال: «قد فعلت قد جاءت» قالت: والذي بعثك بالحق ، ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنا ، قال أنس: فقال رسول الله ﷺ : «يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه ، كلي وأطعمي» قالت: فجئت إلى البيت فقسمت في قعب لنا ، وكذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا به شهرا أو شهرين .

فهذه إحدى المعجزات المحمدية ، إذ ليس مما جرت به سنة الله في الخلق أن يمتلئ الإناء سمنا بعد إفراغه منه ، ويرى ذلك رأي العين وينتفع به .

* * * * * * * * * * *

وثامنة المعجزات:

الطعام القليل يشبع العدد الكثير

روى البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قوله: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ قالت: نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ ، قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : «أرسلك أبو طلحة ؟» فقلت: نعم قال: «بطعام» قلت: نعم ، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق ، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : «هلم يا أم سليم ما عندك ؟» فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما شاء أن يقول ، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ،

ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا أليست هذه من أعظم المعجزات ؟ بلى وربى إنها لمن أعظم المعجزات ، إن أقراصا عدة حملها غلام تحت إبطه يطعم منها ثمانون رجلا ويشبع كل واحد منهم شبعا لا مزيد عليه ، إن لم تكن هذه معجزة فما هى المعجزات إذا يا ترى ؟ .

* * * * * * * * * * *

وتاسعة المعجزات:

تكثير الطعام

إن معجزة تكثير الطعام والشراب قد تكررت فبلغت عشرات المرات وفى ظروف مختلفة ، ومناسبات عديدة ، منها ما تقدم ، ومنها هذه فقد قال أبو هريرة – رضى الله عنه –: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها – (وهى غزوة تبوك) فأرمل فيها المسلمون واحتاجوا إلى الطعام ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى نحر الإبل فأذن لهم ، فبلغ ذلك عمر – رضى الله عنه – فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إبلهم تحملهم وتبلغهم عدوهم ينحرونها ؟ ادع يا رسول الله بغبرات فادع الله عز وجل فيها بالبركة ، قال: «أجل» فدعا بغبرات[1] الزاد فجاء الناس بما بقى معهم فجمعت ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة ودعاهم بأوعيتهم فملأوها وفضل كثير ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى عبد الله ورسوله ومن لقى الله عز وجل بها غير شاك دخل الجنة**» .

فهذه معجزة ظاهرة فى تكثير الطعام القليل حتى أصبح كثيرا وهى كما قدمنا واحدة من عشرات المعجزات فى تكثير الطعام والشراب .

* * * * * * * * * * *

وعاشرة المعجزات:

توفية دين جابر الذى استغرق كل ماله

فقد روى البخارى رحمه الله تعالى فى دلائل النبوة المحمدية قصة جابر الآتية:

فقال: حدثنا أبو نعيم وساق السند إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام – رضى الله

---

(١) بغبرات: بقايا .

عنهما – فقال: إن أبى توفى وعليه دين فأتيت النبى ﷺ فقلت: إن أبى ترك دينا ، وليس عندى إلا ما يخرج نخلة ، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه ، فانطلق معى لكيلا يفحش على الغرماء فمشى حول بيدر[1] من بيادر التمر فدعا ، ثم آخر ، ثم جلس عليه فقال: «إنزعوه» فأوفاهم الذى لهم ، وبقى مثل ما أعطاهم ، وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق كل التمر ولسنين عدة أيضا ، وفى التمر الموجود كل الديون ، وبقى التمر فى البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة ، وذلك ببكرة وجود الرسول ﷺ بين البيادر ودعائه بالبركة فيها ، فباركها الله عز وجل فوفت الديون وزادت ، فكانت آية النبوة والمعجزة الظاهرة التى يبعث بها الأنبياء ، ويكرم الله تعالى بها الأولياء متى شاء وهو على كل شىء قدير .

* * * * * * * * * * *

وحادية عشرة المعجزات:

انقياد الشجر له ﷺ

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال: سرنا مع النبى ﷺ حتى نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته فأتبعته بإداوة فيها ماء ، فنظر فلم ير شيئا يستتر به وإذ شجرتان بشاطئ الوادى فانطلق إلى إحداهما فأخذ ببعض من أغصانها وقال: «انقادى على بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضا من أغصانها وقال: «انقادى على بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لاءم بينهما أى جمعهما ، وقال: «التئما على بإذن الله» فالتأمتا ، قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس بقربى منه فيبعد ، فجلست أحدث نفسى فحانت منى التفاتة ، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل وإذا الشجرتان قد افترقتا ، وقامت كل واحدة منهما على ساق إلى آخر الحديث . .

فهذه إحدى المعجزات الخارقة للعادة التى لا تكون إلا لنبى من الأنبياء – عليهم السلام – إذ كون الشجرة تستجيب وتنقاد مطيعة لأمر رسول الله ﷺ هو أمر خارق للعادة لم تجر به سنن الله تعالى فى الكون ، وبذا كانت معجزة للحبيب ﷺ .

* * * * * * * * * * *

(١) كومها فى البيدر ؛ والبيدر: الجرن الذى يجمع فيه الحنطة-القمح - .

وثانية عشر المعجزات:

حنين الجذع شوقا إليه ﷺ

فقد روى أحمد – رحمه الله – عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة فقالت امرأة من الأنصار وكان لها غلام نجار: يا رسول الله إن لى غلاما نجارا أفآمره أن يتخذ لك منبرا تخطب عليه ؟ قال: «بلى» فاتخذ له منبرا فلما كان يوم الجمعة خطب رسول الله ﷺ على المنبر فأن الجذع الذى كان يقوم عليه يئن كما يئن الصبى ، فقال النبى ﷺ : «إن هذا بكى لما فقد من الذكر» وفى رواية البخارى فصاحت النخلة (جذع النخلة) صياح الصبى ، ثم نزل ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبى الذى يسكن ، قال: «كانت تبكى " النخلة " على ما كانت تسمع من الذكر عندها» فحنين الجذع شوقا إلى سماع الذكر وتألما لفراق الحبيب الذى كان يخطب إليه واقفا عليه وهو جماد لا روح له ولا عقل فى ظاهر الأمر ، وحسب علم الناس بالجمادات آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق رسالته وهى معجزة كبرى على مثلها آمن البشر لعجزهم على الإتيان بمثلها .

* * * * * * * * * * *

وثالثة عشرة المعجزات:

تسبيح الحصى فى يديه وسلام الشجر عليه

روى الحافظ أبو بكر البيهقى – رحمه الله تعالى – عن سويد بن يزيد السلمى قال سمعت أبا ذر الغفارى – رضى الله عنه – يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته ، وبين ذلك الخبر الذى رآه فقال: كنت رجلا اتبع خلوات رسول الله ﷺ ، فرأيته يوما جالسا وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه ، فجاء أبو بكر عليه ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ، فجاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر ، وبين يدى رسول الله ﷺ سبع حصيات فأخذهن فى كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن أى سكتن ، ثم أخذهن فوضعهن فى كف أبى بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان

فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، فقال النبى ﷺ : «هذه خلافة النبوة» .

فهذه المعجزة ذات شطرين: الأول: تسبيح الحصى فى أيدى الراشدين ، والثانى: الخلافة فعلا قد انحصرت فى الصديق والفاروق وذى النورين ، ثم اضطربت .

* * * * * * * * * * *

ورابعة عشرة المعجزات:

سلام الحجر عليه ﷺ

فقد روى مسلم ، وأحمد بسنده عن جابر بن سمرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : **«إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن»** فسلام الحجر وهو جماد أمر خارق للعادة ، معجز للبشر أن يأتوا بمثله ، فلذا هو آية النبوة المحمدية ومعجزة من معجزات الحبيب ﷺ .

* * * * * * * * * * *

وخامسة عشرة المعجزات:

سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه

روى النسائى وأحمد بسندهما عن أنس بن مالك – رضى الله عنه –: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه ، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره ، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل يسنون[1] عليه ، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط . والجمل فى ناحية ، فمشى النبى ﷺ نحوه ، فقال الأنصار: إنه صار مثل الكلب ، وإنا نخاف عليك صولته ، فقال: **«ليس على منه بأس»** فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه ، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله فى العمل ، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن أحق أن نسجد لك ، فقال: **«لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد**

---

(١) يستخرجون الماء من البئر بالسنى .

لزوجها من عظم حقه عليها» .

كما روى مسلم: أن النبى ﷺ دخل يوما مع بعض أصحابه حائطا من حيطان الأنصار ، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه ، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن فقال ﷺ : «من صاحب الجمل ؟» فجاء فتى من الأنصار قال: هو لى يا رسول الله ، فقال له ﷺ : «**أما تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكها الله لك إنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه**» أى تواصل العمل عليه بدون انقطاع .

أليست هذه آية آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاتها ؟ بلى . ولذا كان الكفر بنبوة محمد ﷺ من أقبح الكفر وأسوأه ، ولا يكون إلا من جهل كامل ، أو حسد قاتل ، أو خوف فوات منافع مادية طائلة ، كما كان شأن الجهال من الأمم والشعوب وحسد اليهود ، وخوف رجال الكنيسة من زوال سلطانهم الروحى ، وما يترتب عليه من فقدانهم المال والرئاسة الروحية على الشعوب المسيحية .

* * * * * * * * * * *

وسادسة عشرة المعجزات:

شهادة الذئب برسالته ﷺ

فقد روى أحمد – رحمه الله تعالى – فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبها الراعى فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقى الله ، تنـــزع منى رزقا ساقه الله إلىّ ؛ فقال: يا عجبى ذئب يكلمنى كلام الإنس ، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد بشر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ، قال: فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر النبى ﷺ فنودى الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للراعى: أخبرهم فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : «**صدق والذى نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما احدث أهله بعده**» .

فهذه آية من آيات النبوة المحمدية ، ومعجزة من معجزاته بكل شطريها:

الأول: الذى فيه كلام الذئب للراعى ، **والثانى:** الذى فيه إخبار بغيب لم يكن فكان

اليوم ، فعذبة السوط ظاهرة فى تلفون الشرط ، وتكليم الفخذ وشراك النعل ظاهرة كذلك فى آلات التسجيل الصغيرة التى يستعملها رجال المخابرات بمهارة خاصة .

* * * * * * * * * * *

وسابعة عشرة المعجزات:

توقير الوحش له ﷺ واحترامه

فقد روى أحمد بسنده عن مجاهد قال: قالت عائشة – رضى الله عنه -: كان لآل رسول الله ﷺ وحش فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر ، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم – أى لم يتحرك – ما دام رسول الله ﷺ فى البيت كراهية أن يؤذيه (بحركاته) .

فكون الحيوان الوحشى يسكن فلا يتحرك مدة ما هو ﷺ فى البيت ، وإذا خرج لعب فأقبل وأدبر كعادة الحيوان فى ذلك . آية من آيات النبوة المحمدية ، ومعجزة إذ مثل هذا لا يقع لغير النبى ﷺ وإن قال قائل: إن الإنسان فى إمكانه تربية الحيوان على سلوك معين قلنا: هناك فرق بين التربية وبين عدمها ، فالرسول ﷺ ما كان ربى هذا الحيوان ولا كان له به أدنى صلة ، وإنما الحيوان ألهم احترام النبى ﷺ وتوقيره ، فكان إذا أحس بدخول الرسول البيت سكن وربض وترك الترمرم ، وإذا خرج ﷺ من البيت لعب فأقبل وأدبر حسب فطرته التى فطره الله تعالى عليها ، فكان سلوكه الخاص آية من لآيات النبوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية والتسليم .

* * * * * * * * * * *

وثامنة عشرة المعجزات:

احترام الأسد لمولاه ﷺ

فقد روى عبد الرزاق صاحب المصنف أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم ، أو أسر فى أرض الروم ، فانطلق هاربا يلتمس الجيش ، فإذا هو بأسد فقال له: يا أبا الحارث "كنية الأسد" إنى مولى رسول الله ﷺ كان من أمرى كيت وكيت ، فأقبل الأسد يبصبصه حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوته اهوى إليه ، ثم قام يمشى إلى جنبه فلم يزل كذلك

حتى أبلغه الجيش ، ثم همهم ساعة ، قال: فرأيت أنه يودع ثم رجع إلى عنى وتركنى " .

فهذه وإن كانت كرامة لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، فإنها معجزة نبوية إذ الأسد ألان جانبه ورق لسفينة وماشاه حتى وصل به إلى الجيش بعد أن قال له: يا أبا الحارث إنى فلان مولى رسول الله ﷺ ، فكان ما فعله الأسد من احترام سفينة من أجل رسول الله ﷺ ، فلذا عدت هذه من المعجزات المحمدية .

* * * * * * * * * * *

وتاسعة عشرة المعجزات:

نطق الغزالة ووفاؤها له ﷺ

فقد روى أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه دلائل النبوة قصة الغزالة هذه ، فقال: عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: مر النبى ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية فشدوها على عمود فسطاط ، فقالت: يا رسول الله إنى أخذت ولى خشفان فاستأذن لى أرضعهما واعود إليهما ، فقال النبى ﷺ : «أين صاحب هذه ؟» فقال القوم: نحن يا رسول الله قال: «خلوا عنها حتى تأتى خشفيها[1] ترضعهما وترجع إليكم» فقالوا: من لنا بذلك؟ قال: «أنا» فأطلقوها فذهبت فأرضعت خشفيها ثم رجعت إليهم ، فأوثقوها فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «أين صاحب هذه ؟» فقالوا: هذا يا رسول الله ، فقال: «تبيعونها» فقالوا: هى لك يا رسول الله فقال: فخلوا عنها فأطلقوها فذهبت .

فنطق الغزالة ووفاؤها له ﷺ آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته الموجبة للإيمان به وطاعته ومحبته ﷺ .

* * * * * * * * * * *

المعجزة الموفية عشرين:

خروج الجن من الصبى بدعائه ﷺ

فقد قال أحمد – رحمه الله تعالى – وساق سنده إلى ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: إن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن به لَمَمًا ، وإنه يأخذه

---

(١) الخشف: صغير الغزال .

عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا ، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثع[1] ثعة ، فخرج منه مثل الجرو الأسود يسعى .

فهذه إحدى الآيات النبوية إذ بمسحة ﷺ بيده على صدر الصبى المصاب والدعاء له خرج الجن منه ، وشفى فلم ير بأسا بعد ذلك .

* * * * * * * * * * *

المعجزة الحادية والعشرون:

شفاء الضرير بدعائه ﷺ

فقد روى أحمد بسنده عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يعافينى فقال: «**إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك**» قال: لا ، بل ادع الله لى . قال: فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ، وأن يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك فى حاجتى هذه فتقضى ، اللهم شفعه فى**» ففعل الرجل فبرأ .

فشفاء هذا الضرير بعودة بصره إليه ، بسؤال الله تعالى له ، وبما علمه من صلاة ودعاء آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته ﷺ .

* * * * * * * * * * *

المعجزة الثانية والعشرون:

شفاء على - رضى الله عنه - بتفاله ﷺ

ففى الصحيح قال ﷺ فى غزوة خيبر: «**لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده**» فلما أصبحوا نادى عليا فقالوا: مريض يا رسول الله يشكو عينيه فقال: «**ائتونى به**» فأتى به فنفث فى عينه بقليل من ريقه ﷺ فبرأ لتوه و لم يمرض بعينه بعد قط .

فكانت آية من آيات النبوة المحمدية ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته وصدق رسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليما .

* * * * * * * * * * *

---

(١) ثعَّ: قاء - الطعام المندفع من المعدة ويخرج من الفم - .

المعجزة الثالثة والعشرون:

رد عين قتادة بعد تدليها

إذ فى أحد أصيب قتادة بن النعمان فى عينه حتى سقطت وتدلت على وجنته فردها ﷺ بيده الشريفة فبرئت على الفور ، وكانت أحسن منها قبل .

فهذه معجزة ، إذ ليس فى استطاعة أى طبيب أو غيره أن يرد عينا سقطت بضربة حتى تدلت على الوجنة فتبرأ لتوها ، وتكون أحسن منها قبل إصابتها وسقوطها .

* * * * * * * * * * *

المعجزة الرابعة والعشرون:

شفاء الصبى بفضل سؤره ﷺ

روى ابن أبى شيبة أن امرأة من خثعم أتت النبى ﷺ بصبى به بلاء لا يتكلم ، فأتى النبى ﷺ فمضمض فاه ، وغسل يديه ، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسحه به ففعلت فبرئ الولد وعقل عقلا يفضل به عقول الناس ؛ فهذه آية من آيات النبوة المحمدية ، ومعجزة ظاهرة التى لا يقدر عليها البشر .

* * * * * * * * * * *

المعجزة الخامسة والعشرون:

تحول جذل الحطب سيفا

لقد انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه النبى ﷺ جذل حطب فقال له: «اضرب به» فانقلب فى يده سيفا صارما طويلا أبيض شديد المتن ، فقاتل به ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد عكاشة فى قتال أهل الردة ، فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية ، ومعجزة خارقة للعادة مقررة لنبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

* * * * * * * * * * *

المعجزة السادسة والعشرون:

صدق إخباره بالغيب ﷺ

فقد روى أبو داود بسنده عن أم ورقة بنت نوفل ، أن رسول الله ﷺ لما غزا بدرا قالت

له: يا رسول الله ائذن لى فى الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقنى بالشهادة ، فقال لها: «قرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة» فكانت تسمى الشهيدة ، وكانت قد قرأت القرآن ، فاستأذنت النبى ﷺ أن تتخذ فى بيتها مؤذنا يؤذن لها ، وكانت قد دبرت غلاما لها وجارية ، فقاما إليها بالليل فغماها فى قطيفة لها حتى ماتت ، وذهبا ، فأصبح عمر فطلبهما فجيء بهما فصلبهما عمر - رضى الله عنه - فكان أول من صلب بالمدينة .

فهذا إخبار بغيب ، فكان كما أخبر ﷺ ، فكان آية نبوته ﷺ ومعجزة من معجزاته فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما .

ومن آيات النبوة والمعجزات المحمدية صدق أخباره الغيبية الآتية:

أول خبر: قوله ﷺ فى الحسن - رضى الله عنه -: «**إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين**» ، فكان الأمر كما أخبر ﷺ فقد أصلح به بين من كان مع الحسن وبين من كان مع معاوية - رضى الله عنهم أجمعين - .

وثانى خبر: قوله ﷺ : «**اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان**» فكان كما أخبر ﷺ ، فمات أبو بكر بمرض أصابه ، وقتل عمر فى المحراب شهيدا ، وقتل عثمان فى داره شهيدا - فرضى الله عنهم أجمعين - .

وثالث خبر: قوله ﷺ لسراقة بن مالك وقد خرج فى ملاحقته ﷺ يوم هجرته حيث أعطت قريش جوائز لمن يأتيها بمحمد ﷺ ، قال له: وقد ساخت قوائم فرسه فى الأرض مرتين قال له: «**كيف بك إذا ألبست سوارى كسرى ؟**» فلما أتى بهما عمر - رضى الله عنه - ألبسهما إياه ، وقال: " الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة " فهذا غيب محض وقد تم كما أخبر به ﷺ ، فكان آية نبوية ، ومعجزة التى لا يقدر عليها احد من عباد الله إلا نبى أوتى المعجزات .

ورابع خبر: قوله ﷺ : «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة**» وقد وقع هذا كما أخبر ، فقد اقتتل على ومعاوية - رضى الله عنهما - بجيشيهما فى صفين ، ودعواهما واحدة ، فكان ما أخبر به ﷺ كما أخبر ، فهى آية نبوته ﷺ ومعجزته التى على مثلها آمن البشر .

وخامس خبر: قوله ﷺ : «**إن هذا قبر رغال ، وإن معه غصنا من ذهب**»

فحفروه فوجدوه كما أخبر ﷺ ، وذلك حين كان ذاهبا إلى الطائف ، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته .

وسادس خبر: قوله ﷺ لخباب بن الأرت وقد جاء يشكو إليه ما يلقى المؤمنون من كفار قريش ، يطلب منه أن يستنصر الله تعالى لهم ، قال له وقد احمر وجهه ﷺ أو تغير لونه: **«لقد كان من قبلكم تحفر له الحفرة ، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه»** وقد تم هذا كما أخبر ﷺ ، فكان آية نبوته ومعجزتها التي لا يقدر عليها أحد إلا الله جل جلاله ، وعظيم سلطانه .

وسابع خبر: قوله ﷺ **«منعت العراق درهما وقفيزها ، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم»** فهذا الخبر قد وقع كما أخبر ﷺ ، فقد منعت العراق ، ومنعت الشام ، ومنعت مصر ، ما كانوا يؤدونه إلى أهل الحجاز من خراج وغيره ، وعاد أهل الحجاز كما بدأوا فمسهم الجوع ، ونالهم التعب بعد ما أصابهم من رغد العيش وسعة الرزق ، فكان هذا آية النبوة المحمدية ومعجزة على مثلها آمن البشر .

وثامن خبر: قوله ﷺ **«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»** فهذا الخبر من أنباء الغيب ، إذ كانت خلافة أبي بكر: سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال ، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان: اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوما ، وكانت خلافة علي: خمس سنوات إلا شهرين ، وتكميل الثلاثين كان بخلافة الحسن بن علي – رضي الله عنهما – إذ كانت نحوا من ستة أشهر ، ثم نزل عليها لمعاوية عام أربعين من الهجرة ، ومصداق هذا في قوله ﷺ : **«إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين»** فهذان الخبران من دلائل نبوته ﷺ .

وتاسع خبر: قوله في عثمان – رضي الله عنه –: **«افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»** وذلك في حديث الصحيح ونصه: إن النبي ﷺ دخل حائطا "بستانا " فدلى رجليه في القف فقال أبو موسى وكان معه: لأكونن اليوم بواب رسول الله ﷺ ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال: افتح فقلت: من أنت ؟ قال: أبو بكر ، فأخبرت رسول الله ﷺ ،

فقال: «افتح له وبشره بالجنة» ثم جاء عمر فقال كذلك ، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه» . فهذا الخبر من أنباء الغيب الدالة على نبوته ﷺ .

وعاشر خبر: قوله ﷺ لفاطمة – رضى الله عنها –: «**إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل عام مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى**» فبكت ثم سارها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وأنها أول أهله لحوقا به ، فكان كما أخبر إذ ماتت بعده بستة أشهر ، و لم يمت قبلها من آل البيت أحد ، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ .

وحادى عشر خبر: قوله ﷺ لنسائه: «**كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب؟**» ، وكان ذلك كما أخبر ، فقد خرجت عائشة رضى الله عنها تريد الصلح بين على ومعاوية – رضى الله عنهما – فى وقعة الجمل ، فلما بلغت مياه بنى عامر ليلا نبحت الكلاب ، فقالت – رضى الله عنها –: أى ماء هذا ؟فقالوا: ماء الحواب ، فقالت: ما أظننى إلا راجعة ، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم ، قالت: إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «**كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب**» فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر به قبل وقوعه بكذا سنة ، فكان كما أخبر فهو إذا آية النبوة ، ومعجزة الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما .

وثانى عشر خبر: قوله ﷺ فى حديث أحمد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلى حين ولى غزوة العشيرة: «**يا أبا تراب ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين ؟**» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «**أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه – يعنى قرنه – حتى يبل أى بالدم هذه أى لحيته**» فكان كما أخبر ﷺ فقد ضرب عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج عليا بالكوفة فقتله على نحو ما أخبر به ﷺ فكان هذا من دلائل فكان هذا من دلائل نبوته ﷺ ، ومن معجزاته التى رافقت حياته ﷺ .

وثالث عشر خبر: قوله ﷺ : «**سيكون فى هذه الأمة بعث إلى السند والهند**» فكان كما أخبر ﷺ ، فقد حدث أبو هريرة – رضى الله عنه – فقال: حدثنى خليلى الصادق المصدوق رسول الله ﷺ قال: «**يكون فى هذه الأمة بعث إلى السند والهند**» فإن أدركته فاستشهدت فذاك ، وإن أنا رجعت فأنا أبو هريرة المحدث قد أعتقنى من النار .

فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر ﷺ فقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع وأربعين ، ثم توالى الغزو والفتح كما أخبر ﷺ ، فكان آية النبوة المحمدية والمعجزة النبوية الدالة على صدق الحبيب ﷺ فى نبوته ورسالته .

ورابع عشر خبر: قوله ﷺ فى سهيل بن عمرو: «**عسى أن يقوم مقاما يسرك يا عمر**» وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر – رضى الله عنه – من تعنت سهيل ، وكان ممثلا لقريش يومئذ فقال له ﷺ : «**عسى أن يقوم مقاما يسرك يا عمر**» ، وكان الأمر كما أخبر ﷺ ، إذ مات الرسول ﷺ واضطربت البلاد ونجم الكفر ، ووقف سهيل بن عمرو – رضى الله عنه – بباب الكعبة بمكة فخطب فثبت أهل مكة وقوى بصائرهم فحفظهم الله من الردة وهو موقف سر عمر والمؤمنين ، وكان آية نبوته ﷺ ومعجزة من معجزاته .

وخامس عشر خبر: قوله ﷺ : «**ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة فى الجنة**» وسئل عنها فقال: «**هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابى**» وقال: «**إنها ستكون أنماط ويغدو أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى ،ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة**» وقال: «**أنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وإنهم إذا مشوا المطيطاء[1] ، وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم**» .

فهذا القول النبوى الشريف **الجزء الأول** منه كان كما أخبر ، حيث بلغت فرق هذه الأمة ثلاثا وسبعين فرقة كما أخبر ، فكان آية النبوة المحمدية ، **والجزء الثانى** وهو قوله: إنها ستكون ، وإن ضعف سنده فقد صح واقعا ، فقد بسط الله الرزق على أمة الإسلام بعد وفاة نبيها ﷺ فكانوا كما وصف فى كثير من البلاد والأوقات ، وقد حدث ما فى الخبر من وعيد إذ جعل تعالى بأسهم بينهم ، وسلط عليهم شرارهم فى أكثر من زمان ومكان ، والله المستعان .

كانت تلك أربعين معجزة للحبيب ﷺ ، وقد تقدم فى ثنايا سيرته العطرة عشرات الآيات والمعجزات ، ولقد صدق من قال: إن المعجزات المحمدية قد بلغت الألف معجزة ، والمراد من إيرادها تقوية إيمان المؤمنين ، ودعوة غيرهم إلى الإيمان به ﷺ نبيا ورسولا تجب متابعته وتتحتم

---

(١) الخيلاء .

طاعته وتلزم محبته من اجل النجاة من الخسران ، والفوز بالمغفرة والرضوان ، فى دار السلام مع مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، إذ قال تعالى ، وقوله الحق من سورة النساء من كتابه الكريم: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩ ، ٧٠] .

* * * * * * * * * * *

الأخلاق المحمدية التى فيها أسوة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ من سورة [الأحزاب: ٢١] .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ شهادة من الله تعالى له ﷺ بأنه على اكمل الخلاق وأتمها وأرفعها وأفضلها ، بحيث لا يدانى فيها بحال من الأحوال .

وشاهد آخر فى قوله ﷺ : «**أدبنى ربى فأحسن تاديبى**» .

وفى قوله: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» .

وفى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] إعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء برسوله الذى كمله خلقا وخلقا ، وشرفه أصلا ومحتدا ، وشرفه أصلا محتدا ، ورفعه منـــزلة وقدرا ، حتى لا تأنف النفوس فى اتباعه والاقتداء به فى كل ما هو فى استطاعتها التحلى به ، والتقرب إلى ربها عز وجل باتباعه والاقتداء به فيه .

ومن هنا كان الكمال المحمدى ضربين: ضربا: لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرئ عن كسب مثله وذلك كشرف الأصل ، وجمال الذات ، وعلو القدر ، والاصطفاء للرسالة ، وتلقى الوحى الإلهى ، وضربا: مأمورا بالاقتداء به فيه ، والمنافسة فى تحصيل أكبر قدر منه ، والمسابقة إليه ، والجد فى الطلب للظفر به ، والحصول عليه ، وهو ما سنذكر جملا صالحة منه ، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحلى به ، والحياة والموت عليه ، اللهم آمين .

* * * * * * * * * * *

الآداب المحمدية

لقد كان ﷺ يتحمل بالآداب التالية ويتحلى بها وهي:

أولا: غض الطرف فلا يتبع نظرة الأشياء ، وكان جل نظرة الملاحظة ، فلا يحملق إذا نظر ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .

ثانيا: إذا مشى مع أصحابه يسوقهم أمامه فلا يتقدمهم ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

ثالثا: إذا تكلم يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل ، لا فضول ولا تقصير ، أى على قدر الحاجة ، فلا زيادة عليها ولا نقصان عنها ، وهذا من الحكمة وكان يقول: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» ويقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**» ، ويبدأ كلامه ويختمه بأشداقه من أجل أن يسمع محدثه ويفهمه لا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت .

رابعا: متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، دمث الخلق ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئا ولا يمدحه .

خامسا: لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .

سادسا: إذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

سابعا: إذا تكلم تكلم ثلاثا ، وإذا سلم سلم ثلاثا ، وإذا استأذن استأذن ثلاثا ، وذلك ليعقل عنه ويفهم مراده من كلامه نظرا إلى ما وجب عليه من البلاغ .

ثامنا: كان يشارك أصحابه فى مباح أحاديثهم ، إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم ، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم ، وإذا ذكروا طعاما أو شرابا ذكره معهم .

تاسعا: كان إذا جلس نصب ركبتيه واحتبى بيديه ، وإذا جلس للأكل نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى .

عاشرا: كان لا يعيب طعاما يقدم إليه أبدا ، وإنما إذا أعجبه أكل منه ، وإن لم يعجبه تركه ، هذه الآداب مجملة ، وكلها يمكن الاقتداء به فيها ، وهو غاية الطلب ، وبغية أولى الأرب .

* * * * * * * * * *

الأخلاق المحمدية

إن لذوى الأخلاق الفاضلة منــزلة عالية ، ففى الحديث الصحيح: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا**» «**إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا**» .

وسئل ﷺ عن البر ، فقال: «**حسن الخلق**» ، وسئل عن أى الأعمال أفضل ؟ فقال: «**حسن الخلق**» .

ومن هنا كان اكتساب الأخلاق الفاضلة خيرا من اكتساب الذهب والفضة ، والأموال الطائلة ، والطريق إلى ذلك هو الائتساء بالنبى الحبيب ﷺ ، إذ هو المثل الأعلى فى باب الأخلاق ، ولذا كان إيرادنا للأخلاق المحمدية فى آخر هذا الكتاب من باب حمل المسلم على اكتساب تلك الخلاق المحمدية الفاضلة ، ودفعا له على التجمل والتحلى بها ، ليكمل بها ويفضل ويشرف عليها ، بعد أن عرف صاحبها ، وعرف كمالاته الذاتية والروحية ، وقوى إيمانه به نبيا ورسولا تجب طاعته ومتابعته وتعظيمه ومحبته وتوقيره .

وهذه نماذج من تلك الأخلاق فلننظر إليها ، ولنوطن النفس على اكتسابها والتخلق الصادق بها .

* * * * * * * * * * *

الكرم المحمدي

إن الكرم المحمدى كان مضرب الأمثال ، وقد كان ﷺ لا يرد سائلا وهو واجد ما يعطيه ، فقد سأله رجل حلة كان يلبسها ، فدخل بيته فخلعها ، ثم خرج بها فى يده وأعطاه إياها ، ففى صحيح البخارى ، ومسلم عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا ، وقال أنس بن مالك – رضى الله عنه –: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا على الإسلام إلا أعطاه ، سأله رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فأتى الرجل قومه فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة ، إن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا ، فما يمسى حتى يكون دينه أحبّ إليه وأعزّ من الدنيا وما فيها ، وحسبنا فى الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث البخارى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وقد سئل عن جود الرسول وكرمه فقال: كان رسول الله أجود الناس ، وكان

أجود ما يكون فى شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحى فيدارسه القرآن فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، بمعنى أن عطاءه دائم بيسر وسهولة وها هى ذى أمثلة لجوده وكرمه ﷺ :

– حملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

– أعطى العباس – رضى الله عنه – من الذهب ما لم يطق حمله .

– أعطى معوذ بن عفراء ملء كفه حليا وذهبا بهدية من رطب وقثاء .

– جاءه رجل فسأله فقال: «**ما عندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شىء قضيناه**» ، وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق ؟ وهو القائل: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان: يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**» ، والقائل أيضا: «**يقول الله تعالى: ابن آدم أنفق أنفق عليك**» وقد نزل عليه قول ربه: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] .

* * * * * * * * * * *

الحلم المحمدي

إن الحلم وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يكره قولا كان او فعلا عند الغضب ، وما يثيره هيجانه من قول سيئ أو فعل غير محمود ، هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل ، والأحداث التالية شواهد لحلمه فداه أبى وأمى ﷺ ، وذلك لتربية الله تعالى له ، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ :

– لما شجت وجنتاه وكسرت رباعيته ودخل المغفر فى رأسه ﷺ يوم أحد قال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**» . فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ .

– لما قال ذو الخويصرة: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، حلم عليه وقال له: «**ويحك فمن يعدل إن لم أعدل**» ، ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك .

– لما جذبه الأعرابى جذبة شديدة حتى أثرت فى صفحة عنقه ﷺ وقال: احمل لى على

بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ومال أبيك ، حلم عليه ﷺ ولم يزد أن قال: «المال مال الله وأنا عبده ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بى» فقال الأعرابى: لا ؛ فقال النبى ﷺ : «لم ؟» قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة ، فضحك ﷺ ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى آخر تمر ، فأى حلم وأى كمال هذا يا عباد الله ؟ .

– لم يثبت أنه ﷺ انتصر لنفسه من مظلمة ظلمها قط ، ولا ضرب خادما ولا امرأة قط ، بهذا أخبرت عائشة – رضى الله عنها – فقالت: " ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة قط ، ما لم تكن حرمة من محارم الله ، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما ضرب خادما قط ولا امرأة " .

– وجاءه زيد بن سعنة أحد أحبار اليهود بالمدينة ، جاءه يتقاضاه دينا له على النبى ﷺ فجذب ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه وقال مغلظا القول: إنكم يا ابن عبد المطلب مطل فانتهره عمر وشدد له فى القول ، والنبى ﷺ يبتسم ، وقال ﷺ : «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر ، تأمرنى بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى» ثم قال: «لقد بقى من أجله ثلاث» ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روعه ، فكان هذا سبب إسلامه فأسلم ، وكان قبل ذلك يقول: ما بقى من علامات النبوة شىء إلا عرفته فى محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما ، فاختبره بهذه الحادثة فوجده كما وصف ، هذه قطرة من بحر الحلم المحمدى تذهب ظمأ من أراد أن يتحلى بالحلم ويتحمل به .

* * * * * * * * * * *

العفو المحمدى

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيئ المبطل ، وهو خلال الكمال ، وصفات الجمال الخلقى ، أمر الله تعالى به رسوله فى قوله من سورة الأعراف: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وسأل ﷺ جبريل عن معنى هذه الآية فقال له: «حتى أسأل العليم الحكيم» ثم أتاه فقال: «يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك» وامتثل رسول الله ﷺ أمر ربه فكان مضرب المثل فى الخصال الثلاث فى صلة من قطعه وإعطاء من حرمه ، والعفو عمن ظلمه ، وفى الأمثلة الآتية شاهد ذلك ودليله .

– قالت عائشة – رضى الله عنها –: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما . فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها .

– تصدى لـــه غورث بن الحارث ليفتك به ﷺ ، ورسول الله مطرح تحت شجرة وحده قائلا ، وأصحابه قائلون كذلك ، وذلك فى غزاة ، فلم يتنبه رسول الله ﷺ إلا وغورث قائم على رأسه ، والسيف مصلت فى يده ، وقال: من يمنعك منى ؟ فقال ﷺ : «الله» فسقط السيف من يد غورث ، فأخذه النبى ﷺ وقال: «من يمنعك ؟» قال غورث: كن خير آخذ فتركه وعفا عنه ، فعاد إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس ، فهكذا كان العفو المحمدى .

– لما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح ووجد رجالات قريش جالسين مطأطئين الرءوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح لهم ، فقال: «**يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟**» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم ، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» ، فعفا عنهم بعد ما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره ، ولا يحصى عده ، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف ، ولم يضرب ولم يقتل ، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

– سحره لبيد بن الأعصم اليهودى ، وقد نزل الوحى بذلك فعفا عنه ، ولم يؤاخذه ، بل لم يثبت أنه لامه أو عاتبه بمجرد لوم أو عتاب ، فضلا عن المؤاخذة والعقاب ، فكان موقفه هذا مظهرا من مظاهر العفو المحمدى فى أحلى صوره . وأبهى مظاهره فـﷺ ما عفا عاف وآخذ مؤاخذ إلى يوم الدين .

– تآمر عليه المنافقون وهو فى طريق عودته من تبوك إلى المدينة ، تآمروا عليه ، ليقتلوه وعلم بهم ، وقيل له فيهم فعفا عنهم ، وقال: «**لا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه**» .

– جاءه رجل يريد قتله ، فاكتشف أمره ، وظهرت حاله ، فقال له أصحابه: إن هذا جاء يريد قتلك ، فاضطرب الرجل من شدة الخوف وفزع ، فقال له: «**لن تراع ، لن تراع ، ولو أردت – أى قتلى – لم تسلط على**» ، لما أعلمه بعصمته له من الناس ﷺ وقد أراد قتله ، فلم يؤاخذ بل لم يعاقبه فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

* * * * * * * * * * *

الشجاعة المحمدية

إن الشجاعة خلق فاضل ، ووصف كريم ، وخلة شريفة ، لا سيما إذا كانت فى العقل كما هى فى القلب ، وكان صاحبها من أهل الإيمان والعلم ، والشجاعة فى القلب عدم الخوف مما يخاف عادة ، والإقدام على دفع ما يخالف منه بقوة وحزم ، وفى العقل المضاء فيما هو الرأى وعدم النظر إلى عاقبة الأمر متى ظهر انه الحق والمعروف ، وقد كان الحبيب محمد ﷺ أشجع إنسان على الإطلاق ، فلم تكتحل عين الوجود بمثله ﷺ ، ومن أدلة تكليف الله تعالى له بأن يقاتل وحده فى قوله من سورة النساء: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ٨٤] .

ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها ما يلى:

- شهادة الشجعان الأبطال له بذلك فقد قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وكنا من أبطال الرجال وشجعانهم بلا مراء قال: كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق نتقى برسول الله ﷺ أى نتقى الضرب والطعان .

- موقفه البطولى الخارق للعادة فى أحد حيث فر الكماة ، ووجم الأبطال ، وذهل عن أنفسهم الشجعان ، ووقف محمد رسول الله ﷺ كالجبل الأشم حتى لاذ به أصحابه ، والتفوا حوله وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم لمخالفة أمره ﷺ .

- فى حنين حيث انهزم أصحابه وفر رجاله لصعوبة مواجهة العدو ، من جراء الكمائن التى نصبها وأوقعهم فيها وهم لا يدرون ، بقى وحده ﷺ فى الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول:

«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وما زال فى المعركة وهو يقول: «إلى عباد الله !! إلى عباد الله» حتى فاء أصحابه إليه ، وعاودوا الكرة على العدو فهزموه فى ساعة ،وما كانت هزيمتهم أول مرة إلا من ذنب ارتكبه بعضهم وهو قوله: لن نغلب اليوم من قلة ، إذ هذا القول كان عجبا والعجب حرام وقد ذكرهم تعالى به فى كتابه إذ قال تعالى من سورة التوبة: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥] الآية .

- فى أحد والمعركة دائرة رأى أبى بن خلف - لعنه الله - رأى النبى ﷺ فصاح أين

محمد؟ لا نجوت إن نجا ، وتقدم على فرسه نحو رسول الله ﷺ فاعترضه رجال من المسلمين فقال ﷺ : «خلو طريق» ، وتناول الحربة من يد الحارث بن الصمة ، وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض ، واستقبله بطعنة نجلاء في عنقه تدأدأ منها عن فرسه مرارا وهو يقول: قتلنى محمد ، فمات منها بسرف وهو عائد إلى مكة مع جيش المشركين .

– فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم ﷺ راجعا قد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول: «لن تراعوا» . فى هذه يقول أنس بن مالك: " كان النبى ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس " وقص هذه القصة .

– شهادة عمران بن حصين – رضى الله عنهما – إذا قال وهو صادق: ما لقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

كانت تلك شواهد شجاعته القلبية ، أما شجاعته العقلية فنكتفى فيها بشاهد واحد ، فإنه يكفى عن ألف شاهد ويزيد ، وهو موقفه من تعنت سهيل بن عمرو وهو يملى وثيقة صلح الحديبية ، إذ تنازل ﷺ على كلمة بسم الله إلى باسمك اللهم ، وعن كلمة محمد رسول الله إلى كلمة محمد بن عبد الله ، وقد استشاط أصحابه غيظا ، وبلغ الغضب حدا لا مزيد عليه وهو صابر ثابت حتى انتهت ، وكانت بعد أيام فتحا مبينا فضرب ﷺ بذلك المثل الأعلى فى الشجاعتين القلبية ، والعقلية ، مع بعد النظر وأصالة الرأى وإصابته فـﷺ ما بقى شجاعة أو جبن فى العالمين .

****

الصبر المحمدي

إن الصبر وهو حبس النفس على طاعة الله تعالى حتى لا تفارقها ، وعن معصية الله تعالى حتى لا تقربها ، وعلى قضاء الله تعالى حتى لا تجزع له ولا تسخط عليه ، هذا هو الصبر فى مواطنه الثلاثة وهو خلق من أشرف الأخلاق وأسماها ، وهو خلق مكتسب يحمل العاقل عليه نفسه ويروضها شيئا فشيئا حتى يصبح ملكه لها ثابتة عفوا بدون طلب .

يدل على ذلك أمره تعالى رسوله به فى غير موطن من كتابه العزيز وذلك كقوله

تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله في أمر كافة المؤمنين به: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر طيلة عهد إبلاغ رسالته الذى دام ثلاثا وعشرين سنة ، فلم يجزع يوما ، ولم يتخل عن دعوته وإبلاغ رسالته حتى بلغ بها الأفاق التى شاء الله تعالى أن تبلغها ،وباستعراضنا المواقف التالية تتجلى لنا حقيقة الصبر المحمدى الذى هو فيه أسوة كل مؤمن ومؤمنة فى معترك هذه الحياة .

– صبره ﷺ على أذى قريش طيلة ما هو بين ظهرانيها بمكة ، فقد ضربوه ، وألقوا سلى الجزور على ظهره ، وحاصروه ثلاث سنوات مع بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، وحكموا عليه بالإعدام ،وبعثوا رجالهم لتنفيذه فيه إلا أن الله سلمه وعصم دمه ، كل هذا لم يرده عن دعوته ، ولم يثن عزمه عن بيانها وعرضها على القريب والبعيد .

– صبره ﷺ عام الحزن ، حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون ، ومات العم الحانى الحامى المدافع أبو طالب ، فلم تفت هذه الرزايا من عزمه ، ولم توهن من قدرته ، إذ قابل ذلك بصبر لم يعرف له فى تاريخ الأبطال مثل ولا نظير .

– صبره فى كافة حروبه فى بدر وفى أحد وفى الخندق وفى الفتح وفى حنين وفى الطائف وفى تبوك ، فلم يجبن ولم ينهزم ، ولم يفشل ، ولم يكل ولم يمل حتى خاض حروبا عدة ، فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات ، فأى صبر أعظم من هذا الصبر ؟؟ .

– صبره على تآمر اليهود عليه بالمدينة وتحزيبهم الأحزاب لحربه والقضاء عليه وعلى دعوته .

– صبره على الجوع الشديد فقد مات ولم يشبع من خبز شعير مرتين فى يوم واحد .

– لقد صبر ﷺ على كل ذلك فلم يهن ولم تضعف همته ، ولم تمس كرامته ، ولم يدنس عرضه ، وأوذى غيره بمعشار ما أوذى أو أصابه من البلايا والرزايا دون ما أصابه لتخلى عن دعوته ، وهرب من مسئوليته ، ووجد فى نفسه مبررا لذلك ، ولكن الله عصمه فصبره وجبره ، وحماه وقواه ليبلغ عنه رسالته ، ويجعله آية للناس فى صبره وحكمته وعفوه ، وكرمه وشجاعته وفى سائر أخلاقه ف ﷺ تسليما كثيرا .

* * * * * * * * * * *

العدل المحمدي

إن العدل خلاف الجور أمر الله تعالى به فى القول والحكم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وعلى العدل قام أمر السماء والأرض ، ومن هنا كيف لا يكون رسول الله ﷺ عادلا وهو القائل: «**ثلاثة إجلالهم من إجلال الله تعالى**» ؟ وذكر من بينهم الإمام العادل ، وذكر ان سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وعد منهم الإمام العادل ، وقال: «**إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة**» وبين أنهم الذين يعدلون فى حكمهم وماولوا ، ولذا كان ﷺ عادلا فى قوله وفعله وحكمه ، لا يجوز ولا يحيف ، وكان العدل من أخلاقه وأوصافه اللازمة له ، فقد عرف به فى الجاهلية قبل الإسلام ، وهذه مواقف له ﷺ يتحلى فيها هذا الخلق النبوى الكريم وهى:

– تحكيم قريش له فى وضع الحجر الأسود بعد خلاف شديد بينهم كاد يفضى بهم الاقتتال ، فقالوا بتوفيق من الله تعالى: نحكم أول قادم علينا غدا ، فكان ﷺ أول قادم ، فقالوا: هذا الأمين هذا الحكم رضينا به فحكم بأن يوضع الحجر فى ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف ، ثم أخذ الحجر بيديه ووضعه فى مكان من جدار البيت ، فحكم فعدل ، وكان مظهرا من مظاهر عدله ﷺ .

– لما سرقت المخزومية ، وشق على المسلمين إقامة الحد عليها فتقطع يدها فتوسطوا به بحبه وابن حبه أسامة بن زيد فرفع إليه القضية ، فقال: «**أفى حد من حدود الله تشفع يا أسامة ؟ والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**» ، فكان هذا مظهرا عظيما للعدل المحمدى .

– وكانت تحته تسع نسوة ، وكان يعدل ويتحرى العدل ثم يعذر إلى ربه وهو مشفق خائف فيقول: «**اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك**» .

– وقولــه للأعرابى الذى قال له: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: «**ويحكم فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل**» .

– فى الطعام والشراب كان يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولابد فاعلا ، فثلث للطعام ، وثلث**

للشراب ، وثلث للنفس» . وكان ﷺ يقسم وقته ثلاثة أجزاء: جزءا: لربه تعالى ، وجزءا: لأهله ، وجزءا: لنفسه ، ويقسم الجزء الذى لنفسه بينه وبين الناس ، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول: «**أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر**» .

وكان الحسن يقول: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحدا بقرف أحد ، ولا يصدق أحدا على أحد .

وهكذا يتحلى خلق العدل فى الحبيب ﷺ بصورة واضحة ، يدعو كل مؤمن إلى التخلق به التساء به ﷺ ، وهو إسه كل مؤمن ومؤمنة فى هذه الحياة .

* * * * * * * * * * *

الزهد المحمدى

إن المراد بالزهد الزهد فى الدنيا ، وذلك بالرغبة عنها ، وعدم الرغبة فيها ، وذلك بطلبها طلبا لا يشق ،ولا يحول دون أداء واجب ، وسد باب الطمع فى الإكثار منها والتزيد من متاعها ، وهو ما زاد على قدر الحاجة ، وقد كان ﷺ يقول: «**ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**» ، وقد كان ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأقلهم رغبة فيها ، حتى كان الزهد خلقا من أخلاقه الفاضلة وسجية من سجاياه الطيبة الطاهرة .

والمواقف الآتية تدل على ذلك وتشهد له وتقرره :

– قولـــه ﷺ فى الصحيح: «**لو كان لى مثل أحد ذهبا لما سرنى أن يبيت عندى ثلاثا إلا قلت فيه هكذا وهكذا إلا شيئا أرصده لدين**» . فهذا أكبر مظهر للزهد الصادق الذى كان الحبيب ﷺ يعيش عليه ويتحلى به .

قولـــه ﷺ لعمر وقد دخل عليه فوجده على فراش من أدم حشوه ليف . فقال: إن كسرى وقيصر ينامان على كذا وكذا ، وأنت رسول الله تنام على كذا وكذا ، فقال له ﷺ : «**ما لى وللدنيا يا عمر ، وإنما أنا فيها كراكب استظل بظل شجرة ثم راح وتركها**» .

فكان هذا أقوى مظهر من مظاهر الزهد المحمدى الصادق .

– عرض عليه ربه تعالى أن يحول لـه الأخشبين ذهبا وفضة ، وذلك بعد عودته من الطائف جريحا كئيبا حزينا ، فقال: «**لا يا رب ، أشبع يوما فأحمدك وأثنى عليك ، وأجوع آخر فأدعوك وأتضرع إليك**» .

– وأكبر مظهر لزهده ﷺ فى الدنيا سؤاله المتكرر: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا**» . وفى لفظ قوتا أى بلا زيادة ولا نقصان ، وكان يقول: «**قليل يكفى خير من كثير يلهى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى أو أطغى**» .

– قول عائشة – رضى الله عنها – مات رسول الله ﷺ وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى ، وقد قبض رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير .

وبالتأمل فى هذه المواقف تتجلى الحقيقة واضحة وهى أن الزهد الحق كان خلق النبى الحبيب ﷺ وهو القائل: «**الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له**» .

فصل اللهم وبارك على عبدك ورسولك أزهد الزهاد ، وأفضل العباد إلى يوم التلاقى والميعاد .

* * * * * * * * * * *

الحياء المحمدى

إن الحياء خلق فاضل لا خير فيه ، إذ هو من الإيمان ، وهو خير كله ، وحقيقته انه تغير يسببه الخوف مما يكره قوله أو فعله ، او يلام عليه ، ويظهر أثره فى احمرار الوجه ، وترك ما يخشى معه الذم والملامة ، وهو فى المرأة بمنـــزلة الشجاعة فى الرجل ، أى كما أن الشجاعة محمودة فى الرجل أكثر مما هى محمودة فى المرأة ، فكذلك الحياء هو فى المرأة محمود أكثر مما هو فى الرجل ، ومع هذا فهو خلق فاضل كريم قال فيه رسول الله ﷺ : «**الحياء من الإيمان**» ، وقال: «**الحياء كله خير ، والحياء لا يأتي إلا بخير ، والحياء شعبة من الإيمان**» فى أحاديث صحاح .

ومن مظاهر الحياء المحمدى التى يتجلى فيها بوضوح ما يلى :

– قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ

الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالحياء وكفى بها شهادة .

– رواية الشيخين عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – وفيها ، قال: " كان رسول الله ﷺ أشد حياء من البكر فى خدرها ، وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه " .

– قول عائشة – رضى الله عنها –: "كان النبى ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا ؟ ولكن يقول: «**ما بال أقوام يصنعون او يقولون كذا**» ، ينهى ولا يسمى فاعله .

– قول أنس بن مالك – رضى الله عنه – فى رواية أبى داود قال: دخل رجل على النبى ﷺ به أثر صفرة فلم يقل له شيئا ، وكان لا يواجه أحد بمكروه ، فلما خرج قال: «**لو قلتم له يغسل هذا**» ، أى أثر الصفرة فى الثوب .

– رواية البخارى عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: «**لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح**» ، وهذا وصفه فى التوراة أيضا كما رواه عبد الله ابن سلام – رضى الله عنه – .

– وكان ﷺ من شدة حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد ، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ولا يصرح به .

– قول عائشة – رضى الله عنها –: «**ما رأيت من رسول الله ﷺ ولا رأى منى**» أى من العورة .

كانت هذه مظاهر حيائه ﷺ وشواهده ، وفيها كفاية لمن أراد أن يأتسى به ﷺ فى حياته ، وفى سائر اخلاقه ، فقد جعله الله تعالى أسوة المؤمنين فقال تعالى فى آيتين من كتابه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١]» .

* * * * * * * * * * *

أدب مخالطته ﷺ ، وحسن عشرته

إن من كمال خلق المرء حسن صحبته ومعاشرته لأهله ، وكمال ادبه فى مخالطته لغيره ، وقد كان الحبيب ﷺ مضرب المثل فى حسن الصحبة وجميل المعاشرة وأدب المخالطة وفيما نعرضه من مواقف له ﷺ فى هذا الشأن كفاية لمن أراد الائتساء به ﷺ فى كمالاته الروحية والخلقية والأدبية:

– وصف على – رضى الله عنه – له ﷺ فى قوله: كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، وهو كما قال – رضى الله عنه – والقصة التالية تؤكد ذلك وتقرره: مر النبى ﷺ على ابن أبى وهو جالس مع بعض المسلمين وغيرهم ، فقال ابن أبى لرسول الله ﷺ وهو راكب على دابته: لا تغبروا علينا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه فغضب المسلمون ، واستبوا مع المشركين حتى كادوا أن يقتتلوا ، فهداهم رسول الله ﷺ ومنعهم من التواثب على بعضهم البعض ، ومضى رسول الله ﷺ على دابته فنـــزل على سعد بن معاذ وذكر له ما جرى ، فقال له سعد يا رسول الله اعف عنه واصفح ، فقد اتفق أهل هذه البحيرة "المدينة" على ان يعصبوه أى يتوجوه ملكا عليهم ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى بعثت به شرق ذلك ، فعفا عنه ﷺ ، فلما أراد ﷺ الانصراف قرب إليه سعد حمارا ووطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ ، ثم قال سعد لابنه قيس: اصحب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لقيس: «اركب» فأبى قيس أن يركب ، فقال له رسول الله ﷺ : «إما أن تركب – أى معى على الحمار – وإما أن تنصرف» .قال: فانصرفت .

وفى رواية أخرى قال: «اركب أمامى فصاحب الدابة أولى بمقدمها» .

فى كمال أعظم من هذا الكمال المحمدى فى أدبه ومخالطته لأصحابه ؟ ولنستمع إلى ابن أبى هالة فى وصف له ﷺ إذ يقول: كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه ، وكان ﷺ يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية مما أهداه ، ولو كانت كراع شاة ويكافئ عليها .

– قال أنس بن مالك: " خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات فما قال لى: أف قط ، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته: لم تركته ؟ " .

– قالت عائشة – رضى الله عنها –: " ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا اهل بيته إلا قال: «لبيك» أى أجاب دعوته " .

– وصفه عارف به ﷺ فقال: كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر .

– قال أنس – رضى الله عنه –: ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما اخذ أحد بيده ﷺ فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، و لم ير مقدما ركبته بين يدى جليس له .

– ووصفه عليم به فقال: كان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، و لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد ، يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ، ويكنى أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز – أى يكثر فيتجاوز الحد – فيقطعه بنهى أى له أو قيام ، وكان إذا جلس إليه أحد وهو يصلى خفف صلاته ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وحسبنا فى بيان أدبه ﷺ وحسن عشرته وجميل مخالطته قول ربه عز وجل فيه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران ١٥٩] وقد فعل ﷺ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء .

* * * * * * * * * * *

خشية الحبيب ﷺ وطول عبادته

إن خشية الله تعالى فى السر والعلن ثمرة العلم بالله تعالى ربا وإلها ذا جلال وكمال لا حد لهما تقصر الفهوم دون إدراكهما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] . وقال رسوله ﷺ : «**إنى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» ، فدل على أن الخشية يثمرها العلم الصحيح ، العلم بالله ذى الجلال والإكرام ، وبأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وبمحابه من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات ، وبمكارهه من ذلك كله .

ومن أعلم بالله من رسول الله ؟ اللهم لا أحد ، ولذا فلا أتقى لله من رسول الله فى سائر عباد الله ، ولا أكثر طاعة من رسول الله ، ولا أرغب فيما عند الله من رسول الله ، ولا أرهب مما لدى الله من رسول الله ، ولا أشد انقطاعا وتبتلا لله من رسول الله ، وهذه الأحاديث والآثار تقرر ذلك وتؤكده .

(أ) مظاهر خشيته ﷺ :

– وروى الترمذى عن أبى ذر الغفارى – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «إنى

أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ، لوددت أنى شجرة تعضد» فهذا الحديث شاهد حق على خشية رسول الله ﷺ وخوفه من ربه تعالى ، ويؤكد قوله: «إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» .

– ما حدث به عبد الله بن الشخير حيث قال: " أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز المرجل " .

– ما تقدم عن أبى هالة فى وصفه ﷺ إذ قال: " كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة " .

– ما صح عنه ﷺ من قوله: «إنى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة» .وفى رواية «سبعين مرة» فهو دائم الاستغفار ، يوما يستغفر سبعين ويوما يستغفر مائة ، وهذا من كمال خشيته وعظيم تقواه لربه عز وجل .

– ما حدث به عبد الله بن عمر رضى اله عنهما إذ قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد قوله: «رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة .

(ب) مظاهر طول عبادته ﷺ :

– حديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – إذا قال فيه قام ﷺ حتى انتفخت قدماه فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنب وما تأخر ؟ فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا» .

ما حدثت به عائشة – رضى الله عنها – فى قولها: كان عمل النبى ﷺ ديمة ، وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ كان يصوم حتى نقول: لا يفطر ، ويفطر حتى نقول: لا يصوم ، وكنت لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته مصليا ، ولا نائما إلا رأيته نائما .

– روى أبو داود فى سننه عن عوف بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلى فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: «سبحان ذى الجبروت

والملك والملكوت والعظمة» ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك .

- ما حدثت به أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - إذ قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة هي آخر سورة المائدة: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] .

- ما صح عنه ﷺ من قوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» .

فهذه مظاهر إطالة العبادة ، وطول التبتل ، وبه ائتسى الصالحون من هذه الأمة ففازوا بالقرب والرضا ، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زمرتهم ، وصلى الله وسلم وبارك على أسوة المؤمنين وقرة عين المحبين محمد الحبيب وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * * * * * * * * * *

التواضع المحمدي

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر عالي المقام ، شريف الأصل والمحتد وهو كذلك ، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسماها ، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شأواً لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين .

وباستعراضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة تتجلى هذه الحقيقة ويطمع كل مؤمن يستعرض ما نورده في هذا الباب في أن ينال قدرا من التواضع ائتساء بنبيه محمد ﷺ ، وهذا ما رجوناه من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين .

مظاهر التواضع المحمدي:

- أخبر ﷺ أنه قد خير بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا ، وأخبر أن الله تعالى كافأه على اختياره العبودية بأن يكون سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، فاختياره العبودية على الملوكية أكبر مظهر من مظاهر التواضع المحمدي .

- حدث أبو أمامة - رضي الله عنه - قال خرج علينا رسول الله متوكئا على عصا فقمنا له ، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا ، وقال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد» .

– ما عرف به ﷺ وشهد به غير واحد من أصحابه ، وأنه كان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ،ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب .

– قوله ﷺ : «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» .

– فى حجه الذى أهدى فيه مائة بدنة حج على بعير فوقه رحل عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم .

– ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة ودخلها ظافرا منتصرا والجيوش الإسلامية قد دخلتها من كل أبوابها دخل راكبا على ناقته ، وإن لحيته الشريفة تكاد تمس قائم رحلع تطامنا وتواضعا لله عز وجل ، وهو موقف لم يقفه غيره فى دنيا البشر قط .

– قوله ﷺ : «لا تفضلونى على يونس بن متى ، ولا تفضلونى بين الأنبياء ، ولا تخيرونى على موسى ، ونحن أحق بالشك من إبراهيم ، ولو لبثت ما لبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى» .

– وقوله ﷺ للذى قال له: يا خير البرية: «ذاك إبراهيم» .

– ما أخبر به بعض نسائه ، وتحدثن وهو أنه ﷺ يكون فى بيته فى مهنة أهله يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ن ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

– دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال لــه: «هون على نفسك فإنى لست ملكا وإنما انا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» .

– حدث أبو هريرة – رضى الله عنه – فقال: دخلت السوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل ، وقال للوازن:زن وارجح فوثب الوزان إلى يد النبى ﷺ يقبلها فجذب يده وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم» ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: «صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله» .

إن كل مظهر من هذه المظاهر التى بلغت أحد عشر مظهرا دال بمفرده على كماله ﷺ ثم

تواضعه ، وأنه مضرب المثل فى ذلك ، ولما كان كماله لا يدانى فيه تواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته ، وغير مانع محاولة الاقتساء به ، لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة ، وبقدر صدق النية والرغبة الصادقة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التى هى موضع الاقتساء به ﷺ.

* * * * * * * * * * *

المزاح المحمدي

إن المزاح كالمداعبة والملاعبة والهزل الذى هو خلاف الجد يقال: هزل فى قوله أو فعله ، أو مزح ، او داعب الكل بمعنى واحد ، والسؤال: هل كان رسول الله ﷺ على جلال قدره وسمو مكانته ، وانشغال باله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح ؟ والجواب: نعم ، نعم كان يمزح ويداعب ويهزل بقلة لاستيعاب الجد وقته كله إلا أنه كان فى مزاحه ومداعبته وهزله لا يخرج أبدا عن دائرة الحق وبحال من الأحوال وهو فى مزاحه ومداعبته يقدم معروفا لأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور وعلى أطفالهم إذا داعبهم من الفرح والمرح والسرور والحبور .

وباستعراضنا لمواقف النبوية الآتية تتجلى لنا الحقيقة: وهى أن النبى ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقا: وفى الإمكان الاقتساء به فى ذلك ، لأنه من المقدور المستطاع وليس من خصائصه ﷺ بل هو أدب عام يأخذ به كل مؤمن قدر عليه .

- حدث أنس بن مالك - رضى الله عنه - فقال: إن رجلا أتى النبى ﷺ فاستحمله أى طلب منه أن يحمله على بعير ونحوه ، فقال له ﷺ : «**إنا حاملوك على ولد الناقة**» فقال الرجل: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله ﷺ : «**هل تلد الإبل إلا النوق ؟**» ، فكان قوله هذا مداعبة للرجل ومزحا معه وهو حق لا باطل فيه .

- وحدث النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال: استأذن أبو بكر على النبى ﷺ فسمع صوت عائشة عاليا على رسول الله ﷺ فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: ألا أراك ترفعين صوتم على رسول الله ؟ فجعل النبى ﷺ يحجزه ، وخرج أبو بكر مغضبا ، فقال رسول الله ﷺ حين خرج أبو بكر: «**كيف رأيتنى أنقذتك من الرجل ؟**» .

فمكث أبو بكر أياما ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما:

أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما ، فقال رسول الله ﷺ : «قد فعلنا ، قد فعلنا» .

ففي هذا الحديث من حسن العشرة وطيب المداعبة ما لا يخفى على متأمل .

– وحدث أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال له: «يا ذا الأذنين» وهي مداعبة ظاهرة وهي حق واضح ، إذ كل إنسان ذو أذنين اثنتين .

– وحدث أنس بن مالك فقال: كان رجل من أهل البادية يقال له: زاهر ، وكان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج . فقال رسول الله ﷺ فيه يوما: «إن زاهرا باديتنا ونحن حاضره» ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وكان هو رجلا دميما فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل ، فقال: أرسلني من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ ، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبد» فقال لرسول الله ﷺ : إذن والله تجدني كاسدا ، فقال رسول الله ﷺ : «لكن عند الله لست بكاسد أنت عند الله غال» فالمزاح في هذا الحديث ظاهر بصورة واضحة ، ومعه من كمال الخلق وحسن الصحبة ، وطيب المخالطة ما لا مزيد عليه .

– وروى البخاري – رحمه الله – أن رجلا كان يقال له عبد الله ويلقب بحمارة وكان مضحك النبي ﷺ ، وكان يؤتى به في الشراب أي السكر ليقام عليه الحد ، فجيء به يوما فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به !! فقال رسول الله ﷺ : «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» ، فقوله وكان يضحك النبي ﷺ دليل على أنه كان يمازحه حتى يضحك ، والمزاح يكون بين اثنين فكل واحد يمازح الثاني .

– وحدث أنس بن مالك – رضي الله عنه – فقال: كان للنبي ﷺ حاد يحدو وبنسائه يقال له: أنجشة فحدا فأعنقت الإبل فقال رسول الله ﷺ : «ويحك يا أنجشة أرفق بالقوارير» أي بالنساء فإطلاق القوارير على النساء مداعبة ظاهرة ووصفهن بالقوارير لضعفهن ، فلو سقطت إحداهن من هودجها لتكسرت ، ولو كن غير أمهات المؤمنين لصح أن يقال: إن الحداء وهو صوت الحادي الرقيق قد يوجد في نفس المرأة أثرا غير صالح .

– وحدث مسروق عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثا فقالت امرأة منهن: يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة ، فقال لها رسول

الله ﷺ : «أتدرين ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلا من بنى غذرة أسرته الجن فى الجاهلية فمكث فيهم دهرا طويلا ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب . فقال الناس حديث خرافة»[1] ، والمداعبة فى هذا الحديث ظاهرة فى الرد على القائلة حديث خرافة ، فبدل أن يؤنبها لاطفها وداعبها ، وقص عليها قصة خرافة العذرى .

– حدث الحسن البصرى – رحمه الله تعالى – فقال أتت امرأة النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الله الجنة قال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز» فولت العجوز تبكى ، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥ ، ٣٧] .

– وحدث أن امرأة جاءت تسأل عن زوجها فقال لها النبى ﷺ : «زوجك الذى فى عينيه بياض» فبكت وظنت أن زوجها عمى ، فأعلمت أن العين لا تخلو من بياض ، فكانت مداعبة كمداعبته ﷺ للعجوز ، ومصداقا لما قدمناه من أنه ﷺ لا يقول فى مزاحه إلا حقا ، فقد قال أبو هريرة – رضى الله عنه – قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا ، قال: «إنى لا أقول إلا حقا» .

* * * * * * * * * * *

الفصاحة المحمدية

نترك صاحب الشفا يصف لنا فصاحة الحبيب ﷺ فيقول: تحت "فصل" وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهد سلامة طبع ، وبراعة منـــزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منـــزع بلاغتها ، حتى كان من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

ومما اختص به وتفوق فيه فلا يدانيه فيه غيره ، ولا يساميه فيه سواه أنه ﷺ يتكلم مع كل قوم بلهجتهم وفصاحة لسانهم ،وبلاغة كلامهم ، فكلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ليس هو ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى ، وطفهة النهدى ، وقطن بن حارثة العليمى

(١) رواه الترمذى ، وضعفه ابن كثير وأعله .

والأشعث بن قيس ، ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن .

وهذه نماذج من كلامه ﷺ مع الأقوام المتباينين اللهجات ، وإن شملتهم الجزيرة العربية دارا ، واللسان العربى منطقا ، فنراه يخاطب كل قوم بلهجتهم ، وفصاحتهم فى كلامهم ويتفوق عليهم .

– لما وفد عليه ﷺ ذو المشعار الهمدانى كتب إلى همدان وبعثه مع ذى المشعار:

وهذه جمل منه :

«إن لكم فراعها ووهاظها ، وعزازها تأكلون بملافها ، وترعون عفاءها ، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثلب ، والناب والفصيل ، والفارض والداجن والكبش الحورى ، وعليهم فيها الصالع والقارح» .

فهذا الكلام بلهجة همدان إذا سمعه الحجازى أو النجدى وحتى القرشى يحتاج فى أكثره إلى شرح وتفسير .

– وفد عليه طهفة النهدى وشكا إليه ما أصاب قومه من القحط ، وطلب منه أن يدعو لنهد القبيلة فقال: «**اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها فى الدسر ، وافجر لها الثمد وبارك له فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ومن أدى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا ، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ، لا تلطط فى الزكاة ، ولا تلحد فى الحياة ، ولا تثاقل فى الصلاة**» .

– وكتب لبنى نهد فى الوظيفة والفريضة فقال: «**ولكم الفارض والفريش وذو العنان والركوب والفالق الضبين ، لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الرماق وتأكلوا الرباق من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة**» .

– وكتب إلى وائل بن حجر فقال: «**إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب**» .

وجاء فيه: «**فى التبعة شاة لا مقودة الألياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة وفى**

السيوب الخمس ، ومن زنى مم بكر ، فاصعقوه مائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم ، ولاتوصيم فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله ، وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقيال» .

– وقوله ﷺ : «فإن اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة» ، فى حديثه مع عطية السعدى ، فقال: كلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا .

– وقوله فى حديث العامرى حين سأله فقاله له ﷺ : «سل عنك» أى سل عما شئت وهى لغة بنى عامر .

من كل ما تقدم من نماذج كلامه ﷺ يتبين أنه كان يخاطب كل قوم بلهجتهم ويتفوق إليهم فى الفصاحة والبيان ، وهو ﷺ مأمور بذلك ، ليبين للناس ما نزل إليهم وإذا خاطب الأنصار والمهاجرين من قريش وأهل نجد والحجاز بكلامه المعتاد حلق فى سماء البلاغة والبيان ، ونثر الدر من كلامه الجامع للحكم المشتمل على فنون الهداية وضروب البيان ، وهذه نماذج منه:

– قوله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم» .

– أقواله ﷺ : «الناس كأسنان المشط والمرؤ مع من أحب ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له ، الناس معادن ، وما هلك امرؤ عرف قدره ، المستشار مؤتمن ، ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم» ، «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين» ، «إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» ، «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها» ، «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» ، ونهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

– ما قاله من الكلم الذى لم يسبق إليه ، ولا قاله أحد قبله كقوله: «حمى الوطيس» ، «ومات حتف أنفه» ، «ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ، «السعيد من وعظ بغيره» .

– وقيل له ﷺ يوما: ما رأينا الذى هو أفصح منك ، فقال: «وما يمنعنى ؟ وإنما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربى مبين» ، وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو من قريش ونشأ فى بادية بنى سعد وأنزل عليه القرآن وأوتى جوامع الكلم فـ ﷺ .

وخلاصة القول: أن فصاحة الرسول ﷺ لا عجب فيها ولا غرابة ما دام مضريا قرشيا هاشميا ، خصه ربه بالعناية فى التأديب والتربية ، وهيأه للوحى ، وحمله البلاغ والبيان فـﷺ ما نطق ناطق وابان من كل مخلوق من إنس وجان .

* * * * * * * * * * *

الرحمة المحمدية

إن الرحمة التى أودعها الله تعالى قلب نبيه وصفيه وخليله من عباده محمد ﷺ رحمة عامة لسائر الخلق قال تعالى فيها: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ورحمة خاصة قال تعالى فيها: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] وللرحمة فى القلب مظاهر فى الحياة تتحلى فيها وهذه بعض مظاهر تلك الرحمة المحمدية .

(أ) الرحمة العامة :

– لما كذبه قومه أتاه جبريل وقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك إليك وما ردوا عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم» فناداه ملك الجبال وسلم عليه ،وقال: «مرنى بما شئت ، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» فقال ﷺ : «لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» ، فكان هذا مظهرا من مظاهر الرحمة المحمدية العامة .

– ركبت عائشة – رضى الله عنها – جملا ، وكان فيه صعوبة فجعلت ترده أى تذهب به وتجىء تروضه فأتعبته فقال لها رسول الله ﷺ : «عليك بالرفق يا عائشة» ، فهذا مظهر من مظاهر الرحمة العامة إذ شملت الحيوان .

– وقوله ﷺ : «فى كل ذات كبد رطبة أجر» ، مظهر من مظاهر الرحمة العامة أيضا .

– وقوله ﷺ : «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت فلا هى أطعمتها حين حبستها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض» .

(ب) مظاهر الرحمة الخاصة :

– قوله ﷺ : «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» ، فهذا مظهر من مظاهر الرحمة والشفقة المحمدية على أمته ﷺ وهو من مظاهر الرحمة الخاصة .

- قوله ﷺ : «**لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**» .

فهذه من رحمته وشفقته على أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - وهى من مظاهر الرحمة الخاصة .

- جاءه ﷺ أعرابى يطلبه شيئا فأعطاه ، ثم قال له: «**هل أحسنت إليك ؟**» قال الأعرابى: لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون لمقالته ، وقاموا إليه ليضربوه على سوء أدبه مع رسول الله ﷺ ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام فدخل منـــزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ، ثم قال له: «أحسنت إليك ؟» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال له الرسول ﷺ «**إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك**» قال: نعم فلما كان الغد أو العشى جاء فقال النبى ﷺ : «**عن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك؟**» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال رسول الله ﷺ : «**مثلى ومثل هذا رجل له ناقة شردت عليها فاتبعها فلم يزدها إلا نفورا فناداهم صاحبها ، خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحله واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**» .

فهذا أكبر مظهر من مظاهر الرحمة المحمدية الخاصة والعامة ، فصلى الله عليه من نبى رءوف رحيم ، وحقا إنه الرحمة المهداة والنعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة والرحمة المرساة ، فويل لمن عاداه وما والاه ، وويل لمن عصاه وآذاه وويل لمن كفر به أو كذبه فى الممات والحياة .

* * * * * * * * * * *

الوفاء المحمدي

إن الوفاء بالعهد ن وعدم نسيانه أو الإغضاء عن واجبه خلق كريم ،ولذا كان رسول الله ﷺ فيه بالمحل الأفضل والمقام الأسمى ، والمكان الأشرف فوفاؤه وصلته لأرحامه كان مضرب المثل ، وحق لـــه ذلك وهو سيد الأوفياء والأولياء والأوصياء والأنبياء من بنى آدم .

والمظاهر التالية تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها :

(أ) وفاؤه :

– حديث عبد الله بن أبي الحمساء إذ قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم تذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال: «**يا فتى لقد شققت على أنا ها هنا منذ ثلاث انتظرك**» .

ومثل هذا كان لجده – عليه السلام – فأثنى الله تعالى به عليه في قوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤ ، ٥٥] .

– روى البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك: قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة**» أي وفاء هذا يا عباد الله ؟ إنه يكرم أحباء خديجة وصديقاتها بعد موتها – رضي الله عنها – .

– وحدثت عائشة – رضي الله عنها – فقالت: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها . ودخلت عليه امرأة ، فهش لها ، وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة**» .

وإن حسن العهد من الإيمان ! :

وهكذا يتجلى خلق الوفاء في الحبيب ﷺ ، فلم ينس بوفائه من مات فضلا عمن هو حي ويهاب لومه او عتابه .

(ب) صلته لرحمه :

صلة الرحم واجبة ، ومن أقدر الناس على القيام بالواجب من رسول الله ؟ اللهم إنه لا أحد ومع هذا نذكر نموذجين أو ثلاثة لما كان عليه ﷺ من صلة أرحامه ليقتدى به في ذلك .

– قوله ﷺ في أبي العاص بن أميه وكان مشركا ظالما في أول أمره ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، قال فيه وهو مشرك: «**إن آل أبى فلان ليسوا بأوليائى غير أن لهم رحما سأبلها ببلاها**» .

– حدث أبو الطفيل قال: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت: من هذه ؟ . قالوا: أمه التي أرضعته .

– صلاته ﷺ بأمامة بنت زينب ابنته – رضى الله عنها – إذ كان يحملها على عاتقه وهو يصلى فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها على عاتقه ، فهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم ، كالذى قبله فى بسطه رداءه لمن أرضعته .

– كان ﷺ يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب مرضعته بصلة وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقى من قرابتها ؟ فقيل: لا أحد ، ولو قيل: بقى فلان أو فلانة لوصلهما قياما بواجب صلة الأرحام – ولو بعدوا – ولو كانوا لمجرد رضاع بلا أرحام فصل الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

* * * * * * * * * * *

خاتمة فى بيان حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم ومسلمة

إن الحقوق الواجبة للنبى ﷺ على كل فر من أفراد هذه الأمة المسلمة عشرة وهى كالآتى:

" الإيمان به ، محبته ، طاعته ، متابعته ، الاقتداء به ، توقيره ، تعظيم شأنه ، وجوب النصح له ، محبة آل بيته ، محبة أصحابه ، الصلاة عليه ﷺ " .

وهذا بيان أدلة وجوبها ، وشرح معانيها ، وعرض مظاهرها فى الحياة .

(أ) الإيمان به ﷺ :

إن الإيمان به ﷺ مستلزم للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ؛ قال تعالى فى الأمر به الواجب القيام به: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨] وقال عز من قائل: ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وقال هو ﷺ فى الإخبار بوجوب الإيمان به ، **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»** وقال فى حديث آخر له فى موقف آخر: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»** .

ومعنى الإيمان به ﷺ : التصديق بنبوته ورسالته التي جاء بها من عند الله تعالى ، وأن كل ما جاء به من الدين ، وما أخبر به عن الله تعالى هو حق وصدق ، ولا يكتفى بالنطق باللسان ، والقلب المنكر لذلك غير مصدق به بلا لابد من مطابقة القلب للسان .

ومن مظاهر الإيمان به ﷺ : طاعته ومحبته وموالاته وباقي الحقوق العشرة .

(ب) محبته ﷺ :

إن محبته ﷺ واجبة بالكتاب والسنة ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] .

فهذه الآية دليل واضح على وجوب محبته ﷺ لما فيها من التهديد الشديد على من آثر على حب الله ورسوله حب غيرهما من الأهل والمال والولد .

وقال ﷺ في حديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» .

ولما سمع عمر – رضي الله عنه – هذا الحديث قال للرسول ﷺ : لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي ، فقال له النبي ﷺ : «**لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه**» فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلى من نفسي التي بين جنبي فأجابه الرسول قائل: «**الآن يا عمر**» أي بلغت حقيقة الإيمان .

وقال ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء ما لا يحبه إلا لله ، وان يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**» .

ومعنى محبته ﷺ : إيثار ما يحب ﷺ على ما يحب العبد .

مظاهر محبته ﷺ :

ومن مظاهر محبته ﷺ ما يلي:

١- طاعته ، والاقتداء به ، ومحبة ما جاء به ودعا إليه ، ونصرته في دينه ونصرة المؤمنين به من آل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

٢- توقيره وتعظيمه عند ذكره وذكر شمائله ، وعند الوقوف على قبره للسلام عليه وعلى صاحبيه ، وعند الجلوس فى مسجده والصلاة فيه ، وذلك بخفض الصوت ، وغض البصر ، وعدم ارتكاب أى حدث فيه من قول أو عمل ، وعدم إقراره أو الرضا به .

علامات حبه ﷺ :

من علامات حبه ﷺ :

١- كثرة ذكره فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره .

٢- كثرة الشوق إليه إذ كل محب يحب لقاء حبيبه ويتشوق إلى لقائه .

٣- البكاء عند ذكره شوقا وحنينا إليه ﷺ .

(ج) طاعته ﷺ :

إن طاعته ﷺ واجبة بأمر الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] وبقوله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤] ويدل على عظم شأن طاعته ﷺ قوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء ٨٠] وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور ٥٤] .

ومعنى طاعته ﷺ : فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل ، إذا كان الأمر للوجوب والنهى للتحريم ، فإن كان الأمر للندب ، والاستحباب والنهى للتنـــزيه فلا معصية فى الفعل ولا فى الترك .

مظاهر طاعته ﷺ :

من مظاهر طاعته ﷺ :

١- التمسك بسنته ، والاهتداء بهديه ، وذلك كالمحافظة على رغيبة الفجر ، وسنة الوتر ، والرواتب مع الفرائض ، والمحافظة على صلاة الجماعة ، والرغبة فى الصف الأول والذى يليه ، ونافلة الضحى ، والصلاة بعد الوضوء ، وترك الصلاة فى الأوقات المنهى عن الصلاة فيها .

٢- الالتزام بحسن السمت ، وخفض الصوت ، ونظافة الثوب والجسم ، وتحرى الصدق فى القول والعمل .

٣- طلب الحلال فى الطعام والشراب واللباس والنكاح .

٤- حب المساكين والإحسان إليهم ، وزيارة القبور للترحم عليهم والاستغفار لهم والتذكر بحالهم .

٥- الالتزام بمبدأ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] .

وبمبدأ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» .

(د) متابعته ﷺ :

إن متابعته ﷺ فى المعتقد والقول والعمل واجبة وهى الدين كله ، ومخالفته فى ذلك هى الخروج من الدين كله إذ قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فمتابعته ﷺ فى سبيل الهداية ، وتركها سبيل الغواية ، وقد اشترط تعالى لحبه العبد أن يتابع العبد رسوله فى كلما جاء به قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] .

ومعنى المتابعة للرسول ﷺ أن يكون اعتقاد العبد وقوله وعمله تابعا لاعتقاد رسول الله ﷺ وعمله ، فلا يخالفه فى شىء من ذلك ، بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان .

ومن مظاهر المتابعة له ﷺ ما يلى:

(١) أن لا يبدع المسلم بدعة ، وأن لا يعمل ببدعة ابتدعها غيره مهما كان هذا المبتدع إلا أن يكون أحد الخلفاء الراشدين الأربعة: أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليا - رضى الله عنهم أجمعين - وذلك لقوله ﷺ : «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**» .

(٢) رد كل قول لقوله ، وترك كل تشريع لشرعه ، والإعراض عن كل ما خالف هديه فى الاعتقاد والقول والعمل ، والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه ﷺ وقد قالت عائشة - رضى الله عنها -: صنع رسول الله ﷺ شيئا ترخص فيه فتنــزه عنه قوم فبلغ رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال: «**فما بال أقوام يتنزهون عن شىء أصنعه ؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**» .

(٣) التمسك بالسنة الواجبة والمستحبة على حد سواء .

فضل المتابعة:

وفى بيان فضل المتابعة نورد الحديث الآتى:

روى الترمذى، وابن ماجه عنه ﷺ: «**المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد**» وقوله ﷺ: «**إن بنى إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين كلها فى النار إلا واحدة**» قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: «**الذى أنا عليه اليوم وأصحابى**» رواه الترمذى، وابن ماجه بألفاظ مختلفة، والحديث دليل على فضل المتابعة للرسول ﷺ وأصحابه فى العقيدة والعبادة والسلوك، إذ خلاف ذلك يفضى بالعبد إلى النار.

(هـ) الاقتداء به ﷺ:

لقد أمر الله تعالى رسوله بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل فقال عز وجل: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وأمرنا الله تعالى نحن أيها المسلمون بالاقتداء به ﷺ فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] أى قدوة صالحة فاقتدوا به، ورتب تعالى هدايتنا على طاعته والاقتداء به فقال عز وجل: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤] ولازم هذا أن ترك الاقتداء به ﷺ مفض بصاحبه إلى الضلال الموجب للهلاك فى الحياتين، وهو كذلك، فهم هذا سلف الأمة فالتزموا بطاعته ﷺ ومتابعته والاقتداء به.

وهذه مظاهر تلك المتابعة وذلك الاقتداء:

- صلى عمر بن الخطاب فكأنما قيل له ذلك فقال: أنا أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

- قرن على بين الحج والعمرة على عهد عثمان - رضى الله عنهما - فقال له عثمان: ترى أنى أنهى الناس عنه وتفعله!! فقال على: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس.

وقال مرة: ألا أنى لست بنبى، ولا يوحى إلى ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

- وكان ابن مسعود - رضى الله عنه - يقول: القصد فى السنة خير من الاجتهاد فى البدعة، يريد أن المتابعة للنبى ﷺ، وإن اقتصد العبد فى العمل الصالح ولم يكثر منه خير من عمل كثير فى غير متابعة للرسول ﷺ.

وكان أبي كعب – رضي الله عنه – يقول: إن اقتصادا في سبيل الله وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل الله وسنة ، وموافقة بدعة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا واقتصادا أن يكون على منهج الأنبياء وسنتهم .

– روى أحمد أن ابن عمر – رضي الله عنهما – رؤى يدير ناقته في مكان فسئل عنه فقال: " لا أدري إلا أني رأيت رسول الله فعله ففعلته " .

– وقال أبو عثمان الحيرى: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

والمقصود من هذا كله أن الاقتداء بالرسول ﷺ واجب فعله محقق للنجاة من الهلاك ، وتركه مقتض له والعياذ بالله تعالى ، فالخير كل الخير في اتباعه ﷺ والاقتداء به في الصغير والكبير ، والقليل والكثير ، وفي كل الأحوال وسائر الظروف .

(و) توقيره ﷺ :

إن توقير النبي ﷺ واجب أكيد ، إذ خلافه – وهو الاستخفاف به ﷺ – ما هو من الكفر ببعيد ، بل هو كفر عتيد ، أمر تعالى بتوقير نبيه ﷺ في قوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح: ٩] .

فالتعزير النصرة والتوقير للتعظيم والإجلال وهذه له ﷺ ، والتسبيح لله عز وجل وهو تنـــزيهه تعالى عن النقائص والشريك والشبيه والنظير والصاحبة والولد .

فما أرسل الله تعالى رسوله مبشرا ونذيرا إلا ليؤمن الناس به تعالى وبرسوله ويعزروا الرسول أي ينصروه ، ويوقروه أي يجلوه ويعظموه بما يليق بمنصبه الرفيع ومقامه السامي الشريف .

ومعنى توقيره ﷺ تعظيمه وإجلاله والإكبار من شأنه والرفع من قدره حتى لا يدانيه أحد من الناس ، وكون أصحابه قد عرفوا قدره فأجلوه وعزروه ووقروه فليس ذلك عائدا لكمونه فيهم وبينهم فحسب بل هو لما أوجبه الله تعالى عليهم ، وأفاضه في نفوسهم وأجراه على ألسنتهم من حبه وتقديره وإجلاله وتعظيمه .

ومن مظاهر توقيره ﷺ ما أمر الله تعالى به وأرشد إليه في كتابه العزيز كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١] أي لا تقولوا قبل أن يقول ، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، فلا يحل لأحدهم أن يسبق بقوله قوله ، ولا برأيه رأيه ،

ولا بقضائه قضاءه بل عليهم أن يكونوا تابعين له في كل ذلك ، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] فقد منعهم في هذا الخطاب من رفع أصواتهم فوق صوته لمنافاة ذلك للأدب معه والوقار له ، كما منعهم من الجهر بالقول له إذا خاطبوه وكلموه لما في ذلك منت سوء الأدب والجفاء والغلظة المنافية للإجلال والتوقير والتعظيم وقوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٣] فقد نهاهم عن ندائه باسمه العلم: يا محمد وأرشدهم أن يدعوه بلقب النبوة والرسالة نحو: يا نبي الله ، ويا رسول الله ، وبأحب كناه إليه نحو: يا أبا القاسم ، واستجاب أصحابه البررة لأمر الله تعالى فقال أبو بكر الصديق: والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار[1] ، وفعلا لما نزلت هذه الآية كان عمر إذا حدثه حدثه كأخي السرار فما كان يسمع الرسول حتى يستفهمه ، ليبين مراده من كلامه ، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣] .

مظاهر توقيره:

ومن مظاهر توقير الأصحاب – رضوان الله عليهم – لنبيهم ﷺ ما يلي:

حدث عمرو بن العاص يوما فقال: ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن املأ عيني منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأني لم أكن أملأ عيني منه .

– روى الترمذي عن أنس قوله: ما كان رسول الله ﷺ يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر ، وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ، ويبتسم إليهما .

– وروى عن أسامة بن شريك قال: أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه حوله كأن على رءوسهم الطير .

– قال عروة بن مسعود حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية ، ورأى من تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، وكادوا يقتتلون

---

(١) السرار من المسرة – السر .

عليه ، ولا يبصق بصاقا ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم لدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا من قوم قط مثل محمد في أصحابه ، فهذا الذى حكاه عروة بن مسعود – رضى الله عنه – وهو حق ثابت أكبر مظهر من مظاهر توقير أصحاب رسول الله ﷺ لنبيهم ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليما .

(ز) تعظيم شأنه ﷺ :

إن المراد من تعظيم شأن النبى ﷺ : احترام وإكبار كل ماله تعلق به ﷺ كاسمه وحديثه ، وسنته ، وشريعته وآل بيته ، وصحابته وأفراد أمته ، ومسجده وقبره ، وكل ما له اتصال به من قريب أو بعيد ، إذ كل هذا داخل تحت وجوب توقيره وحبه وتعظيمه كما هو مندرج تحت حرمات الله ، والله يقول: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠] ويدل لذلك ويشهد له أن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته ، وأمر بغضه بين يديه ولم يأذن بأن يدعى كما يدعى غيره ، وذلك لما له من الفضل والتفوق عن سائر الناس .

ولنستعرض الآن مواقف الصحابة والتابعين له في هذا الشأن لنـــزداد يقينا بوجوب تعظيم شأنه ﷺ كله ، وهذه مظاهر ذلك:

مظاهر تعظيم حديثه :

– روى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت ، وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﷺ ، يرى أنه يجب الإنصات عند قراءة حديثه كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ .

– ما روى عن جعفر بن محمد الصادق ، وكان كثير الدعابة والتبسم: أنه إذا ذكر عنده النبى ﷺ اصفر وجهه ، وما رئى يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة .

– ما روى عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – إذا حدث فقال: قال رسول الله ﷺ : علاه كرب ، وتحدر العرق من جبينه – رضى الله عنه وأرضاه – .

– مر مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله مر على أبى حازم وهو يحدث فجازه ولم يقف عنده وعلل لذلك بقوله: إنى لم أر موضعا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله

ﷺ وأنا قائم ، وكان – رحمه الله تعالى – إذا أراد أن يحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه ثم خرج فحدث .

مظاهر تعظيم آل بيته ﷺ :

عن من مظاهر تعظيم آل بيت الحبيب ﷺ – الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .[الأحزاب: ٣٣] وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا – ما يلى:

– قول أبي بكر الصديق – رضى الله عنه –: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته ، وقوله: والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتى .

– ما روى أن زيد بن ثابت الأنصارى ، – رضى الله عنه – قد قبل يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ :

إن تعظيم أصحابه ﷺ من تعظيمه فداه أبي وامى إذ لولا صحبتهم له ما عظموا هذا التعظيم الخاص دون غيرهم من سائر الناس .

ومن مظاهر تعظيمهم ما يلى:

– قول مالك بن أنس رحمه الله تعالى من غاظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر لقول الله تعالى فيهم: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

– قول عبد الله بن المبارك خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق ، وحب أصحاب محمد ﷺ .

– قول أبي أيوب السختيانى : من أحب أبا بكر فقد أقام الدين ، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله ، ومن أحب عليا فقد أخذ بالعروة الوثقى ، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ برئ من النفاق ، ومن انتقص أحدا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح ، وأخاف ألا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه سليما .

مظاهر تعظيم آثاره ﷺ :

ومن مظاهر تعظيم آثار الحبيب ﷺ ما يلى:

– من أنه كانت لأبي محذورة قصة فى مقدم رأسه إذا قعد وأرسلها وصلت إلى الأرض

فقيل له: ألا تحلقها ؟ قال: لم أكن بالذى يحلقها وقد مسها رسول الله ﷺ بيده .

– ما روى أن خالد بن الوليد – رضى الله عنه – كانت له قلنسوة فيها شعرات من شعر رسول الله ﷺ فسقطت منه فى بعض حروبه فشد عليها شدة أنكرها عليه أصحابه لكثرة من قتل فيها فقال: لم أفعلها من أجل القلنسوة بل لما فيها من شعر رسول الله ﷺ ، لئلا أسلب بركتها ، وتقع فى أيدى المشركين .

– قول مالك: من قال: تربة المدينة رديئة يضرب ثلاثين درة ، ويحبس ، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه تربة دفن فيها رسول الله ﷺ يزعم أنها رديئة !! .

– قول الرسول ﷺ : «من حلف على منبرى كاذبا فليتبوأ مقعده من النار» .

ففى هذا شاهد قوى على وجوب تعظيم منبر رسول الله ﷺ ، إذ هو أثر من آثاره ﷺ .

– قوله ﷺ : «فى المدينة كل المدينة من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» وقوله: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» .

(ج) وجوب النصح له ﷺ :

إن لوجوب النصح له ﷺ أدلة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١] فذكر النصح لرسوله وانه نافع لصاحبه رافع عنه الحرج ما دام ناصحا لله ولرسوله غير غاش ولا خادع لهما .

ومثل قول الرسول ﷺ : «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله» فجعل النصح له دينا .

معنى النصح: أنه إرادة الخير للمنصوح له ، ولا يتم هذا إلا بعد تخليص النفس من كل الشوائب حتى تصل إلى درجة تريد فيها الخير كاملا لمن تريده له .

والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بأمور هى مظاهر لها وهى:

(١) التصديق بنبوته المثمر لطاعته فى أمره ونهيه ، ومؤازرته ونصرته ، وحمايته حيا وميتا ، وإحياء سنته بتعليمها بعد العمل بها ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ﷺ .

(٢) شدة المحبة له ولأهل بيته ، وكافة أصحابه ، وموالاة من يواليه ويوالى أهل بيته وأصحابه فى صدق ، ومعاداة من يعاديه ويعادى أهل بيته وأصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – .

(٣) إبلاغ رسالته بعده ونشر دعوته وإقامة شريعته ، وإعزاز أهل ملته ، وإذلال أهل بغضته ، وعداوته من الكافرين بدينه والكائدين لأمته وملته .

(ط) محبة أهل بيته وصحابته :

إن محبة بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه من محبته ﷺ ، وما دامت محبته واجبة فمحبة ما يحب واجب أكيد أيضا ، وعليه فماأحب رسول الله من لم يحب أهل بيته وأصحابه ، إذ كان ﷺ يحبهم ، وحسبنا فى الدليل على وجوب محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه إيراد الأحاديث والآثار الآتية:

– ما حدث به زيد بن أرقم – رضى الله عنه – إذ قال: قال رسول الله ﷺ : «**أنشدكم الله أهل بيتى**» أى أسألكم بالله وأقسم به عليكم قالها ثلاثا . وسئل زيد بن أرقم عن أهل بيته فقال: هم آل على وآل جعفر وآل عقيل ، وآل العباس .

– قوله ﷺ للعباس: «**والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله ومن آذى عمى فقد آذانى وإنما عم الرجل صنو أبيه**» .

– قوله ﷺ فى أسامة بن زيد والحسن بن على: «**اللهم إنى أحبهم فأحبهما**» .

– قول أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – ارقبوا محمدا فى أهل بيته .

– قوله ﷺ لأم سلمة: «**لا تؤذينى فى عائشة**» .

– قول عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحسن بن حسين: إذا كانت لك حاجة ، فأرسل إلى ، أو اكتب فإنى أستحى من الله أن يراك الله على بابى .

فهذا تعظيم وأى تعظيم من عمر لأهل بيت رسول الله ﷺ .

– قول عمر لابنه عبد الله لما أعطى أسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة وأعطى ولده عبد الله ثلاث آلاف فقال: لما فضلته على ؟ فوالله ما سبقنى إلى مشهد ، قال: لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك ، وأسامة أحب إليه منك فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبى !! .

كانت تلك الأخبار الموجبة لحب أهل بيت رسول الله ﷺ ، وأما أصحابه – رضوان الله عليهم – ففى كتاب الله ما يوجب حبهم وتقديرهم والترضى عنهم ، وما يحرم انتقاصهم ، والطعن فيهم ، والنيل من كرامتهم ، فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] فهل يرضى الله عن عبده ، ويجوز السخط عليه من قبل عباده ؟ اللهم لا ، لا ، وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، فهل يمدح الله تعالى أقواما ويثنى عليهم فى كتابه ويجوز ذمهم وعدم إجلالهم وتقديرهم ؟ اللهم لا ، لا .

– قوله ﷺ فى أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما –: «**اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر**» .

– قوله ﷺ : «**لا تسبوا أصحابى فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» .

– قوله ﷺ فى الأنصار: «**اعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم**» .

– قول سهل بن عبد الله التسترى – رحمه الله تعالى – لم يؤمن بالرسول من لم يوقر أصحابه ، ولم يعز أوامره .

– قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر لقوله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الحشر: ٦] .

– قوله وقول غيره أيضا: من أبغض أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم لا حق له فى فىء المسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [الحشر: ١٠] إلى قوله: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالذين فى قلوبهم غل على أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم فى الفىء ، إذ يخرجون بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر ، وهذا فقه عظيم ، وفهم لكتاب الله كبير سديد .

(ى) الصلاة عليه ﷺ :

هذا آخر الحقوق العشرة الواجبة لرسول الله ﷺ صاحب هذه السيرة العطرة ، الواجبة له على كل مؤمن ومؤمنة ، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ إن هذا الحق الواجب الأكيد ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [من سورة الأحزاب: ٥٦] وقال رسول الله ﷺ : «**رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل على**» وقال: «**صلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى**» ، وقال له أصحابه – رضى الله عنهم – أما السلام عليك فقد عرفناه

فكيف نصلى عليك ؟ قال: قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» فالصلاة عليه ﷺ واجبة فى الجملة وتتأكد عنده ذكره ﷺ ، وفى التشهد الأخير من كل صلاة ، وجاء فى فضلها قوله ﷺ : **«من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرة» وقوله: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا على أى قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ثم سلوا لى الوسيلة والفضيلة أى قولوا: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقاما محمودا الذى وعدته ، فإن من فعل ذلك حلت له شفاعتى يوم القيامة»** .

المواطن التى تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ :

إن هناك مواطن كثيرة تستحب فيها الصلاة على النبى ﷺ نجملها إزاء النقاط الآتية:

قبل الدعاء وبعده ، فالداعى يبدأ دعاءه بحمد الله والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما شاء من الخير ثم يختم دعاءه بالصلاة على النبى ﷺ ، لما ورد: **«الدعاء بين الصلاتين على لا يرد»** ، ولقول عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئا فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم ليسأل فإنه أحدر أن ينجح . أى يفوز باستجابة دعائه .

– يوم الجمعة وليلتها ، إذ روى النسائى بسنده أن النبى ﷺ أمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة ، وورد ليلتها أيضا .

– عند سماع ذكره أو كتابته لحديث: **«رغم أنف امرئ ذكرت عنده ولم يصل علىّ»** .

– عند دخول المسجد بأن يقول بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنبى وافتح لى أبواب رحمتك ، وعند الخروج كذلك إلا أنه يقول: وافتح لى أبواب فضلك بدل رحمتك .

– وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائز ، إذ الأولى يقرأ بعد الفاتحة والثانية يصلى بعدها على

النبى ﷺ الصلاة الإبراهيمية وهى التى يصلى بها فى التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة .

صيغ الصلاة على النبى ﷺ :

لقد ورد فى الصلاة على النبى ﷺ صيغ كثيرة بعضها مرفوع إلى النبى ﷺ ، وبعضها مأثور عن السلف الصالح ، وبعضها محدث مبتدع .

ونظرا لذلك فإنا نكتفى بذكر أعلى الصلاة وذكر أدناها ، فأعلى الصلاة وأفضلها على الإطلاق الصلاة الإبراهيمية التى علمها رسول الله ﷺ أصحابه كما تقدم قريبا إذ قال لهم: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**» ، وأدنى الصلاة عليه ﷺ : اللهم صل على محمد وسلم تسليما لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

فاللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ، ١٨٢] .

المدينة المنورة فى ٢٠ / ١١ / ١٤٠٧ هـ

* * * * * * * * * * *

الفهـــــرس

****